المؤلفات شبه الكاملة

-3-

التحليل النفسي

للهستيريا ورهاب الأطفال وللعصاب الوسواسي والشيطاني

سيغموند فرويد

ترجمة:

جورج طرابيشي



التحليل النفسي للهستيريا

التحليل النفسي لرهاب الأطفال

التحليل النفسي للعصاب الوسواسي

التحليل النفسي لعصاب شيطاني

الكتاب: **التحليل النفسي**
للهستيريا ورهاب الأطفال وللعصاب الوسواسي والشيطاني

المؤلف: **سيغموند فرويد**

ترجمة: **جورج طرابيشي**

التصنيف: **علم نفس**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: أبريل (نيسان) 2015

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 614 - 429 - 988 - 3



الكتاب متوفر لدى معرض مدارك للنشــر والتــوزيع

الرياض، حي المحمدية، طريق الامام سعود بن عبدالعزيز

عنوان المعرض



www.mdrek.com - read@mdrek.com

مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226، دبي - الإمارات العربية المتحدة
Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai - United Arab Emirates
P.O.Box: 333577, Dubai - UAE. Tel: +971 4 380 4774 Fax: +971 4 380 5977

    
Madarekpublishing @mdrekpublishing www.mdrek.com Madarek PH madarekpublishing



سيغموند فرويد

المؤلفات شبه الكاملة

المجلد الثالث

التحليل النفسي للهستيريا
التحليل النفسي لرهاب الأطفال
التحليل النفسي للعصاب الوسواسي
التحليل النفسي لعصاب شيطاني

ترجمة جورج طرابيشي




مكتبة
الفكر الجديد

فهرس المجلد الثالث

التحليل النفسي للهستيريا

التحليل النفسي لرهاب الأطفال

التحليل النفسي للعصاب الوسواسي

(رجل الجرذان)




مكتبة
الفكر الجديد

التحليل النفسي للهستيريا




مكتبة
الفكر الجديد

تقديم

تميَّز عام ١٩٠٥ في تاريخ حركة التحليل النفسي بعاصفتين: الأولى أثارها نشر «**ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**»، والثانية هبَّت في أعقاب نشر «**نبذة من تحليل حالة هستيريا: دورا**».

والواقع أن فرويد كان توقع العاصفتين كلتيهما. و«**ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**»، وعلى الأخص المبحث الثاني عن «الجنسية الطفلية»، كان من المحتم أن يكون لها وقع الفضيحة. وهذه الفضيحة وجدت ما يغذيها ويؤجج جذوتها حين نشر فرويد تقريره عن حالة دورا. وكان من جملة المآخذ التي انهالت عليه أنه خان سرَّ المهنة ونشر على الملأ تفاصيل الحياة الخاصة والحميمة لمريضة كانت وضعت ثقتها فيه، ولا سيما أن هذه المريضة كانت صبية في الثامنة عشرة من العمر وأن الميول التي عزاها إليها فرويد في تحليله كانت ميولاً منحرفة: تعلق محرمي بالأب، ونزوع إلى علاقة جنسية مثلية مع امرأة متزوجة كانت في الوقت نفسه عشيقة للأب، وأخيراً علاقة ملتبسة مع زوج هذه المرأة بالذات.

والواقع أن فرويد تردد طويلاً ـ ست سنوات ـ قبل أن يحزم أمره على تقديم مصلحة العلم على مبادئ الأخلاق الطبية، وبالتالي على نشر تقريره عن حالة دورا بدون استئذانها أو استئذان أهلها. وعلى الرغم من أن فرويد عرض في تصدير تقريره الأسباب التي حملته على تجاوز اعتبارات الكتمان المهني، فقد ظل ضميره يخزه على ما فعل على مدى سنوات عديدة.

وبديهي أن فرويد كتم اسم الأسرة، كما أن الاسم الذي أطلقه على مريضته كان اسماً مستعاراً. ولا تشير حوليات التحليل النفسي إلى أن الاسم الحقيقي لدورا قد عرف قط. والشيء الوحيد المعروف أنها كانت ابنة لصناعي معروف، وأنها كانت تشكو من أعراض هستيرية صغرى: ضيق في التنفس وسعال عصبي وانحباس في



الصوت. وكان والدها نفسه قد عولج على يد فرويد من اضطراب عصابي ذي أصل زهري. وعلاوة على هذه الوراثة الأبوية، كان الموقف في الأسرة موقفاً أوديبياً نموذجياً. فالأم، التي كانت تشكو من «عصاب ربة البيت» المهجورة من قبل زوجها، كانت تصبّ كل محبتها المكبوحة على ابنها، على حين أن دورا كانت انحازت بكل عاطفتها إلى أبيها الذي كان بدوره عقد علاقة غير مشروعة مع زوجة صديق له؛ وهذا الصديق هو عينه الذي كان يغازل دورا ويعمل على إغوائها (قبَّلها لأول مرة على شفتيها وهي في الرابعة عشرة من العمر).

وعلاج دورا ـ الذي قُطع قبل أن يعطي ثماره ـ لم يستمر سوى أحد عشر أسبوعاً. وهو لم يكن عملاً تحليلياً بالمعنى المتداول اليوم، بقدر ما كان تحليلاً لحلمين حلمتهما دورا. ولهذا نوى فرويد في أول الأمر أن يصدر تقريره باسم «**الحلم والهستيريا**». وفي الواقع كان تحليل حالة دورا امتداداً مباشراً لأطروحات **تأويل الحلم** الذي أصدره فرويد عام ١٩٠٠. وبطبيعة الحال، قد طرأ منذئذٍ تطور كبير على تقنية التحليل النفسي.

تبقى ملاحظة أخيرة، وهي أن دورا نفسها لم تعلم بنشر التقرير عن حالتها إلا في عام ١٩٢٣. إذ كانت تعيش في مدينة صغيرة من مدن الأقاليم ولا تعلم شيئاً عما يجري في فيينا. وطبيبها الخاص هو الذي أطلعها بعد مرور ثمانية عشر عاماً على وجود التقرير. وهذا الطبيب هو نفسه الذي أكد أن دورا لم تعرف على مدى تلك السنوات المديدة تفتحاً حياتياً حقيقياً. وهذا ما ينقض النبرة المتفائلة التي كان فرويد أنهى بها تقريره حين أكد أن دورا التي اختارت في أول الأمر أن تهرب من الحياة إلى المرض عادت في نهاية المطاف وقررت أن تهرب من المرض إلى الحياة. وبحسب ما رواه ذلك الطبيب، ليست الحياة هي التي استردتها من جديد، وإنما المرض. وهذا بالضبط ما أباح لبعض نقاد فرويد أن يقولوا: تلك هي حدود العلاج التحليلي النفسي!

ومهما يكن من أمر فإن هذا الطبيب، المختص بالطب النفسي البدني، ويدعى فيليكس دويتش، هو الذي كشف عن الاسم الحقيقي لتلك التي اشتهرت في تاريخ التحليل النفسي باسم دورا.



فعلى إثر الانتكاسة المَرَضية التي عانت منها بعد اثنين وعشرين عاماً من «معالجة» فرويد لها توجهت بالاستشارة عام ١٩٢٣ إلى فيليكس دويتش الذي تعرَّف فيها، من خلال ما روته من تفاصيل مرضها، بطلة «حالة دورا». وقد توفيت بعد ذلك في نيويورك عام ١٩٤٥. وكان اسمها الحقيقي إيدا باور. وكان والدها، الصناعي الفييناوي فيليب باور، قد طلب هو نفسه قبل بضعة أعوام استشارة فرويد، الذي كان لا يزال آنئذ يمارس مهنته كمحض طبيب أعصاب، لمعالجته من إصابة زهرية. وكان هذا الأب قد ارتبط بعلاقة غرامية مع بيِّينا زيلانكا، زوجة صديقه هانز زيلانكا الذي كان يسعى بدوره إلى إغواء ابنة مزاحمه في الحب، إيدا باور.

أما لماذا دُعيت بطلة الحالة الهستيرية التي بين يدي القارئ باسم دورا التنكري بدلاً من إيدا فإن فرويد نفسه هو من كشف عن ذلك في كتابه **علم نفس الحياة اليومية**. فقد كانت له أخت تدعى روزا. وكانت وظّفت في خدمتها مدبِّرة منزل تدعى هي أيضاً روزا. وبما أن «أصول اللياقة» كانت تقضي بألا تحمل الخادمة نفس اسم ربة البيت فقد سُمِّيت روزا باسم دورا. وحين أراد فرويد بدوره أن يخترع اسماً تنكرياً لمريضته كتماً لهويتها وجد نفسه مدفوعاً إلى أن يختار لها اسم روزا أيضاً في بادرة تضامنية و«لاشعورية» من قبله مع «أولئك الناس المساكين (الخدم) الذين لا يحقّ لهم حتى الاحتفاظ باسمهم» كما كتب يقول في مطلع الفصل الأخير من **علم نفس الحياة اليومية**.

يبقى أن نقول أخيراً إننا كنا ترجمنا «حالة دورا» عن ترجمة ماري بونابرت ورودولف لوينشتاين الصادرة عن المنشورات الجامعية الفرنسية عام ١٩٥٤. وقد أخضعنا ترجمتنا لمراجعة شاملة على ضوء الطبعة الجديدة الصادرة عن الدار نفسها عام ٢٠٠٦، في الجزء السادس من أعمال فرويد الكاملة، بترجمة فرانسواز كاهن وفرانسوا روبير.

ج. ط




مكتبة
الفكر الجديد

تصدير

تأييداً لما تقدمت به من آراء في عام ١٨٩٥ و١٨٩٦ حول التولد المرضي للأعراض الهستيرية وللسيرورات النفسية في الهستيريا[١] أنشر هنا، وبعد طول انقطاع، تقريراً مفصلاً عن حالة مريضة وتاريخ علاجها. ومن ثم لا أجد مناصاً لي من أن أبدأ بالتمهيد التالي الذي يرمي إلى تبرير نهجي في العمل من نواحٍ عدة، وإلى الحدّ من الآمال التي يمكن أن تُعقد على بياني هذا بحيث لا تتخطى نسَباً معقولة.

لقد كان أمراً يدعو إلى الأسف بالنسبة إليّ أن أكون قد اضطررت إلى نشر ما توصلت إليه من نتائج في البحث، ولا سيما أنها نتائج تبعث على الدهشة ولا تحوز على الرضى، بدون أن تتاح لزملائي إمكانية للتحقق من صحتها. لكن لعلي لا أركب مجازفة أقل خطورة إذ أضع الآن في متناول نقد الجميع بعضاً من المادة التي منها استخلصت تلك النتائج. ومهما يكن من أمر، فإنه سيتعذّر عليّ تحاشي الاعتراضات: فلئن عيب عليّ في الماضي أني امتنعت عن ذكر أي شيء عن مرضاي، فسيؤخذ عليّ اليوم أني أسرف في الكلام عنهم وأتجاوز الحدّ. وما أرجوه هو أن يأتيني النقد من قبل الأشخاص أنفسهم الذين أنحوا عليّ باللائمة من قبل، وإن تغيَّرت هذه المرة الذرائع التي يحتجّون بها. فإن كان الأمر كذلك، فإني أعزف سلفاً عن أية

١ ـ يشير فرويد هنا إلى الدراسة المشتركة التي كان أصدرها مع جوزيف بروير تحت عنوان **دراسات في الهستيريا** (١٩٠٥) وإلى مقالة له بعنوان: **حول أسباب نشوء الهستيريا** (١٩٠٦). وجوزيف بروير: طبيب وعالم نفس نمساوي (١٨٤٢ ـ ١٩٢٥) عمل معه فرويد في بداية حياته العلمية في مختبر الدكتور بيركه. وكان بروير يكبره بأربعة عشر عاماً، وكان يستخدم التنويم المغناطيسي في علاج المرضى النفسانيين، ثم ما لبث أن استعاض عنه بمنهج التطهير (كاثارسيس) الذي يقوم على انتزاع الأسرار التي ترهق المريض من أفكار وعواطف مكبوتة. ولكن فرويد لم يقف عند الحدّ الذي كان وصل إليه بروير، فانفصمت عرى التعاون بين الاثنين، ومضى فرويد في طريق التحليل النفسي وحيداً. وقد كتب عن بروير في **حياتي والتحليل النفسي** يقول: «لقد كلّفني نمو التحليل النفسي صداقته. لم يكن من السهل عليّ دفع هذا الثمن، لكن لم يكن في مقدوري أن أتفادى ما كان». «م»



محاولة لحرمان أشباه هؤلاء النقاد من فرصهم في إغداق التقريع والتأنيب.

على أن نشر ملاحظاتي يبقى يمثّل بالنسبة إليّ معضلة يعسر حلّها حتى ولو ضربت صفحاً عن المغرضين من الناس والمستغلقي الأفهام منهم. وهذه الصعاب هي، من جهة أولى، تقنية، ونابعة، من الجهة الثانية، من طبيعة الظروف نفسها. فلئن صحَّ أن مصدر الهستيريا يكمن في الحياة النفسية/الجنسية الحميمة للمرضى، وأن الأعراض الهستيرية تعبِّر عن أخفى رغائبهم المكبوتة، فإن إيضاح حالة بعينها يحتِّم عليه وجوباً أن يميط اللثام عن دخائل تلك الحياة الحميمة وأن يهتك تلك الخفايا والأسرار. ومن المؤكد أن المرضى ما كانوا ليتكلموا قط لو خطر لهم ببال أن من المحتمل أن تُستغل يوماً اعترافاتهم استغلالاً علمياً، ومن المؤكد أيضاً أننا عبثاً كنا سنطلب منهم في هذه الحال الإذن لنا بنشرها. ولا ريب في أن الموسوسين من الناس والوجلين منهم على حدّ سواء كانوا سيقدِّمون في هذه الشروط واجب الكتمان الطبي على كل ما عداه معربين عن أسفهم لكونهم لا يستطيعون في مثل هذه الظروف إسداء الخدمة للعلم بتنويره. بيد أني أرى أن على الطبيب واجبات لا تجاه المريض فحسب، بل تجاه العلم أيضاً. وإذ أقول تجاه العلم فهذا يعني، في واقع الأمر، تجاه مرضى آخرين كثيرين يعانون أو سوف يعانون من الداء نفسه. وعلى هذا، إن نشر الطبيب ما يعتقد أنه يعرفه عن علة الهستيريا وبنيتها يغدو واجباً، وامتناعه عن ذلك جبناً مخزياً، وهذا شريطة أن يتحاشى إنزال ضرر مباشر بمريضه. وأعتقد أني فعلت كل ما هو واجب لأجنِّب مريضتي أذى من هذا القبيل. وقد اخترت إنسانة جرت حياتها، لا في فيينا، بل في بلدة صغيرة نائية؛ ومن ثم، إن ظروف قصتها لا بدّ أن تكون مجهولة في فيينا. وقد حرصت من البداية أشدَّ الحرص على كتمان سرّ العلاج، بحيث أن زميلاً واحداً لا غير، وهو أهل للثقة كلها، تهيّأ له أن يعرف أن تلك الفتاة كانت مريضتي[٢]. وقد أرجأت طيلة أربع سنوات بعد انتهاء العلاج نشر هذه

٢ ـ أرجح الظن أنه الطبيب المختص بأمراض الأنف والأذن والحنجرة فلهلم فليس الذي كان فرويد يتراسل وإياه والذي كتب إليه في ١٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٠ يخبره أنه بصدد علاج «حالة جديدة، هي حالة فتاة في الثامنة عشرة من العمر». (م).



الملاحظات، إلى أن تأكدت من أن حياة مريضتي طرأ عليها من التغير ما أباح لي أن أستخلص أن الاهتمام الذي يمكن أن توليه للأحداث والأحوال النفسية التي أرويها هنا قد شحب وذوى. وبديهي أني لم أبقِ على اسم واحد يمكن أن يهدي القارئ العادي إلى الأثر. زد على ذلك أن النشر في مجلة علمية مختصة سيضعنا في منجى من تطفل القراء غير الأكفاء. ولست مستطيعاً بطبيعة الحال أن أحول بين مريضتي وبين أن تنتابها مشاعر مؤلمة إن شاءت المصادفة أن يقع بين يديها تقريري هذا. بيد أنها على كل حال لن تعلم شيئاً مما لا تعلمه من قبل، وربما تساءلت إن يكن ثمة أحد غيرها قادر على أن يكتشف أن الأمر يتعلق بشخصها.

إني أعلم أنه يوجد، في هذه المدينة على الأقل، عدد غير يسير من الأطباء ممن سيقدمون ـ وهذا ما يبعث على الاشمئزاز ـ على قراءة هذا التقرير لا على أنه مساهمة في علم النفس المرضي للعصاب، بل على أنه رواية ملغزة لا غرض لها غير أن تسلّيهم. وبوسعي أن أجزم لقراء من هذا النوع أن جميع الملاحظات والتقارير التي قد أنشرها لاحقاً ستكون، بفضل ضمانات السرية عينها، في مأمن من فطنتهم وثقوب نظرهم، وإن يكن ذلك من شأنه أن يقيّد إلى أبعد حدّ حريتي في استعمال مادتي.

في هذا التقرير عن حالةِ مَريضةٍ ـ وهو الوحيد الذي أذنت لي به القيود التي يفرضها السر المهني والظروف غير الموائمة ـ تجري بمنتهى الصراحة مناقشة العلاقات الجنسية: فالأعضاء والوظائف الجنسية تُسمَّى بأسمائها، وسيكون في مستطاع القارئ الحييّ أن يستنتج من عرضي هذا أني لم أتردد في مناقشة مثل هذه الموضوعات وبمثل هذه اللغة مع فتاة صبية. أفلزام عليّ إذاً أن أبرِّئ نفسي من هذه التهمة؟ إنني ببساطة أطالب لنفسي بما للطبيب النسائي من حقوق، أو حتى بحقوق أكثر تواضعاً بكثير. أما من قد يفترض أن أحاديث كهذه هي وسيلة ناجعة لإهاجة الرغبات الجنسية أو لإشباعها فلن يكون قد دلّل بذلك إلا على فسق غريب شاذ. وعلى أي حال سأجد في نفسي ميلاً إلى التعبير عن حكمي بصدد هذه النقطة بإيرادي الشاهد الموجز التالي:

«إنه لمما يبعث على الأسى أن يضطر المرء، في مؤلَّف علمي، إلى إفساح



مجال لاحتجاجات وتصريحات من هذا القبيل، ولكن لا يلمني على ذلك لائم، بل الأولى به أن يوجِّه إصبع الاتهام إلى روح هذا الزمان الذي أوصلنا في نهاية المطاف إلى وضع لم يعد فيه البقاء مضموناً لأي كتاب جادّ»[٣].

هاكم الآن كيف ذلَّلت، في هذا التقرير، الصعاب التقنية في بيان هذه الحالة. فهذه الصعاب جمّة بالنسبة إلى طبيب ملزم بأن يعالج يومياً من ستة إلى ثمانية مرضى نفسيين، وغير مباح له، في أثناء الجلسة مع المريض، تدوين ملاحظاته حتى لا يبتعث ريبة هذا الأخير وحتى لا يأخذه هو نفسه الارتباك في استيعابه المادة التي يلتقطها. والحق أني ما استطعت إلى اليوم أن أجد حلاً للمشكلة المتعلقة بكيفية حفظ المعلومات برسم النشر لاحقاً متى ما كان تاريخ علاج الحالة طويل الأمد. وثمة عاملان يسَّرا لي الأمر في الحالة التي نحن بصددها: أولهما أن مدة العلاج لم تطل أكثر من ثلاثة أشهر، وثانيهما أن إيضاح الوقائع تركز حول حلمين أحدهما جاءت روايته في منتصف المعالجة وثانيهما في نهايتها، وقد تسنى لي تدوينهما مباشرة بعد الجلسة. وعلى هذا النحو قدَّما مرتكزاً مكيناً لمنظومة التأويلات والذكريات المرتبطة بهما. وقد كتبت تقريري هذا بالاعتماد على الذاكرة، في وقت كانت فيه ذكرياتي لا تزال طريئة، وقد شحذها تفكيري بنشرها. وعلى هذا، إن تقريري ليس أميناً أمانة شريط التسجيل، ولكنه على درجة عالية من مطابقة الحقيقة. ولم يتعرض أي شيء أساسي للتغيير، خلا تسلسل الإيضاحات في بعض المواضع حتى يأتي العرض أحسن تماسكاً.

أبدأ أول ما أبدأ بالإشارة إلى ما يحتويه هذا التقرير وما لا يحتويه. فقد كان العنوان الأصلي لهذا النص **الحلم والهستيريا**، لأنه بدا لي ملائماً جداً لبيان كيف أن تأويل الأحلام يتشابك مع تاريخ العلاج، وكيف يمكن عن طريقه سد ثغرات نساية الذاكرة وفهم الأعراض. وقد كنت، لأسباب لا تخلو من وجاهة، سبَّقت في سنة ١٩٠٠ الأبحاث التي كنت أزمع نشرها على علم نفس الأعصبة

٣ ـ ريتشارد شميث: **مساهمات في الإيروسية الهندية**، ١٩٠٢، المقدمة.



بدراسة مستأنية ومستفيضة عن الأحلام[٤]؛ وقد تبيَّن لي من الاستقبال الذي قوبلت به هذه الدراسة مدى ضآلة التفهم الذي يبديه الزملاء حيال جهود كهذه. أما الاعتراض الذي ووجهتُ به، وهو أن ملاحظاتي لا يمكن أن تتخذ أساساً لتكوين اقتناع قابل للتثبت منه، نظراً إلى أني لم أعرض موادي مسبقاً بحيث يمكن فحصها والتحقق من صحتها، فهو في حالتنا اعتراض لا سند له، لأن في وسع كل امرئ أن يرجع إلى أحلامه الخاصة ليجري عليها فحصاً تحليلياً، وتقنية تأويل الأحلام سهل تعلمها بالرجوع إلى الإيضاحات والأمثلة التي أعطيتها. وإني لأؤكد اليوم كما بالأمس أن الشرط المسبق الذي لا غنى عنه لفهم السيرورات النفسية في الهستيريا وفي غيرها من الأعصبة النفسية هو التعمق في دراسة مشكلة الحلم. ومن شاء التنصل من هذا المجهود التمهيدي فلن يقيَّض له أبداً أن يتقدم، ولو خطوة واحدة إلى الأمام، في هذا المضمار. إذاً فالتقرير الذي بين أيدينا يفترض سلفاً معرفة بتأويل الأحلام، فمن لا تتوفر له هذه المعرفة فلن تكون مطالعته باعثة له على الرضى. فهو سيُفاجأ بدل أن يتنوَّر، وسينزع بلا شك إلى أن يسقِط سبب دهشته على المؤلف فيعزو إليه خيالاً مسرفاً في شططه. والواقع أن هذا الطابع الباعث على الدهشة مردّه إلى ظاهرة العصاب نفسها؛ وتآلفنا الطبي معه هو وحده الذي يحجبه عنا، ولكنه يعاود ظهوره مع كل محاولة للتفسير. وقد نتصور أن لا سبيل إلى الخلاص من هذه الدهشة بصورة كاملة إلا إذا أفلحنا في استنباط العصاب بتمامه من العوامل المعروفة لدينا من قبل. بيد أن دراسة الأعصبة، على العكس من ذلك، هي التي ستحملنا، على الأرجح، على التسليم بجملة من المعطيات الجديدة القابلة لأن تصير شيئاً فشيئاً موضوعاً لمعرفة يقينية. غير أن الجديد هو ما يستثير مع ذلك على الدوام الدهشة والمقاومة.

على أنه من الخطأ أن يتصور المرء أن الأحلام وتأويلاتها تشغل مثل هذه المكانة الغالبة في جميع حالات التحليل النفسي.

لئن بدا هذا التقرير الذي بين أيدينا موفَّقاً من حيث استخدام الأحلام، فإنه في جوانب أخرى أفقر مما كنت أرجو. بين أن عيوبه تتصل تحديداً بالظروف التي

٤ ـ الإشارة هنا إلى كتاب فرويد **تأويل الحلم**. «م».



جعلت نشره أمراً ممكناً. لقد أسلفت القول إنه يتعذر عليّ أن أتحكم تحكماً مطلقاً بمادة تمدّني بها معالجة تدوم عاماً كاملاً. والحق أن تاريخ الحالة التي نحن بصددها أمكن تذكره والإحاطة به بجملته لأنه لم يمتد إلا أشهراً ثلاثة؛ بيد أن نتائجه بقيت منقوصة من أكثر من وجه. فالعلاج لم يستمر وصولاً إلى الهدف المرام، بل أوقِف بناء على رغبة المريضة نفسها، فما أمكن الظفر إلا بنتيجة محدودة. فقد بقيت بعض النقاط الغامضة في الحالة التي نحن بصددها على غموضها، كما أن نقاطاً أخرى ما أمكن إيضاحها إلا بصورة منقوصة، ولو تواصل العمل لكان أدى بلا شك إلى حلّ كامل للمعضلات جميعاً، دونما استثناء. ومن ثم لا يسعني أن أقدِّم هنا سوى نبذة من التحليل.

إن القارئ الذي أَلِف تقنية التحليل المعروضة في **دراسات في الهستيريا**[٥] قد تأخذه الدهشة من أنه ما أمكن في أشهر ثلاثة الوصول إلى حلّ كامل ولو للأعراض التي أخضعت للتحليل. بيد أن الأمر سيغدو مفهوماً متى ما أوضحت أن تقنية التحليل النفسي طرأ عليها تحول جوهري منذ كتابة **دراسات في الهستيريا**. فقد كان منطلق العمل يومئذ الأعراض، وكان هدفه إزالتها واحداً تلو الآخر، لكنني تخليت منذئذ عن هذه الخطة لأني وجدتها غير ملائمة لبنية العصاب المرهفة كل الإرهاف. فأنا أترك الآن للمريض نفسه اختيار موضوع عمل اليوم، وأنطلق في كل مرة بالتالي من المساحة التي يضعها لاشعوره في متناول انتباهه. وما أحصل عليه على هذا النحو مما يمكن أن يعين على إزالة عرض بعينه يأتيني في نتف وشذرات، متداخلة في أسيقة مختلفة وموزَّعة على فترات زمنية شديدة التباعد. لكن على الرغم من هذه النقيصة الظاهرة، فإن الخطة الجديدة، المتفوقة بكثير على القديمة، هي بلا مراء الوحيدة الممكنة.

إزاء بُعد نتائجي التحليلية عن الكمال، ما كان أمامي إلا أن أحذو حذو أولئك المنقبين الذين يوفقون إلى أن يُخرِجوا إلى النور، بعد طول انطمار،

٥ ـ كتاب كتبه فرويد بالمشاركة مع ج. بروير، ونشر سنة ١٨٩٥. «م».



مخلفات العصور القديمة التي لا تقدَّر بثمن، وإن عراها بتر وتشويه. وهكذا، وبالاستناد إلى أفضل النماذج التي حصلت عليها من تحاليل أخرى، أكملت ما كان ناقصاً. بيد أنني، مثلي مثل عالم الآثار الحيّ الضمير، لم أغفل في كل حالة من الحالات التي لجأت فيها إلى الترميم أن أوضح ما أضفته إضافة إلى الأجزاء الأصيلة.

وثمة عيب آخر بعد كان من صنعي أنا نفسي عمداً. فأنا لم أعرض بصفة عامة العمل التأويلي الذي لم يكن لي مناص من إخضاع متداعيات المريضة وتصريحاتها له، وإنما فقط نتائجه. فباستثناء الأحلام، وخلا بعض المواضع القليلة، لم أزح النقاب عن تقنية العمل التحليلي، بل حرصت في تقريري هذا على جلاء البنية الخبيئة للعصاب والعوامل المحدِّدة لأعراضه، وما كان ثمة مناص من وقوع التباس وتداخل ينذّان عن الوصف فيما لو شئت أن أنجز في الوقت نفسه المهمة الأخرى. وكان لزاماً عليَّ، كيما أجد أساساً مكيناً أرسي عليه القواعد التقنية، التي اهتديت إلى أكثرها اختبارياً، أن أجمع مادة تحاليل أخرى كثيرة. ولكن حذارِ مع ذلك من المبالغة في مدى التقصير الذي يمكن أن يكون قد لحق بعرض تاريخ هذه الحالة بنتيجة امتناعي عن الدخول في تفاصيل الخطة التقنية. ذلك أن الشطر الأصعب من العمل التقني ما تسنى لي أن أتطرق إليه مع هذه المريضة نظراً إلى أن عامل «التحويل»، الذي سأتكلم عنه في نهاية هذا التقرير، ما جرت مناقشته أثناء هذه المعالجة القصيرة.

وثمة عيب ثالث لا تقع تبعته على المريضة ولا على المؤلف. فغني عن البيان، بالفعل، أن تقريراً واحداً، حتى ولو كان كاملاً وأكيداً لا ريب فيه، لا يمكن أن يقدم أجوبة عن جميع الأسئلة التي تطرحها مشكلة الهستيريا. فليس في مقدوره التعريف بجميع أنماط المرض، وبجميع تشكلات بنية العصاب، وبجميع العلاقات الممكنة بين النفسي والبدني في الهستيريا. وليس من المعقول أن نطالب هذه الحالة الواحدة بأكثر مما يمكن أن تقدمه. وأما من لا يزال يأبى حتى الآن الاقتناع بالصحة العامة والشاملة للإتيولوجيا[٦] الجنسية النفسية

٦ ـ الإتيولوجيا: علم الأسباب بصفة عامة، وعلم أسباب نشوء المرض بصفة خاصة. «م».



للهستيريا، فأرجح الظن أن الاطلاع على تاريخ حالة واحدة لن يكون كافياً لإقناعه؛ والأولى به في هذه الحال أن يعلّق حكمه إلى أن يكتسب، بفضل مجهوده الخاص، الحقَّ في تكوين رأي شخصي.

ملاحظة أضيفت سنة ١٩٢٣ ـ إن العلاج الوارد تفصيله هنا توقف في ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٩٩[٧]، وقد دونت تقريري عنه في الأسبوعين التاليين، لكني لم أنشره إلا في عام ١٩٠٥. ولقد كان من المتوقع بعد أكثر من عشرين سنة من العمل اللاحق أن يطرأ تعديل على تصوري لمثل هذه الحالة وعلى طريقة عرضي لها، ولكن من غير المعقول بطبيعة الحال أن أحاول تحديث هذا التقرير وأن أسعى إلى المواءمة بينه وبين الحالة الحاضرة لمعارفنا UP TO DATE بإدخال التصحيحات والإضافات اللازمة عليه. وعلى هذا، فقد تركته على حاله، كما هو، ولم أصوِّب في نصّه سوى الأخطاء التي وقعت فيها سهواً أو عن عدم دقة، والتي لفت انتباهي إليها مترجماي الإنكليزيان الممتازان المستر والمسز جيمس ستراتشي[٨]. أما فيما يتصل بالملاحظات النقدية التي بدت لي مسوَّغة، فقد أوردتها في هوامش ملحقة بتاريخ هذه الحالة المرضية، وبذلك يتأتى للقارئ أن يعلم أني لا أزال متمسكاً بالآراء الواردة في النص ما دمت لا أتبعِها بهوامش تنقضها. أما مشكلة الكتمان الطبي، التي كانت موضع اهتمامي في هذا التصدير، فلا داعي للاحتفال لها في عروضي لسائر الحالات المنشورة في هذا المجلد[٩]، إذ إن ثلاثاً من هذه الحالات نشرت بموافقة صريحة من الأشخاص المعالَجين (وفي حالة هانز الصغير بموافقة من أبيه)؛ كما أن موضوع التحليل في الحالة الرابعة (شريبر) لم يكن شخصاً بل كتاباً كتبه هذا

---

٧ ـ في الواقع عام ١٩٠٠. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٨ ـ جيمس ستراتشي: محلل نفسي بريطاني (١٨٨٧ ـ ١٩٦٧). ترجم مع زوجته أليكس أعمال فرويد الكاملة إلى الإنكليزية. «م».

٩ ـ هو المجلد الثامن من الأعمال الكاملة لفرويد بالألمانية. وقد ضمّ، علاوة على تاريخ حالة دورا، أربعة تحليلات نفسية أخرى هي على التوالي **هانز الصغير (تحليل رهاب لدى صبي صغير في الخامسة من العمر)، رجل الفئران (ملاحظات عن حالة عصاب وسواسي)، الرئيس شريبر (ملاحظات نفسية عن السيرة الذاتية لحالة برانويا)**، وأخيراً: **رجل الذئاب (مقتطفات من تاريخ عصاب طفلي)**. «م».



الأخير[١٠]. أما فيما يتصل بدورا فقد بقي السر محفوظاً إلى هذه السنة. فقد علمت منذ زمن يسير، وكانت صلتي بها قد انقطعت من أمد بعيد، أنها وقعت فريسة المرض من جديد لأسباب أخرى وأسرَّت لطبيبها بأنها عولجت تحليلياً على يديّ في صباها؛ وهذه المسارّة سهّلت على زميلي الفطِن أن يتعرف فيها دورا ١٨٩٩. ولئن لم تتمخض الشهور الثلاثة من العلاج يومئذ عن أكثر من حلٍّ للصراع الذي كان ناشباً عهدئذ، ولئن لم تتمكن من نصب حاجز دفاعي ضد الإصابة بالمرض لاحقاً، فلن يكون في مقدور أي شخص منصف أن يضع اللائمة في ذلك على عاتق المعالجة التحليلية.

١٠ ـ دانييل شربير الملقب بالرئيس: قاضٍ ألماني (١٨٤٢ ـ ١٩١١). ترأس محكمة الاستئناف في درسدن. أصيب، بعد فشله في الانتخابات، بهجاس المرض وحاول الانتحار، وروى في سيرته الذاتية، **مذكرات مريض بالأعصاب**، تفاصيل ما كان يراوده من هذيان وهذاء. «م».




مكتبة
الفكر الجديد

(١)

الحالة المرضية

كنت في كتابي **تأويل الحلم**[١]، الصادر عام ١٩٠٠، قد أثبتّ أن الأحلام قابلة بصورة عامة للتأويل كما للاستبدال، متى ما أنجز العمل التأويلي، بأفكار واضحة محكمة الصياغة وقابلة لأن تُدرج في موضع محدد من السياق النفسي المجمل؛ وبودي أن أضرب في الصفحات التالية مثالاً على هذا الاستخدام العملي الوحيد الذي يبدو أن فن تأويل الأحلام يسمح به. وكنت ذكرت في كتابي[٢] كيف تأتّى لي أن أطرق مشكلات الحلم. فقد اعترضتني هذه المشكلات فيما كنت أحاول شفاء الأعصبة النفسية بطريقة خاصة من طرق العلاج النفسي؛ فعندما كان المرضى يروون لي أحلامهم التي كانت توحي بأنها تتطلب أن تُدرج في السلسلة الطويلة المتصلة الحلقات التي تبدأ بالأعراض المرَضية وتنتهي بالفكرة المسبِّبة للمرض، تعلمت عندئذ كيف أترجم لغة الحلم إلى نمط التعبير العادي والمباشر لفكرنا. هذه المعرفة ـ أستطيع أن أجزم بذلك ـ لا غنى عنها للمحلل النفسي، إذ يمثل الحلم واحداً من الدروب التي يمكن أن تسلكها إلى الوعي تلك المادة النفسية عينها التي جرى كبتها لما يثيره مضمونها من نفور، والتي حُجز عليها خارج الوعي، فصارت بالتالي مسبِّبة للمرض. زبدة الكلام، إن **الحلم هو واحد من الدروب الجانبية التي يمكن بها تفادي الكبت**، واحدة من الوسائل الرئيسية لما يسمى بالتمثيل اللامباشر في المجال النفسي. والنبذة التالية من علاج فتاة مصابة بالهستيريا ستسلط الضوء على الكيفية التي يتدخل بها تأويل الأحلام

١ ـ اشتهر هذا الكتاب في الثقافة العربية بعنوان **تفسير الأحلام**، ولكنه في الواقع بالمفرد. «م».

٢ ـ **تأويل الحلم**، ١٩٠٠، ص ٦٨، الطبعة السابعة، ١٩٢٢، ص ٧٠.



في العمل التحليلي. كما أنها ستتيح لي في الوقت نفسه أن أدافع علناً، ولأول مرة بالاعتماد على تفاصيل تحول دون أي سوء فهم، عن آرائي في السيرورات النفسية للهستيريا وشروطها العضوية. فإذا ما توسعت في الموضوع وأفضت فيه، فلا أحسبني بحاجة بعد الآن إلى الاعتذار عن ذلك. فقد بات معلوماً اليوم أن مواجهة ما تقتضيه الهستيريا من الطبيب والباحث لا تكون بمعاملتها بازدراء متكلف، بل على العكس عن طريق دراستها بتعمق وتعاطف:

الفن والعلم لا يكفيان

فالعمل يتطلب صبراً أيضاً[٣]

لو أني بدأت بعرض للحالة كامل متلاحم مشذّب، لكنت وضعت القارئ في موقف مباين تماماً لموقف الطبيب المراقب. فما يرويه أقارب المريض ـ وفي الحالة التي نحن بصددها والد تلك الفتاة التي لها من العمر ثمانية عشر ربيعاً ـ لا يعطينا سوى صورة شديدة الغموض عن مسار المرض. والواقع أني أبدأ العلاج بدعوة المريض إلى أن يروي لي قصة مرضه وحياته كاملة، ولكن ما أسمعه وأعلمه على هذا النحو لا يكفي بعد لهديي إلى سواء السبيل. فهذا السرد الأول أشبه ما يكون بمسلك مائي غير صالح للملاحة، تارة تخنق مجراه صخرة من الصخور وطوراً ينقسم ويتفرع ويتبدد بين جزر من الرمال. وإني لا أملك إلا أن أعجب لشيء واحد وهو: كيف يتيسر للمؤلفين أن يكتبوا تقارير واضحة متماسكة عن حالات المصابين بالهستيريا؟ والواقع أن المرضى أنفسهم يعجزون عن تقديم مثل هذه التقارير عن أنفسهم. حقاً إنهم يستطيعون تزويد الطبيب بمعلومات وافية ومتلاحمة عن فترة بعينها من حياتهم، ولكن لا تلبث أن تعقبها فترة أخرى لا يفضون عنها إلا بمعلومات سطحية تتخللها فجوات وألغاز، هذا إن لم تعقبها فترات بكاملها يحوطها إيهام شديد ولا تنيرها أية معطيات تمكن الإفادة منها. وغالباً ما تكون العلاقات، بما فيها الظاهرة منها، متفككة، كما يكون تسلسل الأحداث المختلفة متقطعاً.

٣ ـ غوته: **فاوست**، القسم الأول، **مطبخ الساحرة**. «م».



في أثناء سرد المريض لقصته يبادر مراراً وتكراراً إلى تصحيح تفصيل من التفاصيل، أو تاريخ من التواريخ. ثم لا يلبث، بعد طول تردد، أن يعود إلى توكيده الأول. وعجز المرضى هذا عن عرض تاريخ حياتهم بترابط وتماسك، من حيث أنه يناظر تاريخ مرضهم، ليس مجرد سمة مميزة للعصاب، بل يرتدي أيضاً دلالة نظرية عظيمة الشأن[٤]. ومردّ هذا العجز إلى الأسباب التالية: أولاً، إن المريض يحتفظ لنفسه بجزء مما يعرفه ومما كان يفترض فيه أن يرويه؛ وهو إذ يمسكه فإنما عن وعي وقصد لأسباب تتصل بالخجل والحياء اللذين لا يكون قد تغلَّب عليهما بعد (التكتم إن كان الأمر يتعلق بشخص ثالث). ذلك هو دور المراوغة الشعورية. ثانياً، إن جانباً مما يعلمه المريض عن تاريخ مرضه، ومما يكون عادة في متناول إدراكه، يغيب عنه أثناء سرده لقصته، بدون أن يكون قد تقصد ذلك؛ وهذا هو دور المراوغة اللاشعورية. ثالثاً، إن الأمر لا يخلو أبداً من نسايات ذاكرية حقيقية، أي ثغرات في الذاكرة تطال لا الذكريات القديمة فحسب بل كذلك الذكريات الحديثة، ومن تذكرات كاذبة تتكون ثانوياً لتسدّ تلك الثغرات[٥]. وحتى حيثما تبقى الأحداث محفوظة في الذاكرة، فإن الهدف الذي ترمي إليه النسايات الذاكرية سيتمّ بلوغه على نحو أكيد ومحقَّق متى ما فُصمت الرابطة بينها، وهذه الرابطة تنفصم على نحو لا ريب فيه متى ما تغيَّر التسلسل الزمني للأحداث. ومن ثم، إن هذا التسلسل الزمني هو على الدوام

٤ ـ عهد أحد الزملاء إليّ يوماً بأخته لأعالجها نفسياً. وكانت قد تابعت خلال سنوات عدة، بغير طائل، علاجها كمريضة بالهستيريا (أوجاع، واضطرابات في المشية والتنقل). وقد بدت المعلومات الأولى متمشية مع هذا التشخيص. وفي أولى الجلسات طلبت إلى المريضة أن تروي بنفسها قصتها. فلما سردتها لي سرداً واضحاً متماسكاً، على الرغم من خصوصية الأحداث التي تكلمت عنها، قلت بيني وبين نفسي إن الحالة لا يمكن أن تكون حالة هستيريا، وأجريت على المريضة فحصاً بدنياً دقيقاً، فاكتشفت خراعاً TABES في درجة وسطى من التقدم؛ وقد سجل وضعها تحسناً ملموساً فيما بعد حينما جرت معالجتها بحقن من الزئبق والزيت السنجابي، على يد الأستاذ لانغ(*).

(*) إدوارد لانغ: طبيب أمراض جلدية وزهرية نمساوي مشهور (١٨٤١ ـ ١٩١٦). «م».

٥ ـ إن النسايات الذاكرية AMNESIES والتذكرات الكاذبة PARAMNESIES تجمع بينها علاقة متنامة. فحيثما تقع ثغرات كبيرة في التذكر، تقلّ أخطاء الذاكرة. وبالعكس، إن التذكرات الكاذبة قد تموّه، للوهلة الأولى، تمويهاً تاماً بعض النسايات الذاكرية.



العنصر الأكثر قابلية للتأذي بين عناصر الذاكرة، كما أنه أسبقها إلى الوقوع تحت مفعول الكبت. وكثيراً ما تصادفنا ذكريات تكون لا تزال في الطور الأول من الكبت، إن جاز التعبير، ومن ثم تكون مشحونة بالشك. ثم لا يلبث هذا الشك في طور لاحق أن يخلي مكانه لنساية أو لذكرى كاذبة[٦].

ثمة اعتبارات **من طبيعة نظرية** تحملنا على اعتبار حالة الذكريات هذه لازمة محتومة للأعراض الهستيرية. ففي أثناء العلاج يكمّل المريض ما أمسكه أو ما لم يرد إلى خاطره، وإن يكن معروفاً منه دوماً. وعندئذ لا يعود ثمة مجال للتذكرات الكاذبة، كما أن ثغرات الذاكرة تمتلئ. وإنما متى قارب العلاج على النهاية يمكن أن ينبسط أمام أنظارنا تاريخ كامل ومتماسك ومفهوم للمرض. وإن يكن الهدف العملي للعلاج إزالة جميع الأعراض الممكنة وإحلال أفكار شعورية محلَّها، فإن ثمة هدفاً آخر، وهو الهدف النظري، يوجب علينا أن نشفي ما أصاب ذاكرة المريض من تلف. وهذان الهدفان يتطابقان؛ فإن تمّ بلوغ أحدهما تمّ أيضاً بلوغ الثاني: فالطريق الذي يؤدي إلى كليهما واحد.

إن طبيعة الأشياء التي تؤلف مادة التحليل النفسي تملي علينا أن نولي، في الحالات التي ندرسها، الشروط الاجتماعية والإنسانية الخاصة التي يحيا في ظلها المرضى قدراً من الانتباه مماثلاً لذاك الذي نوليه للمعطيات البدنية وللأعراض المَرَضية. ونحن نهتم، أول ما نهتم، بظروف المريض وعلاقاته العائلية، وهذا ـ كما سنوضح عما قليل ـ لأسباب لا تتصل فقط بالاستعلام عن وراثته.

لقد كانت أسرة مريضتنا، وهي فتاة في الثامنة عشرة من العمر، تضم ـ عداها ـ والديها وأخاً يكبرها بعام ونصف عام. وكانت الشخصية المهيمنة هي شخصية الأب، إن بذكائه وسمات طبعه وإن بظروف حياته، وهي الظروف عينها التي حبكت لحمة التاريخ الطفلي والباتولوجي لمريضتي. ويوم شرعتُ بمعالجة الفتاة، كان الأب يناهز على الخمسين. وكان رجلاً متدفق النشاط، فذّ الموهبة، ومن

٦ ـ أكسبتنا الخبرة القاعدة التالية: متى ما تردد المريض في سرده، فمن الواجب أن نضرب صفحاً عن الحكم الذي يصدر عنه هو نفسه. وإذا ما تردد المريض بين روايتين، فعلينا أن نعتبر روايته الأولى هي الصحيحة، وأن نفترض بالمقابل أن الثانية ناجمة عن الكبت.



كبار رجال الصناعة، ويرتع في بحبوحة من العيش من الناحية المادية. وكانت ابنته تكنُّ له محبة دافقة، وكان حسُّها النقدي، الذي بكر في الاستيقاظ، قد تجرَّح مبكراً أيضاً من جراء بعض أفعاله وبعض سماته الطبعية.

ولقد زادت محبتها هذه لأبيها منذ عامها السادس بسبب ما عاناه من أمراض خطيرة شتى. فقد أصيب وقتئذ بمرض السل، فاضطرت العائلة إلى نقل مكان سكناها إلى بلدة صغيرة ذات مناخ مناسب في أقاليمنا الجنوبية؛ وهناك طرأ تحسن سريع على مرضه الرئوي، غير أن الرأي أجمع على وجوب الإقامة لفترة طويلة في تلك البلدة، التي سأسميها **ب**...، تفادياً للانتكاس؛ وهكذا بقيت بلدة **ب** المكان الرئيسي لسكنى الوالدين والطفلين لمدة عشر سنوات. وكان الأب، بعد أن استردّ صحته، يتغيَّب بين الحين والآخر ليتفقَّد مصانعه؛ وفي حمَّارة الصيف كانت الأسرة تنتقل إلى الجبل.

لما بلغت فتاتنا العاشرة من العمر، أصيب والدها بانفصال في شبكية العين استدعى أن يمضي فترة علاجية في غرفة مظلمة. وقد تسبَّب هذا المرض في ضعف بصره، ولكن المرض الأخطر منه وقع له بعد زهاء عامين. فقد انتابته نوبة من التخليط العقلي، تلتها أعراض شلل واضطرابات نفسية طفيفة. واستطاع صديق - سندرس دوره فيما بعد - أن يقنع المريض، حينما أصاب شيئاً من التحسن، بأن يأتي إلى فيينا مع طبيبه لاستشارتي. وقد وقفت متردداً لهنيهة من الزمن متسائلاً بيني وبين نفسي عما إذا لم تكن الحالة التي يشكو منها شللاً ذا أصل خراعي؟ على أني انتهيت إلى تشخيص إصابة وعائية vasculaire متفشية. وبما أنه كاشفني بأنه كان قبل الزواج أصيب بعدوى معينة، فقد وصفت له معالجة قوية ضد الزهري انحسرت على إثرها جميع تلك الاضطرابات التي كانت لا تزال باقية. وأرجح الظن أن هذا التدخل الموفق من جانبي هو الذي حمل الأب، بعد أربع سنوات، على أن يأتيني بابنته التي كانت تعاني من عصاب شديد، وأن يعهد بها إليّ، بعد عامين من ذلك، لأتولى أمرها بالمعالجة النفسية.

وفي أثناء ذلك كنت قد تعرفت، في فيينا، إلى أخت للمريض تكبره سناً،



وكانت تعاني على ما تشير الدلائل من شكل خطير من العصاب النفسي بدون أعراض هستيرية مميّزة. وقد قضت هذه السيدة نحبها، بعد حياة زوجية تعيسة، من جراء هزال استفحل بسرعة وما أمكن تحديد طبيعته.

وكان للمريض أيضاً أخ يكبره سناً، التقيته عرضاً، وكان عازباً ومصاباً بهجاس المرض Hypocondrie.

كانت الفتاة، التي تعهدتها بالعلاج وهي في الثامنة عشرة كما أسلفت، تميل بعواطفها دوماً إلى أسرة أبيها، وقد اتخذت، منذ أن مرضت، عمتها التي تقدم الكلام عنها قدوة ومثالاً. وما كان يخامرني شك أنا أيضاً في أن الفتاة تنتمي، سواء أبمواهبها وذكائها المبكر أم باستعدادها للمرض، إلى تلك الأسرة. وما قيِّض لي أن أعرف الأم. لكنيّ وجدتني أتصورها، بحسب المعلومات التي أمدّني بها الأب والبنت، امرأة غير مثقفة، وعلى الأخص عادمة الذكاء، صبّت اهتمامها كله، منذ مرض زوجها وما استتبعه من تباعد بينهما، على البيت، فصارت تقدِّم صورة لما يمكن أن نسمِّيه «ذهان مدبرة المنزل». فما كانت تتفهم صبوات ولديها، بل كان شغلها الشاغل طوال اليوم تنظيف الشقة وترتيبها، والعناية بالأثاث والأدوات المنزلية، إلى حدّ بات من شبه المستحيل معه استخدام هذه الأشياء والتمتع بها. ولا يسعنا إلا أن نقارن بين هذه الحالة، التي كثيراً ما تجد مؤشراتها لدى ربات البيوت السويات، وبين الأشكال القهرية للاغتسال والنظافة. بيد أن هؤلاء النساء، ومثلهن أيضاً والدة مريضتنا، يغيب عنهن أي استبصار بالطابع المرَضي لسلوكهن هذا، ويفتقرن من ثمّ إلى علامة مميِّزة أساسية من علامات «العصاب الوسواسي». ولقد كانت الصلات بين الأم والبنت مشوبة منذ سنوات بطابع غير ودود. فما كانت البنت تعير أمها اهتماماً، بل كانت تنتقدها بقسوة، وتنأى بنفسها تماماً عن تأثيرها[٧]. وكان أخوها الوحيد، الذي يكبرها بعام

٧ ـ لئن كنت لا أتصور أن الوراثة هي العامل الوحيد المسبِّب للهستيريا فإنني، بالرجوع إلى بعض كتاباتي السابقة (**الوراثة وإتيولوجيا الأعصبة** في مجلة **علم الأعصاب**، ١٨٩٦، المجلد ٦، وهو مقال يطعن في الأطروحة المشار إليها) أجدني حريصاً على الإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يُفهم من ذلك أني أستخف بأهمية الوراثة في إتيولوجيا الهستيريا أو أني لا أرى من ضرورة لأخذها بعين الاعتبار. وإننا لنلتقي لدى مريضتنا شحنة وراثية مرَضية ذات وزن من خلال ما قدَّمناه من معلومات عن الأب



ونصف عام، هو المثل الأعلى الذي اتجهت عزة نفسها في زمن مبكر إلى التشبُّه به. وفي إبان السنوات اللاحقة فترت العلاقات فيما بينهما. وكان الفتى يحاول، ما وسعه، أن يتحاشى المشاحنات العائلية؛ وحين كان يضطر مع ذلك إلى اتخاذ موقف، كان ينحاز إلى جانب الأم. وعلى هذا المنوال أدى التجاذب الجنسي المعهود إلى توثيق الصلات بين الأب والابنة من جهة وبين الأم والابن من الجهة الثانية.

لقد بدأت أعراض اضطرابات عصبية تظهر عند مريضتنا، التي سأسمِّيها من الآن فصاعداً باسم دورا، بدءاً من عامها الثامن. فقد كانت تشكو في ذلك الزمن من ضيق دائم في التنفس، وكان أمرها يستفحل في أثناء النوبات؛ وقد ظهر هذا الضيق لأول مرة عقب نزهة قصيرة في الجبل، وعُزي بالتالي إلى الإرهاق. وقد انحسرت هذه الحالة ببطء في غضون ستة أشهر، بفضل ما أحيطت به من عناية وما فرض عليها من راحة. ويبدو أن طبيباً للأسرة لم يتردد لحظة واحدة في تشخيص اضطراب عصبي صرف، وفي استبعاد أي سبب

وأسرته؛ وحتى من يرى أن حالات باتولوجية من مثل حالة الأم مستحيلة بدون استعداد وراثي، يستطيع أن يجد توكيداً لرأيه في وراثة مريضتنا. وثمة عامل آخر يبدو لي أبلغ دلالة بعد فيما يتصل بالاستعداد الوراثي، أو الجِبِلِّي بالأحرى، لدى فتاتنا. فقد ذكرتُ أن الأب كان أصيب بعدوى الزهري قبل زواجه. والحال أن نسبة مئوية عالية من مرضاي الذين عالجتهم بالتحليل النفسي يتحدرون من آباء كانوا مصابين بالخراع أو الشلل العام. ونظراً إلى جِدَّة طريقتي العلاجية لا يأتي إليّ من المرضى إلا من يعانون من أخطر الحالات التي طال علاجها سنوات بلا فائدة. وكل من يؤيد تصورات إرب ـ فورنييه Erb - Fournier(*) يستطيع أن يرى في الخراع أو الشلل العام علامة على إصابة سابقة بالزهري، وقد تحققت مباشرة بنفسي في عدد من الحالات من وجود هذه الإصابة لدى الآباء. وفي أحدث مناقشة دارت حول سلّ الزهريين (المؤتمر الدولي الثالث عشر للأطباء في باريس، بين الثاني والتاسع من آب/ أغسطس ١٩٠٠، تقارير فنغر وتارنوفسكي وجوليان وآخرين)، لم أجد ذكراً لواقعة أرغمتني تجربتي كطبيب في أمراض الجهاز العصبي على التنبُّه إلى وجودها، وهي أن الزهري عند الآباء عامل له دوره الأكيد في إتيولوجيا الجِبِلَّة العصبية المَرَضية عند الأولاد.

(*) فلهلم إرب: طبيب أعصاب ألماني(١٨٤٠ ـ ١٩٢١). تولى إدارة عيادة الطب وعلم الأعصاب في جامعة هايدلبرغ. له عدة دراسات عن النخاع الشوكي وشلل الأطراف. وألفريد فورنييه: طبيب فرنسي مختص بالأمراض الجلدية والزهرية(١٨٣٢ ـ ١٩١٤). من مؤلفاته: **عدوى الزهري، الزهري الوراثي المتأخر**. «م».



عضوي للزُّلة[٨]. ولكنه رأى على ما هو ظاهر للعيان أن هذا التشخيص يتمشى والافتراض بأن المرض ناشئ عن الإرهاق[٩].

كانت الفتاة الصغيرة قد أصيبت بأمراض الطفولة السارية المألوفة، بدون أن تخلف فيها ضرّاً دائماً. وبحسب ما روته (وقد فعلت ذلك بقصد الترميز!)، فإن أخاها كان هو السباق إلى الإصابة بالأمراض، وإن لم تتعدَّ عنده شكلاً خفيفاً هيِّناً، على حين أنها كانت هي تتبعه إلى المرض بأعراض خطيرة. وقد عانت ابتداء من السنة الثانية عشرة من الشقيقة[١٠] ومن نوبات سعال عصبي؛ وفي بادئ الأمر كان العرضان متلازمين، ثم افترقا ليسلك كل منهما مساراً مختلفاً. ومالت الشقيقة إلى الندور ثم اختفت لما بلغت الفتاة السادسة عشرة. أما نوبات السعال العصبي، التي كانت تنشأ في أغلب الظن عن نزلات زكامية عادية، فقد ظلت مستمرة دواماً. وحينما قدمت إليَّ في السنة الثامنة عشرة طلباً للعلاج، كانت تعاني من نوبة سعال، وكان سعالها ذا طابع خاص. وما أمكن تحديد عدد نوبات السعال، ولكن الواحدة منها كانت تمتد من ثلاثة أسابيع إلى خمسة أسابيع، بل دامت إحداها بضعة أشهر. وكان العَرَض الأشد إزعاجاً، في السنوات الأخيرة على الأقل، انحباساً تاماً للصوت في النصف الأول من فترة النوبة. وكان قد قرّ الرأي منذ عهد بعيد على تشخيص حالة عصبية هذه المرة أيضاً؛ ولكن مختلف طرق المعالجة المعهودة، بما فيها المعالجة بالمياه والمعالجة الموضعية بالكهرباء، لم تثمر نتيجة. واعتادت الفتاة، وقد نضجت في مثل هذه الظروف وصارت صبية مستقلة إلى أبعد الحدود في حكمها، اعتادت على السخر من جهود الأطباء، وعزفت في نهاية المطاف عن كل عناية طبية. وكانت ترفض دوماً بالأصل استشارة الطبيب، وإن لم يكن لديها أي سبب للنفور من شخص طبيب الأسرة. وكان كل اقتراح باستشارة طبيب جديد يستثير مقاومتها، ولم تأتِ إليّ إلا صدوعاً بأمر أبيها الجازم.

٨ ـ الزُلّة Dyspne: عسر التنفس. «م».

٩ ـ سنتكلم لاحقاً عن العلة المحتملة التي سبَّبت هذا المرض.

١٠ ـ الشقيقة Migraine: صداع نصف الرأس. «م».



رأيتها للمرة الأولى في عامها السادس عشر، في مطلع الصيف، وكانت تعاني من سعال ومن بحّة في الصوت. وقد اقترحتُ منذ ذلك الحين معالجة نفسية، ولكن اقتراحي لم يؤخذ به نظراً إلى أن تلك النوبة التي طال أمدها زالت من تلقاء نفسها. وفي شتاء العام التالي، وعلى إثر وفاة عمتها الأثيرة، قدمت إلى فيينا لتقيم مع عمها وبناته، ولكنها ما لبثت أن سقطت طريحة الفراش، وعرتها الحمى، وعزيت حالتها إلى التهاب الزائدة الدودية[١١]. وفي الخريف التالي، رحلت الأسرة بصفة نهائية عن بلدة **ب**، بعد أن سجلت صحة الأب تحسناً ملموساً، وأقامت أول الأمر في البلدة التي فيها مصنع الأب، ثم انتقلت نهائياً بعد قرابة عام واحد إلى فيينا.

كانت دورا، وقد بلغت ريعان الشباب وأصابت حظاً موفوراً من الذكاء واللطف، مصدر همّ وغمّ بالغين لوالديها. وكانت الأمراض الرئيسية لحالتها الاكتئاب وتغيُّر طبعها. كان واضحاً للعيان أنها غير راضية عن نفسها ولا عن ذويها. وكانت تسلك سلوكاً مجافياً حيال والدها، ولا تتفاهم على الإطلاق مع والدتها التي كانت تصرّ على حثّها على المشاركة في الأشغال المنزلية. وكانت تسعى إلى تحاشي كل شكل من أشكال العلاقات الاجتماعية، وتشغل نفسها، بقدر ما يتيح لها ذلك ما هي عليه من تعب وعجز عن التركيز، بحضور المحاضرات في الأندية الاجتماعية وبمتابعة دروس جادة. وقد استبدّ بأهلها الهلع يوم عثرا في مكتب الفتاة أو فوقه على رسالة تودعهما فيها، قائلة إنها ما عادت تطيق الحياة[١٢]. وحدس الأب، بما أوتي من ذكاء، بأن الفتاة لم تعقد عزماً جاداً على الانتحار، ولكنه ظل مشدوهاً للأمر؛ ولما أصابتها، على إثر مناقشة غير ذات

---

١١ ـ انظر بصدد هذه النقطة تحليل الحلم الثاني.

١٢ ـ إن علاجي للحالة، وبالتالي معرفتي بترابطات تاريخها المرضي، بقيا، كما أسلفت الذكر، جزئيين ولا أستطيع، لهذا السبب بالذات، أن أقدّم تفسيراً لبعض النقاط، أو لا أستطيع بصدد نقاط أخرى أن أقدِّم أكثر من تلميحات أو افتراضات. وحينما ورد ذكر الرسالة المشار إليها في إحدى جلساتنا، تساءلت الفتاة مندهشة: «ألا كيف عثرا على تلك الرسالة؟ لقد كنت أغلقت عليها في مكتبي». ولكن بما أنها كانت تعلم أن والديها قرآ مسودة رسالة الوداع تلك، فقد استنتجتُ من ذلك أنها تعمدت هي نفسها أن تقع بين أيديهما.



شأن دارت بينها وبين أبيها، نوبة إغماء لأول مرة في حياتها ـ وهي واقعة آلت أصلاً إلى النساية[١٣] ـ قرّ عزمه، رغم ما أبدته من معارضة، على إرسالها إليَّ للعلاج.

إن تاريخ الحالة، على نحو ما أوجزته حتى الآن، لا يبدو، في حاصل الكلام، مما يستأهل النشر. «هستيريا صغرى» بأعراضها البدنية والنفسية الأكثر شيوعاً: الزُّلة، السعال العصبي، انحباس الصوت، وربما أيضاً الشقيقة؛ وعلاوة على ذلك، الاكتئاب، والمزاج الهستيري اللااجتماعي، والقرف ـ غير الصادق كل الصدق في أرجح الظن ـ من الحياة[١٤]. ومن المحقق أنه نُشرت من قبل تقارير عن حالات هستيرية أكثر إثارة للاهتمام، وبصياغة أفضل في الغالب من الأحوال، إذ لن تتضمن الصفحات التالية أيضاً شيئاً من عقابيل الحساسية الجِلدية أو انكماش الحقل البصري، إلخ. على أني أبيح لنفسي فقط أن ألفت النظر إلى أن جميع ما تجري مراكمته من الظاهرات الغريبة والباعثة على العجب التي تحدث في الهستيريا لم يتقدم بنا تقدماً يذكر في تفهم هذا المرض الذي لا يزال إلى اليوم على إلغازه. فما نحتاج إليه هو بالتحديد تسليط الضوء على أبسط الحالات وأكثرها تواتراً، وعلى أعراضها النمطية. ولن أكون إلا مغتبطاً فيما لو أتاحت لي الظروف أن أوضح حالة الهستيريا الصغرى هذه إيضاحاً كاملاً. وطبقاً لما أفادتني خبرتي من خلال التعامل مع مرضى آخرين فلست أشك في أن الطرائق التحليلية التي لجأت إليها في هذه الحالة كانت ستكون كافية.

بعيد نشر كتاب **دراسات في الهستيريا** الذي ألَّفته مع د. ج. بروير والذي صدر عام ١٨٩٥، سألت زميلاً مبرِّزاً رأيه في النظرية السيكولوجية للهستيريا كما عرضتها في هذا الكتاب، فأجابني بصريح القول أنه يرى فيها تعميماً لا يستند إلى أساس لنتائج قد لا تصدق إلا على بضع حالات. وقد عاينت منذئذ عدداً موفوراً من حالات الهستيريا، واستغرقني العمل في كل حالة بضعة أيام أو

---

١٣ ـ أعتقد أنه لوحظت أيضاً في أثناء هذه النوبة تشنجات وحالة هذيانية. ولكن بما أن التحليل لم يتوغل إلى هذه الواقعة أيضاً، فلست أحوز أي ذكرى من قبلها بهذا الخصوص.

١٤ ـ باللاتينية في النص: Taedium Vetae. «م».



بضعة أسابيع أو بضعة أشهر أو بضع سنوات، ولم تكن أية حالة تخلو من المحدِّدات النفسية المبيَّنة في **دراسات في الهستيريا**، وأعني بها الرضة النفسية، والتصارع بين الانفعالات الوجدانية، وكما أضفت في كتابات لاحقة، الامتداد إلى الدائرة الجنسية. وبديهي أنه ليس لنا أن نتوقع، متى ما كان الأمر يتعلق بمادة لم تغدُ باتولوجية إلا من جراء نزوعها إلى أن تبقى خبيئة، أن يأتي المرضى من تلقاء أنفسهم إلى الطبيب ليكاشفوه بها؛ كما أنه لا يجوز لنا أن نذعن لأول «لا» تعترض سبيل الباحث[١٥].

أما فيما يتعلق بمريضتي دورا فإن الفضل يعود، كما ذكرت من قبل، إلى ذكاء أبيها في أنني لم أجد من حاجة إلى البحث لديها عن نقطة البدء، وعلى الأقل فيما يتّصل بالشكل الأحدث عهداً الذي تلبّسه مرضها. فقد أعلمني والدها أن أواصر صداقة حميمة ربطته هو وأسرته في بلدة **ب** بزوجين كانا يقيمان هناك منذ سنوات عديدة. وكانت السيدة **ك** قد تولت أمر العناية به في إبان مرضه الطويل الأمد، فصار لها حق دائم، على حدّ قوله، في عرفانه. ويظهر أن السيد **ك** كان يحيط بنته دورا بالودّ، وكان يخرج معها للنزهة حين يكون في البلدة ويقدِّم لها هدايا صغيرة، ولم يرَ أحد في ذلك ضرّاً. وكانت دورا، على ما قيل لي، تولي طفلي الزوجين **ك** عنايتها الفائقة، فلكأنها نابت لهما مناب الأم. وحين قدم الأب وابنته لرؤيتي قبل عامين، في فصل الصيف، كانا في طريقهما

١٥ ـ هاكم مثالاً على ذلك. كان زميل من زملائي الفييناويين على اقتناع بأن العوامل الجنسية عديمة الأهمية في الهستيريا، وأرجح الظن أن اقتناعه هذا دعمته خبرات مماثلة لتلك التي ستلي؛ وقد عقد العزم على أن يلقي على فتاة في الرابعة عشرة من العمر، كانت تشكو من تقيؤات هستيرية حادة، هذا السؤال غير المستحب: «هل عرفت يوماً ما علاقة عاطفية؟». فأجابته الفتاة أن لا، متصنعة في أرجح الظن الدهشة، ثم روت لأمها بعبارات لا تخلو من قحة: «تصوري أن ذلك الغبي سألني عما إذا كنت عاشقة». وقد حضرت إليّ فيما بعد العلاج، واتضح، ليس من الجلسة الأولى بطبيعة الحال، أنها تعاطت على مدى سنوات عديدة الاستمناء المصحوب بإفرازات بيضٍ غزيرة (وثيقة الصلة عندها بالتقيؤ)؛ ثم أقلعت من تلقاء نفسها عن عادة الاستمناء، ولكن ظلت تعذِّبها، بعد استنكافها، مشاعر إثم بالغة العنف، حتى لكان يتراءى لها أن جميع المصائب التي نزلت بأسرتها هي قصاص من الله على خطيئتها. هذا إلى أنها كانت تأثرت بقصة خالة لها أخفى عنها أهلها بنجاح فيما يظنون أمر حبلها اللامشروع (المحدِّد الثاني لقيئها). وكانوا يتوهمون أنها «مجرد طفلة»، ولكن تبيَّن أنها خبرت كل ما هو أساسي في العلاقات الجنسية.



إلى الانضمام إلى السيد والسيدة **ك** اللذين كانا يصطافان على ضفاف إحدى بحيراتنا الجبلية. وكان المفروض بدورا أن تقيم عدة أسابيع في منزل آل **ك**، على حين أن الأب كان ينوي الرحيل في خلال أيام قليلة. وكان السيد **ك** موجوداً هو الآخر هناك. ولكن حينما تهيأ الأب للرحيل، أعلنت الفتاة فجأة، وبمنتهى الجزم، أنها سترحل هي الأخرى، فكان لها ما أرادت. ولم تلقِ ضوءاً على مسلكها الغريب هذا إلا بعد بضعة أيام حينما روت لأمها، كيما تنقل هذه بدورها كلامها إلى أبيها، أن السيد **ك** اجترأ، في أثناء نزهة لهما عند البحيرة، على مطارحتها الغرام. ولما طلب الأب والعم، في اللقاء التالي، من السيد **ك** إيضاحاً، أنكر المتهم أشدَّ الإنكار أن تكون صدرت عنه أية بادرة من شأنها أن تؤوَّل هذا التأويل، وألقى في خاتمة المطاف الشبهة على الفتاة نفسها قائلاً إن السيدة **ك** أخبرته عنها أنها لا تهتم بشيء إلا بالأمور الجنسية، بل أنها قرأت، في منزلهما على شاطئ البحيرة، كتاب **فيزيولوجيا الحب** لمانتيغازا Mantegazza[١٦]، وكتباً أخرى من هذا القبيل. وعلى هذا، تكون مطالعات كهذه هي التي أثارت الفتاة في أغلب الظن، كما قال، فـ«تخيَّلت» كلَّ المشهد الذي روته.

قال الأب: «لا أشك في أن هذه الحادثة هي السبب في ما طرأ على دورا من انقلاب في المزاج وسرعة انفعال وأفكار انتحارية. وهي تلحّ عليّ كي أقطع صلاتي بالسيد **ك**، وعلى الأخص بالسيدة **ك** التي كانت تجلّها من قبل إلى أقصى حدود الإجلال. لكني لا أستطيع أن أفعل ذلك، أولاً لأنني أنا نفسي أعتبر قصة دورا عن عروض السيد **ك** غير الشريفة مجرد وهم تسلط عليها، وثانياً لأنه تربطني بالسيدة **ك** عرى صداقة صادقة، ولا أحبّ أن أسببٍّ لها غماً أو عناء. فهذه المرأة المسكينة تعيسة أشد التعس مع زوجها، وفكرتي عن هذا الرجل ليست أصلاً عالية. ثم إنها تعاني هي نفسها من عصبية مفرطة، ولا سند لها غيري. وبالنظر إلى حالتي الصحية، فلا داعي لأن أؤكد لك أن علاقتنا لا تنطوي على شيء غير مشروع. فما نحن إلا كائنان تعيسان نحاول، قدر المستطاع، أن نتعزى

١٦ ـ باولو مانتيغازا: طبيب وعالم جنسي إيطالي (١٨٣١ ـ ١٩١٠). وقد تُرجم كتابه **فيزيولوجيا الحب** إلى الألمانية عام ١٨٧٧.



بتبادل الودّ والتعاطف. وأنت تعلم أن امرأتي لا تعني لي شيئاً. بيد أن دورا، التي ورثت عني عنادي، لا يمكن لشيء أن يصرفها عن كراهيتها لآل **ك**. وقد اعترتها نوبتها الأخيرة على إثر محادثة معي كررتْ فيها من جديد طلبها مني. فعليك أنت، الآن، أن تحاول ردَّها إلى الصواب».

غير أن الأب كان، في أحاديث أخرى، قد حاول أن يلقي التبعة في طباع ابنته التي لا تطاق على زوجته التي كان سلوكها الغريب يجعل الحياة المشتركة في البيت متعذرة. إذاً، لم يكن من العسير عليّ أن ألحظ شيئاً من التناقض في تصريحات الأب. ولكنني كنت قررت من البداية ألا أقطع برأي بصدد حقيقة الأمر إلا بعد أن أستمع إلى ما سيقوله الطرف الآخر أيضاً.

إذاً، من المفترض بالحادثة التي وقعت مع **ك** ـ المغازلة وما نجم عنها من مساس بشرفها ـ أن تكون هي التي شكلت بالنسبة إلى دورا الرضة النفسية التي كنا، أنا وبروير، أكدنا من قبل أنها الشرط المسبق اللازم لقيام حالة هستيرية. ولكن هذه الحالة الجديدة كانت تنطوي على جميع الإشكالات التي حدتني منذئذ إلى تخطي هذه النظرية[١٧]. بيد أنها كانت تنطوي، علاوة على ذلك، على إشكال جديد من طبيعة خاصة. وبالفعل، إن الرضة كما تتجلى لنا في قصة حياة دورا تقف عاجزة، كما يحدث غالباً في قصص المرضى الهستيريين، عن تعليل الطابع المميِّز للأعراض أو تحديده؛ وما كان فهمنا للعلاقات وللروابط ليزيد أو ينقص لو أن أعراضاً أخرى غير السعال العصبي وانحباس الصوت والاكتئاب والقرف من الحياة ظهرت عقب الرضة. وينبغي أن نضيف الآن أن جانباً من هذه الأعراض ـ السعال وانحباس الصوت ـ كان قد ظهر لدى المريضة قبل الرضة بسنوات، وأن

١٧ ـ لقد تجاوزت هذه النظرية لكن من دون أن أتخلى عنها، أي أنني لا أعتبرها اليوم خاطئة، بل غير كاملة. فأنا ما عدت أشدِّد على الحالات النوامية المزعومة، التي كان يقال إنها لا بدّ أن تظهر لدى المرضى عقب الرضة والتي كان يعتقد أنها هي المسؤولة عن السيرورات النفسية اللاسوية التي تعقبها. ولئن جاز في عمل مشترك تحديد الأنصبة في وقت لاحق، فإنه بودّي أن أؤكد هنا أن مسألة «الحالات النوامية»، التي رأى فيها بعض النقاد نواة كتابنا، كانت برمتها من اقتراح بروير. أما من جانبي فإني أرى أن هذا الاصطلاح لا جدوى منه، بل قد يكون مضللاً لأنه يقطع استمرارية المشكلة التي تستوجب بيان طبيعة السيرورات النفسية لتشكيل الأعراض الهستيرية.



الأعراض الأولى يعود عمرها حتى إلى الطفولة، إذ كان ظهورها في عامها الثامن. لزام علينا إذاً، إذا كنا لا نريد أن نتخلى عن النظرية الرَضِّية، أن نعود القهقرى إلى عهد الطفولة لنبحث فيه عن تأثيرات أو خبرات يمكن أن يكون لها أثر مماثل للأثر الذي ينجم عن الرضة؛ وإنه لمما تجدر ملاحظته أنه حتى دراسة الحالات التي لم تتظاهر أعراضها الأولى في عهد الطفولة ساقتني هي الأخرى إلى الرجوع إلى الوراء في تاريخ حياة المريض وصولاً إلى الأعوام الأولى من الطفولة[١٨].

بعدما تمّ التغلب على صعوبات العلاج الأولى، كاشفتني دورا بحادثة سابقة، أقدر من الأخرى على أن تفعل فعل الرضة الجنسية. كانت آنئذ في الرابعة عشرة من العمر، وقد اتفق السيد **ك** معها ومع زوجته على أن تحضرا إلى مخزنه بعد ظهر ذلك اليوم لمشاهدة احتفال ديني. لكنه أقنع زوجته بالبقاء في البيت وصرف العاملين عنه. فلما دخلت الفتاة إلى المخزن، وجدته بمفرده. ولما اقتربت ساعة مرور الموكب، طلب إلى الفتاة أن تنتظره عند الباب المفضي من المخزن إلى سلم الطابق العلوي، ريثما يغلق هو المصاريع. ثم عاد إليها، ولكنه بدلاً من أن يخرج من الباب المفتوح شدّ الفتاة إليه وقبّلها في فمها. وكان هذا من شأنه أن يستثير لدى فتاة في الرابعة عشرة من العمر، ما قربها قط رجل بعد، إحساساً واضحاً بالتهيُّج الجنسي. غير أن دورا اعتراها ساعتئذ شعور جارف بالاشمئزاز، فانتزعت نفسها منه بعنف وهرعت، وقد تملَّصت منه، نحو السلم، ومنه نحو باب المخزن. بيد أنها ظلت تلتقي السيد **ك**، وامتنع كلاهما عن الإشارة إلى ذلك الحادث، ومن ثم احتفظت به، على حدّ قولها، في سرِّها إلى أن باحت به أثناء العلاج. وقد صارت على أية حال تتحاشى فيما بعد البقاء منفردة مع السيد **ك**. وكان الزوجان **ك** قد رتَّبا مشروعاً لرحلة تدوم بضعة أيام، وكان المتفق عليه أن تشارك فيها دورا أيضاً. بيد أنها أبت، بعد قبلة المخزن، أن تصحبهما بدون أن تفصح عن أسباب ذلك.

---

١٨ ـ انظر مقالي: **حول إتيولوجيا الهستيريا**، في **المجلة الطبية الفييناوية**، ١٨٩١، الأعداد ٢٢ ـ ٢٦، المعاد نشره في مجموعة من المقالات عن الأعصبة، ١٩٠٦.



في هذا الحادث الثاني، وإن المتقدم على سابقه في الزمن، كان سلوك الفتاة ذات الأربعة عشر عاماً سلوكاً هستيرياً تماماً. وإني أعتبر بلا تردد هستيرياً كل شخص لا تستثير لديه سانحة الإثارة الجنسية سوى الاشمئزاز، حصراً أو على وجه الخصوص، سيان ظهرت لديه أو لم تظهر أعراض بدنية. واستجلاء كنه آلية هذا **الانقلاب في الانفعال الوجداني** يبقى واحدة من أهم مشكلات علم نفس الأعصبة ومن أعسرها في آن معاً. وفي تقديري أني ما زلت بعيداً عن بلوغ هذا الهدف؛ وفضلاً عن ذلك، لن يسعني، ضمن الإطار المحدود لهذا التقرير، أن أعرض إلا جانباً مما أعرفه.

إن حالة مريضتنا دورا لا تكون استوفت حقها من التوصيف والتمييز إن نحن اكتفينا بإبراز واقعة الانقلاب في الانفعال الوجداني[١٩]. بل لا بد أن نضيف القول إنه حدثت أيضاً إزاحة في الإحساس. فبدلاً من الإحساس الجنسي، الذي ما كان ليغيب في ظروف كهذه[٢٠] عند فتاة سوية، ساورها ذلك الإحساس المنغِّص المرتبط بالجزء المخاطي العلوي من القناة الهضمية: التقزز. ومن المؤكد إن إثارة الشفتين بالقبلة قد أثَّرت على هذا الموضع، لكنني أعتقد أني مستطيع أيضاً أن أتعرف هنا مفعول عامل آخر بعدُ[٢١].

إن التقزز الذي ساور دورا ساعتئذ لم يتحول عندها إلى عرَض دائم، ومن ثم لم يكن له من وجود لديها وقت العلاج إلا بالقوة، إن جاز لي القول. كانت تأكل بصعوبة، وقد أقرّت بأن لديها شيئاً من النفور من الأطعمة. وبالمقابل، خلَّف لديها ذلك الحادث أثراً آخر، في صورة هلوسة حواسية كانت تعاود ظهورها بين الفينة والفينة أثناء سردها قصتها. فقد ذكرت أنها لا تزال تحسّ إلى الآن، في الجزء العلوي من جسمها، بضغط ذلك العناق. وبمقتضى بعض قوانين

١٩ ـ الانفعال الوجداني Affect عند مدرسة التحليل النفسي هو التعبير الكيفي عن كمّ الطاقة الغريزية ومتحولاتها، وسواء اقترنت الحالة الوجدانية بمشاعر لذة أو تنغيص. «م».

٢٠ ـ إن تقييم هذه الشروط سيكون أسهل متى ما سلَّطنا عليها لاحقاً مزيداً من الضوء.

٢١ ـ من المحقق أن تقزُّز دورا ما كان يرجع إلى أسباب عارضة، وإلا لكانت تذكَّرتها وذكرتها. وقد تعرفتُ على السيد **ك** عرضاً حين صحب والد المريضة في زيارته لي؛ فهو رجل في ريعان شبابه، ذو مظهر جذاب.



تكوين الأعراض التي تأتَّى لي أن أكشفها، وعن طريق المقابلة مع سمات غريبة أخرى للمريضة كان سيستحيل بغير ذلك فهمها ـ من قبيل ذلك مثلاً أنها لا ترغب في المرور بجانب رجل منهمك في الحديث بلهفة أو مودة وعاطفية مع سيدة ما ـ تسنى لي على هذا النحو أن أعيد في ذهني بناء الحادث المشار إليه. فأنا أعتقد أنها ما أحست، في أثناء ذلك العناق المشبوب، بالقبلة على شفتيها فحسب، بل كذلك بضغط القضيب المنتصب على جسمها. وهذا الإحساس الجارح لمشاعرها جرى حذفه من ذاكرتها، وكبت، وأُحِلّ محله إحساس بريء بضغط على صدرها، وهو إحساس يدين بشدته المسرفة لكبت الدافع الغريزي. ومن هنا كانت إزاحة جديدة من الجزء السفلي إلى الجزء العلوي من الجسم[٢٢]. وبالمقابل، إن سلوك دورا القهري جاء وكأنه صادر عن تذكر لا تحريف فيه للحادث. فهي ما كانت ترغب في المرور بجانب رجل تعتقد أنه في حالة تهيُّج جنسي، لأنها لا تريد أن ترى مرة ثانية العلامة البدنية لهذا التهيُّج.

إنه لما يسترعي الانتباه أن ثلاثة أعراض ـ التقزز، والإحساس بالضغط على الجزء العلوي من الجسم، والنفور من خلوة الرجال العاطفية مع المرأة ـ تنجم هنا عن حادثة واحدة، وأن المقاربة بين هذه المؤشرات الثلاثة هي وحدها التي تتيح لنا أن نفهم سيرورة تكوين الأعراض. فالتقزز عَرَض مناظر لكبت المنطقة الشهوية الشفوية (المنطقة المدللة، كما سنرى، بنتيجة التمصُّص الطفلي). وأرجح الظن أن ضغط العضو المنتصب كان من نتيجته تغيُّر مماثل في العضو الأنثي المناظر، البظر. وقد رُبط تهيُّج هذه المنطقة الثانية، بواسطة الإزاحة، بالإحساس المزامن له بالضغط على الصدر، وهناك تثبَّت. أما تجنُّب الرجال الذين يحتمل أن يكونوا في حالة تهيُّج جنسي فمحكوم بآلية رهاب، وذلك

٢٢ ـ إن مثل هذه الضروب من الإزاحة ليست فرضاً فرضناه بغية تفسير هذه الحالة وحدها، وإنما هي نابعة من عدد كبير من الأعراض التي لا سبيل بدونها إلى تفسيرها. وبعد أن كتبت هذا النص، قصدتني فتاة كانت مخطوبة إلى شاب كانت مغرمة به من قبل، ثم اعترتها تجاهه برودة ووقعت فريسة اكتئاب شديد. وقد أبدت عن شعور مماثل بالذعر تسبب فيه عناق (بلا قبلة). وقد أفلحتُ في هذه الحالة، بغير ما صعوبة، في إرجاع خوف الفتاة إلى انتصاب الرجل الذي أحسَّت به، وإن محته من شعورها.



تفادياً لتكرار تجربة الإدراك الحسي المكبوت.

تأكداً من صحة الأساس الذي بنيت عليه هذه الاستنتاجات، سألت المريضة، بمنتهى التحرز، عما إذا كانت لديها فكرة ما عن العلائم البدنية للتهيُّج عند الرجل. فأجابتني أن نعم في الوقت الحاضر، ولكنها أضافت تقول إنها تعتقد أنها ما كانت تعرف شيئاً من هذا عهدئذ. وكنت قد أخذت مع هذه المريضة من البداية كل الحيطة اللازمة حتى لا أمدَّها بأية معلومات جديدة في مضمار الحياة الجنسية، وذلك ليس بوازع من تزمت الضمير، وإنما لكي أخضِع فروضي في هذه الحالة لضبط صارم. وما كنت أسمِّي الأشياء بأسمائها إلا حين تكون تلميحاتها إليها واضحة إلى حدّ لا تعود معه ترجمتها المباشرة تنطوي على مجازفة ما. وكانت، متى ما أجابت إجابة سريعة وصريحة، تدلِّل على أنها على سبق معرفة بالشيء. ولكن من أين جاءتها هذه المعرفة؟ هذا لغز ما استطاعت ذكرياتها أن تفكه: فهي قد نسيت تماماً مصدر جميع هذه المعلومات[٢٣].

إن كان لي أن أتصور أن المشهد في المخزن قد جرى على النحو الذي ذكرت، فبوسعي أن أصل إلى التفسير التالي لأصل الشعور بالتقزز[٢٤]. فالإحساس بالتقزز يبدو أنه في الأصل استجابة لرائحة البراز (ولمظهره أيضاً في وقت لاحق). والحال أن أعضاء الرجل التناسلية، وعلى الأخص القضيب، يمكن أن تذكر بالوظائف الإخراجية، لأنها تضطلع، فضلاً عن الوظيفة الجنسية، بوظيفة التبول أيضاً. بل إن الوظيفة الأخيرة هذه هي أقدم الوظيفتين والوحيدة المعروفة منهما في المرحلة ما قبل الجنسية. وعلى هذا المنوال يغدو التقزز تعبيراً انفعالياً عن الحياة الجنسية. والقول المأثور لأحد آباء الكنيسة Inter urinas et Faeces nascimur[٢٥] مرتبط بالحياة الجنسية ولا يقبل انفصالاً عنها، بالرغم من كل الجهود لخلع هالة

---

٢٣ ـ انظر الحلم الثاني.

٢٤ ـ هنا، كما الشأن في جميع الحالات المشابهة، ينبغي أن نتوقع لا تعليلات بسيطة، بل متعددة، أي تعيين مضاعف **Surdétermination**.

٢٥ ـ باللاتينية في النص: بين البول والبراز نولد، وهو قول كان يُنسب خطأً إلى القديس أوغسطينوس (٣٥١ ـ ٤٣٠) إلى أن أثبت البحث الحديث أن قائله هو فورفوريوس الصوري (٢٣٤ ـ ٣٠٥) في كتابه **الرد على النصارى**. «م».



من المثالية عليها. بيد أني أحرص على الإعلان أن المشكلة في نظري لا تنحل بمجرد الاهتداء إلى طريق التداعي هذا. فإن يكن هذا التداعي قابلاً للابتعاث، فهذا لا يعني أنه من المحتم أن يُبتعث فعلاً. والواقع أنه لن يجد في الظروف السوية سبيلاً إلى الابتعاث. ومعرفة سبل التداعي لا تغني عن الحاجة إلى معرفة القوى التي تسلك هذه السبل[٢٦].

ولم يكن يسيراً عليّ على كل حال أن أوجِّه انتباه مريضتي إلى علاقتها بالسيد **ك**. فقد كانت تدعي أنها انتهت من هذا الشخص. فالطبقة العليا من تداعياتها، وكل ما كان يصير عندها بيسر شعورياً، وما تتذكره من اليوم السابق باعتباره شعورياً، كل ذلك كان يرتبط عندها دوماً بأبيها. وكان صحيحاً تماماً أنها ما استطاعت أن تغفر لأبيها استمرار علاقاته بالسيد **ك**، وعلى الأخص بالسيدة **ك**. وكانت تؤول هذه العلاقات على أية حال تأويلاً مغايراً تماماً لما كان الأب يتمنى. ففي نظرها لم يكن ثمة من شك في أن الصلات التي تربط أباها بتلك المرأة الشابة والحسناء هي من النوع الغرامي العادي. وما كان شيء مما يمكن أن يسهم في تعضيد اقتناعها هذا ليفلت من ملاحظتها التي كانت في هذا الصدد حادة ثاقبة: **فهنا لم يكن ثمة فجوة في ذاكرتها**. كان التعارف مع الزوجين **ك** قد تمّ قبل مرض الأب الخطير، لكن العلاقات لم تغدُ حميمة إلا حين فرضت المرأة الشابة نفسها أثناء مرضه كممرضة له، بينما لبثت الأم بعيدة عن سرير المريض. وفي أول اصطياف بعد شفائه حدثت أشياء كان من شأنها أن تفتح عين كل إنسان على الطبيعة الحقيقية لهذه «الصداقة». فقد استأجرت الأسرتان جناحاً مشتركاً في أحد الفنادق. ثم ما لبثت السيدة **ك** أن أعلنت ذات يوم أنها ما عادت تستطيع البقاء في غرفة النوم التي كان يشاطرها إياها حتى

٢٦ ـ تنطوي هذه المناقشات على عناصر نمطية كثيرة وذات قيمة عامة بالنسبة على الهستيريا. فموضوعة الانتصاب تقدم حلاً لبعض من الأعراض الهستيرية الأكثر طرافة، والانتباه الذي توليه المرأة لمعالم أعضاء الرجل التناسلية، كما قد تتراءى لها من خلال الملابس، يغدو، بعد كبته، دافعاً إلى العديد من حالات الخجل المسرف والخوف من حياة المجتمع. والحق أن روابط كثيرة تقوم بين الجنسي والإخراجي، ومهما غالينا في تقدير أهمية دورها في توليد المرض فلسنا نوفيها حقها، وعنها ينشأ أصلاً عدد كبير للغاية من الأرهبة Phobies.



ذلك الوقت أحد ولديها. وبعد بضعة أيام تخلى والد دورا عن غرفته، وانتقل الاثنان إلى غرفتين جديدتين، تقعان في أقصى الداخل ولا يفصل بينهما سوى الممر، بينما لم تكن الحجرتان اللتان تخليا عنهما توفر لهما الضمانة نفسها من إزعاج محتمل. وحين أنحت دورا فيما بعد باللائمة على أبيها بخصوص السيدة **ك**، أجاب بأنه لا يفهم هذه العداوة، وأن الأولى بها هي وأخيها أن يعترفا بالجميل للسيدة **ك**. ولما سألت أمها بعد ذلك إيضاحاً للمقصود من هذا الكلام الغامض روت لها أن أباها كان في غاية من التعاسة في ذلك الوقت حتى إنه أراد الانتحار في الغابة. لكن السيدة **ك**، التي حدّثها قلبها بالأمر، لحقت به، على ما يبدو، وأقنعته بتوسلاتها أن يبقي على حياته من أجل ذويه. وطبيعي أن دورا لم تصدِّق هذه القصة، بل ذهبت إلى العكس إلى الافتراض بأن العشيقين لما ضبطا في الغابة، سارع الأب إلى اختلاق قصة الانتحار ليبرر لقاءهما ذاك[٢٧].

بعد عودتهم إلى **ب** صار الأب يذهب كل يوم في ساعة محددة إلى زيارة السيدة **ك** في بيتها، فيما يكون السيد **ك** في مكتبه. ويبدو أن الناس كلهم كانوا يتحدثون في الموضوع، بل إن دورا نفسها وجدت يوماً من يسألها، كما قالت، بخصوص الموضوع بطريقة لها مغزاها؛ وحتى السيد **ك** اشتكى مراراً لوالدة دورا، على حدّ قول هذه الأخيرة، وإن حرص على تجنيبها هي نفسها ـ دورا ـ أي تلميح إلى هذا الموضوع؛ وهذه رهافة في المشاعر تحمد له. وفي أثناء النزهات المشتركة كان الأب والسيدة **ك** يعرفان دائماً كيف يرتِّبان الأمر بحيث ينفردان معاً. ولا شك في أن السيدة **ك** كانت تتلقى منه نقوداً، لأن إنفاقها كان أكثر بكثير من أن تغطيه مواردها أو موارد زوجها. وأضافت دورا تقول إن أباها بدأ يقدِّم الهدايا النفسية للسيدة **ك**، وحتى يخفي أمرها طفق يسرف في الكرم حيال زوجته وحيال دورا نفسها. ولئن كانت المرأة الصبية (السيدة **ك**) تعاني فيما مضى من المرض حتى إنها اضطرت في أحد الأيام إلى تمضية بضعة شهور في إحدى مصحات الأمراض العصبية، فقد غدت الآن موفورة الصحة وطافحة بالحيوية.

---

٢٧ ـ لهذا صلة بتمثيليتها الانتحارية الشخصية التي يمكن أن نرى فيها تعبيراً عن شهية إلى حب مماثل.



بعد الرحيل عن **ب**، تواصلت هذه العلاقات ـ وكان قد صار لها من العمر سنوات ـ وكان الأب يعلن بين الفينة والفينة أنه ما عاد يطيق ذلك المناخ القاسي، وأنه لا مندوحة له عن أن يفكر بنفسه ويهتم لذاته، ويطفق يسعل ويشكو، ثم على حين غرة يرحل إلى **ب**، ومن هناك كان يكتب إليهم رسائل تفيض بالمرح. ولم تكن هذه الأمراض كلها إلا ذريعة للقاء صديقته من جديد. وذات يوم تقرر أن تنتقل الأسرة إلى فيينا، وطفقت دورا تشتبه في وجود سبب خفي وراء هذا القرار. وبالفعل، ما كادت تمضي أسابيع ثلاثة على وصولهم إلى فيينا حتى علمت دورا أن الزوجين **ك** انتقلا بدورهما إليها. وهما موجودان فيها الآن، أي في الوقت الذي تحدثني فيه دورا، بل كثيراً ما كانت تلتقي أباها في الشارع بصحبة السيدة **ك**. وكانت تلتقي كثيراً أيضاً السيد **ك**؛ وكان يتابعها دوماً بنظراته، وقد لمحها يوماً بمفردها فسار وراءها شوطاً طويلاً من الطريق ليعرف إلى أين تقصد، وليطمئن إلى أنها ليست موافية أحدهم إلى موعد.

لم يكن «بابا» صريحاً؛ وكان ينطوي بطبعه على شيء من الرياء، ولا يفكر إلا بما يسرّه هو، وكان موهوباً في تدبُّر الأشياء بحيث تكون في صالحه إلى أقصى حدّ. كانت دورا تعرب عن انتقاداتها هذه في حضوري، فيما كان أبوها، وقد ساءت صحته من جديد، قد رحل إلى **ب** لتمضية بضعة أسابيع فيها. وبديهي أن الفتاة ما لبثت أن أدركت بثاقب بصيرتها أن السيدة **ك** قد رحلت هي الأخرى إلى **ب** لتزور هناك أهلها.

ما كان بوسعي أن أعترض بشيء على اللوحة التي رسمتها دورا لي عن أبيها ولم يكن يسيراً عليّ أصلاً أن أدرك ما نصيب الصواب في ما تقوله. فحين كانت تتميَّز غيظاً، كان يتراءى لها أنها أبيحت للسيد **ك** ثمناً لتغاضيه عن العلاقة بين زوجته وبين والد دورا؛ وكنت أستشفّ، وراء عطف دورا على أبيها، حنقاً من معاملته لها هذه المعاملة. وفي أحيان أخرى، كانت تقرّ بأنها أخطأت بمغالاتها في التحدث بمثل ما كانت تتحدث به، فالرجلان لم يعقدا قط بطبيعة الحال صفقة حقيقية تجعل منها، هي، موضوع مقايضة؛ ومن المحقق أن والدها بوجه خاص كان سيتراجع مرتاعاً إزاء افتراض كهذا، ولكنه كان من أولئك الرجال الذين



يتقنون فنَّ التخفيف من حدة نزاع ما بتزييفهم ما قد يصدرونه من حكم على إحدى القضيتين المتناقضتين. فلو نُبِّه إلى الخطر الذي لا مفرّ من أن يحيق بفتاة في مقتبل العمر من جراء صلتها الدائمة، وغير الخاضعة لرقابة، برجل لا يلقى لدى زوجته بغيته من الإشباع، لكان الأب أجاب بكل تأكيد أنه يثق بابنته، وأن رجلاً مثل **ك** لا يمكن بحال أن يكون خطراً عليها، وأن صديقه ما كان له، هو نفسه، إلا أن يترفع عن مقاصد ومآرب كهذه؛ أو كان سيقول: «دورا لا تزال طفلة، السيد **ك** يعاملها كطفلة..». ولكن الحق أن كلاً من الرجلين كان يتحاشى أن يستخلص من سلوك الآخر نتائج تتعارض ورغائبه. ومن هنا أمكن للسيد **ك**، على مدى سنة كاملة، وما دام موجوداً في البلدة، أن يرسل يومياً الزهور إلى دورا، وأن ينتهز كل سانحة ليقدِّم لها هدايا نفيسة، وأن يقضي كل أوقات فراغه بصحبتها، بدون أن ينتبه والدها إلى شيء في هذا السلوك يمكن أن يُفسَّر على أنه تودد غرامي.

حين يواجه الطبيب، في أثناء العلاج التحليلي النفسي، سلسلة من الأفكار السليمة المنطق، الدامغة الحجة، قد يأخذه لهنيهة من الزمن الارتباك، فيسارع المريض إلى انتهاز الفرصة ليطرح عليه هذا السؤال: «كل ذلك صحيح وواقع! وبعد أن رويت لك ما رويت، فما عساك أن تغيِّر فيه؟». ولا يلبث الطبيب أن يفطن إلى أن المريض ما لجأ إلى هذه الأفكار، التي يتعذر تفنيدها بالتحليل، إلا ليحجب أفكاراً أخرى تتوق إلى الإفلات من قبضة النقد والوعي. إن وجود سلسلة من المآخذ ضد أشخاص آخرين يحمل على افتراض وجود سلسلة من المآخذ المماثلة في طبيعتها والموجَّهة ضد الذات. وحسب الطبيب عندئذ أن يقلب كل مأخذ من هذه المآخذ ضد شخص الناطق بها. وهذه الطريقة التي يعتمدها المرضى في دفع التأنيب الذاتي عن أنفسهم بتوجيه التأنيب عينه إلى أشخاص آخرين يتحكم بها بلا جدال قدر من الآلية. وإننا لواجدون نموذجاً لها في ردود الأطفال الذين متى ما أُتهموا بالكذب أجابوا بلا تردد: «كذاب! إنما أنت الكذاب!». أما الراشد فإنه، في مسعاه إلى ردّ الإهانة، يبحث عن نقطة ضعف حقيقية في شخص خصمه ولا يحاول أن يرد الإهانة إليه كما هي بلا

تعديل. وهذا الإسقاط للمآخذ على الآخرين، بدون تغيير في مضمونها، ومن ثم بدون تكيُّف مع الواقع، يتجلى في البارانويا كتعبير عن سيرورة تكوين الهذاء.

لقد كانت مآخذ دورا على أبيها مشبعة، «مبطّنة»، جميعها بلا استثناء، بمآخذ على ذاتها من طبيعة مماثلة، كما سنبيِّن ذلك بالتفصيل. وكانت على حقّ في اعتقادها بأن أباها لا يريد أن يفطن إلى سلوك السيد **ك** تجاه ابنته، تفادياً لإرباكه في علاقته بالسيدة **ك**. ولكنها فعلت بالتحديد الشيء عينه. فقد جعلت من نفسها شريكة متواطئة في هذه العلاقات ونحَّت من وعيها جميع القرائن التي من شأنها أن تكشف عن الطبيعة الحقيقية لهذه العلاقات. وإنما على إثر المغامرة على ضفاف البحيرة بدأت تعي الموضوع وتواجه أباها بمتطلباتها الصارمة. أما طوال السنوات التي سبقت فقد عملت كل ما بوسعها لتيسير علاقات أبيها بالسيدة **ك**. وما كانت تذهب قط إلى السيدة **ك** حين كانت تفترض أن أباها موجود عندها. وكانت تعلم أن الطفلين لا بدّ، والحالة هذه، أن يكونا خارج المنزل، فكانت توجِّه خطاها بحيث تلتقيهما وتتنزه معهما. وكان في البيت شخص واحد رغب في وقت مبكر في فتح عيني دورا على حقيقة علاقات أبيها بالسيدة **ك**، وفي حضِّها على اتخاذ موقف ضد هذه المرأة. تلك كانت مربِّيتها الأخيرة، وهي آنسة لم تعد في مقتبل العمر، مثقفة ومتحررة الفكر[٢٨]. وقد أقامت المعلمة والتلميذة على تفاهم جيِّد لفترة غير قليلة من الزمن، ثم ما عتمت دورا أن تخاصمت معها على حين غرة وطلبت رفتها.

أما ما دام للمربِّية قدر من النفوذ، فقد كانت تستغله في تأليب دورا وأمها على السيدة **ك**. وكانت توضح للأم أنه مما يتنافى وكرامتها أن تغضي عن مثل تلك الصلة الحميمة بين زوجها وامرأة غريبة؛ كما كانت تلفت انتباه دورا إلى ما هو غريب ومريب في هذه العلاقة. بيد أن جهودها ذهبت أدراج الرياح؛ فقد

٢٨ ـ كانت هذه المربِّية تطالع جميع الكتب التي تتعلق بالحياة الجنسية، وما شابه، وكانت تحدِّث دورا عن هذه المسائل، طالبة إليها بصراحة ألا تفاتح ذويها بما يدور بينهما من كلام، لأنه لا سبيل إلى معرفة ما يمكن أن يكون موقفهما من هذه الأمور. وقد خيِّل إليّ لحين من الزمن أن دورا تدين لهذه المرأة بكل معارفها ومعلوماتها السرية، ولعلي لم أكن مخطئاً كل الخطأ بصدد هذه النقطة.



لبثت دورا على تعلقها بالسيدة **ك**، ولم تشأ أن تعرف شيئاً مما يمكن أن يعكر نظرتها إلى علاقة أبيها بهذه السيدة. وبالمقابل، كانت دورا تدرك جيداً طبيعة الدوافع التي تحرك المربِّية.. فبقدر ما كانت دورا عمياء في اتجاه، كانت ثاقبة البصر في الاتجاه الآخر. فقد فطنت إلى أن المربِّية مغرمة بأبيها. فحين يكون الأب حاضراً كانت المربِّية تبدو شخصاً مختلفاً تماماً؛ وكانت تعرف عندئذ كيف تأخذ سمت الشخص المرح والخدوم. ويوم كانت الأسرة تقطن المدينة الصناعية بعيداً عن السيدة **ك**، كانت المربِّية تحاول أن تقلب مشاعر دورا على أمها التي كانت تصير عندئذ غريمتها ذات الشأن. بيد أن دورا لم تضمر لها إلى هنا حقداً. وما ثارت حفيظتها إلا حينما تبيَّن لها أنها هي نفسها لا تعني للمربية شيئاً على الإطلاق، وأن الحب الذي محضتها إياه هذه الأخيرة إنما كان ينصبّ في الواقع على أبيها. فما دام الأب غائباً عن المدينة الصناعية، كانت المربِّية لا تملك وقتاً حراً تمضيه مع دورا، وتأبى الخروج معها إلى النزهة، ولا تلقي بالاً إلى دراستها. ولا يكاد الأب يعود من بلدة **ب**، حتى تعود المربِّية من جديد على أهبة الاستعداد لأداء كل خدمة وتقديم كل مساعدة. عندئذ تحولت دورا عنها نهائياً.

لقد بيَّنت المربِّية المسكينة لدورا، بجلاء كريه إلى النفس، جانباً من حقيقة سلوكها الخاص. فقد سلكت دورا مع طفلي السيدة **ك** مسلك مربيتها معها بين الآن والآخر. فقد كانت دورا تقوم مقام الأم للطفلين، وتشرف على تعليمهما، وتأخذهما للنزهة، وتقدِّم لهما تعويضاً كاملاً عن ضآلة ما كانت أمهما تحيطهما به من اهتمام ورعاية. وكثيراً ما دار كلام عن الطلاق بين الزوجين **ك**، ولكنه ما تمّ قط لأن السيد **ك** كان أباً عطوفاً ولا يبغي أن يتخلى عن أي من ولديه. وكان الاهتمام المشترك بالطفلين وسيلة تقارب من البداية بين السيد **ك** ودورا. وبديهي أن اهتمام دورا بالطفلين كان ستاراً تخفي وراءه عن نفسها وعن الآخرين شيئاً آخر.

هكذا سلكت دورا حيال الطفلين عين سلوك مربِّيتها تجاهها. والاستنتاج الذي يفرض نفسه في هذه الحال ـ وهو عين الاستنتاج الذي يمكننا استخلاصه من موافقتها الضمنية على علاقة أبيها بالسيدة **ك** ـ هو أنها على مدى تلك السنوات



كانت مغرمة بالسيد **ك**. وحين فاتحتُ دورا بهذا الاستنتاج، لم توافقني في ما ذهبتُ إليه. صحيح أنها سارعت إلى إخباري بأن أشخاصاً آخرين، ومنهم مثلاً ابنة عم لها كانت قد أمضت فترة من الزمن عندهم في بلدة **ب**، قالوا لها: «والله إنك لمجنونة بهذا الرجل!»؛ ولكن ما كان يمكنها هي نفسها أن تتذكر أن مشاعر من هذا القبيل راودتها قط. وفيما بعد، وحين بلغت المواد المبتعثة ذاكرياً من الوفرة ما جعل المماراة عليها صعبة، أقرّت بأنه من المحتمل أن تكون أحبَّت السيد **ك**، ولكن كل شيء انتهى منذ حادث البحيرة(٢٩). ومهما يكن من أمر، فإن المأخذ الذي أخذته على أبيها من أنه كان يصمّ أذنيه عن واجباته الأكثر إلزاماً وأنه رتَّب الأمور على النحو الأكثر موافقة لمقاصده الغرامية، إنما كان يرتدّ على شخصها هي(٣٠).

أما التهمة الأخرى، التي كان مؤداها أن أباها يتخذ من مرضه تعلَّة يخدم بها مآربه، فهي تموِّه بدورها جانباً بتمامه من تاريخ حياتها السري هي نفسها. فقد اشتكت يوماً من عرض جديد في ظاهره، يتمثل بأوجاع مَعِدية حادة، ولما سألتها: «من كنت تحاكينه هكذا؟» وجدت أني أصبت الهدف. فقد كانت زارت مساء اليوم السابق ابنتي عمتها المتوفاة. كانت صغراهما قد خطبت، فصارت تنتاب الكبرى، بهذه المناسبة، آلام في المعدة، فتقرر ترحيلها إلى سمرينغ(٣١). وقد زعمت دوراً أن الأمر كله لدى كبرى الأختين أمر غيرة، إذ إن هذه الفتاة كانت تقع على الدوام مريضة كلما أرادت الظفر بشيء، وهي تريد الآن مبارحة البيت حتى لا تشهد بأم عينها سعادة أختها(٣٢). غير أن آلام دورا المَعِدية كانت تشهد على تماهيها مع ابنة عمتها، التي كانت تصفها بالتصنع

---

٢٩ ـ انظر الحلم الثاني.

٣٠ ـ هنا يطرح سؤال: إذا كانت دورا أحبت السيد **ك**، فكيف السبيل إلى تفسير الرفض في حادث البحيرة، أو على الأقل الشكل الشرس لهذا الرفض، حتى لكأن نفسها ممتلئة غيظاً؟ وكيف لفتاة عاشقة أن تستشعر الإهانة في مطارحة جرى التعبير عنها ـ كما سنرى لاحقاً ـ بأسلوب بعيد كل البعد عن الفظاظة أو الفحش؟

٣١ ـ سمرينغ: منتجع في جبال الألب النمساوية، يقع على مسافة خمسين ميلاً جنوبي فيينا. «م».

٣٢ ـ إن ردود الفعل هذه شائعة بين الأخوات.



والتمارض، إما لأنها كانت هي الأخرى تحسد الأخت الأسعد حظاً على حبِّها، وإما لأنها رأت مصيرها الخاص ينعكس في مصير الأخت الكبرى التي كانت قد عاشت، قبيل زمن وجيز، قصة حب آلت إلى نهاية تعيسة[٣٣]. وكانت قد تعلمت أيضاً، من خلال مراقبتها السيدة **ك**، كيف يمكن استغلال الأمراض استغلالاً نافعاً. فقد كان السيد **ك** يمضي شطراً من السنة في الأسفار، وكلما آب من السفر وجد زوجته موجوعة، مريضة، مع أنها كانت بالأمس ـ ودورا تعلم ذلك حقَّ العلم ـ موفورة الصحة والعافية. وقد فهمت دورا أن لحضور الزوج أثراً إمراضياً على زوجته، وأن هذه كانت ترحِّب بالمرض لأنه يتيح لها أن تتخلص من الواجبات الزوجية البغيضة. ولقد أجبرتني ملاحظة أقحمَتْها هنا على نحو مباغت، وأشارت فيها إلى ما كان يتناوبها من صحة ومرض في السنوات الأولى من شبابها التي أمضتها في **ب**، على الافتراض بأن أحوالها الصحية ينبغي النظر إليها على أنها منوطة بأسباب مماثلة لتلك التي تفعل فعلها لدى السيدة **ك**.

إن من قواعد التحليل النفسي قاعدة تنصّ على أن الصلة الداخلية التي لا تزال خبيئة تفصح عن نفسها من خلال التلاصق أو التجاور الزمني بين التداعيات، تماماً كما لو في الكتابة حيث إذا وضعنا «أ» بجانب «ب» كان لا بدّ أن يتألف منهما المقطع «با». فدورا كانت قد عانت من نوبات كثيرة جداً من السعال وانحباس الصوت؛ فهل كان من الممكن أن يكون لحضور الكائن الحبيب أو لغيابه أثر في ظهور الأعراض المَرَضية أو اختفائها؟ فإن كان الأمر كذلك، فلا بدّ أن يكون في الإمكان الكشف عن توافق ما يشي به. وقد سألت دورا عن متوسط مدة تلك النوبات، فأجابتني أنها تتراوح من ثلاثة إلى ستة أسابيع. فلما سألتها كم كان يدوم غياب السيد **ك**، لم تجد مناصاً من الإقرار بأنه كان يدوم من ثلاثة إلى ستة أسابيع أيضاً. وهكذا كانت تظهِر بمرضها حبَّها للسيد **ك**، مثلما كانت زوجة هذا الأخير تظهر له على هذا النحو كرهها.

وكل ما هنالك أنه كان لا بدّ من الافتراض بأن سلوكها مناقض لسلوك السيدة

٣٣ ـ سأتكلم فيما بعد عن استنتاج آخر استخلصته من آلامها المِعدية.



ك؛ فهي تمرض في غياب السيد **ك**، وتستردّ عافيتها لدى عودته. وهذا ما بدا أنه يتفق مع واقع الحال، على الأقل في الفترة الأولى من النوبات. أما فيما بعد، فقد توجب محو التوافق بين نوبات المرض وبين غياب الرجل المعشوق سراً، حتى لا يؤدي تواتر التوافق إلى فضح السر. وبقيت مدة النوبة وحدها قرينة على دلالتها الأصلية.

كنت فيما مضى، في عيادة شاركو[٣٤]، قد رأيت وسمعت أن موهبة الكتابة تنوب مناب الكلام لدى الأشخاص المصابين بالخرس الهستيري. فهم يكتبون بأسهل وأسرع وأفضل من الآخرين، بل خيراً مما كانوا يكتبون هم أنفسهم قبلاً. وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى دورا. ففي الأيام الأولى من فقدانها صوتها صارت تكتب بمنتهى اليسر، ولم تكن هذه السمة، باعتبارها تعبيراً عن وظيفة فيزيولوجية بديلة خلقتها الحاجة، بحاجة إلى أي تفسير سيكولوجي في الواقع؛ غير أنه مما تجدر ملاحظته أن مثل هذا التفسير كان سهلاً العثور عليه. فقد كان السيد **ك** يكتب إليها بكثرة حين يكون مسافراً، ويرسل إليها بطاقات بريدية. وكانت هي وحدها في بعض الأحيان التي تعلم بتاريخ عودته، على حين كانت زوجته تُفاجأ دوماً بموعد وصوله. وأن يتراسل المرء كتابة مع الشخص الغائب الذي لا يستطيع مبادلته الكلام فأمر يعادل في معقوليته رغبة المرء في التعبير عن نفسه بالكتابة في حال فقدانه صوته. وهكذا كان فقدان دورا لصوتها يفسح في المجال أمام التأويل الرمزي التالي: ففيما يكون الحبيب غائباً كانت تعزف عن الكلام الذي يفقد في هذه الحال قيمته كلها ما دام متعذراً عليها أن تكلِّمه، «هو». وبالمقابل، كانت الكتابة تكتسب قدراً أعظم من الأهمية باعتبارها الوسيلة الوحيدة للاتصال بالغائب.

هل ينبغي أن نستنتج من ذلك أنه يتحتم، في جميع حالات الانحباس الدوري للصوت، تشخيصها بأنها ناجمة عن غياب مؤقت للشخص المحبوب؟ ليس هذا بكل تأكيد قصدي. فتعيُّن العرض في حالة دورا أكثر خصوصية من أن

---

٣٤ ـ جان مارتن شاركو: طبيب أعصاب فرنسي (١٨٢٤ ـ ١٨٩٣). أستاذ التشريح الباتولوجي في مستشفى السالبترير، وقد وصف معظم أعراض الأمراض العصبية العضوية، وأولى أهمية خاصة لـ«العصاب»، وربط بين الهستيريا وبين الصدمة الانفعالية، وكان من أوائل من استخدموا التنويم المغناطيسي والإيحاء في معالجة المرضى. وقد درس عليه فرويد سنة ١٨٨٥ واقترح أن يترجم محاضراته إلى الألمانية، فقبل اقتراحه. «م».



يبيح لنا توقع تواتر مثل هذه الإتيولوجيا العارضة. فما قيمة تفسيرنا لانحباس الصوت في الحالة التي نحن بصددها؟ ألم ندع أنفسنا ننساق بالأحرى وراء لعبة من ألعاب الذكاء؟ لا أعتقد ذلك. فلنتذكر هنا أنه كثيراً ما طرح السؤال عما إذا كانت الهستيريا من أصل نفسي أو بدني. فإن سلَّمنا بالأصل النفسي، كان لنا أيضاً أن نتساءل عما إذا كانت جميع أعراض الهستيريا ذات تعيين نفسي بالضرورة. وهذا السؤال، كأسئلة كثيرة غيره حاول الباحثون المثابرون بلا جدوى الإجابة عنها، سؤال أسيء طرحه. فجوهر المشكلة لا يحتويه حدّا هذا الإحراج. وبقدر ما تيسَّر لي العلم، فإن كل عرض هستيري بحاجة إلى مساهمة الطرفين كليهما. فهذا العرض لا يمكن أن يتظاهر بدون قدر من **المسايرة البدنية** التي تجد تعبيرها في سيرورة سوية أو مرَضية في عضو من أعضاء البدن أو بالارتباط معه. ولا تحدث هذه السيرورة سوى مرة واحدة إذا لم يكن لها معنى أو مدلول آل إلى نسيان، على حين أن القدرة على التكرار هي سمة مميِّزة للعرض الهستيري. ولا يكون للعرض الهستيري في بادئ الأمر معنى كهذا، بل إن هذا المعنى يعار له، يلصق به لصقاً بنوع ما، وقد يختلف من حالة إلى أخرى تبعاً لطبيعة الأفكار الملجومة التي تسعى إلى التعبير عن نفسها. بيد أن ثمة عوامل عدة تفعل فعلها بحيث تكون العلاقات بين الأفكار اللاشعورية والسيرورات البدنية، التي تجدها في متناولها للتعبير عن نفسها، أقل عسفاً واعتباطية وأقرب إلى بعض التركيبات النمطية. وأهم التعيينات، من الزاوية العلاجية، هي تلك التي تنطوي عليها المادة النفسية العرَضية؛ فحلُّ لغز الأعراض يكون بالبحث عن دلالتها النفسية. ومتى ما تمّ تنظيف الميدان من كل ما يمكن التخلص منه بفضل التحليل النفسي، تأتَّى لنا أن نفترض فروضاً شتى ـ غالباً ما تكون صحيحة ـ بصدد الأساس البدني للأعراض، وهو بالإجمال عضوي وجِبِلِّي. ومن ثم لن نكتفي، فيما يتعلق بنوبات السعال وانحباس الصوت لدى دورا، بالتأويل التحليلي النفسي، بل سنكشف أيضاً، خلف هذا التأويل، عن العامل العضوي الذي انبثقت عنه **المسايرة البدنية** التي مكنت دورا من التعبير عن ميلها إلى الرجل الذي تحبه في أثناء غيابه المؤقت. ولئن أدهشنا، في هذه الحال، الارتباط بين التعبير البدني



والفكرة اللاشعورية لما توسَّل به من تصنُّع وبراعة، فسيكون من دواعي سرورنا أن نعلم أن هذا الارتباط قمين بأن يولِّد في جميع الحالات، وفي جميع الأمثلة الممكنة، انطباعاً مماثلاً.

إني أتوقع هنا أن يوجَّه إليّ اعتراض مفاده أنه ليس غنماً ذا شأن للتحليل النفسي أن يجد نفسه وقد تعيَّن عليه أن يبحث عن لغز الهستيريا لا في «شكل خاص من أشكال تقلُّب الجزيئات العصبية»، ولا في إمكانية الحالات النوامية، بل في «المسايرة البدنية».

ورداً على هذا الاعتراض أودّ أن ألحّ على أن اللغز لا يكون بهذه الكيفية قد تراجع إلى الوراء قليلاً فحسب، بل يكون قد طرأ عليه أيضاً تبسيط جزئي. فمن الآن فصاعداً ما عدنا نواجه اللغز برمته، وإنما فقط ذلك الجزء منه الذي يكمن فيه الطابع الخاص للهستيريا، الطابع الذي **يميِّزها** عن سواها من **الأعصبة النفسية**. فالسيرورات النفسية هي، في جميع الأعصبة النفسية، واحدة على مدى شوط لا بأس به من الطريق، وإنما في طور لاحق فحسب يتدخل عامل «المسايرة البدنية» الذي يتيح للسيرورات النفسية اللاشعورية منفذاً إلى الجسماني. وحيثما لا يضطلع هذا العامل بأي دور، فإن الحالة لا تتمخض عن عرض هستيري، بل عن شيء يمتّ إليه بصلة شبه، كالرهاب على سبيل المثال أو الوسواس، وبالاختصار، عرض من الأعراض النفسية.

أعود الآن إلى تهمة «التمارض» التي وجَّهتها دورا إلى أبيها. فسرعان ما اتضح لنا أن هذه المآخذ لا تتطابق مع تبكيتات ذاتية مرتبطة بأمراض سابقة فحسب، بل كذلك مع تبكيتات ذاتية تتصل بالوضع الراهن. وفي مثل هذا الظرف تقع على عاتق الطبيب في العادة مهمة تخمين وتكميل ما لا يقدمه التحليل إلا في صورة إشارات وتلميحات. وقد وجدتني مضطراً إلى تنبيه المريضة إلى أن مرضها الراهن له من الحوافز والمآرب مثل ما لمرض السيدة **ك** الذي كانت قد فهمت مغزاه. وقلت لها إنه كان لديها، ولا ريب، هدف تتأمل بلوغه بواسطة مرضها، وأن هذا الهدف لا يمكن أن يكون شيئاً آخر غير صرف أبيها عن السيدة **ك**. فبما أن التوسلات والحجج لم تكفِ، فربما كانت تأمل في بلوغ هدفها عن طريق تخويف أبيها (انظر رسالة الوداع)، أو عن طريق استثارة شفقته (بواسطة



نوبات الإغماء) ـ فإن لم يكتب لشيء من هذا كله النجاح، فعلى الأقل تكون قد انتقمت من أبيها. وقد كانت تعرف كم هو متعلق بها، وأنه كلما سأله أحد عن صحة ابنته اغرورقت عيناه بالدموع. وكنت مقتنعاً أتمّ الاقتناع بأنها ستشفى حالاً فيما لو أعلن لها أبوها أنه ضحّى بالسيدة **ك** من أجل صحتها. وكنت آمل ألا ينتهي به الأمر إلى فعل ذلك، لأنها ستدرك عندئذ مدى خطورة أداة الضغط التي تملكها بين يديها ولن تتردد من ثم في كل فرصة ومناسبة في استغلال قابليتها للمرض من جديد. ولكن إذا رفض أبوها النزول عند طلبها، فقد كنت أتوقع تماماً ألا تتخلى بمثل هذه السهولة عن مرضها.

أضرب صفحاً هنا عن التفاصيل التي بنيت عليها نظرتي هذه إلى الأمور لأضيف بضع ملاحظات عامة حول دور **دوافع المرض** في الهستيريا.

إن الدوافع إلى المرض ينبغي أن تُميَّز تمييزاً جلياً من المنظور المفهومي عن الأشكال التي يمكن أن يتلبسها هذا المرض، أي عن المادة التي منها تُصطنع الأعراض. فهذه الدوافع لا تسهم بأي قسط في تشكيل العرَض؛ وهي أصلاً لا تكون ماثلة في بداية المرض؛ وإنما يأتي ارتباطها به لاحقاً، وإن كان المرض لا يكتمل صرحه إلا بظهورها(٣٥). وينبغي أن نتوقع وجود دوافع المرض في كل حالة تنطوي على معاناة حقيقية ويكون مداها طويلاً بقدر أو بآخر. فالعرض لا

٣٥ ـ (هامش أضيف سنة ١٩٢٣) ـ هذا ليس صحيحاً تماماً. ونحن ما عدنا في حِلٍّ من القول بأن دوافع المرض لا تكون ماثلة في بداية المرض. وسوف يأتي، بدءاً من الصفحة التالية، ذكر لدوافع إمراضية كانت موجودة قبل ظهور المرض، وقد أسهمت جزئياً في نشوئه. وقد تسنى لي في وقت لاحق أن أحيط بالأمور إحاطة أفضل حينما ميَّزت بين المكسب الأولي والمكسب الثانوي للمرض. فما الدافع إلى المرض إلا الرغبة في تحقيق مكسب ما. وما سيأتي ذكره في الصفحات التالية يصدق على المكسب الثانوي للمرض. غير أنه لا مندوحة لنا عن التحقق من وجود مكسب أولي في كل عصاب. فالوقوع في المرض يوفِّر على المريض بادئ ذي بدء مجهوداً؛ ومن ثم إنه، من وجهة النظر الاقتصادية، أنسب حلٍّ في حالة نشوب صراع نفسي (اللواذ بالمرض)، ولو ثبت فيما بعد، وفي غالبية الأحوال، عدم جدوى مثل هذا المخرج. هذا الجانب من المكسب الأولي للمرض يمكن أن نطلق عليه اسم **الربح الداخلي** أو النفسي؛ وهو ربح دائم إن جاز القول. وفضلاً عن ذلك، إن عوامل خارجية ـ وكمثال على ذلك وضع المرأة التي يضطهدها زوجها على نحو ما سنبيِّن للتو ـ يمكن أن تقدِّم دوافع للمرض، فتمثل بالتالي الجانب **الخارجي** من الربح الأولي للمرض.



يعدو في بادئ الأمر أن يكون ضيفاً ثقيلاً على الحياة النفسية، ويكون كل شيء مناهضاً له، ولذا يختفي بمنتهى اليسر من تلقاء نفسه بمرور الوقت، على ما تشير الدلائل؛ ولكن إن تعذَّر عليه في بادئ الأمر أن يجد استخداماً له في الاقتصاد النفسي، فغالباً ما ينتهي به الأمر ثانوياً إلى الظفر بوظيفة ما. ذلك أن تياراً بعينه من التيارات النفسية قد يجد مناسباً له أن يستغل العرض، فيكتسب هذا الأخير، من ثم، **وظيفة ثانوية**، ويرسي جذوره في الحياة النفسية. وكل من يشاء أن يشفي المريض من مرضه يصطدم، على دهش عظيم منه، بمقاومة شديدة تجعله يفطن إلى أن المريض لا يرغب رغبة جادة وقاطعة في الإبلال من علته[٣٦]. لنتصور أن عاملاً، من عمال التسقيف مثلاً، وقع من أعلى السطح وصار مقعداً، ثم لجأ إلى التسول عند زاوية أحد الشوارع ليتدبر قوت يومه. ولنفترض أن واحداً من صناع المعجزات جاءه ووعده بتقويم ساقه الكسيحة وبإعادة قدرته على المشي إليه. فهل لنا أن نتوقع أن تظهر على وجهه علائم فرح عظيم؟ صحيح أنه شعر، وقت الحادث، بتعاسة مفرطة، وأدرك أنه لن يعود في مستطاعه منذ ذلك اليوم أن يعمل، وأنه لا مناص له من أن يقضي نحبه جوعاً أو أن يعيش على الصدقات. بيد أن الشيء الذي قضى عليه بادئ الأمر بالعجز عن كسب قوت يومه صار فيما بعد مصدر رزقه؛ فهو يعتاش الآن من عاهته. ولو جُرِّد منها لأسقط في يده. ذلك أنه نسي، في الفترة المنصرمة، مهنته، وفقد عادة العمل والكدح، وأَلِف البطالة، وربما الشراب أيضاً.

إن دوافع المرض تأخذ بالانبلاج منذ عهد الطفولة. فالطفل النهم إلى الحب، والذي لا يطيب له أن يشاطره إخوته وأخواته محبة والديه، لا يلبث أن يفطن إلى أن هذه المحبة تنصب عليه بتمامها متى ما ثار قلق والديه بسبب مرضه. ومنذئذ يكتشف الطفل وسيلة لاستمرار حب والديه، وسرعان ما يعمد إلى استخدامها

٣٦ ـ عبَّر كاتب أديب، هو في الوقت نفسه طبيب، آرثر شنتزلر(*)، أصدق تعبير عن هذه الواقعة في مسرحيته **باراقلسوس**.

(*) آرثر شنيتزلر: طبيب وكاتب نمساوي (١٨٦٢ ـ ١٩٣١). وقد عرضت مسرحيته عن **باراقلسوس في** برلين عام ١٨٩٩. وهذا الأخير هو طبيب ومنجِّم ونهضوي سويسري (١٤٩٣ ـ ١٣٢٤) كان أول من أرجع بعض الأمراض الجسدية إلى عوامل نفسية. «م».



حالما تتوفر له المادة النفسية القادرة على إنتاج حالة مرَضية. ومتى كبرت طفلة من هذا القبيل وصارت امرأة وتزوجت، بالتناقض التام مع متطلبات طفولتها، من رجل لا يحفل لها، بل على العكس يقمع إرادتها ويستغل بلا تحرز عملها، ولا يحنو عليها، ولا يبذل لها من ماله، فعندئذ قد يصبح المرض سلاحها الوحيد لتثبيت مواقع قدميها في الحياة. فالمرض يوفِّر لها الراحة المنشودة، ويرغم زوجها على بذل التضحية لها بالمال وعلى إيلائها من الاهتمام ما كان يضنّ به عليها حين كانت تنعم بعافيتها، ويجبره على اتخاذ موقف حذر في حال شفائها، وإلا فإن الانتكاس يقف له بالمرصاد. وما هو ظاهرياً موضوعي وغير إرادي في الحالة المرضية - وهذا ما يوجب على الطبيب المعالج أيضاً أن يتدخل - يتيح للمريضة، دونما مشاعر تبكيتية واعية، أن تستخدم على النحو المناسب وسيلة كانت قد اختبرت نجعها في طفولتها.

ومع ذلك، إن هذا النوع من المرض ينشأ قصدياً! فالحالات المرضية تتظاهر عادة برسم شخص معيَّن، ومن ثم تزول في حال غيابه. وعلى هذا، إن الحكم الأكثر فجاجة والأكثر ابتذالاً، الذي يطالعنا به أقارب المريض والقائمون على تمريضه من ذوي الثقافة المحدودة، هو من وجه من الوجوه حكم صائب. فليس يخطئ من يقول إن المشلولة طريحة الفراش ستثب على ساقيها لو اندلعت النار في الغرفة، وإن المرأة المدللة ستنسى آلامها وشكاياتها لو وقع طفلها فريسة مرض خطير أو لو تهددت وضعها البيتي كارثة داهمة. إن جميع أولئك الذين يصدرون مثل هذا الحكم على هؤلاء المرضى محقّون إلى حدّ ما، ولكنهم يغفلون الفارق السيكولوجي بين الشعوري واللاشعوري، وهو إغفال جائز بعد في حالة الأطفال، ولكنه لا يعود جائزاً في حالة الراشدين. لهذا يمكن أن تبقى عقيمة ولامجدية لدى هؤلاء المرضى جميع ضروب التشجيع أو التجريح وجميع التوكيدات التي تجزم لهم أن الأمر كله منوط بالإرادة. فلا بدّ قبل كل شيء من محاولة إقناعهم، عن طريق التحليل، بوجود نية مسبقة لديهم في أن يكونوا مرضى.

إن نقطة الضعف في كل طريقة علاجية في حالة الهستيريا، بما فيها طريقة



التحليل النفسي، تكمن بصفة عامة في الكفاح ضد دوافع المرض. ومهمة القدر لن تكون هنا إلا من أسهل ما يكون: فما عليه أن يتصدى لجِبِلَّة المريض ولا للخبرات المسبِّبة لمرضه، بل حسبه أن يزيل دافعاً من دوافع المرض حتى يبرأ المريض من دائه بصفة مؤقتة، وربما أحياناً بصفة نهائية. وغالباً ما تُخفى علينا، نحن الأطباء، اهتمامات مرضانا الحيوية؛ ولو تأتَّى لنا أن نأخذ علماً بها في الغالبية العظمى من الأحوال لامتنعنا عن التسليم بحدوث شفاءات عجائبية واختفاءات عفوية للأعراض في الهستيريا! ففي حالة من الحالات يكون ردح من الزمن قد انقضى، وفي حالة أخرى تكون قد انتفت الحاجة إلى مراعاة شخص بعينه، وفي حالة ثالثة يكون الموقف برمَّته قد طرأ عليه تغيُّر جذري بفعل عامل خارجي. ومن ثم، إن الداء، الذي كان لحدّ الآن مستعصياً أشد الاستعصاء، يختفي دفعة واحدة، من تلقاء نفسه في ظاهر الأمر، وفي الواقع لأن الدافع الأقوى إليه، أي الوظيفة التي يمكن لهذا الداء أن يؤديها في الحياة، قد انتفى.

أرجح الظن أننا نستطيع أن نعثر على الدوافع التي ينهض عليها المرض في جميع الحالات المكتملة تطوراً. لكن ثمة حالات ذات دوافع داخلية صرفة، ومن قبيلها الرغبة في إنزال عقاب بالذات، ومن ثم الندم والتكفير. وتكون المهمة العلاجية أسهل أداء في هذه الحالات التي يرتبط فيها المرض ببلوغ هدف خارجي. ولقد كان هذا الهدف بالنسبة إلى دورا، بصورة واضحة، استدرار عطف أبيها وصرفه عن السيدة **ك**.

والحق أن ما من فعل من أفعال الأب أثار حنق دورا مثل تسرّعه إلى اعتبار حادث البحيرة من صنع خيالها. وكانت تخرج عن طورها كلما فكرت بأن الظنون ذهبت به إلى أنها تخيَّلت الأمر تخيُّلاً! وقد لبثتُ فترة طويلة من الزمن متحيِّراً في تخمين طبيعة المآخذ الذاتية التي تختفي وراء إنكارها الانفعالي لهذا التأويل للحادث. وقد كان من حقي أن أفترض وجود شيء خبيء، لأن المأخذ الذي لا يستند إلى أساس لا يجرح جرحاً دائماً. ومن ناحية أخرى، انتهيت إلى الاستنتاج بأن رواية دورا تطابق ولا بدّ الحقيقة كل المطابقة. فما إن فهمتْ قصد السيد **ك** حتى سارعت تقاطعه وتصفعه وتولِّي مدبرة. وأرجح الظن أن سلوك



دورا قد تبدى عندئذ للرجل الذي تركته فجأة مستغلقاً على فهمه كما على فهمنا، لأنه كان سبق له، ولا بدّ، أن استنتج، من جملة قرائن ودلائل صغيرة، أنه يستطيع أن يتكل على ميل عاطفة الفتاة إليه. وسوف نجد، في أثناء مناقشتنا للحلم الثاني، حلَّ هذا اللغز، وكذلك حلّ لغز التأنيبات الذاتية الذي عبثاً فتّشنا عنه في أول الأمر.

وبما أن الاتهامات ضد الأب كانت تتكرر برتابة متعبة، في حين بقي سعالها مستديماً، فقد وجدتني منساقاً إلى الافتراض بأن هذا العرَض لا بدّ أن يكون منطوياً على مغزى ذي صلة بالأب. زد على ذلك أن الشروط التي درجتُ على وضعها عندما يكون مطلوباً مني تفسير عرض من الأعراض ما كانت متوفرة إلى الحدّ الذي يبعث على الرضى. وبمقتضى قاعدة وجدتْ توكيداً لها في خبرتي وتجربتي، وإن كنت لم أجترئ بعد على إنزالها منزلة القاعدة العامة، فإن العرَض يعني تمثيلاً ـ تحقيقاً ـ لتخييل ذي مضمون جنسي، أي موقف جنسي؛ أو فلنقل إن دلالة **واحدة** على الأقل من دلالات العرَض تتطابق مع تمثيل تخييل جنسي، بينما لا وجود لمثل هذا التحديد للمضمون بالنسبة إلى الدلالات الأخرى. وأما أن للعرض أكثر من دلالة واحدة، وأنه يفيد في تمثيل أكثر من فكرة لاشعورية واحدة، فهذا ما يدركه بسرعة كل من يمارس العمل التحليلي النفسي. بل بودِّي أن أضيف أن فكرة واحدة أو تخييلاً لاشعورياً واحداً لا يكفيان في تقديري لتوليد عرَض.

وسرعان ما سنحت لي الفرصة لتفسير السعال العصبي بموقف جنسي متخيَّل. فحين عادت دورا تلحّ من جديد على أن السيدة **ك** لا تحب أباها إلا لأنه رجل **مقتدر**، فطنتُ، بفضل بعض دقائق طريقتها في الكلام ـ وهي دقائق أغفل هنا بيانها مثلما أغفل بيان معظم الجوانب التقنية الصرفة من التحليل النفسي ـ إلى أن هذه العبارة تخفي نقيضها، وهو أن أباها رجل **غير مقتدر**. وهذا ما لا يمكن فهمه إلا بالمعنى الجنسي: إن أبي غير مقتدر «كرجل»، أي عنين[٣٧]. ولما وافقتْ

٣٧ ـ الاقتدار بالألمانية Vermogend يعني الاقتدار المالي كما يعني الاقتدار الجنسي. كما أن العجز بجميع معانيه، كعنَّة وكفقدان للقوة، له لفظ واحد Unvermogend. «م».



على هذا التأويل، وأقرَّت بأن فكرة كهذه قد راودتها شعورياً، بيّنتُ لها التناقض الذي تتخبَّط فيه حين تصرّ، من جهة أولى، على الاعتقاد بأن علاقات أبيها بالسيدة **ك** علاقات غرامية، وحين تجزم، من الجهة الثانية، بأن أباها عنين، أي عاجز عن الاضطلاع بمثل هذه العلاقات. وقد دلّ جوابها على أنها لم تكن بحاجة إلى التسليم بهذا التناقض. فهي تعرف حقَّ المعرفة، كما قالت، أنه توجد أكثر من طريقة للفوز بالإشباع الجنسي. بيد أنني عجزت مرة أخرى عن الاهتداء إلى مصدر معارفها. وحين سألتها عما إذا كانت تقصد بذلك استخدام أعضاء أخرى غير الأعضاء التناسلية في العلاقات الجنسية، ردَّت بالإيجاب؛ وعندئذ أمكن لي أن أردف قائلاً إن الفكر يذهب بها، ولا بدّ، إلى تلك الأعضاء من الجسم التي هي عندها في حالة تخرُّشٍ: الحلق وتجويف الفم. والحق أنها كانت تبغي أن تكتم هذه الأفكار حتى عن نفسها، ولكن ما كان للعرض أن يتظاهر أصلاً لو كانت لديها فكرة جلية عن واقع الأمور. على أن تتمة المحاكمة العقلية كانت محتومة، إذ إن ذلك السعال الذي كان ينتابها على نوبات والذي ينشأ في العادة عن دغدغة في الحلق، كان يمثِّل موقف إشباع جنسي **عن طريق الفم**[٣٨] بين الشخصين اللذين كانت صلتهما الغرامية شغلها الشاغل بلا انقطاع. ولئن اختفى السعال بعد وقت وجيز من هذا التفسير الذي وافقتْ عليه ضمنياً، فهذه واقعة تتمشى إلى حدّ بعيد مع تصوري؛ بيد أنني لم أشأ أن أعلِّق على هذا التغيُّر أهمية أكبر مما ينبغي، لأنه كثيراً ما كان يتفق لسعالها أن يتوقف بصورة تلقائية.

لئن أثارت هذه النبذة من التحليل لدى الطبيب الذي يقرؤني، علاوة على عدم التصديق الذي هو حقّ من حقوقه، تباغتاً واستفظاعاً، فإني على أهبة الاستعداد لأن أتفحص هنا بالذات مبررات ردّيِّ الفعل هذين. فأنا أفترض أن التباغت ناجم عن جرأتي في الكلام مع فتاة ـ أو بصفة عامة مع امرأة أدركت سنّ الزواج ـ في مثل هذه الموضوعات الشائكة والكريهة الوقع. كما أن الاستفظاع يرجع في أغلب الظن إلى احتمال تعرّف فتاة عفيفة إلى مثل تلك الممارسات وإلى إمكانية انشغال خيالها بها. وبالنسبة إلى النقطتين كلتيهما

---

٣٨ ـ باللاتينية في النص: Per Os.



سأوصي بالتأني والتبصر. فليس في أي من الحالين ما يدعو إلى الحنق والاستهجان. ففي وسع المرء أن يكلِّم الفتيات والنساء في جميع المسائل الجنسية بدون أن يلحق أذى بهن وبدون أن يضع نفسه موضع الشبهة، وهذا بشرط أن يأخذ بأسلوب معيَّن في فعل ذلك ثم أن يولِّد لديهن الاقتناع بأن الأمر ضروري ولا مناص منه. إن طبيب الأمراض النسائية يبيح لنفسه أيضاً، في شروط مماثلة، أن يفرض عليهن ضروباً شتى من التعري. وخير أسلوب في الكلام عن هذه الأمور هو الأسلوب الجاف والمباشر؛ وهو في نفس الوقت أبعد ما يكون عن الشبق الذي تعالج به هذه المواضيع في «المجتمع»، ذلك الشبق الذي تألفه النساء والفتيات في العادة كل الإلفة. إنني أسمي الأعضاء والظاهرات بأسمائها التقنية، وأكاشف المريضة بهذه الأسماء إن كانت مجهولة لديها: J'appelle un chat un chat[٣٩]. لقد سمعت بكل تأكيد عن أشخاص، من أطباء وغير أطباء، يعربون عن سخطهم من طريقة في العلاج تدور فيها مثل تلك الأحاديث، ويبدو عليهم وكأنهم يحسدونني، أنا أو مرضاي، على ما نجتنيه، في تقديرهم، من دغدغة شهوية من الخوض فيها. والحال أن معرفتي بالحسّ المفرط باللياقة وبالمواضعات الاجتماعية لدى هؤلاء السادة تغنيني عن الأبه لما يتقَّولون. ولن أقع في شرك الإغواء بكتابة أهجية ضدهم. ولست أريد أن أذكر سوى شيء واحد، وهو أنه كثيراً ما يبعث الحبور في نفسي أن أسمع واحدة من مريضاتي، ممن لم يكن يسهل عليهن في البداية تقبُّل الصراحة في مناقشة الأمور الجنسية، تهتف فيما بعد بتعجب: «حقاً إن طريقتك أدنى إلى اللياقة بكثير من حديث فلان!».

ينبغي، قبل التصدي لمعالجة حالة هستيريا، أن يتوفر لدى المرء الاقتناع بضرورة التطرق إلى الموضوعات الجنسية، أو على الأقل أن يتوفر لديه الاستعداد للاقتناع بذلك بفعل التجربة. وعندئذ يقول مع القائل: «لا تُصنع العجة بدون كسر البيض»[٤٠]. والمرضى أنفسهم يسيرٌ إقناعهم؛ والفرص المتاحة لذلك في أثناء

٣٩ ـ بالفرنسية في النص: حرفياً **أسمِّي القطة قطة**، والمعنى: أسمِّي الشيء باسمه. «م».

٤٠ ـ بالفرنسية أيضاً في النص: Pour faire une omelette, il faut casser des oeufs. «م».



العلاج كثيرة حقاً. ولا داعي للتحرج من الخوض وإياهم في الحديث عن وقائع الحياة الجنسية السوية أو المرَضية. وبشيء من الحرص والفطنة، لا يتعدى كل عملنا أن نترجم إلى شعورهم ما كانوا يعرفونه من قبل لاشعورياً، وكل فاعلية العلاج ترتكز تحديداً إلى الإدراك بأن المفعول الوجداني لفكرة لاشعورية أقوى، بل أشدّ ضرراً ـ بالنظر إلى استحالة لجمه ـ من المفعول الوجداني لفكرة شعورية. ونحن لا نجازف إطلاقاً بإفساد فتاة صبية غرة؛ فحينما تنعدم المعرفة الجنسية، حتى في اللاشعور، لا يحدث أي عرض هستيري على الإطلاق. وحيثما توجد الهستيريا لا يعود ثمة مجال للكلام عن «طهر المشاعر» بالمعنى الذي يقصده الأهل والمربّون. وقد اقتنعت بأننا نستطيع الاطمئنان إلى صدق هذه القاعدة بلا استثناء بالنسبة إلى أطفال في العاشرة أو الثانية عشرة أو الرابعة عشرة من العمر، من ذكور وإناث.

أما فيما يخصّ ردّ الفعل الانفعالي الثاني من جانب قارئي الطبيب والموجَّه هذه المرة ـ إذا لم أكن مخطئاً ـ ضد مريضتي، لا ضدي، وأقصد به الاستفظاع الذي يوحي به الطابع المنحرف لمخيِّلة هذه الأخيرة، فإني أميل إلى التوكيد بأنه لا يليق بالطبيب، في رأيي، أن يصدر أحكام إدانة بمثل هذا الاحتداد. أنا لا أرى، مثلاً، من داعٍ لأن ينتهز الطبيب عندما يقدِّم وصفاً لشذوذ الدوافع الغريزية الجنسية كل فرصة وسانحة ليقحم على النص جملة يعبِّر بها عن تقزّزه الشخصي من مثل هذه الأمور المثيرة للاشمئزاز. فنحن نواجه هنا واقعة معيَّنة، وإني لآمل أن نتعلَّم كيف نألفها، قامعين مشاعرنا الشخصية. وعلينا أن نتكلم بلا استهجان عما نسمِّيه بالانحرافات الجنسية، أي تعديات الوظيفة الجنسية إن من حيث المناطق البدنية وإن من حيث الموضوع الجنسي. وإن ميوعة الحدود التي تحصر ضمن نطاقها الحياة الجنسية التي يقال لها بالسوية، تبعاً لاختلاف السلالات البشرية واختلاف العصور، ينبغي أن تكون كافية بحدّ ذاتها للتخفيف من غلواء المتحمسين. ولا يجوز لنا أن ننسى أن أكثر هذه الانحرافات إثارة للاشمئزاز في نظرنا، وهو حب الرجل الشهواني للرجل، لم يكن موضع تسامح فحسب لدى شعب يبزّنا ثقافة، أعني الشعب الإغريقي، بل كان تناط به أيضاً وظائف



اجتماعية هامة. ثم إن كل امرئ منا يتعدى في حياته الجنسية الخاصة، تارة في اتجاه وطوراً في آخر، الحدود الضيقة لما يفترض أنه هو السواء. وما الانحرافات بضرب من الحيوانية أو الانحطاط بالمعنى الاستنكاري للكلمة. وإنما مردّها إلى نمو بذور ينطوي عليها جميعها الاستعداد الجنسي المسبق اللاامتمايز عند الطفل، وهي البذور التي عليها المعوّل، في حال قمعها أو تحويلها نحو أهداف جنسية عليا - الإسماء - في تزويد عدد كبير من الإنجازات الحضارية بالطاقة اللازمة. فحين يصبح شخص ما منحرفاً على نحو فظ ومكشوف، فمن الأصح أن نقول إنه بقي منحرفاً، أي توقَّف عند طور مكفوف في النمو. والمعصوبون النفسيون هم جميعاً أشخاص ذوو ميول منحرفة نامية عظيم النمو، ولكنها كبتت، فصارت لاشعورية في أثناء نموهم. وعلى هذا، إن أخاييلهم واستيهاماتهم اللاشعورية تنمّ عن المضمون نفسه الذي تكشف عنه الأفعال الحقيقية للمنحرفين، حتى وإن كانوا لم يقرؤوا **السيكوباتيا الجنسية** لكرافت - إيبنغ[٤١]، وهو الكتاب الذي يعزو إليه السُذَّج دوراً بالغ الخطورة في نشوء الميول الانحرافية. فالأعصبة النفسية هي، إن جاز التعبير، **الصورة السالبة** للانحرافات. فالجِبِلَّة الجنسية، التي تتضمَّن أيضاً التعبير عن الوراثة، تفعل فعلها لدى المعصوب بالتضافر مع المؤثرات الحياتية العارضة التي من شأنها أن تشوِّش تفتُّح الجنسية السوية. فالمياه، متى ما اعترضها عائق في مجرى النهر، ترتدّ نحو مجارٍ قديمة كان مقيَّضاً لها أن تجفّ. وإن الطاقات الغريزية المقيَّض لها أن تُنتج أعراضاً هستيرية تنبع لا من الجنسية السوية المكبوتة فحسب، بل كذلك من النوازع والحاثات motions المنحرفة اللاشعورية[٤٢].

٤١ - ريشارد فون كرافت - إيبنغ: طبيب نفسي نمساوي من أصل مجري (١٨٤٠ - ١٩٠٢). اشتهر بدراسته عن الانحرافات الجنسية وروّج لمفهومي السادية والمازوخية في كتابه: **السيكوباتيا الجنسية**. «م».

٤٢ - هذه الملاحظات عن الانحرافات الجنسية كتبت قبل سنوات عديدة من نشر كتاب إ. بلوخ(*) الممتاز مساهمة في **إتيولوجيا السيكوباتيا الجنسية**، ١٩٠٢ - ١٩٠٣. انظر أيضاً كتاب: **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية** الذي صدر هذا العام ١٩٠٥.

* - إيفان بلوخ: طبيب جلدي ألماني (١٨٧٢- ١٩٢٢). أول من نحت مصطلح علم الجنس، وأول من اكتشف مخطوط المركيز دي ساد **أيام سادوم المائة والعشرون**. «م».



إن الأشكال الأقل إثارة للاشمئزاز من بين ما يسمى بالانحرافات الجنسية شائعة ومنتشرة على سعة بين شعوبنا، على نحو ما يعرفه الناس قاطبة باستثناء الأطباء الذين يضعون مؤلفات في هذه الموضوعات. أو بالأحرى إن هؤلاء المؤلفين يعرفون ذلك أيضاً، ولكنهم يجاهدون فقط لنسيانه لحظة يمسكون بالريشة للكتابة عنه. إذاً، لم يكن مما يبعث على الدهشة أن تعمد مريضتنا الهستيرية، التي على وشك أن تبلغ التاسعة عشرة من العمر، والتي سمعت عن مثل تلك العلاقات الجنسية (مص القضيب)، إلى أن تستوهم في لاشعورها استيهاماً من ذلك القبيل وأن تعبِّر عنه بإحساس بالتخرش في حلقها وبالسعال. بل لم يكن مما يبعث على الدهشة أن نراها تتوصل، حتى بدون إيضاحات خارجية المصدر، إلى مثل ذلك الاستيهام، على نحو ما أتيح لي أن أتحقق منه لدى مرضى آخرين. والحق أن الشرط البدني المسبق لمثل هذا الابتداع الحر لأخيولة مطابقة لممارسات المنحرفين كان يرتبط عند دورا بواقعة جديرة بأن تسترعي الانتباه. فهي تذكر جيداً أنها كانت في طفولتها **مصاصة إبهام**. ويذكر الأب أيضاً أنه فطمها عن هذه العادة التي استمرت لديها إلى سنتها الرابعة أو الخامسة. وقد احتفظت دورا نفسها في ذاكرتها بصورة واضحة من صور طفولتها الأولى: فهي ترى نفسها جالسة أرضاً في إحدى الزوايا تمصّ إبهامها الأيسر، فيما كانت تشدّ في الوقت نفسه، بيدها اليمنى، وبصورة إيقاعية، أذن أخيها الذي يجلس بهدوء وطمأنينة إلى جانبها. وهذا شكل مكتمل من إشكال الإشباع الذاتي عن طريق المص حدَّثتني عنه أيضاً مريضات أخريات، ممن أصبن في زمن لاحق بالخدار الجنسي والهستيريا. وقد زوَّدتني واحدة منهن بمعلومات تلقي ضوءاً ساطعاً على أصل هذه العادة الغريبة. فهذه المرأة الشابة، التي ما تخلَّت قط أصلاً عن عادة التمصص، رأت نفسها، من خلال ذكرى من ذكريات طفولتها يرجع عهدها، فيما يظهر، إلى النصف الأول من عامها الثاني، وهي ترضع من ثدي مرضعتها فيما تشدّ إيقاعياً أذنها. وما من أحد سيماري، فيما أفترض، في أن الغشاء المخاطي للشفتين والفم يمكن أن يوصف بأنه **منطقة شهوية** أولية، وفي أنه يحتفظ بشيء من هذه الصفة من خلال القبلة التي تُعدّ



سوية. والنشاط الكبير والمبكر لهذه المنطقة الشهوية يمهِّد من ثَمّ لظهور «مسايرة بدنية» لاحقة في القناة المخاطية التي تبدأ من الشفتين. وفي زمن لاحق، حين يصبح الموضوع الجنسي الحقيقي، القضيب، معروفاً بالفعل، وتنشأ ظروف تزيد من جديد في استثارة المنطقة الفموية التي حافظت على صفتها الشهوية، لا يحتاج الأمر إلى جهود إبداعية كبيرة لإحلال الموضوع الجنسي الحالي، القضيب، محل الموضوع الأصلي، الحلمة، أو محل الإصبع الذي ناب منابها، ولإحياء الموقف المناسب للإشباع. وهكذا نرى أن هذه الأخيولة الانحرافية، الجارحة إلى أقصى حدّ، المتمحورة حول مصّ القضيب، لها أصل بريء كل البراءة. فما الأخيولة المذكورة إلا طبعة جديدة من تلك الخبرة التي ينبغي وصفها بأنها ما قبل تاريخية، والتي تتمثل في مصّ ثدي الأم أو المرضع، وهي خبرة تدب فيها الحياة من جديد متى وقع النظر في وقت لاحق على أطفال يرضعون. وغالباً ما يلعب ضرع البقرة، كصورة وسيطة، دور الرابط بين الحلمة والقضيب.

إن التأويل، الذي تقدَّم بيانه، لأعراض دورا ذات الصلة بالحلق يمكن أن يستثير ملاحظة أخرى. والسؤال الذي ينطرح في هذه الحال هو: «كيف يتفق هذا الموقف الجنسي المتخيَّل من قبلها مع واقعة ظهور الأعراض المرَضية واختفائها لديها بالتوافق مع غياب الرجل المحبوب وحضوره؟». أفلا تكون الفكرة المضمرة في هذه الحال، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار سلوك زوجته، هي التالية: «لو كنت أنا زوجته لكنت أحببته على نحو مغاير تماماً، ولكنت وقعت مريضة (من الحزن في أغلب الظن) في أثناء غيابه، ولاستعدت صحّتي وعافيتي (من الفرح) لدى عودته». إن خبرتي في فك لغز الأعراض الهستيرية تأذن لي أن أجيب عن هذا السؤال بأنه ليس من الضروري أن تتوافق جميع الدلالات المختلفة لعرَض من الأعراض فيما بينها، أي أن تتكامل لتؤلف كلاً واحداً. فحسب هذه الوحدة أن يكون عمادها الموضوع الذي عنه تمخضت جميع تلك الأخاييل المختلفة. ثم إن توافقاً من النمط الأول ليس بمنعدم في الحالة التي نحن بصددها؛ فإحدى الدلالتين ترتبط بتلاحم أكبر مع السعال، بينما ترتبط ثانيتهما بانحباس الصوت وبالطابع الدوري لتظاهر الأعراض؛ وربما أمكن لتحليل أعمق وأبعد شأواً أن



يكشف عن تعيين نفسي لدقائق المرض أكثر تكاملاً بكثير. وقد رأينا من قبل أن العرض الواحد تناظره **في آن واحد**، وبصورة مطردة، عدة دلالات؛ ولنضف أنه يمكن له أيضاً أن يتلبس **بالتعاقب** أيضاً عدة دلالات. ومن الممكن للعرض، على مرّ السنوات، أن يغيِّر إحدى دلالاته أو دلالته الرئيسية، كما يمكن للدور القيادي أن ينتقل من دلالة إلى أخرى. فلكأن العصاب ينطوي بطبيعته على نزعة إلى المحافظة، بقدر الإمكان، على العرض متى ما تكوَّن، حتى ولو فقدت الفكرة اللاشعورية التي وجدت فيه تعبيرها قدراً كبيراً من أهميتها. لكن من اليسير أيضاً تقديم تفسير ميكانيكي لهذا الميل إلى المحافظة على العرض؛ فتكوين عرض كهذا أمر بالغ الصعوبة، وقلب الإثارة النفسية الخالصة إلى إثارة بدنية ـ وهذه الواقعة هي ما أسميته **بالاستبدال** Conversion ـ يرتبط بالعديد من الشروط الموائمة. والمسايرة البدنية، التي هي شرط لازم لهذا الاستبدال، صعبة المنال للغاية بحيث أن الحافز إلى تفريغ الإثارة اللاشعورية يحاول أن يسلك، ما أمكن، طريقاً للتصريف كان قد سُلك من قبل. ويبدو أن إقامة روابط تداع بين فكرة جديدة مطلوب تصريفها وبين أخرى قديمة ما عادت بحاجة إلى التصريف أمر أيسر بكثير من استحداث استبدال جديد. فالإثارة تنساب، عبر الطريق المطروق من قبل، من مصدر الإثارة الجديد إلى المصبّ السابق، وبذلك يشبه العرض، كما ورد في الإنجيل، زقاً قديماً صُبَّ فيه نبيذ جديد[٤٣]. ولكن إن بدا، بمقتضى ذلك، أن الجانب البدني من العرض الهستيري هو العنصر الأثبت ديمومة والأعصى على الاستبدال، وأن الجانب النفسي هو العنصر الأسهل حراكاً والأيسر استبدالاً، فلا ينبغي أن نستخلص من هذه العلاقات المنزلةَ التي تعود إلى كل من الجانبين. فالجانب النفسي هو، من زاوية العلاج النفسي، الجانب الأهم على الدوام.

إن تكرار دورا بلا انقطاع للأفكار عينها عن علاقة أبيها بالسيدة **ك** قد أتاح أيضاً للتحليل أن يصل إلى كشف مهمّ آخر.

٤٣ ـ جاء في **إنجيل متى**، الإصحاح التاسع: «ولا يجعلون خمراً جديدة في زقاق عتيقة لئلا تنشقّ الزقاق... بل يجعلون خمراً جديدة في زقاق جديدة فتحفظ جميعاً». «م».



فمن المباح لنا أن نصف هذه المنظومة من الأفكار بأنها فائقة القوة، بل **معضَّدة ومبالغ في قيمتها** بحسب تعبير فرنيكه Wernicke[٤٤]. وعلى الرغم من مضمونها الصحيح في ظاهر الأمر، فإن طابعها المرَضي تشي به الخاصية التالية، وهي أن جميع الجهود العقلية الشعورية والإرادية من جانب المريضة تقف عاجزة عن إلغائها أو النيل منها. على حين أنه يمكن للمرء، بالمقابل، أن يتحكم بأية منظومة سوية من الأفكار، مهما تكن شدتها. ولقد كانت دورا تشعر تماماً بأن أفكارها عن أبيها خليقة بأن تحاكم بطريقة خاصة. وكثيراً ما كانت تئنّ وتشكو: «لست أستطيع أن أفكر بشيء آخر. وأخي لا يزال يردد على مسمعي أنه ليس من حقنا أن ننتقد سلوك أبينا، وأنه ربما كان من واجبنا أن نُسعد لأنه وجد امرأة يستطيع أن يتعلق بها، ما دامت ماما تسيء فهمه إلى هذا الحدّ. وإني أقرّ بأن أخي يقول الحقّ، وكان بودّي أن أفكر مثله، لكنني لا أستطيع. لا أستطيع أن أغفر لأبي»[٤٥].

والآن ما ينبغي فعله حيال فكرة متسلطة كهذه، وبعدما عرفنا دوافعها اللاشعورية وعدم جدوى الاعتراضات التي يمكن أن توجَّه ضد هذه الأخيرة؟ لا بدّ لنا من الإقرار بأن **هذه المنظومة من الأفكار الفائقة القوة تدين بتعضيدها للاشعور**. فلا سبيل بالتالي إلى تبديدها بمحض الجهد الفكري، إما لأنها تضرب هي نفسها بجذورها في المادة اللاشعورية المكبوتة، وإما لأن فكرة لاشعورية تختبئ وراءها. وفي الحالة الأخيرة تكون هذه الفكرة اللاشعورية مناوئة لها بصورة مباشرة في غالبية الأحيان. والأفكار المتعارضة، المتضادة، تكون مترابطة على الدوام فيما بينها بعرى وثيقة، وفي كثير من الأحيان متزاوجة بحيث تكون الواحدة منها **شعورية إلى أقصى حدّ فيما تبقى نقيضتها مكبوتة ولاشعورية**. وهذا الترابط هو نتيجة سيرورة الكبت. وبالفعل، غالباً ما يتمّ الكبت على نحو

٤٤ ـ كارل فرنيكه: طبيب نفسي وعصبي ألماني (١٨٤٨ ـ ١٩٠٥). من أشهر مؤلفاته **الوجيز في الاضطرابات المخية**. «م».

٤٥ ـ إن فكرة متسلطة كهذه، ومصحوبة باكتئاب عميق، هي في كثير من الأحيان العرض الوحيد لحالة مرَضية يطلق عليها أحياناً اسم «السويداء»، ولكنها قابلة للتفسير، بواسطة التحليل النفسي، على أنها هستيريا.



تتعضد معه الفكرة المضادة للفكرة التي يتعيَّن كبتها تعضيداً مسرفاً. وهذا ما أسميه بالتعضيد **الارتجاعي**، كما أني أصف هذه الفكرة، التي تثبَّتت في الشعور وتصلَّبت بشكل يتعذر معه زحزحتها، مثلها في ذلك مثل الحكم المسبق، بأنها **فكرة ارتجاعية**. وتكون علاقة هاتين الفكرتين واحدتهما بالأخرى في مثل هذه الحال أشبه بالعلاقة بين رأسي إبرتين مغنطيسيتين معطَّلتين(٤٦). فالفكرة الارتجاعية تبقي، بفضل بعض الغلوّ في الشدة، على الفكرة الصادمة أسيرة الكبت، ولكنها تغدو هي نفسها، لهذا السبب بالذات، محصَّنة ضد المجهود الفكري الشعوري. وأنسب وسيلة لتجريد الفكرة المتسلطة من قوتها المفرطة هي في هذه الحال جلب الفكرة اللاشعورية المضادة لها إلى مجال الشعور.

وينبغي لنا أيضاً ألا ننسى أنه قد تصافنا حالات يرجع فيها تسلط الفكرة لا إلى سبب واحد من هذين السببين، بل إلى تضافرهما. وقد تصادفنا كذلك تراكيب أخرى، بيد أنه يكون من السهل في هذه الحال إرجاعها إلى التراكيب السابقة.

لنحاول أن نتحقق، من خلال المثال الذي تقدمه لنا دورا، من صحة فرضيتنا الأولى التي مؤداها أن الفتاة تجهل بأصل انشغالها الاستحواذي بعلاقة أبيها بالسيدة **ك**، لأن هذا الأصل كامن في اللاشعور. وبالرجوع إلى الموقف، وإلى الأعراض، لا يعسر علينا أن نتكهن بطبيعة هذا الأصل. فسلوك دورا ينمّ عن اهتمام أكثر حدة من ذاك الذي يمكن لنا أن نتوقعه من جانب ابنة، إذ كانت تشعر وتتصرف بالأحرى كزوجة غيور، على نحو ما كان من حقّ أمها أن تفعل. وهي بوضعها أبيها أمام هذا الإحراج: «إما هي وإما أنا»، وبما كانت تثيره معه من مشاجرات مهددة إياه في الوقت نفسه بالانتحار، كانت تضع نفسها بصورة واضحة موضع أمها. ولئن صحّ ما خمّناه من أن السعال ناشئ في أصله عن تخيُّل موقف جنسي، فهذا معناه أن دورا كانت تضع نفسها في تخيُّلها هذا موضع السيدة **ك**. وعليه، فقد كانت تتماهى مع المرأتين المحبوبتين من قبل أبيها:

٤٦ ـ الإبرة أو الإبر المعطلة: هي الإبر المغنطيسية المتناظرة والعديمة التأثر بالجاذبية الأرضية. «م».



المرأة التي أحبها من قبل والمرأة التي يحبها الآن. وبوسعنا بمنتهى اليسر أن نخلص من ذلك كله إلى أن تعلّقها بأبيها كان أقوى بكثير مما تعي، أو مما لا تريد التسليم به، وباختصار، أنها كانت مغرمة بأبيها.

لقد تعلمت أن أنظر إلى نظير هذه العلاقات الحيية اللاشعورية بين الأب وابنته، والأم وابنها، على أنها انبعاث لبراعم مشاعر طفلية. ويمكن تعرفها من عواقبها اللاسوية. وقد عرضت في غير هذا المكان[٤٧] مدى التبكير الذي تتظاهر به الجاذبية الجنسية بين الأهل والأولاد، وأوضحت أن أسطورة أوديب ينبغي أن تفهم على أنها تعبير شعري عما هو نمطي في هذه العلاقات. وهذا الميل المبكر من جانب الابنة إلى أبيها، ومن جانب الابن إلى أمه، وهو الميل الذي نجد في أغلب الظن أثراً واضحاً له لدى الغالبية العظمى من الناس، ينبغي أن نعتبره أشد قوة، من البداية، لدى الأشخاص الذين تهيئهم جِبِلَّتهم للعصاب، ولدى الأطفال المبكرين في النضج والنهمين إلى العطف. وتتدخل عندئذ مؤثرات أخرى لا مجال هنا للبحث فيها، وهي مؤثرات تثبِّت الميل الحبِّي البرعمي أو تعزِّزه بحيث يغدو من عهد الطفولة، أو ابتداء من سن البلوغ فقط، شيئاً شبيهاً بالانجذاب الجنسي، شيئاً يتحكم ويستأثر، كهذا الانجذاب، بالليبيدو[٤٨]. والحال أن الظروف الخارجية التي أحاطت بمريضتنا لم تكن مما لا يتمشى مع مثل هذا الافتراض. فلقد كان يخالجها على الدوام شعور بالانجذاب نحو أبيها؛ وكثرة الأمراض التي عانى منها زادت من محبتها له؛ وفي بعض فترات مرضه لم يكن يسمح لأحد سواها بأن يبذل له العناية المعهودة التي يتطلبها المريض؛ ثم إن أباها، باعتزازه بذكائها المبكر، جعل منها، وهي لا تزال طفلة، نجيّته والمؤتمنة على أسراره. والحق أنها هي، لا أمها، التي جُرِّدت من أكثر من وظيفة من وظائفها على إثر ظهور السيدة **ك**.

حين كاشفت دورا بأني أعتبر ميلها إلى أبيها حالة حب حقيقية بكرتْ إلى

---

٤٧ ـ في كتابي **تأويل الحلم**، ص ١٧٨، وفي المبحث الثالث من **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**.

٤٨ ـ إن العامل الحاسم هنا هو بوجه الاحتمال الظهور المبكر لأحاسيس تناسلية حقيقية، إما عفوية، وإما نتيجة الإغواء أو الاستمناء (انظر لاحقاً).



الظهور، أجابتني كعادتها: «لا أتذكر ذلك». لكنها سرعان ما كشفت لي عن واقعة مشابهة تتعلق بابنة خالتها، وهي فتاة في السابعة من العمر، كان كثيراً ما يتراءى لدورا أنها واجدة لديها صورة لطفولتها بالذات. فهذه الفتاة كانت قد شهدت مرة مناقشة عاصفة بين والديها، ولما قدمت دورا لزيارتها بعيد ذلك بقليل همست في أذنها: «لا يمكنك أن تتصوري كم أمقت هذه المرأة! (مشيرة إلى أمها)، ويوم ستموت سأتزوج بابا». لقد درجتُ على أن أنظر إلى التداعيات التي تنمّ عن شيء يتفق مع مدَّعاي على أنها توكيد وتأييد من اللاشعور لما أفترضه. فليس في وسع اللاشعور أن ينطق بغير هذه الـ«نعم»؛ ولا وجود على الإطلاق لـ«لا» لاشعورية[٤٩].

إن حالة الحب تلك تجاه أبيها لم تفصح عن نفسها على امتداد سنوات طوال؛ بل على العكس من ذلك، فقد أقامت دورا فترة مديدة من الزمن على أطيب علاقة مع المرأة التي نابت منابها لدى أبيها؛ بل إنها عملت، كما علمنا من تبكيتاتها الذاتية، على تيسير اتصال هذه المرأة بأبيها. وعليه، إن هذا الحب (لأبيها) لم يعاود انتعاشه إلا حديثاً، وبوسعنا في هذه الحال أن نتساءل عن الهدف من هذا الانبعاث. ومن الواضح أنه حدث كعرض ارتجاعي كبحاً لشيء آخر لا يزال على قوته وفعاليته في اللاشعور. لقد حملتني جملة الظروف على أن أفترض، بادئ الأمر، أن هذا الشيء المكبوح هو حبّها للسيد **ك**. ولم يكن لي مناص من الافتراض بأن هذا الحب كان مستمراً، ولكنه اصطدم، منذ حادث البحيرة، ولأسباب مجهولة، بمقاومة قوية، وبأن الفتاة قد عاودت اكتشاف هواها القديم لأبيها وعزّزته حتى لا تعود مرغمة على الاحتفاظ بأية فكرة شعورية عن الحب الأول الذي ساورها في صباها والذي غدا الآن أليماً موجعاً بالنسبة إليها. وعندئذ فطنت أيضاً إلى صراع كان من شأنه أن يقلب الحياة النفسية للفتاة رأساً على عقب. فقد غمرتها، من جهة أولى، مشاعر الأسف لرفضها عروض السيد

---

٤٩ ـ (حاشية أضيفت عام ١٩٢٣) ـ ثمة شكل آخر، مثير للاهتمام وجدير بالثقة التامة، من أشكال التأييد من قبل اللاشعور، ما كنت قد تبيَّنته بعد وقتئذ. وهو شكل يتجلى في هتاف المريض: «لم يخطر لي ذلك» أو «لم أفكر بذلك». وهذا يعني: «أجل، كان ذلك لاشعورياً عندي».



ك، واستبدّ بها الحنين إليه وإلى شواهد حبه الصغيرة؛ وقامت في نفسها، من الجهة الثانية، وفي مواجهة انفعالات الحب والصبابة هذه، مشاعر مضادة قوية، ومن جملتها كبرياؤها التي كان يسيراً الحدس بها. وهكذا توصلت إلى إقناع نفسها بأن الأمر قد انتهى بينها وبين السيد **ك** ـ وذلك هو الكسب الذي جنته من سيرورة الكبت النمطية هذه ـ ولكنها اضطرت مع ذلك إلى أن تستنجد، كيما تقاوم الحب الذي كان يندفع باستمرار إلى شعورها، بحبها الطفلي لأبيها وأن تغلو فيه وتشطّ. ولئن وقعت، من جهة أخرى، فريسة غيرة مسرفة، فإن هذه الواقعة كانت قابلة للتفسير بطريقة أخرى أيضاً[٥٠].

لقد توقعت أن تقابل دورا تفسيري هذا بمعارضة جازمة. غير أن كلمة «لا»، التي يقابلنا بها المريض عندما نسوق للمرة الأولى إلى إدراكه الشعوري الفكرة المكبوتة، ما هي إلا دليل على الكبت؛ ودرجة الجزم في هذه الـ«لا» تتيح لنا بنوع ما أن نقيس شدة هذا الكبت. فإن لم نعتبر هذه الـ«لا» تعبيراً عن حكم متجرد ومنزَّه عن الغرض، وهذا بالفعل ما لا يقتدر المريض عليه، وإن ضربنا عنها صفحاً وواصلنا عملنا التحليلي، فسرعان ما تطفق تتراكم لدينا الأدلة الأولى على أن الـ«لا» تعني في مثل هذه الحال الـ«نعم» المأمول بها. فقد أقرّت دورا بأنها لا تستطيع أن تكنّ للسيد **ك** ما يستأهله من ضغينة. وقد روت لي أنها التقته يوماً في الشارع، فيما كانت تتنزه مع ابنة خال لها ما كان لها به معرفة. فهتفت ابنة الخال هذه على حين فجأة: «ما بك، يا دورا؟ لقد شحبت شحوب الموتى!». ولم تكن هي نفسها قد انتبهت إلى شيء من هذا التغيُّر، لكنني أوضحت لها أن سيماء الوجه والتعبير عن الانفعالات يخضعان لقوى اللاشعور أكثر من خضوعهما لقوى الشعور، وأنهما ينمّان عن هذا اللاشعور ويكشفان عنه[٥١]. وفي مرة أخرى، وبعدما مال مزاج دورا لعدة أيام على التوالي إلى المرح والجذل

---

٥٠ ـ هذا ما سنكشف عنه لاحقاً.

٥١ ـ انظر شيلر: **أغنية الفارس توغنبرغ**:

بهدوء أراك تظهرين.

وبهدوء أراك تغيبين.



المطردين، قدمت إلى عندي بمزاج عكر للغاية، بدون أن تستطيع أن تتبيَّن تفسيراً لذلك. وقالت «إن كل شيء اليوم ينغصِّني ويسخطني». وكان ذلك يوم ميلاد عمها، وما استطاعت أن تعقد العزم على تهنئته، ولم تدرِ لذلك سبباً. وبما أن معين تفسيراتي قد نضب في ذلك اليوم، فقد تركتها تواصل كلامها، فإذا بها تتذكر على حين بغتة أن اليوم هو أيضاً يوم عيد ميلاد السيد **ك**. وهذا أمر ما توانيت عن استخدامه ضدها. وبات من اليسير عندئذ تفسير العلة في أن الهدايا الجميلة التي تلقتَّها في يوم عيد ميلادها هي قبل بضعة أيام لم تلقَ من نفسها سروراً. فقد كانت تنقصها هدية، هي هدية السيد **ك**، وقد كانت عندها أثمن الهدايا بطبيعة الحال.

ومع ذلك، بقيت دورا فترة أخرى من الزمن تعارض مدّعاي إلى أن ظهر، عند أواخر التحليل، الدليل الحاسم على صحة افتراضاتي.

لنشر الآن إلى تعقيد آخر ما كنت بكل تأكيد لأفسح له مجالاً هنا فيما لو كنت شاعراً يريد أن يصوِّر في قصة قصيرة هذه الحالة النفسية، بدلاً من كوني طبيباً يتحتم عليه تشريحها. فالعنصر الذي سأشير إليه ليس بوسعه إلا أن يعكر ويشوِّش ويكسف ذلك الصراع البديع الجمال، القمين بأن يحاط بهالة من الشاعرية، الذي استطعنا تبيُّنَه لدى دورا. ولا شك في أن الشاعر كان سيضحِّي، وعن حقّ، بهذا العنصر بداعي الرقابة، ولا سيما أن الشاعر عندما يزجّ بنفسه في أمور علم النفس يبسّط ما يصوِّره ويحذف منه بعض أجزائه. وبالمقابل، إن القاعدة في الواقع الذي أسعى إلى وصفه هنا هي تعقيد الدوافع وتراكم الحفزات والانفعالات النفسية وتداخلها، وبالاختصار، التعيين المتعدد العناصر. فخلف الفكرة المتسلطة لدى دورا عن طبيعة علاقات أبيها بالسيدة **ك**، كان يختفي في الواقع شعور بالغيرة موضوعه السيدة **ك** نفسها ـ أي شعور لا أساس يمكن أن يقوم عليه سوى الحب الجنسي المِثْليّ. فمن المعروف منذ عهد بعيد، ومما جرى التنويه به مراراً وتكراراً، أن الصبيان والصبايا تصدر عنهم في سن البلوغ، حتى ولو كانوا من الأسوياء، علامات واضحة على وجود ميول عندهم إلى أفراد من جنسهم ذاته. فالصداقة الرومانسية مع صديقة من صديقات المدرسة، بما



يصاحبها من عهود وقبلات ووعود بالتراسل مدى الحياة، ومن حساسية ملازمة للغيرة، هي البشير المألوف بأول حب مشبوب عند الفتاة لرجل. وبعد ذلك، وفي ظل ظروف مؤاتية، ينضب معين التيار الجنسي المِثْليّ نضوباً تاماً في كثير من الأحيان؛ أما في الحالات التي لا يحالف فيها الفتاة التوفيق في حبها للرجل، فإن ذلك التيار سرعان ما يعود إلى التدفق برفد من الليبيدو، حتى في السنوات اللاحقة من العمر، وترتفع شدته إلى درجات متفاوتة. فإن لاحظنا هذه الواقعة بسهولة ويسر لدى أشخاص أسوياء، كان من حقنا أن نتوقع، بالاستناد إلى الملاحظات السالفة عن الدرجة العليا من نمو البذور المألوفة للانحراف لدى العصابيين، أن نلقى في جبلّة هؤلاء العصابيين استعداداً جنسياً مثلياً أقوى مما لدى سواهم. ولا بدّ أن يكون كذلك هو واقع الحال، لأنني لم أفلح بعد في تطبيق التحليل النفسي على رجل أو على امرأة بدون أن يكون عليّ أن آخذ بعين الاعتبار وجود مثل تلك النزعة الجنسية المِثلية في درجة متقدمة من القوة. وحيثما يتعرض الليبيدو الجنسي الموجَّه نحو الرجل لقمع شديد لدى البنات والنساء الهستيريات، نجد بصورة مطردة أن الليبيدو الموجَّه نحو المرأة قد تعرَّض لديهن بالمقابل لتعضيد وتعزيز؛ بل إن هذا النزوع قد يكون إلى حدّ ما شعورياً.

سأدع جانباً الآن هذا الموضوع البالغ الأهمية، الذي يتعذر تفاديه إذا ما أردنا فهم الهستيريا لدى الإنسان، وذلك لأن علاج دورا توقف قبل أن يلقي الضوء على هذه النقطة فيما يتصل بها. بيد أنني سألفت الانتباه من جديد إلى تلك المربِّية التي عاشت معها دورا في أول الأمر في حال من التفاهم الفكري الحميم، إلى أن اتضح لها أن المربِّية المذكورة ما عاملتها تلك المعاملة الحسنة وما أبدت لها من مظاهر الإعجاب والتقدير ما أبدته إلا بسبب أبيها، لا بسببها هي. ووقتئذ أُرغمت المربِّية على مغادرة المنزل. وقد ألحَّت دورا أيضاً إلحاحاً خاصاً، وبتواتر مثير للدهشة ـ معلِّقة على ذلك أهمية جلى ـ على أن تروي لي قصة خصام آخر بدا لها هي نفسها ملغزاً. فقد كانت دوماً على علاقة تفاهم وودّ مع صغرى ابنتي عمتها، وهي التي خطبت فيما بعد، وقد كاشفتها بأسرار شتى. والحال أنه عندما عاد والد دورا إلى بلدة **ب** لأول مرة بعد قطع إقامته على ضفاف البحيرة،



رفضت بطبيعة الحال أن ترافقه إليها؛ وعندئذ دعيت ابنة عمتها إلى مصاحبته في السفر فقبلت. وشعرت دورا بالفتور نحوها، وعجبت هي نفسها من اللامبالاة التي صارت عليها عندئذ تجاه ابنة عمتها، بالرغم من أنها اعترفت بأنه ليس لديها شيء يعتدّ به تأخذه عليها. وقد حملني هذان المثالان من سرعة التأثر والحساسية على مساءلة دورا عما كان عليه موقفها من السيدة **ك** قبل خلافها معها. وقد علمت عندئذ أن المرأة الصبية ودورا، التي ما كانت بلغت إلا من فترة وجيزة، قد عاشتا سنوات عدة في علاقة حميمة للغاية؛ ويوم أقامت دورا لدى الزوجين **ك**، شاطرت السيدة **ك** غرفتها؛ أما الزوج فقد أقصي عنها إلى غرفة أخرى. وكانت دورا المؤتمنة على أسرار المرأة الصبية وناصِحتها في جميع مصاعب حياتها الزوجية؛ وما تركتا شيئاً لم تتحدثا فيه. وكما كانت ميديا راضية عن استمالة كرويزا لطفليها[٥٢]، كذلك فإن السيدة **ك** ما كانت بالتأكيد تأتي شيئاً من شأنه أن يعكر علاقة والد طفليها بالفتاة. وإنه لأمر مثير للاهتمام من وجهة النظر النفسية أن نعرف كيف أمكن لدورا أن تقع في حب الرجل الذي كانت صديقتها الأثيرة تحكي عنه بكل ذلك السوء؛ والحق أن هذه مشكلة لا تعسر على الحلّ متى فهمنا أن الأفكار المتنافرة في اللاشعور تتعايش بسهولة تامة، وأن الأشياء المتناقضة تتجاور بغير ما صدام، وأن هذه الحالة قد تستمرّ في بعض الأحيان حتى في الشعور.

حين كانت دورا تتكلم عن السيدة **ك**، كانت تثني بالمديح على «بشَرة جسمها الساحرة البياض» بلهفة أجدر بعاشقة منها بغريمة مهزومة. وقد قالت لي مرة، بكآبة أكثر منها بمرارة، إنها مقتنعة بأن الهدايا التي قدَّمها لها أبوها كانت من اختيار السيدة **ك**: فقد تعرفت فيها ذوقها. وفي مرة أخرى أيضاً أكدت لي أنها تلقت على سبيل الهدية، وبمبادرة من السيدة **ك** بطبيعة الحال، حلية تشبه كل الشبه حلية كانت قد رأتها لدى السيدة **ك**، فعبّرت يومئذ عن رغبتها في الحصول على نظيرها. أجل، يجب أن أقرّ بأني لم أسمعها قط تتلفظ بكلمة

٥٢ ـ ميديا: ساحرة إغريقية خرافية، هربت مع البطل جاسون، ملك إيلكوس الخرافي، لكن لما هجرها هذا الأخير انتقمت منه بأن ذبحت ولديه منها. وكرويزا هي ابنة الملك كريون التي أحبَّها جاسون. «م».



قاسية أو غاضبة بحقّ هذه المرأة التي كان من المفروض، مع ذلك، أنها هي المسؤولة عن تعاستها. لقد كان يبدو عليها وكأنها تتصرف تصرفاً لامنطقياً، لكن هذا اللامنطق الظاهر كان بالتحديد هو التعبير عن تيار عاطفي بالغ التعقيد. إذ كيف تصرفتّ هذه الصديقة، التي كانت دورا تعزّها أعظم الإعزاز، تجاهها؟ فبعد أن أفصحت دورا عن اتهامها للسيد **ك**، وبعد أن طلب أبوها من السيد **ك** إيضاحاً، ردَّ هذا الأخير أول الأمر باعتراضات مبنية على التقدير والاحترام لها؛ وقد اقترح أن يأتي إلى البلدة الصناعية لإزالة كل سوء تفاهم. ولكن بعد ذلك بأسابيع قليلة، وحينما تحادث الأب وإياه في بلدة **ب**، تلاشى كل أثر للتقدير والاحترام. فقد قدح بالفتاة وتناولها بالاغتياب والتحقير، وقامر بكل شيء بقوله إن فتاة تقرأ مثل تلك الكتب وتهتم بمثل تلك الأشياء لا تستطيع أن تتوقع أن يعاملها الرجل بتقدير واحترام. إذاً، فقد خانتها السيدة **ك** ووشت بها وسوّدت صفحتها؛ فدورا لم تتكلم عن مانتيغازا وفي الموضوعات الشائنة إلا معها؛ وكانت هذه القصة تكرر بصورة شبه حرفية ما جرى لها مع مربيتها؛ فالسيدة **ك** لم تحبِّها لذاتها، بل من أجل أبيها. وقد ضحَّت بها السيدة **ك**، بلا وازع من ضمير، كيلا يتعكر صفو علاقتها بأبيها. ومن المحتمل أن هذه الإهانة جرحت مشاعرها وتسببت في مرضها أكثر من الإهانة الأخيرة التي وجَّهها إليها أبوها حين ضحَّى بها، ولعلها اتخذت من الإهانة الأخيرة مجرد ستار لحجب الأولى. أفلم تكن نسايتها العنيدة بخصوص مصدر معلوماتها المحظورة على صلة مباشرة بما كانت توليه من أهمية عاطفية للاتهام الموجَّه إليها من قبل السيدة **ك**، وبالتالي لخيانة هذه الصديقة لها؟

لا أعتقد أنني أجانب الصواب إذا افترضت أن أفكار دورا المتسلطة، والحائمة حول علاقة أبيها بالسيدة **ك**، لم يكن الهدف الوحيد منها كبح حبِّها للسيد **ك**، وهو الحب الذي كان شعورياً فيما مضى، بل كذلك تمويه حبِّها للسيدة **ك**، وهو الحب الذي كان لاشعورياً بأعمق معاني الكلمة. لقد كانت أفكارها المتسلطة معاكسة تماماً لهذا الميل. وكانت دورا تردد بلا انقطاع أن أباها ضحَّى بها من أجل تلك المرأة، وكانت تظهر بصخب حسدها لها على امتلاكها أباها، وبذلك



كانت تخفي عن نفسها الواقعة المعاكسة، وهي أنها لا تستطيع إلا أن تحسد أباها على حب السيدة ك له، وأنها لم تغفر لهذه الأخيرة، وهي التي أحبَّتها كل ذلك الحب، ما سبّبته لها من خيبة حين هتكت سرها. لقد كان إحساسها بالغيرة النسوية مقترناً، في لاشعورها، بغيرة مماثلة لتلك التي يمكن أن تساور الرجل. وهذه المشاعر الذكورية، أو بتعبير أصح مشاعر «حب النساء»، ينبغي اعتبارها نمطية في الحياة الحبية اللاشعورية عند الفتيات الهستيريات.



(٢)

الحلم الأول

في الوقت الذي لاح لنا فيه أننا سنتوصل، بفضل المادة التي زوَّدنا بها التحليل، إلى إيضاح نقطة غامضة في طفولة دورا كاشفتني هذه الأخيرة بأنها رأت، في إحدى الليالي الأخيرة، حلماً هو مجرد تكرار لأحلام أخرى مشابهة بدقة له كانت قد رأتها من قبل مراراً عدة. وكان حسب هذا الحلم أن يكون من تلك الأحلام التي تتكرر حتى يثور له فضولي. ولقد كان من حقنا دوماً، لصالح العلاج بالذات، أن نفكر بإدراج الحلم في مجمل سياق التحليل. وعلى هذا فقدت عقدت العزم على سبر أغوار ذلك الحلم بعناية خاصة.

الحلم الأول كما روته دورا: «كان ثمة حريق في منزل[١]، وكان أبي واقفاً أمام سريري، فأيقظني. ارتديت ثيابي على عجل. أرادت أمي أن تنقذ علبة حليها، ولكن بابا قال: «لا أريد أن نحترق أنا وولداي بسبب علبة حليك». ونزلنا الدرج مهرولين، وما إن صرت في الخارج حتى استيقظت».

بما أن الحلم كان من الأحلام التي تتكرر، فقد سألتُ دورا بطبيعة الحال متى رأته أول مرة، فأجابت بأنها لا تدري. لكنها تذكرت أنها رأت هذا الحلم في **ل** (الموضع الذي وقع فيه المشهد مع السيد **ك** عند ضفاف البحيرة) لثلاث ليال على التوالي. ثم تكرر بعد ذلك ببضعة أيام هنا[٢] (في فيينا. «م»). والرابط الذي استجليته على هذا النحو بين الحلم والحادث الذي جرى في **ل** زاد بطبيعة الحال من أملي في التوصل إلى تأويل الحلم. لكنني أردت أولاً أن أعرف السبب المباشر

---

١ ـ قالت دورا فيما بعد رداً على سؤال لي: «لم ينشب قط حريق بحصر المعنى في منزلنا».

٢ ـ يمكننا أن نستخلص من مضمون الحلم أنها حلمت به لأول مرة في ل.



لتكرره مؤخراً، ودعوت من ثم دورا ـ وكانت قد تدربت قليلاً على تأويل الأحلام من خلال بعض الأمثلة البسيطة التي سبق لنا تحليلها ـ إلى أن تردّه إلى عناصره وإلى إخباري بكل ما يرد إلى ذهنها بصدد كل عنصر.

قالت:

ـ ثمة شيء يخطر ببالي، لكن هذا الشيء حديث عهد للغاية ولا يمكن أن تكون له من صلة إطلاقاً بالحلم الذي حلمت به من قبل بكل تأكيد.

فأجبتها:

ـ لا عليك، أخبريني به؛ فمن المؤكد أن هذا الشيء الأخير هو ما سيتوافق مع الحلم.

ـ حسناً، لقد تشاجر أبي مع أمي في الأيام القليلة الماضية، لأنها تغلق ليلاً غرفة الطعام. والحال أن غرفة أخي ليس لها مخرج مستقل ولا مدخل إليها إلا عن طريق غرفة الطعام. وأبي لا يحبّ أن يُحبس أخي على هذا النحو ليلاً. وقد قال: هذا لا يجوز بتاتاً، فقد يحدث حادث ليلاً، وإن المرء قد يحتاج إلى الخروج.

ـ عندئذ ذهب الفكر بك إلى الحريق؟

ـ أجل.

ـ أرجوك أن تتذكري عباراتك، فقد يكون لنا فيها فائدة. لقد قلت للتو: **قد يحدث حادث ليلاً، وإن المرء قد يضطر إلى الخروج**[٣].

بيد أن دورا اهتدت الآن إلى الرابط بين العلة المباشرة الحديثة للحلم وبين العلة الأصلية، فقد أردفت تقول:

٣ ـ إنني أولي هذه الكلمات اهتماماً لأنها أدهشتني. فقد بدت لي ملتبسة المعنى. أفلا تُستخدم الألفاظ نفسها للإشارة إلى بعض الحاجات البدنية؟ إن الكلمات الملتبسة لهي، في سياق التداعيات، أشبه بالمحوّلات في السكة الحديدية. فحسبنا أن نضع المحوّلة في غير الاتجاه الذي يبدو أنها موضوعة عليه في الحلم، حتى نجد أنفسنا على سكة جديدة تجري عليها الأفكار التي نبحث عنها والتي «لا تزال خبيئة وراء الحلم».



ـ حين وصلنا، أبي وأنا، إلى **ل** يومئذ، أفصح بصراحة عن خشيته من حريق. فقد كانت تدوي عاصفة رعدية عنيفة، وقد لاحظنا أن المنزل الخشبي الصغير غير مجهَّز بواقية صواعق. ومن ثم فقد كانت خشيته في محلها تماماً.

ولما كنت أحرص علَى تعميق الصلة بين الأحداث التي وقعت في **ل** وبين الأحلام القديمة ذات المضمون المماثل، فقد سألتها:

ـ هل رأيت الحلم في لياليك الأولى في **ل** أو في لياليك الأخيرة، قبيل رحيلك عنها، وبعبارة أخرى: قبل ذلك المشهد في الغابة أو بعده؟

وكنت أعلم، بالفعل، أن المشهد لم يحدث من اليوم الأول مباشرة، وأنها لبثت، بعد ذلك الحادث، في **ل** لبضعة أيام أخرى بدون أن تذكر لأحد عنه شيئاً.

وقد أجابتني أول الأمر: «لست أدري».. ثم أضافت بعد هنيهة: «أعتقد أن ذلك كان بعد المشهد».

هكذا بتُّ أعلم الآن أن الحلم كان استجابة لذلك الحادث. لكن لماذا تكرر هناك ثلاث مرات؟ واصلتُ أسالها: «كم من الزمن بقيت في **ل** بعد الحادث؟».

ـ أربعة أيام أخرى؛ وفي الخامس رحلت مع بابا.

ـ إنني متيقِّن الآن من أن الحلم كان نتيجة مباشرة لحادثتك مع السيد **ك**. فقد رأيت هذا الحلم للمرة الأولى هنالك، وليس من قبل. ولم تضيفي إليه سوى شكوك ذاكرتك حتى تطمسي صلته بما وقع لك[٤]. غير أن الأرقام لا تتفق بعد تمام الاتفاق في تقديري. فلئن بقيت في **ل** أربع ليالٍ أخرى، فقد كان من الممكن لك أن تكرري الحلم أربع مرات. أفليس ذلك ما حصل؟

لم تعترض دورا هذه المرة على ما ذهبت إليه، ولكنها بدلاً من أن تجيب عن سؤالي مضت تقول[٥]:

ـ في عصر ذلك اليوم، عقب نزهتنا على شاطئ البحيرة، وكنت أنا والسيد **ك**

---

٤ ـ قارن مع ما تقدم بيانه في الصفحة ٢٥ بصدد الشكوك الذاكرية.

٥ ـ كان لا بدّ بالفعل أن تبزغ مادة ذاكرية جديدة قبل أن تتمكن من الإجابة عن سؤالي.



قد عدنا أدراجنا عند الظهيرة، تمددت كعادتي على الأريكة في غرفة النوم لأخلد إلى إغفاءة وجيزة. على أني صحوت فجأة لأرى السيد **ك** واقفاً أمامي.

ـ إذاً على نحو ما رأيت في المنام أباك واقفاً أمامك؟

ـ أجل؛ وقد سألته باحتداد عما جاء يفعل هنا. فأجاب أن لا شيء يمنعه من الدخول إلى غرفة نومه متى ما شاء. وفضلاً عن ذلك، فقد جاء، كما قال، ليأخذ منها شيئاً. وإذ أثارت هذه الحادثة ريبتي، سألت السيدة **ك** عما إذا لم يكن لغرفة النوم مفتاح؛ وفي صباح اليوم التالي (اليوم الثاني للمشهد) أقفلت على نفسي الباب لأتزيَّن. ولكن لما أردت في عصر ذلك اليوم أن أقفل الباب على نفسي لأستريح من جديد على الأريكة، كان المفتاح قد اختفى. وإني لعلى ثقة بأن السيد **ك** هو الذي أخذه.

ها نحنذا أمام موضوعة إغلاق الغرفة بالمفتاح أو عدم إغلاقها، أي الموضوعة عينها التي كانت قد ظهرت في تداعيات الحلم والتي لعبت مصادفة واتفاقاً دوراً كعلة مباشرة لتكرار الحلم حديثاً[٦]. ترى ألا تندرج عبارة: **ارتديت ثيابي على عجل**، هي الأخرى، في هذا السياق؟

ـ عندئذ عاهدت نفسي على ألا أبقى مقيمة لدى الزوجين **ك** بدون أبي. وكنت أخشى أن يباغتني السيد **ك**، في الأصباح التالية، وأنا أرتدي ملابسي، **ولهذا صرت أرتدي ملابسي على عجل جداً في تلك الأيام**. فبابا كان يقيم في الفندق، والسيدة **ك** كانت تخرج في ساعة مبكرة جداً لتذهب وإياه في نزهة. لكن السيد **ك** لم يعد إلى إزعاجي.

ـ إني أفهم ذلك؛ فعصر اليوم الثاني عقدت العزم على الإفلات من تلك الملاحقات، وقد سنحت لك الفرصة في الليالي الثانية والثالثة والرابعة بعد مشهد الغابة لتكرري بينك وبين نفسك قرارك ذاك في أثناء نومك. فقد كنت تعلمين

٦ ـ أفترض، وإن لم أذكر ذلك بعد لدورا، أنها ما توقفت عند هذا العنصر إلا لما له من دلالة رمزية: فـ«الغرف» Zimmer كثيراً ما تنوب في الحلم مناب «النساء» Frauenzimmer. وإنه ليس أمراً عديم الأهمية بطبيعة الحال أن تكون المرأة «مفتوحة» أو «مغلقة». ومعروف أيضاً ما هو «المفتاح» الذي يقوم بالفتح في مثل هذه الحالة.



في عصر اليوم الثاني، أي قبل الحلم إذاً، أن المفتاح لن يكون في حوزتك صباح اليوم التالي ـ الثالث ـ لتغلقي الباب على نفسك وأنت ترتدين ملابسك؛ ومن ثم صممت على أن تفعلي ذلك بأعجل ما يمكن. غير أن حلمك تكرر كل ليلة، لأنه كان يعادل، على وجه التدقيق، قراراً. والقرار يبقى قائماً إلى أن ينفَّذ. ولكأنك قلت في دخيلة نفسك: «لن أعرف الطمأنينة ولن أذوق طعماً للنوم الهادئ قبل أن أصير خارج هذا المنزل». وفي الحلم عكست العبارة فقلت: **ما إن صرت في الخارج حتى استيقظت.**

* * *

أقطع هنا سرد التحليل لأقارن هذه النبذة الصغيرة من تأويل الحلم بنظرياتي العامة عن آلية صياغة الحلم. فقد أوضحت في كتابي[7] أن كل حلم يمثِّل تحقيقاً لرغبة، وأن هذا التمثيل يموِّه الرغبة متى ما كانت هذه الرغبة مكبوتة ومنتمية إلى اللاشعور، وأن الرغبة اللاشعورية أو الغائصة في اللاشعور هي وحدها القادرة، باستثناء أحلام الأطفال، على تكوين حلم. وأعتقد أنني كنت سأضمن مزيداً من القبول العام لو كنت اكتفيت بالتوكيد بأن لكل حلم معنى يمكن الكشف عنه بواسطة عمل تأويلي معين، ولو كنت قلت إنه بوسعنا، متى ما اكتمل التأويل، أن نستبدل الأحلام بأفكار قابلة للإدراج في نقطة سهلٌ تعرّفُها من الحياة النفسية في حالة اليقظة. وكان بوسعي عندئذ أن أتابع فأقول إن معنى الحلم ذاك يتكشف عن أنه متنوع تنوع الأفكار في حالة اليقظة، فتارة يكون رغبة متحققة، وطوراً خوفاً متحققاً، ومرة ثالثة تفكيراً ظلّ متواصلاً في أثناء النوم، أو قراراً انعقد العزم عليه (كما في حلم دورا)، أو ضرباً من الإبداع الفكري في أثناء النوم، إلخ. ومن المحقق أن هذه الرؤية للأمور كانت ستكون جذابة بوضوحها وبسهولة قابليتها للفهم، وكان من الممكن تدعيمها بعدد غفير من الأمثلة الجيدة التأويل، نظير الحلم المحلَّل هنا.

بيد أنني، بدلاً من ذلك، أطلقت توكيداً عاماً يقصر معنى الأحلام على شكل واحد من الفكر، وهو تمثيل الرغبات، فابتعثت من ثم ميلاً عاماً إلى مناقضتي. غير أنه

٧ ـ **تأويل الحلم**، لايبزيغ وفيينا، الناشر ف. دوتيكه، ١٩٠٠.



لزام عليّ أن أذكر أني لم أرَ من حقي ولا من واجبي أن أبسّط، استمالة مني للقارئ، سيرورة سيكولوجية دلّتني أبحاثي على أنها على درجة من التعقيد يتعذّر معها، بصفة عامة، الوصول إلى حلّ لها إلا في حال الانتقال إلى ميادين أخرى للبحث. ولهذا السبب، إنه من بالغ الأهمية بالنسبة إليّ أن أتمكن من التدليل على أن الاستثناءات الظاهرية، من قبيل حلم دورا الذي تكشَّف أول الأمر عن أنه عبارة عن قرار اتخذ في أثناء النهار واستمر في أثناء النوم، تؤكد من جديد القاعدة المتنازع فيها.

* * *

لا يزال أمامنا بعد شطر كبير من الحلم بلا تحليل. لذا مضيت أسأل:

ـ ما لديك لتقوليه عن صندوق الحلي الذي أرادت أمك أن تنقذه؟

ـ ماما تحبّ الحلي كثيراً، وقد تلقت كثيراً منها من بابا.

ـ وأنت؟

ـ في الماضي كنت أنا أيضاً شديدة الولع بالحلي؛ ولكنني منذ مرضت ما عدت أتزيَّن بها. لقد وقع، منذ نحو أربع سنوات (قبل الحلم بعام واحد)، شجار كبير بين بابا وماما حول حلية. كانت أمي تريد حلية بعينها؛ قرطاً للأذنين من لؤلؤ على شكل نقط. ولكن باب ما كان يحبّ هذه الحلية. فجاءها بسوار بدلاً من اللآلئ. فقالت له، وقد ثار حنقها، إنه ما دام أنفق كل ذلك المال في شيء لا رغبة لها فيه، ففي وسعه أن يقدمه هدية إلى امرأة أخرى.

ـ عندئذ قلت في نفسك في أغلب الظن إنه يسرك كل السرور لو أنك تتلقينها أنت؟

ـ لست أدري[٨]، وإني لأجهل أصلاً لماذا دخلت ماما في ذلك الحلم، مع أنها لم تكن آنئذ في ل معنا[٩].

---

٨ ـ كانت هذه طريقة مألوفة عندها للاعتراف بفكرة مكبوتة.

٩ ـ هذه الملاحظة، التي تنمّ عن جهل مطبق بقواعد تأويل الأحلام ـ مع أن دورا كانت تدلل في أوقات أخرى على دراية تامة بها ـ وكذلك ترددها وضآلة مردودها من التداعيات بصدد علبة الحلي، أثبتت لي أن الأمر يتعلق بمادة كُبتت كبتاً شديداً.



ـ سأفسِّر لك ذلك فيما بعد. لكن ألا يرد إلى ذهنك شيء آخر بصدد علبة الحلي؟ إنك لم تتكلمي إلى الآن إلا عن الحلي ولم تذكري شيئاً عن العلبة.

ـ أجل، لقد كان السيد **ك** أهدي إليّ، قبيل ذلك بوقت قصير، علبة حلي نفيسة جداً.

ـ إذاً لم يكن أمراً في غير محله أن تُردّ الهدية بمثلها. ولعلك لا تعرفين أن «علبة الحلي» تعبير شائع في الإشارة إلى عين ذلك الشيء الذي ألمحت إليه مؤخراً حينما تكلمت عن الحقيبة الصغيرة التي تُعلَّق بحزام الخصر(١٠)، أي العضو التناسلي المؤنث.

ـ كنت أعلم أنك ستقول ذلك(١١).

ـ أي أنك، أنت، كنت تعرفينه. إن المغزى يغدو الآن أكثر وضوحاً. لقد قلت في نفسك: «هذا الرجل يلاحقني، يريد الدخول إلى غرفتي، «علبة حليي» في خطر، وإن وقعت كارثة ما فالغلطة غلطة بابا». لهذا اخترت للحلم موقفاً يعبِّر عن العكس: خطر ينقذك منه أبوك. إن كل شيء في هذه المنطقة من الحلم يُقلب، بصفة عامة، إلى نقيضه. وستعرفين عما قليل سبب ذلك. وبالفعل، إن السرّ يكمن عند أمك. ما الدور الذي تلعبه أمك في الحلم؟ هي كما تعلمين غريمتك القديمة في حبِّ والدك. وفي حادثة الإسوارة كان سيطيب لك أن تقبلي ما رفضته أمك. والآن، لنحاول أن نبدل كلمة «قبِل» بكلمى «أعطى»، وكلمة «ردَّ» بكلمة «ضنّ». فيكون المعنى عندئذ أنك كنت على أتمّ استعداد لإعطاء أبيك ما كانت أمك ترفض إعطاءه إياه، والشيء لا بدّ أن تكون له صلة ما بالحلي(١٢). والآن عودي بذاكرتك إلى صندوق الحلي الذي أهداه إليك السيد **ك**. هكذا تجدين نفسك أمام بداية لسلسلة من أفكار موازية ينبغي أن يوضع فيها السيد **ك** موضع أبيك، تماماً كما في موقف الرجل الواقف أمام سريرك. فقد قدَّم

١٠ ـ سيأتي لاحقاً الحديث عن حقيبة اليد.

١١ ـ طريقة مألوفة للغاية لإبعاد بعض المعطيات التي تبزغ من اللاشعور.

١٢ ـ سيكون في مستطاعنا أن نقدم عما قليل تفسيراً (يتطلبه السياق بجملته) للؤلؤة التي على شكل نقطة.



لك السيد **ك** علبة حلي، وعليك من ثم أن تقدمي له علبة حليك؛ لهذا تحدثت لتوي عن «ردّ الهدية» بمثلها. وفي هذه السلسلة من الأفكار ينبغي إحلال السيدة **ك** محل أمك؛ ولقد كانت السيدة **ك** حاضرة عندئذ، كما تعلمين. وهكذا فأنت على استعداد لأن تعطي السيد **ك** ما تضنّ به عليه زوجته. وتلك هي الفكرة التي لم يكن لك من مناص من كبتها بالجهد الجهيد، والتي حتّمت أن تُقلب جميع العناصر إلى أضدادها. إن الحلم يؤكد من جديد ما كنت قلته لك من قبل، وهو أنك توقظين حبك القديم لأبيك كيما تذودي به عن نفسك ضد حبك للسيد **ك**. ولكن علامَ تدلّ كل هذه الجهود؟ ليس فقط على كونك تخافين السيد **ك**، بل أكثر من ذلك، فأنت تخشين نفسك، وتخافين من إغراء الاستسلام له. ومن ثم، إنك تؤكدين بذلك مدى قوة حبك له[١٣].

لم تشأ بطبيعة الحال القبول بهذا الجزء من التأويل.

لكني أنا استطعت أن أقطع شوطاً آخر في استكمال تأويل الحلم، وهي خطوة بدت لي ضرورية ولا غنى عنها، سواء بالنسبة إلى تحليل الحالة أم بالنسبة إلى نظرية الحلم. وقد وعدت دورا بأن أطلعها على ما انتهيت إليه في الجلسة القادمة.

وبالفعل، ما كان بوسعي أن أتغاضى عن التلميح الذي بدا لي متضمَّناً في تلك العبارة الملتبسة المعنى التي تقدَّمت الإشارة إليها (**قد يحدث حادث ليلاً، وإن المرء قد يضطر إلى الخروج**). أضف إلى ذلك أن إيضاح الحلم كان يبدو لي بعيداً عن الاكتمال ما دام شرط بعينه لم يتحقق، وهو شرط لا أتطلب نظيره دواماً، لكنني أسعى، إيثاراً، إلى التقيُّد به. فالحلم الاعتيادي يقف إن جاز القول على ساقين، واحدة يرتكز بها إلى الواقعة الأساسية الحديثة، والأخرى إلى حدث مهمّ ومثقل بالنتائج من أحداث الطفولة. ويقيم الحلم بين هذين الحدثين، حدث

---

١٣ ـ أضفت أيضاً ما يلي: «لا مناص لي أيضاً من أن أستنتج، من واقعة عودة الحلم إلى الظهور في الأيام الأخيرة، أنك تعتبرين أن الموقف نفسه قد تكرر من جديد، وأنك قد عقدت العزم على الانقطاع عن علاج ما حملك أحد عليه سوى أبيك». وما أتى بعد ذلك أظهر صحة افتراضاتي. وقد مسَّ تأويلي مساً خفيفاً مسألة «التحويل» الفائقة الأهمية، إن من الناحية العملية وإن من الناحية النظرية، وهي مسألة لن تتاح لي فرصة أخرى للتعمق فيها في هذا النص.



الطفولة والحدث القريب العهد، ارتباطاً، ويسعى إلى إعادة تشكيل الحاضر وفق نموذج الماضي. إذاً فالرغبة التي تولِّد الحلم تنبع من الطفولة دوماً، ومرامها الدائم أن تبعث هذه الطفولة، أن تجعل منها حقيقة حاضرة، أن تصحح الحاضر وفق معيار الطفولة. ولقد خيِّل إليّ أنني تعرفت فعلاً في مضمون الحلم الأجزاء التي تشير، إذا ما ائتلفت معاً، إلى حادث معيَّن في طفولة دورا.

لقد فتحت باب المناقشة في هذا الموضوع من خلال تجربة صغيرة قُيِّض لها هذه المرة، كما في العادة، النجاح. فقد اتفق أن كانت، فوق الطاولة، علبة ثقاب كبيرة. فرجوت دورا أن تنظر لترى إن كان على الطاولة شيء لا يكون في العادة موجوداً عليها. فما أبصرت شيئاً. عندئذ سألتها إن كانت تعرف السبب في أن الأطفال يُحظَّر عليهم اللعب بالثقاب.

ـ أجل، بسبب خطر الحريق. وأولاد عمي يحلو لهم أن يلعبوا بالثقاب.

ـ ليس لهذا السبب وحده، فهم يُحذَّرون «من اللعب بالنار»، ويُربط بهذا التحذير اعتقاد معيَّن.

لم تكن تعرف شيئاً عن ذلك. فقلت:

ـ حسناً، إنه الخوف من أن يبللوا فراشهم. وهذا الاعتقاد مبني في أرجح الظن على التضاد بين الماء والنار. وربما كان الأمر كالتالي: إنهم سيحلمون بالنار وسيحاولون إطفاءها عندئذ بالماء. لست مستطيعاً أن أجزم بأن الأمر كذلك حقاً. لكنني أرى أن التضاد بين **الماء والنار** يسدي إليك في الحلم خدمات جلى. فأمك تريد أن تنقذ «علبة الحلي» حتى لا تحترق؛ أما في أفكار الحلم الكامنة، بالمقابل، فالمقصود صون «علبة الحلي» من **التبلل**. غير أن النار ليس استخدامها مقصوراً على كونها مضادة للماء، بل تفيد أيضاً في التمثيل المباشر للحب، لكون المرء مغرماً، ملتهب المشاعر. من «النار» يتفرع إذاً مجرى يفضي، من خلال هذا المعنى الرمزي، إلى أفكار الحب؛ ومن نقيضها، «الماء»، يمضي مجرى آخر في اتجاه مغاير ـ بعد أن ينشقّ عنه فرع يرفد بدوره مجرى الحب الذي يؤدي أيضاً إلى التبلل. لكن في أي اتجاه؟ استعيدي تعابيرك: **قد يحدث حادث ليلاً، وإن المرء قد يضطر إلى الخروج**. ألا يعني هذا حاجة طبيعية؟ وإن ربطتِ هذا الحادث



بالطفولة، فهل يمكن أن يكون شيئاً آخر غير تبليل الطفل لفراشه؟ ولكن ما الذي يعمد إليه الأهل لمنع الأطفال من تبليل فراشهم؟ ألا يوقظونهم من النوم، **تماماً كما يفعل والدك معك في الحلم**؟ ذلك هو إذاً الحادث الواقعي الذي خوَّلك حق إحلال أبيك محل السيد **ك** الذي كان هو الذي أيقظك في الواقع من نومك. هكذا أراني مضطراً إلى أن أستنتج من ذلك أنك عانيت سَلَس البول[١٤] إلى سنّ متأخرة بالقياس إلى ما هو مألوف لدى الأطفال. ولا بدّ أن هذه أيضاً كانت حال أخيك. فقد قال والدك: **لا أريد أن يهلك ولداي**. إن أخاك لا ضلع له على الإطلاق بالموقف الواقعي لدى أسرة **ك**، كما أنه لم يكن موجوداً في **ل**. والآن، ما جواب ذكرياتك عن هذا كله؟

أجابت:

ـ لست أذكر شيئاً بخصوصي، لكن أخي كان يبلل فراشه حتى السنة السادسة أو السابعة من عمره، بل كان ذلك يحدث له أحياناً في أثناء النهار.

هممت بأن ألفت انتباهها إلى أن المرء يتذكر في مثل هذه الأحوال ما جرى لأخيه بأسهل بكثير مما يتذكر ما جرى له هو نفسه، لكنها أردفت تقول وقد انبعثت لديها ذكرى محددة:

ـ أجل، لقد حدث لي ذلك أنا أيضاً، ولكن فقط في سنتي السابعة أو الثامنة، ولأجل قصير من الزمن. ولا بدّ أن الأمر كان على جانب من الخطورة، لأني أذكر الآن أنه قد جرت استشارة طبيب. وقد دامت هذه الحال إلى ما قبيل ظهور الربو العصبي.

ـ ماذا قال الطبيب بصدد هذه الحالة؟

ـ أرجعها إلى ضعف عصبي؛ وقد قال إنها ستمضي، ووصف لي مقوِّيات[١٥].

١٤ ـ سلسل البول: عدم القدرة على إمساكه. «م».

١٥ ـ كان ذلك الطبيب هو الوحيد الذي محضته ثقتها، لأنها تبيَّنت، من خلال تلك التجربة، أنه لم ينفذ إلى سرها. أما في حضور أي طبيب آخر ما سنحت لها الفرصة بعد للحكم عليه، فكان يساورها قلق نستطيع أن نتبيَّن الآن دافعه: فقد كانت تخشى أن ينفذ إلى سرها.



هنا بدا لي أن تأويل الحلم قد اكتمل(١٦). غير أن دورا جاءتني في اليوم التالي بتتمة للحلم. فقد نسيت أن تخبرني أنها كانت تشمّ في كل مرة، عند استيقاظها، رائحة دخان. ومن المؤكد أن الدخان يلتئم مع النار، لكنه كان يشير أيضاً إلى أن للحلم صلة خاصة بشخصي، لأنه كثيراً ما كان يتّفق لي أن أجيب، حين تزعم الفتاة أن هذا الشيء أو ذاك لا يخفي وراءه شيئاً، بقولي: «لا دخان بلا نار». غير أن دورا اعترضت على هذا التأويل الشخصي الصرف بقولها إن السيد **ك** وأباها كان كلاهما من المولعين، مثلي، بالتدخين. وكان يطيب لها هي الأخرى أن تدخِّن عند شاطئ البحيرة، وقد كان السيد **ك** لفّ لها سيجارة قبل أن يشرع من سوء المصادفة بمغازلتها. وقد تراءى لها أيضاً أنها تذكر بيقين أن رائحة الدخان ظهرت، لا في الحلم الأخير وحده، بل كذلك في الأحلام الثلاثة التي حلمت بها في **ل**. وبما أنها أبت أن تمدَّني بأية معلومات أخرى، فقد وقع على عاتقي أنا أن أقرر كيف يمكن إدراج هذه التكملة في نسيج أفكار الحلم. وكان ثمة واقعة محددة يمكن أن تكون لي بمثابة نقطة ارتكاز، وهي أن شمَّ رائحة الدخان جاء كتكملة إضافية، أي أنه كان عليه أن يتغلب على معارضة شديدة من جانب الكبت. ومن ثم فهو يؤلف جزءاً من أفكار الحلم الأكمل انكباتاً والأكثر اتساماً بالغموض في عرضها: أعني الإغراء بألا ترفض للسيد **ك** طلباً أياً كان. ومن هذا المنطلق، لا يكاد شمّ تلك الرائحة يعني سوى شيء واحد، وهو الشهوة إلى قبلة تفوح منها بالضرورة، لدى مدخِّن، رائحة الدخان؛ والحال أنهما كانا قد تبادلا قبلة قبل ذلك بعامين، وكان من المحتم أن تتكرر مراراً لو أن الفتاة استسلمت لما كان يريده السيد **ك**. هكذا يبدو أن الأفكار الإغرائية قد أُسقطت على المشهد الأسبق وأيقظت ذكرى القبلة التي كانت دورا، ماصة إبهامها، قد دفعت إغواءها عنها في السابق بالتقزز. وإذ جمعتُ أخيراً جميع الدلائل التي ترجِّح وجود تحويل باتجاهي، نظراً إلى أنني أنا أيضاً مدخِّن، فقد توصلت إلى الافتراض بأنه ساورتها يوماً، في أثناء إحدى الجلسات، رغبة في قبلة

---

١٦ ـ لو ترجمنا نواة الحلم، فلربما أمكن التعبير عنها كما يلي: «إن الإغراء عظيم جداً. فاحمني، يا أبي العزيز، من جديد كما كنت تفعل في طفولتي، حتى لا يتبلل فراشي!».



مني. وكانت هذه مناسبة لها لتكرر حلمها التحذيري ذاك ولتبرم قرارها بوقف العلاج. وهذا كله يلتئم فيما بينه على أحسن وجه، لكن من المتعذر تقديم الدليل الدامغ على صحته بالنظر إلى خصائص «التحويل»[١٧].

إن بوسعي الآن أن أتردد بين طريقين ينفتحان أمامي: فإما أن أتصدى أولاً للنتيجة التي يقود إليها هذا الحلم بالنسبة إلى تاريخ هذه الحالة، وإما أن أدحض الاعتراض الموجَّه إلى نظرية الأحلام كما يتمخض عنها هذا الحلم عينه. ولقد اخترت الطريق الأول.

إننا لن نتجشم مشقة لا جدوى منها لو ناقشنا نقاشاً مفصّلاً سلسل البول في سوابق العصابيين المرَضية. وحرصاً على وضوح العرض سأكتفي بالإشارة إلى أن السلس لدى دورا لم يكن حالة عادية. فهذا العرَض لم يتواصل فحسب إلى ما بعد الزمن الذي يعتبر فيه عادياً وسوياً، بل إنه، بعد أن اختفى على حدّ تصريح دورا الجازم، عاد إلى الظهور في سن متأخرة، بعد السنة السادسة.

إن سلس البول هذا ليس له، فيما أعتقد، سبب أكثر معقولية من الاستمناء الذي يلعب في إتيولوجيا هذه الإصابة بوجه عام دوراً لم يُقدّر بعد حقَّ قدره. وقد دلتني الخبرة أن هذا الارتباط غير غائب عن وعي الأطفال أنفسهم، وجميع العواقب النفسية التي تترتب عليه تنزع إلى البرهان على أنهم لم ينسوه قط. والحال أنه في الزمن الذي روت فيه دورا حلمها، كان البحث قد وصل بنا إلى نقطة كان من الممكن عندها أن ننتزع من دورا إقراراً بأنها مارست الاستمناء الطفلي. فقد كانت سألتني قبيل ذلك بوقت وجيز لماذا أصيبت بالمرض، هي بالذات. وقبل أن أتمكن من الإجابة، ألقت بمسؤولية هذا المرض على أبيها. وقد بنت حجتها لا على أفكار لاشعورية، بل على معرفة شعورية. وقد أدهشني أن أتبيَّن أن الفتاة كانت تعرف ما طبيعة مرض أبيها. فبعد أن رجع هذا الأخير من زيارته الاستشارية لي، طرق أذنيها حديث ذُكر فيه اسم المرض. فقبل ذلك ببضع سنوات، يوم أصيب الأب بانفصال في الشبكية، لم يجد طبيب العيون الذي

---

١٧ ـ التحويل: إسقاط المريض قيد التحليل لمشاعره الحبّية على شخص الطبيب الذي يحلّله، وذلك هو التحويل الإيجابي ؛ وعكسه التحويل السلبي، أي إسقاط المريض على الطبيب مشاعره العدائية. «م».



استدعي للاستشارة مفراً على ما يبدو من تحديد الأسباب النوعية[١٨] للإصابة، إذ إن الفتاة، التي كان قد ثار فضولها وقلقها معاً، سمعت خالة عجوزاً لها تقول لأمها: «أنت تعرفين أنه كان مريضاً قبل زواجه»، ثم أضافت شيئاً ما فهمتْه وأوَّلتْه، فيما بعد، على أنه يندرج في عداد الأشياء غير اللائقة.

لقد وقع والدها إذاً مريضاً بسبب الحياة المتهتكة التي عاشها، وقد داخلها الاعتقاد بأنه نقل إليها بالوراثة مرضه. وقد حرصتُ على ألا أخبرها بأني أقدِّر أنا أيضاً، كما أسلفت الذكر (انظر ص ٢٨، الحاشية)، أن المتحدرين من صلب آباء زهريين يكون عندهم استعداد مسبق قوي للإصابة بأذهنة عصبية خطيرة. أما أفكارها الأخرى التي كانت تنزع من خلالها إلى إتهام أبيها فقد احتلت مكانها في سياق مادة لاشعورية. فقد تماهت، لبضعة أيام، مع أمها من خلال أعراض طفيفة وسمات غريبة طفيفة، مما أتاح لها الفرصة لتجذب الأنظار إليها بسلوكها الذي لا يطاق، وكاشفتني عندئذ بأن الفكر يذهب بها إلى فترة كانت قد قضتها في فرانزنسباد[١٩]، وهو مكان أقامت فيه، لم أعد أذكر في أية سنة، بصحبة أمها. فقد كانت هذه الأخيرة تشكو من أوجاع في أسفل بطنها ومن إفرازات ـ «سيلان» ـ مما استدعى علاجاً في فرانزنسباد. وكانت دورا ترى ـ وربما كانت على حقّ هنا أيضاً ـ أن مرجع هذا المرض إلى أبيها الذي يكون بذلك قد نقل عدوى إصابته الزهرية إلى والدة دورا. وكان من الطبيعي تماماً أن تخلط، كما يفعل بصورة عامة غالبية الناس من غير الأطباء، بين السيلان الأبيض وبين الزهري، بين عدوى المعاشرة الجنسية وبين الوراثة؛ وقد حملني إصرارها على التماهي مع أمها على أن أسألها مكرهاً عما إذا كانت تشكو هي الأخرى من مرض زهري، وعندئذ علمت أنها مصابة بـ«سيلان» ـ (ترِيَّة)[٢٠] ـ لا تذكر متى كان مبتداه.

أدركت أن منظومة الأفكار التي تتهم فيها أباها اتهاماً صريحاً تخفي وراءها، كما في العادة، اتهاماً ضد الذات. واستبقتُ دورا بأن أكدت لها أن الإفرازات البيض لدى الفتيات تكشف في المقام الأول في نظري عن الاستمناء، وقلت إن جميع أسباب الترِيَّة

١٨ ـ الزهري كما مرّ سابقاً.

١٩ ـ منتجع للمياه الحارة في مقاطعة بوهيميا في النمسا (تشيكيا اليوم). «م».

٢٠ ـ الترية أو اللوكوريا: سيلان أبيض من المهبل. «م».



التي تُعدّ مسؤولة عن هذه العلة تأتي في المقام الثاني بعد الاستمناء[٢١]. ولفتُّ نظرها إلى أنها لما سألتني لماذا أصابها المرض، هي تحديداً، كانت هي نفسها على وشك أن تجيب عن سؤالها بإقرارها بأنها مارست الاستمناء، في سنوات طفولتها في أرجح الظن. وبادرت تنكر بقوة أنها تتذكر شيئاً من ذلك. ولكن لم تمضِ أيام قلائل حتى بدر منها شيء اعتبرته أنا طريقة أخرى في الاقتراب من ذلك الاعتراف. فقد كانت تحمل في ذلك اليوم، وعلى غير عادتها، كيس نقود صغير من نوع حديث الموضة. وفيما كانت ممددة على الأريكة، منصرفة إلى الكلام، كانت لا تفتأ تعبث بذلك الكيس، فتفتحه، وتدخل فيه أصبعها، وتعود إلى إغلاقه، إلخ. وقد راقبتها لهنيهة من الزمن، ثم شرحت لها بعد ذلك ما كنه الأفعال الأعراضية[٢٢]. فأنا أطلق اسم **الأفعال الأعراضية** على الأفعال التي تبدر عن الناس آلياً، لاشعورياً، بدون أن يتنبهوا إليها، وكأنما يعبثون؛ وإن سألناهم عنها مالوا إلى إنكار كل دلالة لها وادعوا أنها غير ذات شأن وبنت المصادفة. غير أن الملاحظة المدققة تكشف عن أن مثل هذه الأفعال، التي لا يعرف الشعور عنها شيئاً أو لا يريد أن يعرف عنها شيئاً، تعبر عن أفكار وحفزات لاشعورية، وأنها بالتالي، ومن حيث هي تعبير مسموح به عن اللاشعور، ذات قيمة ومغزى. وثمة موقفان شعوريان اثنان ممكنان من الأفعال اللاشعورية. فإن وجد من تصدر عنه دافعاً بريئاً إليها، تنبَّه إلى وجودها وصدورها عنه؛ وبالمقابل، إذا عزّ على الشعور الاهتداء إلى تعلة كهذه، فإن المرء لا ينتبه في العادة إلى أدائه لها. وفي حالة دورا كان سهلاً الاهتداء إلى تعليل: «لماذا لا أستطيع أن أحمل حقيبة يد كتلك الدارجة موضتها في الوقت الحاضر؟». والحال أن تبريراً كهذا لا يلغي احتمال وجود مصدر لاشعوري للفعل المشار إليه. غير أنه من المستحيل من جهة مقابلة سوق دليل قاطع على هذا المصدر وعلى المغزى المنسوب إليه. ولا مندوحة لنا عن الاكتفاء عندئذ بأن نلحظ ونقرر أن مثل هذا المغزى يتَّفق إلى حدّ يبعث على العجب مع الموقف بجملته ومع ما هو مطروح حالياً على جدول أعمال اللاشعور.

سأعرض في مناسبة أخرى مجموعة من أشباه هذه الأفعال الأعراضية[٢٣]،

---

٢١ ـ (حاشية أضيفت سنة ١٩٢٣) ـ هذا رأي متطرف ما عدت أستطيع أن أتمسك به اليوم.

٢٢ ـ انظر: **علم نفس أمراض الحياة اليومية**، برلين، الناشر س. كارغر، ١٩٠٤.



على نحو ما يمكن أن تُشاهد لدى الأسوياء والعصبيين على حدّ سواء. وقد يكون تأويلها في بعض الأحيان في غاية من السهولة. فحقيبة دورا الصغيرة الثنائية التوريق ليست إلا تمثيلاً للمهبل؛ وبعبثها بها، وبفتحها ودسّ إصبعها فيها، كانت تعبِّر تعبيراً إيمائياً، وعلى نحو واضح ولا تحرُّج فيه، عما كانت تودّ لو تفعله، أي الاستمناء. وقد وقع معي مؤخراً حادث مشابه طريف للغاية. ففي أثناء إحدى الجلسات أخرجت سيدة تخطت الشباب علبة سكاكر من عظم العاج، وكأنما تريد إنعاش نفسها بمصّ قطعة من السكاكر؛ وجاهدت لكي تفتحها، ثم مدَّتها إليّ لأقتنع بمدى صعوبة فتحها. فأعربت عن ظني بأن هذه العلبة تنطوي ولا بدّ على دلالة خاصة، لأن هذه أول مرة تقع فيها عيني عليها مع أن صاحبتها تتردد على عيادتي منذ أكثر من عام. وعلى الأثر أجابتني تلك السيدة بلهفة: «إني أحمل معي دوماً وفي كل مكان هذه العلبة!». ولم تهدأ إلا بعد أن أوضحت لها ضاحكاً أن عبارتها يمكن أن تنطبق أيضاً على معنى آخر للعلبة. فالعلبة ليست، ككيس النقود وصندوق الحلي، إلا تمثيلاً لصَدَفة فينوس[٢٤]، للعضو التناسلي المؤنث!

تنطوي الحياة على قسط وفير من هذه الرمزية، نمرّ به فلا نعيره انتباهاً. ويوم أخذت على عاتقي أن أخرِج إلى النور ما يخبِّئه الناس، بدون أن ألجأ إلى وسيلة التنويم المغنطيسي القاهرة، ومستعيناً فقط بما يقولونه وبما يبدر عنهم، كنت أتصور هذه المهمة أعسر مما هي عليه في الواقع. فمن له عينان ليرى وأذنان ليسمع يتبيَّن أن بني الإنسان لا يستطيعون أن يكتموا سراً. فمن تصمت شفتاه يثرثر بأطراف أنامله: فهو يشي ما بنفسه بكل مسامّ جسمه. لهذا السبب نرى أن مهمة إخراج أخفى خفايا النفس إلى نور الشعور مهمة قابلة تماماً للتحقيق.

إن فعل دورا الأعراضي المتعلق بكيس نقودها لم يكن هو ما مهَّد مباشرة

٢٣ ـ كان ينبغي لغةً أن نقول «عَرَضية»، ولكننا آثرنا النسبة إلى الجمع «أعراض» دفعاً لالتباس المفهوم. «م».

٢٤ ـ فينوس: إلهة الحب والجمال عند الرومان، وتعرف باسم أفروديت عند اليونان وعشتار عند الأكاديين. ولدت في صَدَفة في البحر كان ترسّب فيها مني أبيها إله السماء أورانوس الذي كان خصاه ابنه كرونوس إله الزمان ورمى بخصيتيه في البحر. «م».



للحلم؛ إذ في مستهل الجلسة التي قصَّت فيها عليّ الحلم، صدر عنها فعل أعراضي آخر. فحين دلفتُ إلى الحجرة التي كانت تنتظرني فيها، سارعتْ إلى إخفاء رسالة كانت منصرفة إلى قراءتها. وسألتها بطبيعة الحال عن مرسل الرسالة، فأبت أول الأمر أن تخبرني. ثم ما لبثت أن أبلغتني شيئاً لا أهمية له على الإطلاق ولا صلة له بالعلاج. فالرسالة كانت من جدتها تطالبها فيها بأن تكثر من الكتابة إليها. وأعتقد أن دورا كانت تريد فقط أن تتظاهر بأن لديها «سراً» وأن تظهر لي أنني أنتزع منها هذا السر انتزاعاً. وهكذا فهمت الآن سر نفورها من كل طبيب جديد. فهي تخشى أن يتمكن من النفاذ إلى علة مرضها (التريَّة في حال فحصها أو سلس البول في حال استنطاقها)، ومن ثم أن يحدس بممارستها الاستمناء. وكانت تتكلم دوماً بازدراء كبير عن الأطباء بعد أن تكون في أول الأمر قد أسرفت ولا شك في تقديرهم.

إن اتهاماتها ضد أبيها المسؤول عن مرضها، تلك الاتهامات التي كان يختفي تحت ستارها اتهامها لذاتها، والإفرازات البيض، والعبث بحقيبة اليد، وسلس البول بعد السنة السادسة، والسر الذي لا تريد أن ينتزعه منها الأطباء، إن جميع هذه المؤشرات والقرائن كانت في نظري دليلاً لا يدحض على الاستمناء الطفلي. وفي حالة دورا كنت قد بدأت أشتبه بوجود الاستمناء حين حدثتني عن الآلام المِعَدِيَّة عند ابنة عمتها (انظر ص ٤٦)، ثم حين تماهت معها إذ راحت تتشكى، لعدة أيام على التوالي، من نظير تلك الأحاسيس المؤلمة. ومعلوم كم يكثر حدوث الآلام المِعدية لدى المستمنين تحديداً. وبحسب ما أخبرني به بصورة شخصية ف. فليس Fliess[٢٥]، فإن هذه الآلام المِعدية هي عينها التي يمكن إيقافها عن طرق إشراب «النقطة المَعِدِية» في الأنف

٢٥ ـ فلهلم فليس: طبيب وبيولوجي ألماني (١٨٥٨ ـ ١٩٢٨). جمعت بينه وبين فرويد صداقة حميمة، والرسائل التي تبادلاها بلا انقطاع من ١٨٨٧ إلى ١٩٠٤ ذات أهمية قصوى لحسن فهم الإنجاز الفرويدي، وعلى الأخص تحليل فرويد لذاته. ولكن العلاقة بين فليس وفرويد توترت على إثر اتهام الأول للثاني بأنه انتحل آراءه بخصوص الجنسية المثلية. وقد كان الاختصاص الأول لفليس كطبيب هو أمراض الأنف والأذن والحنجرة، وقد تراءى له أن ثمة علاقة وثيقة بين الغشاء المخاطي الأنفي والنشاط الجنسي. «م».



بالكوكايين ـ وهي النقطة التي اكتشفها بنفسه. ويكون الشفاء بكيٍّ هذه النقطة. وقد أكدت لي دورا شعورياً واقعتين اثنتين: أولاهما أنها عانت هي نفسها في بعض الفترات من آلام في المعدة، وثانيتهما أن لديها من الأسباب ما يحملها على الاعتقاد بأن ابنة عمتها كانت تمارس الاستمناء. والحق أن المرضى كثيراً ما يتعرفون عند الآخرين علاقات يتعذر عليهم فهمها لديهم هم أنفسهم من جراء مقاوماتهم الوجدانية. وبالفعل، ما عادت دورا تلجأ إلى الإنكار، وإن كانت لا تستطيع أن تتذكر شيئاً. وإني لأعتبر أيضاً أن دوام سلس البول عندها «إلى ما قبيل ظهور الربو العصبي» أمر ذو دلالة من وجهة النظر السريرية. فالأعراض الهستيرية لا تظهر البتة تقريباً ما دام الأطفال يمارسون الاستمناء، وإنما يكون ظهورها فقط عند الاستنكاف[٢٦]؛ ومن ثم فهي تنوب مناب الإشباع الاستمنائي، الذي تبقى الرغبة فيه كاملة غير منقوصة في اللاشعور، ما لم يحدث إشباع آخر، أقرب إلى السواء، حيثما يظل مثل هذا الإشباع ممكناً. وهذا الشرط الأخير يحدد إمكانية الشفاء من الهستيريا عن طريق الزواج والعلاقات الجنسية السوية. فإن اختفى الإشباع السوي الذي تتيحه الحياة الزوجية، إما نتيجة للجماع المبتور أو من جراء نفور جنسي، إلخ، يرتد الليبيدو إلى مجراه القديم ويتظاهر من جديد في أعراض هستيرية.

لقد كان بودِّي لو أستطيع أن أسرد هنا بوضوح ودقة تحت تأثير أية ظروف، وفي أي وقت، أمكن لاستمناء دورا أن يتوقف؛ غير أن الطابع المنقوص لهذا التحليل يرغمني على الاكتفاء بتقديم مادة كثيرة الفجوات. وقد رأينا أن سلس البول دام عندها إلى ما قبيل ظهور الزُلَّة الأولى. والحال أن كل ما أمكن لها أن تخبرني به عن هذه النوبة الأولى هو أن أباها كان، عند حدوثها، قد غادر البيت مسافراً لأول مرة بعد إبلاله واسترداده صحته. وهذه النتفة من الذكرى التي أمكنها الاحتفاظ بها كانت تنطوي، ولا بدّ، على

---

٢٦ ـ تصدق هذه القاعدة نفسها من حيث المبدأ على الراشدين؛ غير أنه يكفي لديهم أن يكون الاستنكاف جزئياً، أو أن يقللوا من مرات الاستمناء، بحيث إذا كان الليبيدو عندهم ذا شدة، أمكن للهستيريا والاستمناء أن يتعايشا معاً.



تلميح إلى إتيولوجيا الزُلَّة. وبفضل بعض الأفعال الأعراضية وبعض القرائن الأخرى، تولدت لديّ أسباب وجيهة للافتراض بأن الطفلة، التي كانت غرفة نومها تلاصق غرفة نوم والديها، قد ضبطت زيارة ليل قام بها أبوها لأمها وسمعت أثناء الجماع تنفس أبيها اللاهث، وهو الذي كان يشكو من قصر النَفَس في الأوقات العادية. إن الأطفال يرهصون في مثل هذه الأحوال بالطابع الجنسي لهذه الأصوات الباعثة على قلقهم. ومردّ ذلك إلى أن الحركات المعبِّرة عن التهيُّج الجنسي يكون لها عندهم وجود مسبق كآليات فطرية. وقد بيَّنتُ، قبل سنوات كثيرة خلت، أن الزلة وخفقان القلب في الهستيريا والعصاب الحصَري ما هما إلا عناصر منفردة من فعل الجماع. وقد تسنى لي، في العديد من الحالات كما في حالة دورا، أن أردّ عرَض الزُلة والربو العصبي إلى العلة المعيِّنة نفسها، أي إلى ضبط الطفل للراشدين في أثناء الجماع. ومن المحتمل جداً أن التهييج المناظر الذي تولَّد لدى دورا الصغيرة قد أحدث تحولاً في مسار الجنسية عندها، وأن ميلها إلى الاستمناء قد حلّ محله منذ ذلك الحين ميل إلى الحصر. وبعيد ذلك بوقت وجيز، وفي أثناء غياب والدها، وفيما كانت الطفلة المغرمة تفكر به بحنين وشوق، ساورها من جديد ذلك الإحساس في صورة نوبة ربو. والسبب المباشر الذي احتفظت به ذاكرتها لهذه النوبة يشفّ لنا عن الأفكار المشحونة بالقلق التي صاحبت النوبة. فقد انتابتها تلك النوبة لأول مرة وهي تتسلق جبلاً، وفي إثر إرهاق، ومن المرجح أنها شعرت فعلاً بشيء من ضيق التنفس. وإلى هذا انضافت فكرة محددة، وهي أن أباها كان محظوراً عليه تسلق الجبال، وممنوعاً من إرهاق نفسه نظراً إلى قِصَر نَفَسه؛ ثم تذكرت بعد ذلك كم أنهك نفسه في تلك الليلة عند أمها. وتساءلت بينها وبين نفسها عما إذا لم يكن ذلك قد سبَّب له أذى وضرراً. وأعقب ذلك قلق من أن تكون هي الأخرى قد أرهقت نفسها في أثناء الاستمناء الذي يؤدي بدوره إلى الرعشة الجنسية مع شيء من عسر التنفس. أضف إلى ذلك أخيراً عودة عسر التنفس هذا بصورة بالغة الشدة في شكل عرض. ولقد استطعت أن أستخلص من التحليل جانباً



من هذه المعطيات؛ وكان عليّ أن أستكمل الباقي بوسائلي الخاصة. والواقع أننا كنا رأينا، ونحن بصدد الاستمناء، أن المعطيات المتعلقة بموضوعة واحدة معينة لا يمكن جمعها إلا نتفاً نتفاً، في أوقات متباينة، وفي أسيقة مختلفة[٢٧].

إن سلسلة من الأسئلة البالغة الأهمية تنطرح الآن حول إتيولوجيا الهستيريا، ومنها: هل من المباح لنا أن نعتبر حالة دورا إتيولوجية نمطية، وهل هي النمط الوحيد للتعليل الممكن، إلخ؟ بيد أنني أعتقد أني أحسن فعلاً إن لم أشأ أن أجيب عن هذه الأسئلة إلا بعد أن أطّلع بالطريقة نفسها على عدد أكبر من الحالات المحلَّلة. هذا إلى أنه يتعيَّن عليّ بادئ ذي بدء أن أصحِّح التسلسل الذي أطرح به الأسئلة. فبدلاً من أن أفصح عن رأيي بـ«نعم» أو «لا» بصدد ما إذا كان ينبغي البحث عن إتيولوجيا هذه الحالة في الاستمناء الطفلي، يحسن بي أولاً أن أناقش مفهوم الإتيولوجيا في الأعصبة النفسية. وفي حال إجابتي،

٢٧ ـ بطريقة مماثلة تماماً يقوم الدليل، في حالات أخرى أيضاً، على الاستمناء الطفلي، وتكون المعطيات بصفة عامة من طبيعة مشابهة: إشارة إلى وجود إفرازات بيض، وسلس بول، وطقوس يدوية (الدافع القهري إلى الاغتسال)، إلخ. ونستطيع أن نحزر بيقين في كل حالة، بحسب طبيعة الأعراض، ما إذا كانت هذه العادة قد اكتشفت أو لم تكتشف من قبل الأشخاص الذين يتولون العناية بالطفلة، وما إذا كانت الطفلة خاضت صراعاً طويل الأمد ضد هذه العادة أم أن هذه الفترة من النشاط الجنسي قد انتهت لديها من جراء تحول مفاجئ. وفي حالة دورا، لم يُكتشف الاستمناء من قبل أحد. وقد انتهى دفعة واحدة مباغتة (السر، الخوف من الأطباء، الاستبدال بالزُلَّة). وتنفي المريضات عادة القوة الإقناعية لهذه المؤشرات، حتى عندما تحتفظ ذاكرتهن الشعورية بذكرى «الزُلّة» أو تأنيبات أمهاتهن «(هذا يسبِّب البلاهة، هذا سمّ)». ولكن بعد ذلك بوقت ما تبزغ من جديد على نحو مؤكد، وفي جميع الحالات، الذكرى التي طال كبتها عن ذلك الشطر من الحياة الجنسية الطفلية. وفي حالة مريضة تعاني من تصورات وسواسية، مشتقة مباشرة من الاستمناء الطفلي، اتضح أن الظاهرات الغريبة التي كانت تصدر عنها هي مجرد نتف وشذرات لم يطرأ عليها تغيُّر ـ وقد بقيت محفوظة منذ ذلك الوقت ـ من الكفاح الذي خاضته مربيتها لفطمها عن تلك العادة. فوساوسها كانت من قبيل التحريم الذاتي ومعاقبة الذات على ما تأتيه من أفعال، ونهيها ذاتها عن إتيان أفعال أخرى، وحاجتها إلى ألا يقطع عليها أحد ما تفعله، وحاجتها أيضاً إلى أن تقحم فواصل زمنية بين فعل تأتيه بيدها وبين فعل مماثل تالٍ، وغسلها المتكرر ليديها، إلخ. وكان الشيء الوحيد الذي بقي محفوظاً على الدوام في ذاكرتها هو التحذير والتقريع: «حذارِ! هذا سمّ». انظر **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**، ١٩٠٥.



فإني سآخذ عندئذ بوجهة نظر مغايرة جداً للمنظور الذي انطرح منه عليَّ السؤال. ومهما يكن من أمر، فإننا إذا توصلنا في الحالة التي نحن بصددها إلى الاقتناع بوجود الاستمناء الطفلي، فليس يمكن أن يكون عارضاً أو عديم الأهمية في تكوين اللوحة المَرَضية(٢٨).

والحقّ أنه سيكون من الأيسر علينا فهم أعراض دورا إذا أولينا دلالة الإفرازات البيض التي أقرّت بها ما تستوجبه من انتباه. فقد تعلمتْ أن تسمِّي مرضها هذا «سيلاناً» Catarrhe حين استدعت إصابة أمها بمرض مشابه انتقالها للإقامة في فرانزنسباد. وهذه التسمية لعبت مرة أخرى هنا دور «نقطة تحويل المسار» التي أتاحت إمكانية التظاهر، من خلال عرض السعال، لسلسلة بكاملها من الأفكار ذات الصلة بمسؤولية أبيها عن مرضها. وفضلاً عن ذلك، كان هذا السعال، الذي نتج في الأصل ولا بدّ عن رشح فعلي بسيط، محاكاة منها لأبيها المصاب بالتهاب رئوي، وكان في مقدوره أن يعبِّر عما تشعر به بلا ريب نحو أبيها من تعاطف وقلق. أضف إلى ذلك أن السعال كان وكأنه يعلن على رؤوس الأشهاد حقيقة ربما لم تكن قد صارت شعورية عندها بعد: «إنني ابنة أبي. وعندي مثله رشح. وقد أمرضني، كما أمرض أمي. ومنه أخذت أهوائي الشريرة التي المرض عقابها»(٢٩).

٢٨ ـ لا بدّ أن يكون الأخ قد لعب دوراً في تعوُّد دورا على الاستمناء. فقد روت لي بهذا الصدد، بإلحاح يشي بوجود «ذكرى ستارية»(*)، أن أخاها كان ينقل إليها على الدوام عدوى أمراضه. لكن بينما كان يعاني هو من إصابات هيِّنة، كانت هي تقع فريسة أشكال خطيرة من المرض. والأخ هو أيضاً الذي ينجو في الحلم من «التهلكة». وكان هو الآخر يشكو من سلس البول، لكن هذا السلس توقف عنده حتى قبل أن يتوقف عند أخته. وبمعنى من المعاني، كانت «ذكرى ستارية» تختفي وراء قولها إنها استطاعت أن تسير بخطى واحدة مع أخيها في دروسه، إلى حين مرضها الأول، وإنها ما تأخرت عنه إلا ابتداء من ذلك التاريخ، فلكأنها ما كانت إلى ذلك الحين إلا صبياً، وبعد ذلك فحسب صارت بنتاً. وبالفعل، كانت كائناً متوحشاً؛ وبالمقابل صارت، منذ أصابها «الربو»، هادئة وعاقلة. ولقد كان هذا المرض بمثابة حدّ فاصل لديها بين مرحلتين من حياتها الجنسية؛ أولاهما ذات طابع ذكري، وثانيتهما ذات طابع أنثيّ.

(*) الذكرى الستارية Souvenir-ecran: ذكرى من أيام الطفولة من شأنها أن تحجب، كالستارة، بعض الأخاييل اللاشعورية الأساسية. «م».



لنحاول الآن أن نربط بين جميع التعيينات التي وجدنا أنها محدِّدة لنوبات السعال والبحة. ففي أعمق الطبقات يتحتَّم علينا أن نسلِّم بوجود تخرُّش عضوي فعلي عنه نشأ السعال، مثله في ذلك مثل حبة الرمل التي حولها يشكل المحار اللؤلؤة. فهذا التخرش قابل للتثبيت، لأنه يتصل بمنطقة من الجسم حافظت لدى الفتاة، وبدرجة عالية جداً، على دور المنطقة الشهوية. كان في مقدور هذا التخرش إذاً أن يقدِّم لليبيدو المستيقظ نمطاً تعبيرياً موائماً. وقد تمّ تثبيته بواسطة ما يمكن اعتباره الكسوة النفسية الأولى: محاكاتها لأبيها المريض تعاطفاً معه، ثم اتهاماتها لذاتها بسبب «الزُلَّة». وهذه المجموعة عينها من الأعراض أثبتت فيما بعد قابليتها لتمثيل علاقتها بالسيد **ك**؛ فعن طريقها أمكن لها أن تعبِّر عن أساها لغيابه وعن رغبتها في أن تكون له زوجة خيراً من زوجته. وبعدما تحوَّل جزء من ليبيدو دورا من جديد نحو أبيها، اكتسب العرض ما يمكن اعتباره دلالته الأخيرة، فأمكن لها عن طريقه أن تعبِّر، من خلال تماهيها مع السيدة **ك**، عن علاقتها الجنسية بأبيها. وبوسعي أن أؤكد أن هذه السلسلة بعيدة عن الاكتمال. فمن سوء الحظ أن هذا التحليل الذي بقي منقوصاً لا يتيح لنا أن نحدد تواريخ التغيرات في دلالة العرض، ولا أن نفسر تعاقب مختلفة الدلالات وتعايشها. وإنما من تحليل مكتمل يحقّ لنا أن نطلب كل هذه الإيضاحات.

على أنه لا يجوز لي أن أغفِل صلات أخرى بين التريَّة وبين أعراض دورا الهستيرية. فيوم كنا لا نزال بعيدين جداً عن تفسير سيكولوجي للهستيريا، كان

٢٩ ـ لعب العنصر اللفظي دوراً مماثلاً عند فتاة الأربعة عشر عاماً التي وصفتُ في أسطر قليلة (ص ٣٣) حالتها. وكنت قد وضعت هذه الفتاة في نزل (بنسيون) بصحبة سيدة ذكية كلَّفتُها بالسهر عليها. وقد أبلغتني هذه السيدة أن المريضة الصغيرة لم تكن تطيق حضورها حينما كانت تضعها في فراشها، وأنها متى ما تمددت عليه انتابها سعال غريب. وهو شيء ما كان يحدث لها في أثناء النهار. وعند سؤال الفتاة عن هذا العرَض، لم يرد إلى ذهنها سوى شيء واحد، وهو أن جدتها كانت تسعل مثل هذا السعال، وأنه كان يقال إنها مصابة بسيلان Catarrhe(*). وعليه، فقد كان من الواضح أنها مصابة هي الأخرى بسيلان، ولا تريد أن يباغتها أحد في أثناء اغتسالها قبل النوم. بل إن السيلان، الذي بفضل اسمه هذا **نُقل من الأسفل إلى الأعلى**، كان عندها على درجة غير مألوفة من الشدة.

(*) سيلان الأنف. «م».



يتفق لي أن أسمع زملاء متقدمين في السن ومن ذوي الخبرة الواسعة يؤكدون أن انتكاس التربية لدى المريضات الهستيريات المعانيات من إفرازات يعقبه بصورة مطردة تفاقم في الأعراض الهستيرية، وعلى الأخص الخلّفة[٣٠] والقيء. وما كان أحد منهم يفهم فهماً واضحاً طبيعة هذه العلاقة، ولكنهم كانوا يميلون، على ما أتصور، إلى الأخذ برأي أطباء الأمراض النسائية الذين يسلّمون، كما هو معلوم، بوجود تأثير مباشر وعضوي بعيد المدى للاضطرابات التناسلية على الوظائف العصبية، وإن تكن التجربة العلاجية لا تقطع لنا في غالبية الأحيان بدليل. ولا نستطيع، في الحالة الراهنة لمعارفنا، أن نستبعد تأثيراً مباشراً وعضوياً كهذا، لكن من الأسهل علينا على كل حال أن نبرز للعيان كسوته النفسية. فالمرأة تعتزّ بالكيفية التي يأخذها تشكل الأعضاء التناسلية لديها، وهذا ما يمثّل عنصراً مميَّزاً للزهو عند النساء. فإن أصيبت هذه الأعضاء إصابة من شأنها، في اعتقادهن، أن تثير مشاعر النفور، بله القرف، فإن اعتدادهن بأنفسهن يصاب بدوره بطعنة فيقعن فريسة شعور عميق بالمهانة. وعندئذ تصير المرأة سريعة الغضب، ومفرطة الحساسية، وشديدة الريبة. فالإفرازات غير العادية من الغشاء المخاطي المهبلي تُعدّ باعثة على التقزز.

لنتذكر الآن أن دورا انتابها، حينما قبّلها السيد **ك**، شعور حاد بالتقزُّز، ولنتذكر أيضاً أنه وجد لدينا من الأسباب ما حملنا على تكميل القصة التي روتها عن هذا المشهد بافتراضنا أنها استشعرت، أثناء عناقه لها، ضغط القضيب المنتصب على بدنها. وإننا لنعلم الآن، فضلاً عن ذلك، أن تلك المربِّية عينها التي طردتها دورا لعدم وفائها لها روت لها أنها تعلمت من تجربتها أن الرجال جميعهم فاسقون لا يمكن الوثوق بهم. وكان لا بدّ أن يعني هذا بالنسبة إلى دورا أن الرجال جميعاً مثل أبيها. والحال أنها كانت تعتقد أن أباها مصاب بمرض جنسي: أفلم ينقل عدواه إلى أمها وإليها هي نفسها؟ ومن ثم كان من الممكن أن تتصور أن الرجال جميعاً مصابون بمرض جنسي، وكانت الصورة التي تكوِّنها لنفسها عن المرض الجنسي تتعيَّن بطبيعة الحال بتجربتها الأحادية، والشخصية

٣٠ ـ الخلّفة أو الأنوكسيا: فقدان شهية الطعام. «م».



فضلاً عن ذلك. ومن هنا كان المرض الجنسي يعني عندها ظهور سيلان يبعث على التقزز. أفلا يمكننا، والحال هذه، أن نرى في ذلك تعييناً إضافياً آخر للتقزز الذي انتابها لحظة العناق؟ وهكذا يكون هذا التقزز، الذي انزاح إلى عناق الرجل بالذات، تقززاً جرى إسقاطه وفق الآلية البدائية المشار إليها آنفاً (ص ٤٣)؛ وهو شعور يرجع في خاتمة المطاف إلى التريَّة التي كانت تعاني منها.

يذهب بي الظنّ إلى أن الأمر هنا أمر أفكار لاشعورية محبوكة، مثلها مثل أكاليل الزهور المعقودة حول مشبك معدني، من ترابطات مسبقة التعيين، بحيث يتأتى لنا أن نهتدي إلى مسارات أفكار أخرى لها نفس نقطة الانطلاق ونفس نقطة الوصول. غير أن معرفة ترابط الأفكار التي تفعل فعلها في كل حالة فردية أمر عظيم الأهمية في فك لغز الأعراض. ولئن اضطررنا في حالة دورا إلى اللجوء إلى افتراضات وإضافات، فذلك مرده إلى إيقاف هذا التحليل قبل اكتماله. وما أضفته لأسدّ به الثغرات يستند بغير ما استثناء إلى حالات أخرى جرى تحليلها إلى النهاية.

* * *

إن الحلم، الذي أمدّنا تحليله بالإيضاحات السابقة، جاء مناظراً، كما رأينا، لقرار أبرمته دورا وصاحَبَها حتى في نومها. ولهذا تكرر الحلم كل ليلة إلى أن وُضع ذلك القرار موضع التنفيذ، ثم عاد إلى الظهور من جديد بعد مرور بضع سنوات حينما استجدّ ظرف استدعى اتخاذ قرار مماثل. ومن الممكن التعبير عن هذا القرار شعورياً بالصيغة التالية: «لا بدّ أن أهرب من هذا المنزل الذي تتعرض فيه بكارتي، كما رأيتُ، للخطر، وسوف أرحل مع بابا، وعند الصباح سوف أتخذ الاحتياطات حتى لا أفاجأ وأنا أرتدي ملابسي». وقد وجدت هذه الأفكار في الحلم تعبيراً واضحاً، وهي تشكل جانباً من تيار صار شعورياً وهيمن على حياة اليقظة. وخلف هذه الأفكار نستطيع أن نخمّن أفكاراً أخرى تنتمي إلى تيار معاكس، وقد أصابها من جراء ذلك قمع. وتدرك هذه الأفكار ذروتها في إغراء الاستسلام للسيد **ك**، عرفاناً بما أظهر لها في السنوات الأخيرة من حب وحنان، وربما كانت هذه الأفكار تبتعث ذكرى القبلة الوحيدة التي تلقتها منه حتى ذلك



الحين. بيد أن مثل هذه العناصر لا تكفي لتكوين حلم، بمقتضى النظرية التي عرضتها في كتابي عن **تأويل الحلم**. فالحلم تمثيل لا لقرارٍ وُضِع موضع التنفيذ، بل لرغبة يتمّ تصويرها وكأنها قد تحققت، وفي المقام الأول رغبة من رغبات الطفولة. ومن واجبنا أن نبحث في ما إذا كانت هذه القاعدة تصدق أو لا تصدق على الحلم الذي نحن بصدده.

إن هذا الحلم يشتمل، بالفعل، على مادة طفلية، وإن يكن من المتعذر علينا، للوهلة الأولى، أن نفهم صلتها بقرار دورا بالهرب من منزل السيد **ك**، وبالإغراء الذي كانت تتعرض له من جانب هذا الأخير. فلماذا ظهرت هنا ذكرى السلس، وذكرى الجهود التي تجشمها والدها ليعوِّدها على النظافة؟ في مستطاعنا الإجابة عن ذلك: لأنه بفضل هذه الأفكار أمكن لدورا أن تقمع مشاعر الإغراء الجارفة وأن تغلِّب إرادتها في درء خطرها عن نفسها. فالطفلة صممت على الهرب مع أبيها؛ والواقع أنها هربت **نحو** أبيها، لخوفها من الرجل الذي يلاحقها بإغوائه؛ ومن ثم عادت تبتعث تعلقها الطفلي بأبيها، لأن من شأن هذا التعلق أن يدرأ عنها خطر الانجذاب الحالي نحو رجل غريب. بل إن أباها نفسه مسؤول عن الخطر الحالي لأنه أسلمها إلى غريب حفاظاً منه على علاقته الغرامية. فكم كانت الحال أجمل وأروع حين كان هذا الأب نفسه لا يحب أحداً سواها، هي دورا، ويوم كان يبذل قصاراه ليحميها من الأخطار التي كانت تتهددها آنذاك! وهذه الرغبة الطفلية، التي صارت لاشعورية الآن، في إحلال أبيها محلّ الرجل الغريب هي القوة التي كوَّنت الحلم. فإن وجد في الماضي موقف يشبه موقفاً من المواقف الراهنة ولا يختلف عنه إلا من حيث الشخص الذي يتمحور حوله، فإن هذا الموقف الماضي يغدو هو الموقف الرئيسي في مضمون الحلم. والحال أن موقفاً كهذا موجود في حالة دورا: فتماماً كما فعل السيد **ك** في اليوم السابق للحلم، كان أبوها قد وقف في الماضي بجوار سريرها وأيقظها في أرجح الظن بقبلته، ربما مثلما كان السيد **ك** قد أزمع أن يفعل. والتصميم على الهرب من المنزل ليس قميناً بحدّ ذاته بتشكيل حلم، ولا يغدو كذلك إلا إذا اقترن بتصميم آخر مستند هذه المرة إلى رغبات طفلية. وهكذا، إن رغبة دورا في إحلال أبيها محل السيد



ك كانت هي القوة المحرِّكة للحلم. وسأعيد إلى الأذهان الآن التأويل الذي ألزمتني به الأفكار المتسلطة لدى دورا بصدد علاقة أبيها بالسيدة **ك**؛ فبموجب هذا التأويل كانت دورا قد أيقظت تعلقها الطفلي بأبيها لتبقي على حبها المكبوت للسيد **ك** في حال كبت؛ وهذا التحول في الحياة النفسية للمريضة هو ما عكسه الحلم.

أما فيما يتصل بالعلاقات بين أفكار حالة اليقظة التي تتواصل حتى في النوم ـ البقايا النهارية ـ وبين الرغبة اللاشعورية المكوِّنة للحلم، فقد كنت عرضت بعض الملاحظات في كتابي **تأويل الحلم**. وبودّي أن أوردها هنا بلا تعديل، وبدون أن أضيف إليها شيئاً، لأن تحليل حلم دورا ذاك جاء ليثبت من جديد صحة الأساس الذي عليه بنيت تلك الملاحظات:

«إنني أسلِّم بطيبة خاطر بوجود فئة بكاملها من الأحلام التي تنشأ بصورة رئيسية، بل حصرية، عن البقايا المتخلفة من النهار؛ وأعتقد أنه حتى رغبتي في أن أصير أستاذاً مشاركاً[٣١] كان في مقدورها، في تلك الليلة، أن تدعني أنام نوماً هادئاً، لو لم يبقَ انشغال بالي بصحة صديقي قائماً[٣٢]. لكن ما كان لهذا الانشغال أن يبتعث حلماً؛ فالقوة اللازمة لظهور حلم تستوجب توفر رغبة؛ ومن ثم كان على انشغال البال أن يتدبر لنفسه رغبة لتضطلع بمثل هذا الدور. ولو كان لنا أن نلجأ إلى تشبيه لقلنا: إنه من المحتمل جداً أن تلعب فكرة نهارية دور **مقاول** الحلم؛ لكن المقاول الذي يملك، كما يقال، الفكرة والحافز إلى تحقيق هذه الفكرة، لا يستطيع أن يفعل شيئاً بدون رأسمال. ومن ثم لا مفرَّ له من اللجوء إلى رأسمالي لتغطية التكاليف؛ وهذا الرأسمالي الذي يقدم التمويل النفسي اللازم

---

٣١ ـ لهذا صلة بتحليل حلم اتخذناه في كتابنا نموذجاً.

٣٢ ـ كان فرويد، في كتابه **تأويل الحلم**، قد روى حلماً رأى فيه صديقه وطبيب أسرته المسمى أوتو وقد اسودّ وجهه وجحظت عيناه، فعزا إليه الإصابة بمرض بازدوف. ثم ربط تفسير هذا الحلم ببقية نهارية قارن فيها بين شخصه وبين أستاذ ـ رمز إليه بحرف ر ـ حصل على لقب الأستاذية بعد عمر طويل رغم أنه ـ مثله ـ شقّ طريقه بعيداً عن العالم الأكاديمي. ومن ثم يكون الحلم في بعض مظاهره تحقيقاً لرغبة، وهي هنا رغبة فرويد نفسه في أن يصير أستاذاً مشاركاً. «م».



لإطلاق الحلم هو على الدوام، وأياً ما كانت الفكرة النهارية، **رغبة منبثقة من اللاشعور**».

إن من تسنى له أن يطَّلع على دقة البنيان في إنشاءات من قبيل الأحلام لن يفجأه أن يكتشف أن رغبة دورا في أن ترى أباها محل الرجل المغوي لم تبتعث ذكرى أية مادة نفسية، كيفما اتفق، من طفولتها، بل ابتعثت على وجه التعيين المادة ذات الصلة الأوثق بقمع ذلك الإغواء. وآية ذلك أنه إذا كانت دورا قد شعرت بأنها عاجزة عن الاستسلام لحبّها لذلك الرجل، وإذا كانت قد كبتت هذا الحب بدل أن تسلس قيادها له، فذلك لأن قرارها هذا لا يرتهن بأي عامل آخر مثل ارتهانه بإشباعها الجنسي المبكر وبعواقبه: سلس البول والتريَّة والتقزز. ومن الممكن لسوابق مرضية كهذه، تبعاً لجملة المقوِّمات الجِبِلِّية لدى الفرد، أن تقدِّم أساساً لموقفين حيال متطلبات الحب لدى الراشدين: إما استسلام بلا تحفظ للجنسية المشارفة على الانحراف، وإما ردّ فعل رافض للجنسية ومتواكب بالعصاب. وجِبِلَّة مريضتنا والمستوى الفكري والأخلاقي الرفيع لتربيتها حتَّما عليها سلوك الطريق الثاني.

وإني أحرص بعد على لفت الانتباه بصورة خاصة إلى أن تحليل هذا الحلم قد أتاح لنا منفذاً إلى بعض تفاصيل الوقائع التي ولَّدت المرض والتي ما كانت، لولا ذلك، لتجد طريقها إلى الذاكرة ولا إلى الاستحضار. فذكرى سلس البول في الطفولة كانت، كما رأينا، مكبوتة من قبل. كذلك لم تكن دورا قد ذكرت قط تفاصيل ملاحقة السيد **ك** لها: فهي لم ترد قط إلى ذهنها.

* * *

سأبدي بعض ملاحظات أخرى من شأنها أن تساعد على فهم تركيب هذا الحلم. فعمل الحلم بدأ في عصر اليوم الثاني الذي تلا المشهد في الغابة، بعد أن فطنت دورا إلى أنها ما عادت تستطيع أن تقفل الباب على نفسها في غرفتها. ساعتئذ قالت في نفسها: «إن خطراً كبيراً جسيماً يتهددني هنا». وأبرمت قرارها بألا تبقى بمفردها في ذلك المنزل، بل بأن ترحل مع أبيها. وقد غدا هذا القرار مقتدراً على تشكيل حلم لأنه استطاع أن يجد في اللاشعور استمراراً له. فقد



كان لهذا القرار ما يناظره في اللاشعور، وهو استنجادها بحبها الطفلي لأبيها حمايةً لها من الإغواء الحالي. والتحول الذي حدث في نفسها عندئذ تثبَّتَ وقادها إلى وجهة النظر التي يشهد عليها مسار أفكارها **المتسلطة** (الغيرة من السيدة **ك** بسبب أبيها، كما لو أنها عاشقة له). ودار في داخلها صراع بين إغراء الاستسلام للرجل الذي يطارحها الغرام وبين المقاومة ضده. وقوام هذه المقاومة دوافع تتصل باللياقة والحسّ السليم، ومشاعر عدوانية متولدة عن التفسيرات التي أعطتها إياها مربِّيتها (الغيرة، عزة النفس الطعينة، كما سنرى فيما بعد)، وعنصر عصابي، أعني القرف الجنسي الموجود عندها من قبل والنابع من تاريخها الطفلي. وحبها لأبيها، ذلك الحب الذي استنجدت به ليحميها من الغواية، ينبثق من هذا التاريخ الطفلي تحديداً.

لقد حوَّل الحلم قرار دورا، الراسخ في لاشعورها، بالهرب نحو أبيها إلى موقف يمثل رغبتها في أن ينقذها أبوها من الخطر وكأنها تحققت. وهنا كان عليها أن تنحّي جانباً فكرة كانت تقف أمامها كعائق: وهي أن أباها هو الذي عرَّضها لهذا الخطر. وسوف نرى فيما بعد أن النزعة المعادية للأب (الرغبة في الانتقام)، والتي لهذا السبب بالذات كُبحت وكُبتت، ستغدو إحدى القوى المحركة للحلم الثاني.

بمقتضى شروط تكوين الأحلام، يتم اختيار الموقف المتخيَّل بحيث يأتي تكراراً لموقف طفلي. وإنه لنصر باهر يحققه الحلم حين يفلح في تحويل موقف حديث العهد، بل ربما الموقف عينه الذي كان الحافز المباشر إلى الحلم، إلى موقف طفلي. وقد قُيّض للحلم في الحالة التي نحن بصددها نجاح مماثل بفضل مصادفة مؤاتية. فكما أن السيد **ك** كان يقف أمام فراشها حين أيقظها، كذلك كان يفعل والدها في غالب الأحيان وهي طفلة. والانعطاف المفاجئ الذي ركبت دورا مركبه قابل على نحو رائع لأن يُرمز إليه بإحلالها أباها في هذا الموقف محل السيد **ك**. والحال أن أباها كان يوقظها في الماضي كيلا تبلل فراشها.

وفكرة «التبليل» هذه تحدِّد بقية مضمون الحلم، وإن كان التبليل لا يتمثل فيه



إلا بتلميح مبهم وبنقيضه.

فنقيض «التبليل» و«الماء» يمكن أن يكون بسهولة «النار» و«الاحتراق». وقد شاءت المصادفة أن يعرب أبوها، عند وصولهم إلى ذلك المكان، عن تخوفه من حريق، وهذه المصادفة ساهمت في أن يكون الخطر الذي يحميها أبوها منه هو بالتحديد خطر حريق. وإنما بالاستناد إلى هذه المصادفة وإلى نقيض «التبليل» قام الموقف الذي وقع الاختيار عليه في الحلم: وجود حريق ووجود أبيها إلى جانبها ليوقظها. ومن المؤكد أن العبارة التي نطق بها أبوها اتفاقاً وعرضاً ما كانت لتتلبس تلك الأهمية في الصورة الحلمية لو أنها ما كانت تتفق أيضاً تمام الاتفاق مع النزعة التي كانت راجحة الكفة عندئذ لدى دورا، أعني نزعتها إلى أن ترى في أبيها، مهما كلَّف الأمر، حاميها ومنقذها. فلكأنها أدارت الفكرة التالية بينها وبين نفسها: «لقد استشعر منذ وصولنا الخطر، وكان على حقّ!» (أما في واقع الأمر فإنه هو الذي عرَّض الفتاة للخطر).

وبالاستعانة بترابطات يمكن بيسر أن يعاد بناؤها، نجد أن فكرة «التبليل» هي التي تضطلع، بين أفكار الحلم، بدور نقطة التقاطع لعدة دوائر من التمثلات والتصورات. فـ«التبليل» لا يرتبط فقط بسلس البول، بل كذلك بدائرة أفكار الإغواء الجنسي التي تختبئ، مكبوحة، خلف هذا الجانب من مضمون الحلم. فدورا تعلم أن التبلل هو لازمة أيضاً للعلاقات الجنسية، وأن الرجل يعطي المرأة، في أثناء الجماع، شيئاً سائلاً **على شكل نقط**. وتعلم أن الخطر يكمن هنا تحديداً، وأن مهمتها هي أن تدرأ عن أعضائها التناسلية خطر هذا التبليل.

ومن خلال «التبليل» و«النقط» تنفتح أمامنا في الوقت نفسه الدائرة الأخرى للتداعيات، دائرة السيلان المقزز الذي له، في سن البلوغ، مفعول إذلالي مماثل لمفعول سلسل البول في الطفولة. فـ«التبليل» يعني هنا «التلويث». والأعضاء التناسلية التي يفترض بها أن تكون نظيفة، كانت بالفعل قد تلوثت من قبل من جراء التريَّة، وهذا لدى أمها كما لديها هي نفسها (انظر ص ٨٩). ويبدو أن دورا فهمت أن هوس النظافة لدى أمها هو رد فعل على هذا التلوث.

إن الدائرتين تتطابقان هنا: فماما تلقت من بابا «التبلُّل» الجنسي والتريَّة



الموسَّخة. وغيرة دورا من أمها لا تقبل انفصالاً عن دائرة الأفكار التي تتصل بحبها الطفلي لأبيها الذي يفترض به أن يحميها. غير أن هذه المادة لم تكن تصلح بعد للتمثيل. ولكن لو أمكن الاهتداء إلى ذكرى تكون على صلة متعادلة بكلتا دائرتي فكرة «التبلل»، ولكنها بعيدة في الوقت نفسه عن أن تكون جارحة للمشاعر، لكان أمكن لهذه الذكرى أن تضطلع بتمثيل تلك المادة في مضمون الحلم.

إن ذكرى كهذه قد ابتعثتها قصة تلك الحلية من «نقط» اللؤلؤ التي كانت والدة دورا قد أعربت عن رغبتها في الحصول عليها. والظاهر أن ارتباط هذه الذكرى بالدائرتين كلتيهما، دائرة «التبلل» الجنسي والتلوث، هو سطحي وخارجي، ومردّه إلى مداورة في الألفاظ، إذ إن كلمة «نقطة» استخدمت بحكم ازدواج معناها «ركيزة لتحويل الاتجاه»، على حين أن كلمة «حلية» يمكن أن تعني «نظيف»[٣٣] أي نقيض ما هو «ملوَّث»، وإن كان في ذلك شيء من التعسف. أما في الواقع، فإننا نستطيع أن نقيم ترابطات أساسية أكثر متانة من حيث المضمون. فالذكرى نابعة من مادة الغيرة من الأم، تلك الغيرة التي وإن تكن بدأت في طفولة دورا فإنها استمرت بعد ذلك. وعن طريق هذين الجسرين اللفظيين صارت الدلالة المرتبطة بتصوراتها عن العلاقات الجنسية بين والديها، وعن التريَّة التي تعاني منها الأم، وعن هوس النظافة المضني لدى هذه الأخيرة، قابلة برمَّتها لأن تُحوَّل إلى ذكرى واحدة وحيدة هي «النقط ـ اللؤلؤ».

لكن كان لا بدّ من عملية إزاحة ونقل أخرى كيما يتمخض مضمون الحلم. فليست «النقط»، وإن تكن في الأصل أقرب إلى كلمة «التبلل»، هي التي وجدت منفذاً لها إلى الحلم، وإنما الكلمة الأبعد: «الحلي». ولو أن هذا العنصر أقحم على الجزء الذي سبق تثبيته من الحلم، لكان أمكن أن نفهم هذا الجزء على النحو التالي: «أمي تريد أيضاً أن تنقذ حليها». ولكن في التعديل الجديد ـ «علبة الحلي» ـ يظهر التأثير اللاحق لعناصر آتية من دائرة الأفكار المضمرة والمتصلة

٣٣ ـ إن الاسم الدال على «حلية» بالألمانية Schmuck يمكن أن يعني أيضاً كنعت «نظيف». «م».



بغواية السيد ك لها. فهذا الأخير لم يقدِّم لها حلياً، وإنما «علبة» للحلي تجسدت فيها كل علائم الإيثار وكل ضروب الحنان التي أشعرتها بأن عليها الآن أن تكون ممتنَّة. والحال أن الكلمة المركبة على هذا النحو: «علبة الحلي»[٣٤] لها قيمة تمثيلية خاصة. أفليست «علبة الحلي» صورة شائعة للدلالة على الأعضاء التناسلية الطاهرة، غير الممسوسة، لدى المرأة؟ ثم أليست هي من جهة أخرى كلمة بريئة، وبالتالي مؤهلة تماماً لأن تفضح ولأن تخفي على حدّ سواء الأفكار الجنسية الكامنة وراء الحلم؟

على هذا النحو وردت في مضمون الحلم، مرتين على التوالي، عبارة «علبة حلي ماما»، وهذا العنصر جاء بديلاً عن الإشارة إلى الغيرة الطفلية، وإلى اللؤلؤ الذي بشكل نقط، أي التبلل الجنسي، وإلى التلوث بالتريَّة؛ كما جاء بديلاً من الجهة الثانية عن الإشارة إلى الأفكار الإغرائية التي باتت الآن ذات طابع راهن وأمست تطالب بحبّ مقابل الحبّ، وتصوِّر سلفاً الموقف الجنسي المتوقع، المرغوب والمرهوب في آن معاً. وعلى هذا، يكون عنصر «علبة الحلي» قد نجم، أكثر من أي عنصر آخر، عن عمليات تكثيف وإزاحة ونقل، وكان بمثابة تسوية بين نزعات متضادة. ومثوله لمرتين على التوالي في مضمون الحلم يكشف عن تعدد أصوله التي يستمدّها من مصدر طفليٍّ ومصدرٍ حاليٍّ.

لقد كان الحلم استجابة لخبرة معاشة حديثة ذات مفعول مثير، كان لا بدّ أن تبتعث بالضرورة ذكرى الخبرة الوحيدة المشابهة لها المعاشة في السنوات السابقة. ذلك كان مشهد القبلة في المخزن، تلك القبلة التي أثارت تقززها. والحال أن هذا المشهد نفسه كان يمكن النفاذ إليه بالتداعي من باب آخر بعد: دائرة الأفكار المتصلة بالسيلان (ص ٩٢) ودائرة الأفكار المتصلة بالإغراء الحالي. ومن ثم، إن ذلك المشهد قدَّم لمضمون الحلم مساهمته الخاصة التي كان عليها أن تتكيف مع الموقف القائم مسبقاً. فهناك حريق... والقبلة كان لا بدّ أن تفوح منها رائحة الدخان؛ ومن ثم شمَّت دورا رائحة الدخان في الحلم، وقد لازمها هذا

٣٤ ـ تتألف «علبة الحلي» بالألمانية من لفظة واحدة هي Schmuckkasfchen. «م».



الإحساس حتى إلى ما بعد استيقاظها.

لقد تركتُ لسوء الحظ، ومن قبيل السهو، ثغرة في تحليل هذا الحلم. فقد عزت دورا إلى أبيها في هذا الحلم العبارة التالية: «لا أريد أن يهلك ولداي، إلخ» (ينبغي أن نضيف هنا، وعلى ضوء أفكار الحلم: من جراء الاستمناء). ومثل هذا الكلام في الحلم يتألف عادة من شذرات من أقوال سُمعت أو نُطقت فعلاً. وقد غفلتُ عن الاستعلام عن المصدر الواقعي لهذا القول. ولقد كان من شأن نتيجة هذا التقصي أن تكشف عن قدر أكبر بعد من التعقيد في بنيان الحلم، ولكن كان من شأنها أيضاً أن تشفّ عن هذا البنيان بمزيد من الوضوح.

أينبغي أن نفترض أن الحلم حين حدث في **ل** كان له على وجه الدقة المضمون عينه الذي كان له حين عاد يتكرر في أثناء العلاج؟ لا يبدو هذا ضرورياً. وتدلّ الخبرة أن الحالم غالباً ما يؤكد أنه شاهد الحلم عينه، على حين أن التظاهرات الخصوصية للأحلام المتكررة تتمايز في الواقع عن بعضها بعضاً بتفاصيل عديدة وبتحويرات أخرى غير عادمة الأهمية. من ذلك أن إحدى مريضاتي روت أنها رأت مرة أخرى في الليلة السابقة حلمها المفضل الذي يتكرر على الدوام بالكيفية عينها: رأت أنها تسبح في البحر الأزرق، تشقّ الأمواج جذلى، إلخ. وبعد التدقيق في تقصي هذا الحلم تبيَّن لي أن تفصيلاً أو آخر يضاف في كل مرة إلى الخلفية الواحدة؛ بل إنها رأت نفسها في إحدى المرات تسبح في بحر متجمد، بين جبال الجليد. كما أن أحلاماً أخرى رأتها مريضتي، ولم تحاول هي نفسها أن تدعي أنها مطابقة لذلك الحلم المتكرر، اتضح أنها وثيقة الصلة به. فقد رأت مثلاً، وهي تنظر إلى صورة فوتوغرافية، الهضبة والسهل في هلغولاند(٣٥) بحجمهما الطبيعي، ورأت في البحر مركباً على ظهره اثنان من أصدقاء طفولتها، إلخ.

من المؤكد أن الحلم الذي حلمته دورا في أثناء العلاج ـ ربما بدون أن يطرأ تغيُّر على مضمونه الظاهر ـ قد اكتسب دلالة راهنة جديدة. وكان يتضمن، بين

٣٥ ـ هلغولاند: حرفياً الأرض المقدسة. وجغرافياً أرخبيل يقع في بحر الشمال ويتألف من جزيرتين تابعتين لألمانيا ومتمتعتين بنوع من الاستقلال الذاتي. «م».



جملة أفكاره الكامنة، تلميحاً إلى علاجي، وكان بمثابة تجديد للقرار الذي اتخذته سابقاً بالإفلات من خطر ما. ولئن تكن ذاكرة دورا قد خذلتها حين زعمت أنها شمت رائحة دخان في **ل** لحظة استيقاظها، فلا مفرّ من الاعتراف بأنها دسّت ببراعة فائقة عبارتي: «لا دخان بلا نار» في الحلم المكتمل التكوين، وفي موضع بدت معه هذه العبارة وكأنها تسهم في التعيين المتعدد للعنصر الأخير[٣٦]. أما أحدث سبب مباشر للحلم فكان مردّه بلا جدال إلى المصادفة، إذ إن انحباس أخيها في غرفة نومه بسبب إغلاق أمها باب غرفة الطعام هو ما أتاح لها أن تربط الأمر مع مناورات السيد **ك** في **ل**. ففي هذه البلدة أبرمت دورا قرارها لما تبيَّنت أنه يتعذر عليها أن تغلق باب غرفة نومها بالمفتاح. ومن الجائز أن أخاها ما كان ظهر بعد في أحلامها السابقة، بحيث أن كلمة «ولداي» ما أقحمت على مضمون الحلم إلا بعد الحادث الأخير الذي تكلمنا عنه.

٣٦ ـ رائحة الدخان. «م».

(٣)

الحلم الثاني

بعد بضعة أسابيع من الحلم الأول كان الحلم الثاني، الذي توافق جلاء أمره مع نهاية التحليل. وهذا الحلم ليس واضحاً وضوح الأول. لكنه أمدّنا بالتوكيد المبتغى لفرضية أمست ضرورية بصدد الحالة النفسية للمريضة، وسدَّ ثغرة في ذاكرتها، وأتاح لنا أن نستجلي أصل عرض آخر من أعراضها.

روت دورا: «كنت أتجول في مدينة لا أعرفها. رأيت شوارع وساحات غريبة عليّ[١]. ثم دخلت إلى منزل كنت أقطن فيه، وقصدت غرفتي فوجدت فيها رسالة من ماما. وقد كتبت تقول: بما أنني خرجت من البيت بغير علم أهلي، فإنها لم تشأ أن تعلمني أن بابا وقع مريضاً. والآن قد مات، فإن شئت[٢] فبوسعك أن تحضري». فذهبت إلى المحطة وسألت، ربما مئة مرة، أين المحطة. فكان الجواب يأتيني في كل مرة: خمس دقائق. وبعد ذلك رأيت أمامي غابة كثيفة، فدلفت فيها، وقد سألت رجلاً صادفته: كم، فأجابني: ساعتان ونصف أيضاً[٣]. وعرض عليّ أن يرافقني. فرفضت ومضيت بمفردي. رأيت المحطة أمامي، ولم أستطع بلوغها، وصاحب ذلك شعور بالقلق مماثل لذاك الذي يعتري المرء في الحلم حين لا يستطيع تقدماً إلى الأمام. ثم وجدتني في البيت، ولا بدّ أنني ركبت في أثناء ذلك عربة، ولكني لا أعرف شيئاً عن ذلك. ودخلت إلى حجرة البواب، وسألته عن شقَّتنا. فتحت لي الخادمة الباب

١ ـ أضافت فيما بعد ملاحظة بالغة الأهمية: **في إحدى الساحات رأيت نصباً.**

٢ ـ أكملت لاحقاً بقولها: «كان بعد هذه الكلمة علامة استفهام: شئت؟

٣ ـ حينما روت الحلم مرة أخرى قالت: «ثلاث ساعات».



وأجابتني: إن أمك والآخرين هم الآن في المقبرة»[٤].

ما كان من الممكن جلاء كل ما في هذا الحلم نظراً إلى وقف التحليل. وقد جرى هذا الوقف في ظروف خاصة لم تكن منعدمة الصلة بمضمون الحلم. لهذا ما أمكن لذاكرتي أن تحفظ بدقة متماثلة، بصدد جميع النقاط، كل ما كاشفتني به بالتعاقب. وسأذكر بادئ ذي بدء الموضوع الذي كنا بصدد تحليله لحظة طرأ هذا الحلم. فقد كانت دورا نفسها تطرح منذ بعض الوقت أسئلة بصدد العلاقات بين بعض أفعالها وبين دوافعها المفترضة. وكان أحد هذه الأسئلة هو التالي: «لماذا لزمتُ الصمت طيلة الأيام الأولى بعد مشهد البحيرة؟». وكان سؤالها الآخر: «لماذا رويتُ بعد ذلك، على نحو مفاجئ، لأهلي ما حدث؟». وفي رأيي، كان لا يزال علينا أن نفسر لماذا شعرت دورا أنها انجرحت مثل ذلك الانجراح من مغازلة السيد **ك** لها، ولا سيما أنني كنت بدأت أتبيَّن أن الأمر لم يكن بالنسبة إلى السيد **ك** يقتصر على مجرد محاولة عابثة للتغرير بها. وقد فسّرت مبادرتها إلى إعلام والديها بالحادث على أنها فعل يظهر فيه واضحاً تأثير رغبة مَرَضية في الانتقام. ذلك أني أرى أن الفتاة السوية تتولى بمفردها معالجة وقائع من هذا القبيل.

سوف أعرض إذاً في ما يلي المادة التي توفَّرت لي لتحليل ذلك الحلم بدون أن يكون في مستطاعي تحاشي بعض التشتُّت في التفاصيل كما سأرويها.

كانت تتجول بمفردها في مدينة غريبة، ورأت شوارع وساحات. وقد جزمت أن المدينة لم تكن بكل تأكيد بلدة **ب**، كما كنتُ افترضت أول الأمر، وإنما مدينة أخرى لم تضع قدميها فيها من قبل قط. وطبيعي أنني لفتُّ نظرها إلى أنه من المحتمل أن تكون قد اقتبست صور هذا الحلم من رسوم أو صور فوتوغرافية وقع نظرها عليها. وإنما بعد هذه الملاحظة التي أبديتها خطرت ببالها فكرة النصب القائم في إحدى الساحات، وعلى إثر ذلك مباشرة اهتدت إلى أصل هذه الفكرة. فقد كانت تلقت في عيد الميلاد ألبوماً فيه مناظر لمنتجع مائي ألماني،

٤ ـ أضافت في الجلسة التالية: «رأيت نفسي بمنتهى الوضوح أرتقي الدرج». وأضافت كذلك: «بعد جوابها، ذهبت إلى غرفتي، لكني ما كنت أشعر بأدنى حزن، وقرأت في كتاب ضخم كان على مكتبي».



وكانت قد أخرجته عشية يوم الحلم لتريه لأقارب لها قدموا لزيارة الأسرة. كان الألبوم قد وضع في علبة لحفظ الصور، وما استطاعت دورا أن تهتدي حالاً إلى مكان العلبة، فسألت أمها: «أين العلبة؟»[٥]. وكانت إحدى الصور تمثِّل ساحة فيها نصب تذكاري. وكان من أهدى إليها هذا الألبوم مهندساً شاباً، تعرفت إليه بصفة عابرة في البلدة الصناعية التي سبق لنا الكلام عنها. وكان هذا الشاب قد قبل وظيفة في ألمانيا ليتمكن بأسرع ما يمكن من الاستقلال بنفسه؛ وكان ينتهز كل فرصة تسنح ليذكِّر دورا بشخصه، وكان من السهل أن تدرك أنه ينوي أن يطلب يدها للزواج حالما يتحسن مركزه. لكن ذلك كان يتطلب وقتاً، ولم يكن بدّ من الانتظار.

لقد كانت الجولة في المدينة الغريبة متعيِّنة بأكثر من سبب، ومنها نستطيع الرجوع إلى أحد الأسباب المباشرة للحلم. فقد كان للأسرة نسيب شاب قدم لتمضية الأعياد معها، وكان على دورا أن ترافقه في جولة لمشاهدة معالم فيينا. صحيح أن هذا السبب المباشر عديم الأهمية بالنسبة إلى دورا، لكن هذا النسيب كان يذكرها بإقامتها الأولى والقصيرة في درسدن. فقد طافت يومئذ بدرسدن كغريبة، ولم يفتها أن تزور رواق اللوحات الشهير فيها[٦]. وقد أراد نسيب آخر للأسرة كان معهم يومئذ، وكان يعرف درسدن، أن يصحبها كدليل لمشاهدة ذلك الرواق، **لكن دورا رفضت وصرفته، ومضت بمفردها**، وتوقفت أمام ما كان يعجبها من اللوحات. وأمام مادونا السكستينا[٧] وقفت ساعتين تتأملها معجبة، خاشعة، حالمة. وحين سألتُها ما الذي أعجبها إلى هذا الحدّ في تلك اللوحة، أجابت إجابة مبهمة. ثم قالت في آخر الأمر: **المادونا**.

من المحقق أن هذه التداعيات ترتبط وثيق الارتباط بالمادة التي كوَّنت الحلم. وهي تشتمل على عناصر تكررت بلا تعديل في مضمون الحلم (صرفته ومضت

٥ ـ في الحلم سألت: «أين المحطة؟». ومن هذه المقاربة سأستخلص الاستنتاج الذي سأعرضه عما قليل.

٦ ـ كانت درسدن تعادل بثرائها الفني، قبل تدمير الحلفاء لها في الحرب العالمية الثانية، فلورنسا الإيطالية. «م».

٧ ـ مادونا السكستينا: لوحة مشهورة لرافائيل في كنيسة القديس سكستوس. «م».



بمفردها ـ ساعتين). وألاحظ من الآن أن «الصور» كانت بمثابة نقطة وصل في لحمة أفكار الحلم (صور الألبوم ـ اللوحات في درسدن). وأحبِّذ أيضاً أن أنوِّه بصفة خاصة بموضوعة «المادونا»، الوالدة العذراء؛ وسنعود لاحقاً إلى اقتفاء هذا الأثر. على أن أول ما اتضح لي من هذا الجزء الأول من الحلم أن دورا تماهت مع شاب. فهذا الشاب كان يطوف ببلد غريب، ويجاهد للوصول إلى هدف، غير أن صعاباً كانت تنتصب في سبيله، فما كان له إلا أن يتذرع بالصبر. ولو كان الفكر ذهب بها إلى المهندس لكان المنطق اقتضى أن يكون هذا الهدف امتلاك امرأة، امرأة تتمثَّل بشخصها هي بالذات. ولكن بدلاً من ذلك كان الهدف...محطة قطارات، علماً بأننا نستطيع أن نضع محلّ هذه المحطة **علبة**، وهذا طبقاً للعلاقة القائمة بين السؤال في الحلم والسؤال الذي طُرح فعلاً. علبة وامرأة: فالتوافق يكون في هذه الحال أفضل.

سألت ربما مئة مرة... هذا ما يتأدى بنا إلى سبب مباشر آخر للحلم، أقلَّ انعدامَ أهميةٍ من سابقه. ففي عشية يوم الحلم، وبعد انصراف الزوار، سأل الأب دورا أن تأتيه بكونياك قائلاً إنه لا يستطيع النوم بدون أن يحتسي شيئاً من الكونياك. فطلبت مفتاح خزانة الطعام من أمها، غير أن هذه كانت مستغرقة في حديث، فما أجابتها، فما كان من دورا إلا أن صاحت وقد فرغ صبرها: «هذه هي المرة المئة التي أسألك فيها أن تخبريني أين المفتاح!». وكانت تبالغ، فهي لم تردد سؤالها إلا زهاء **خمس مرات فقط**(٨).

أين المفتاح؟ إن هذا يبدو لي المقابل المذكر للسؤال: أين العلبة؟ (انظر الحلم الأول، ص ٧٥). فهما سؤالان يتعلقان إذاً.. بالأعضاء التناسلية.

في أثناء ذلك الاجتماع العائلي نفسه، شرب أحدهم نخب والد دورا، معرباً عن أمله في أن تدوم له صحته الجيدة سنوات عديدة، إلخ. وقد فطنت دورا إلى أن قسمات وجه أبيها المتعبة قد عرتها في تلك اللحظة اختلاجة غريبة، وفهمت

٨ ـ ورد العدد ٥ في مضمون الحلم من خلال الإشارة إلى الوقت: خمس دقائق. وكنت في كتابي **تأويل الحلم** قد بيّنت بعدة أمثلة الكيفية التي يعامل بها الحلم الأرقام المتضمنة في أفكار الحلم؛ فكثيراً ما نلتقيها وقد سُلخت عن مجمل السياق الذي كانت تنتمي إليه وأُقحمت في سياق جديد.



ما طبيعة الأفكار التي كان عليه أن يكبحها. يا له من رجل مسكين! من يدري كم بقي له من سنوات العمر ليعيش؟

ها نحنذا نصل إلى **مضمون الرسالة** في الحلم. مات أبوها، وهي قد تغيَّبت عن البيت بقرار من ذات نفسها. وذكَّرتُ دورا للحال، بخصوص الرسالة المذكورة، برسالة الوداع التي كتبتها لوالديها، أو حررتها على الأقل ليطَّلعا عليها. كانت هذه الرسالة ترمي إلى بثّ الذعر في فؤاد أبيها، كيما يهجر السيدة **ك**، أو على الأقل إلى الانتقام منه إن لم تتوصل إلى حمله على هجرها. إننا هنا أمام موضوعة موتها أو موت أبيها (المقبرة في موضع لاحق من الحلم). فهل نجانب الصواب إن افترضنا أن الموقف الذي شكل واجهة الحلم جاء مناظراً لتخييلِ انتقام موجَّهٍ ضد أبيها؟ إن أفكار الإشفاق التي راودتها عشية يوم الحلم تتمشى مع هذا على أحسن وجه. وهاكم الدلالة التي يمكن أن تكون لهذا التخييل: لقد بارحت البيت، ورحلتْ إلى بلد غريب، فانفطر قلب أبيها حزناً وصعب عليه العيش بعيداً عنها. وبذلك تكون قد انتقمت. فهي تدرك جيداً ما كان ينقص أباها الذي أمسى الآن لا يستطيع نوماً بغير الكونياك[٩].

لنأخذ إذاً في اعتبارنا **الرغبة في الانتقام** كعنصر جديد في مسعانا اللاحق إلى إعادة تركيب أفكار الحلم الكامنة.

على أن نص الرسالة كان لا بدّ أن يتيح لنا الكشف عن تعيينات أخرى. فمن أين عساها جاءت إضافة: **إن شئت؟**

هنا تحديداً خطر ببال دورا أن كلمة «شئت» كانت متبوعة بعلامة استفهام. ولم تلبث أن فطنت إلى أن هاتين الكلمتين مقتبستان من رسالة السيدة **ك** التي دعتها فيها إلى بلدة **ل** (عند ضفاف البحيرة). ففي هذه الرسالة جاءت، بعد عبارة «إن شئت المجيء»، وفي وسط الجملة تماماً، علامة استفهام، وهو ما كان غريباً جداً.

٩ ـ إن الإشباع الجنسي هو بلا شك أفضل منوِّم، مثلما أن الأرق هو نتيجة في أغلب الأحيان لعدم الإشباع. فأبوها ما كان يستطيع النوم لأنه كان يفتقد وصال المرأة التي يحبّ. قارن مع العبارة التي سنعرض لها لاحقاً: «إن زوجتي لا تعني شيئاً لي».



ها نحنذا قد عدنا من جديد إلى مشهد البحيرة وإلى الألغاز المرتبطة به. وقد رجوت دورا أن تروي لي هذا المشهد بحذافيره وتفاصيله كافة. وفي بادئ الأمر لم تعلمني بشيء جديد حقاً. فالسيد **ك** استهل بادرته بقدر من الجدّ والوقار؛ ولكنها لم تدعه يكمل ما بدأه. فما إن فهمت مقصده حتى صفعته وابتعدت مهرولة. وقد أردت أن أعرف ما الألفاظ التي تفوه بها؛ فما تذكرتْ غير هذا التبرير: «أنت تعرفين أن زوجتي لا تعني لي شيئاً»[١٠]. وكي تتجنب الالتقاء به مرة ثانية، عقدت العزم على أن تلفّ حول البحيرة سيراً على قدميها وصولاً إلى **ل، وقد سألت رجلاً صادفته كم يقتضيها ذلك من الوقت**. ولما أجابها هذا الرجل: «ساعتين ونصف»، عدلت عن خطتها وعادت أدراجها إلى المركب الذي ما لبث أن أقلع. وكان السيد **ك** في المركب هو الآخر، فدنا منها، ورجاها أن تغفر له وألا تروي شيئاً مما حدث. غير أنها لم تجبه. قالت: «نعم، كانت **غابة الحلم** تشبه كل الشبه الغابة التي عند ضفاف البحيرة» والتي جرى فيها المشهد الذي انتهت لتوّها من إعادة وصفه. لكنها كانت بالأمس قد رأت الغابة الكثيفة عينها في لوحة في معرض «المدرسة الانفصالية»[١١]. وكانت ترى في خلفية اللوحة **حوريات**[١٢].

عند هذه النقطة انقلب شكي إلى يقين. فأن تستخدم **المحطة**[١٣] Bahnhof **والمقبرة** Friedhof في الإشارة إلى الأعضاء التناسلية الأنثية، فهذا بحدّ ذاته واضح ومفهوم، غير أن انتباهي المستيقظ كان يتجه إلى vorhof [الدهليز]، وهي كلمة ذات بنية مركبة مشابهة وتستخدم كمصطلح تشريحي في الإشارة إلى

---

١٠ ـ ستقدِّم لنا هذه العبارة مفتاح اللغز.

١١ ـ المدرسة الانفصالية: مدرسة فنية عارضت التقاليد الأكاديمية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، وكان منطلقها ميونيخ وفيينا وبرلين. «م».

١٢ ـ هنا، وللمرة الثالثة، تطالعنا كلمة «لوحة» (مناظر مدن، معرض درسدن) لكن في سياق أكثر دلالة بكثير. وبسبب ما تراه العين في هذه اللوحة تغدو هذه اللوحة عينها Bild صورة لامرأة Weibsbild (غابة، حوريات).

١٣ ـ تفيد «المحطة» بالفعل في الإشارة إلى «المعاشرة الجنسية». وهذا ما يوفِّر البطانة النفسية للعديد من أرهبة السكة الحديدية.



منطقة محددة من الأعضاء التناسلية الأنثية. غير أنه كان من المحتمل أن الأمر لا يعدو أن يكون خطأً أوقعتني فيه حذلقتي. أما الآن، وإذا أخذنا بعين الاعتبار «الحوريات» اللائي يظهرن في خلفية «الغابة الكثيفة»، فلم يعد ثمة مجال للشك. فتلكم هي الجغرافية الجنسية الرمزية! فكلمة Nymphae[١٤]، وهي غير معروفة من قبل غير الأطباء، وغير شائعة الاستعمال كثيراً حتى عند الأطباء، هي المصطلح الذي يطلق على الشفرين الصغيرين اللذين يقعان في عمق الغابة الكثيفة لشعر العانة. غير أن العارف بمصطلحات تقنية من قبيل Nymphae (الشفرين الصغيرين) و vorhof (الدهليز) لا بدّ أن يكون استقى معلوماته من الكتب: لا من الكتب التبسيطية التي «للجميع»، بل من الكتب الاختصاصية في التشريح أو من الموسوعات، وهي معين مألوف للشباب الذي يتأكلهم حب الاستطلاع الجنسي. فإن صحّ هذا التأويل، فلا بدّ أن الموقف الأول في هذا الحلم يخفي وراءه في هذه الحال تخييل فض بكارة، تخييل رجل يحاول النفاذ إلى الأعضاء التناسلية لدى امرأة[١٥].

أفضيت باستنتاجاتي إلى دورا، ولا بدّ أن الانطباع الذي تركته فيها كان مفحماً، لأنها تذكرت على حين غرة نبذة منسية من الحلم: **ذهبت بهدوء**[١٦]

١٤ ـ هذه اللفظة مزدوجة المعنى جناسياً: فهي تعني في أصلها اللاتيني الحوريات، ولكنها تعني في اللغة الطبية الاختصاصية، كما سيلاحظ فرويد، الشفرين في فرج المرأة. «م».

١٥ ـ إن تخييل فضّ البكارة هو العنصر المقوّم الثاني في هذا الموقف. فتشديد اللهجة على صعوبة التقدم، والقلق الذي ساورها في الحلم، فيهما تلميح إلى البكارة التي توليها الحالمة مكانة الصدارة من اهتمامها، والتي نجد على أية حال إشارة أخرى إليها من خلال عذراء السكستينا. إن هذه الأفكار الجنسية تشكل ضرباً من الخلفية اللاشعورية لرغباتها الدفينة ذات الصلة بخاطب يدها الذي ينتظرها في ألمانيا. وقد كنا رأينا أن قوام الجزء الأول من هذا الحلم عينه تخييل انتقام. وهذان الجزآن لا يتطابقان تماماً، وإنما جزئياً فحسب. وسوف نلتقي فيما بعد بتيار أفكار ثالث هو أعظم أهمية بعد.

١٦ ـ في مرة أخرى قالت «بدون أدنى حزن» بدلاً من أن تقول «بهدوء». وإني لأودّ أن أستخدم هذا الحلم دليلاً جديداً على صحة فرضية كنت تقدمت بها في **تأويل الحلم** (الطبعة السابعة، ص ٢٨٧)، ومؤداها أن الأجزاء المنسية من الحلم والتي لا تستعيدها الذاكرة إلا لاحقاً هي على الدوام أهم الأجزاء بالنسبة إلى فهم الحلم. وقد خلصت إلى الاستنتاج في ذلك الكتاب بأن نسيان الأحلام يتطلب هو الآخر تفسيراً على أساس المقاومة النفسية الداخلية.



إلى غرفتها وقرأت في كتاب ضخم كان على مكتبها. وقد شددتُ اللهجة هنا على التفصيلين: «بهدوء» و«ضخم» (بخصوص الكتاب). سألتها ما إذا الكتاب بحجم الموسوعة، فأجابت بالإيجاب. والحال أن الصغار لا يقرؤون أبداً «بهدوء» في الموسوعة حين يكون بيت القصيد موضوعات محظورة. فهم يقرؤون خائفين، مرتعدين، ويتلفتون بقلق خشية أن يفاجئهم أحد. ويمثِّل الأهل عقبة كبيرة أمام مثل هذه المطالعات. غير أن القدرة التي يتميز بها الحلم على تحقيق الرغبات أحدثت تغييراً جذرياً في هذا الموقف المضنك: فأبوها قد مات، والآخرون ذهبوا إلى المقبرة. ومن ثم يسعها أن تقرأ بهدوء ما طاب لها قراءته. أفلا يعني هذا أن أحد دوافعها إلى الانتقام كان تمردها على الإكراه الذي يمارسه والدها عليها؟ أما وقد مات أبوها، فبوسعها أن تقرأ وتحبّ كما تهوى.

لم تتمكن دورا في بادئ الأمر من أن تتذكر أنها قرأت قط في موسوعة، ثم أقرّت بعد ذلك بأن ذكرى من هذا القبيل، وإن بريئة في ظاهرها، تتردد في واعيتها. فيوم وقعت عمتها الأثيرة لديها فريسة مرض خطير، وتقرر السفر إلى فيينا، استلم أهلها رسالة من عم آخر كتب إليهم يقول أن ليس في استطاعتهم المجيء إلى فيينا، نظراً إلى أن أحد أولاده، أي ابن عم دورا، أصيب بالتهاب خطير في الزائدة الدودية. ففتحت عندئذ الموسوعة لتستعلم عن أعراض التهاب الزائدة الدودية. وهي لا تزال تذكر مما قرأته وصف الألم الذي يصاحب هذا المرض ويكون موضعه في أسفل البطن.

عندئذ تذكرتُ أن دورا أصيبت في فيينا، بعيد وفاة عمتها تلك، بالتهاب مزعوم في الزائدة الدودية. وما كنت تجرأت حتى ذلك الحين أن أدرج هذا المرض في عداد تظاهراتها الهستيرية. قالت إنها عانت في الأيام الأولى من حمى شديدة ومن وجع في أسفل البطن، طبقاً لوصف الموسوعة. وقد وضعت لها كمادات باردة، لكنها لم تحتملها؛ وفي اليوم التالي جاءها، مصحوباً بآلام شديدة، الطمث الذي اضطربت مواعيده منذ مرضها، وقالت إنها عانت في تلك الفترة بصورة دائمة من الإمساك.



لم يكن من الصواب أن أعتبر هذه الحالة حالة هستيرية خالصة. فعلى الرغم من أن الحمى الهستيرية ظاهرة ممكنة الحدوث بكل تأكيد، فقد كان يتراءى لي أنه من الشطط والعسف أن أعزو إليها حمى الحالة المشار إليها بدلاً من أن أرجعها إلى عامل عضوي كان يفعل فعله يومئذ لديها. وكنت أزمع التوقف عن اقتفاء هذا الأثر حين ساعدتني هي نفسها على المضيّ في الدرب نفسه لما تذكرت التفصيل الإضافي الأخير من تفاصيل الحلم: **رأت نفسها بمنتهى الوضوح ترتقي الدرج.**

طلبت بطبيعة الحال تعييناً خاصاً لهذا التفصيل. فاعترضت عليّ، وربما بدون أن تحمل هي نفسها اعتراضها هذا على محمل الجدّ، بأنه لم يكن أمامها مناص، كيما تصعد إلى شقتها الواقعة في الطابق الأول، من أن ترتقي الدرج؛ وقد دحضتُ هذا الاعتراض بيسر وسهولة بأن لفتّ نظرها إلى أنه إذا كان في مستطاعها في حلمها أن تحضر إلى فيينا من مدينة مجهولة مع إغفالها ذكر السفر بالقطار، فبوسعها أيضاً أن تعفي نفسها من ارتقاء الدرج. عندئذ مضت تروي لي أنها عانت، بعد التهاب زائدتها، من صعوبة في المشي وأنها بقيت مدة طويلة من الزمن تجرّ قدمها اليمنى. لهذا كانت تحرص على أن تتحاشى ارتقاء الأدراج. أما الأطباء الذين استشارتهم، بناء على رغبة أبيها، فقد أبدوا دهشة عظيمة من أن يكون التهاب الزائدة الدودية قد خلَّف مثل هذا العقبول غير المألوف، ولا سيما أن الألم في أسفل البطن لم يتكرر ثانية ولم يتواقت البتة مع ظاهرة جرّ القدم(١٧).

كان ذلك عرضاً هستيرياً حقيقياً. وحتى لو كانت الحمى عضوية وراجعة، مثلاً، إلى واحدة من تلك النزلات الوافدة الكثيرة التي لا تصيب موضعاً محدداً من الجسم، فقد ثبت بوجه اليقين أن العصاب قد استغل المصادفة

١٧ ـ ينبغي أن نفترض وجود صلة عضوية بين أوجاع أسفل البطن التي يقال لها «التهاب المبيض» وبين صعوبة تحريك الساق التي من الجانب نفسه، وهي صلة ترتدي لدى دورا دلالة خاصة جداً، أي أنها متعيّنة بعدة أسباب وتؤدي وظيفة نفسية خاصة. قارن بملاحظاتي المماثلة المتعلقة بتحليل أعراض السعال، والرابطة كذلك بين الإفرازات البيضاء والخلّفة.



ليتخذ منها تظاهرة من تظاهراته. هكذا تكون دورا قد اختلقت لنفسها مرضاً قرأت وصفه في الموسوعة؛ وبذلك تكون قد عاقبت نفسها على تلك القراءة؛ ولا بدّ أنها قالت في نفسها فيما بعد إن هذا العقاب لا يمكن أن يكون استهدف قراءة مادة بريئة في الموسوعة، وإنما كان نتيجة عملية إزاحة ونقل بعدما أتبعت تلك القراءة بقراءة أخرى أدعى إلى الشجب، وإن تكن قد اختبأت في الذاكرة، في الوقت الحاضر، خلف القراءة البريئة الموازية لها في الزمن[١٨]. وربما توصلنا لاحقاً إلى الكشف عما كانته يومئذ موضوعات هذه القراءة.

ماذا كانت تعني إذاً هذه الحالة التي تحاكي التهاب صفاق المصير الأعور Perityphlite[١٩]؟ إن العقبول المتمثل في جرّ الساق لا يتمشى مع التهاب صفاق المصير الأعور، ولا بدّ من ردّه بالأحرى إلى الدلالة الخبيئة، وربما الجنسية، للوحة السريرية. وبوسعه من ثم، إذا ما أفلحنا في كشف أصله، أن يلقي ضوءاً على الدلالة التي نجدّ في البحث عنها. ورحت أفتش عن سبيل يقودني إلى فكّ هذا اللغز. فالحلم قد انطوى على فواصل زمنية؛ والحال أن الزمن ليس عديم الأهمية في السيرورات البيولوجية أياً ما كانت. سألتها إذاً متى التهبت الزائدة الدودية، أقبل مشهد البحيرة أم بعده؟ وجاء الجواب مباشراً يذلل دفعة واحدة الصعاب كلها: بعده بتسعة أشهر. إن هذا الفاصل الزمني هو بالتأكيد ذو دلالة. فالتهاب الزائدة المزعوم قد حقق على هذا المنوال أخيولة **إنجاب** بما كان متاحاً للمريضة من وسائل متواضعة تتمثل بالأوجاع والنزف الطمثي[٢٠]. وكانت دورا تعرف بطبيعة الحال دلالة ذلك الفاصل الزمني، وما استطاعت أن تماري في الواقعة المرجحة: أن تكون قد قرأت، في تلك المناسبة،

---

١٨ ـ هذا مثال نمطي على تكوين الأعراض الناجمة عن أحداث لا صلة لها، في الظاهر، بالجنسية إطلاقاً.

١٩ ـ المصير الأعور: الجزء الأول من المعي الغليظ، والصفاق الغشاء المصلي. «م».

٢٠ ـ سبقت لي الإشارة إلى أن معظم الأعراض الهستيرية تعبّر، متى ما بلغت ذروة تطورها، عن موقف متخيَّل من الحياة الجنسية: ومن قبيل ذلك مشهد الاتصال الجنسي، أو الحمل، أو الوضع، أو فترة النفاس، إلخ.



مواد الموسوعة التي تتعلق بالحمل والولادة. لكن ما القول في هذه الحال بساقها التي كانت تجرّها؟ لقد بات بوسعي الآن أن أحزر الأمر. فالمرء يسير هكذا إذا ما التوت قدمه. لقد زلت القدم بها إذاً، وهذا يتمشى تماماً مع قابليتها لإنجاب طفل بعد تسعة أشهر من الحادث عند ضفاف البحيرة. على أنه لم يكن لي بدّ من تطلب شرط آخر. فاقتناعي راسخ بأن أعراضاً كهذه لا سبيل إلى أن تنشأ ما لم يتوفر لها من قبل نموذج **طفلي**. وقد أثبتت لي التجربة أن ذكريات الانطباعات والخبرات المتأخرة زمنياً لا تكون لها بحال من الأحوال القوة اللازمة كيما تتحول إلى أعراض. وكنت لا أكاد أجترئ على الأمل بأن تمدني دورا بالمادة الطفلية التي أبحث عنها، لأنني لا أستطيع بعد، في الحقيقة، أن أجزم بأن هذه القاعدة، التي لا أتردد في الإيمان بها بطيبة خاطر، صحيحة صحة عامة مطلقة. غير أن التوكيد أتاني فوراً في حالة دورا. قالت: نعم، لقد التوت قدمها نفسها ذات مرة في طفولتها حينما انزلقت وهي تهبط درجاً في بلدة **ب**؛ وقد ورمت فيما بعد هذه القدم ـ عينها التي صارت تجرّها لاحقاً ـ واستدعى الأمر ربطها وأن تبقى دورا ممددة لبضعة أسابيع. وقد وقع ذلك قبل ظهور الربو بزمن وجيز، في سنتها الثامنة.

كان علينا عندئذ أن نستخلص النتائج من هذه الأخيولة التي أثبتنا هنا وجودها. قلت: «لئن أنجبتِ طفلاً بعد تسعة أشهر من مشهد البحيرة وتحملت إلى اليوم عواقب زلّة قدمك، فهذا يثبت أنك تأسفت لاشعورياً على النهاية التي انتهى بها المشهد. ومن ثم صحَّحتها في فكرك اللاشعوري. ذلك أن الأخيولة التي تخيَّلتها عن إنجاب طفل تفترض مسبقاً أنه قد حدث شيء أثناء ذلك[٢١]، وأنك عشت واختبرت عندئذ كل ما وجدت ضرورة فيما بعد إلى أن تنهليه من الموسوعة. هكذا ترين أن حبك للسيد **ك** لم ينتهِ مع مشهد البحيرة، وأن هذا الحب ما زال مستمراً إلى اليوم، وإن لاشعورياً بالنسبة إليك».

٢١ ـ هكذا يتكشف لنا أن تخييل فض البكارة مرتبط بالسيد **ك**، وهذا ما يفسّر لنا لماذا اشتمل هذا الجزء من المضمون الظاهر للحلم على مادة ملتبسة من مشهد البحيرة (الرفض، ساعتان ونصف، الغابة، الدعوة إلى بلدة **ل**).



وما كان لها بعد ذلك أن تعود إلى المماراة في الأمر(٢٢).

لقد استغرق كل هذا المسعى لاستجلاء الحلم الثاني ساعتين من الزمن. وحين أعربتُ في نهاية هذه الجلسة الثانية عن رضاي عن النتائج التي تم إحرازها، أجابتني بازدراء: «لم يتمخض الأمر عن شيء يذكر»، وهذا ما بدا لي مؤشراً إلى مكاشفات أخرى قريبة.

٢٢ ـ سأضيف هنا بضعة تأويلات تكميلية إلى تلك التي قدمتها حتى الآن: فـ«المادونا» هي بالبداهة دورا نفسها، أولاً بسبب «العابد» الذي أرسل إليها صوراً، وثانياً لأنها حازت على حبّ السيد **ك**، على الأخص بفضل وقوفها موقف الأم حيال طفليه، وثالثاً وأخيراً لأنها وضعت، وهي عذراء، طفلاً، وفي هذا تلميح مباشر إلى تخييل الإنجاب. وما المادونا أصلاً إلا تصور معاكس محبَّب إلى الفتيات اللائي يعتقدن أنهن آثمات جنسياً. وقد اتجه ظني إلى هذه الارتباطات لأول مرة حينما كنت طبيباً في عيادة للطب النفسي بالجامعة(*)، فعاينت لدى فتاة حالة تخليط هلوسي حادة سرعان ما تكشَّفت عن أنها ردُّ فعلٍ على تأنيب وجَّهه إليها خطيبها.

ولو كان تسنى لتحليل دورا أن يستمر لأظهر في أرجح الظن أن التوق إلى الأمومة كان دافعاً قوياً، وإن غامضاً، من الدوافع المحدِّدة لسلوكها. فالأسئلة العديدة التي كانت طرحتها في الآونة الأخيرة بدت وكأنها مشتقات آجلة من الأسئلة التي أثارها حب الاستطلاع الجنسي لديها والتي حاولت أن تجد جواباً عنها في الموسوعة. ولا مناص لنا من الافتراض بأن هذه المطالعات كانت تتصل بالحمل والوضع والبكارة وغيرها من الموضوعات المشابهة. وقد نسيت، في تكرار سردها للحلم، أحد الأسئلة التي كان ينبغي تضمينها في سياق الموقف الثاني من الحلم. وما كان من الممكن أن يكون إلا السؤال التالي: «السيد فلان... هل يقطن هنا؟»، أو «أين يقطن السيد فلان؟» (**أبوها**). ولا بدّ أن يكون هناك سبب ما لنسيانها هذا السؤال البريء في ظاهره، بعد أن كانت ضمّنته في الحلم، وقد تبيَّن لي أن السبب يكمن في اسم أسرتها نفسه، وهو اسم كان يعني في الوقت نفسه أشياء أخرى، ومن ثم كان في الإمكان اعتباره لفظة «ملتبسة». ولا يسعني لسوء الحظ أن أفصح عن هذا الاسم لابيِّن مدى البراعة التي أُستعمل بها للإشارة إلى ما هو «ملتبس» و«غير لائق». ومن الممكن لهذا التفسير أن يجد ما يسنده في تلاعب مماثل بالألفاظ نعثر عليه في جزء آخر من الحلم، حيث اقتبست المادة من ذكريات دورا عن موت عمتها، وتحديداً في جملة «لقد ذهبوا إلى المقبرة»، وحيث حدث تلاعب آخر بالألفاظ كُني به عن اسم تلك العمة. ولنا أن نرى في هذه الألفاظ غير اللائقة قرينة على مصدر آخر، شفوي، لتلك المعلومات الجنسية، إذ لم تكن الموسوعة وافية هنا بالغرض. وما كان ليفجأني أن أعلم أن السيدة **ك** نفسها، تلك التي وشت بدورا، هي ذلك المصدر. فهي التي رعتها دورا بمنتهى المروءة، بينما صبَّت على سائر الآخرين نار انتقامها شبه المداجي. وكان من الممكن لنا أن نكتشف خلف هذه السلسلة من عمليات الإزاحة والنقل، التي استنتجناها من التحليل، عاملاً فاعلاً واحداً بسيطاً: حب دورا الجنسي المثلي العميق للسيدة **ك**.

(*) عيادة جامعة فيينا التي عمل فيها فرويد لمدة ستة أشهر من عام ١٨٩٣. «م».



استهلَّت الجلسة الثالثة بهذه العبارة: «هل تعرف، يا دكتور، أنني آتي هنا اليوم للمرة الأخيرة؟».

ـ لا أستطيع أن أعرف ذلك ما دمت لم تخبريني بشيء بعد.

ـ أجل، كنت قررت بيني وبين نفسي أن أصبر إلى رأس السنة[٢٣]. ولكني لا أريد أن أنتظر أكثر من ذلك لأشفى.

ـ أنت تعلمين أنك حرة في أن توقفي العلاج في أي وقت. لكننا اليوم سنتابع عملنا. متى اتخذت قرارك هذا؟

ـ قبل أسبوعين[٢٤]، على ما أعتقد.

ـ إن هذين الأسبوعين يشبهان كثيراً الإشعار الذي تعطيه خادم أو مربية قبل رحيلها.

ـ كان لدى آل **ك** مربية فعلت ذلك أيضاً، يوم ذهبت لزيارتهم عند شاطئ البحيرة.

ـ أحقاً؟ أنت ما كلمتني عن ذلك قط. أرجوك، قِصِّي عليّ الأمر.

ـ كان عنهم فتاة تعمل مربية للطفلين؛ وكانت تتصرف تصرفاً غريباً للغاية حيال السيد **ك**، فما كان تحييه، ولا كانت تردّ على أسئلته، ولا كانت تناوله شيئاً على المائدة إذا ما طلبه؛ وباختصار، كانت تعامله وكأنه غير موجود. ولم يكن هو أصلاً أكثر تهذيباً في معاملته إياها. فقبل مشهد البحيرة بيوم أو يومين انتحت بي تلك الفتاة جانباً، وقالت لي إن لديها ما تخبرني به. وروت لي أن السيد **ك** اقترب منها قبل بضعة أيام، حين كانت السيدة متغيبة لبضعة أسابيع، وغازلها، وتوسل إليها ألا تضنّ عليه بشيء مما يريده منها؛ وقال لها إن زوجته لا تعني له شيئاً، وهلمّ جرا.

ـ غير أن هذه هي عين الكلمات التي نطق بها حين كاشفك بحبِّه فصفعته.

٢٣ ـ كان ذلك يوم ٣١ كانون الأول/ ديسمبر.

٢٤ ـ في النص الأصلي: «خمسة عشر يوماً»، ولكننا فضلنا أن نترجم بـ«أسبوعين» مواءمة للغرض. «م».



ـ أجل. لقد استسلمتْ لتوسلاته، ولكن لم تمضِ فترة من الزمن حتى توقف عن الاهتمام بها؛ ومذّاك باتت تكرهه.

ـ وهذه المربِّية أعطت إشعاراً برحيلها؟

ـ كلا، وإنما كانت تريد أن تفعل ذلك. وقد روت لي أنها لما شعرت بتحوُّله عنها، اعترفت بكل ما جرى لوالديها، وهما إنسانان مستقيمان يقطنان في مكان ما من ألمانيا. وقد طلب إليها والداها أن تغادر ذلك البيت حالاً، ولما لم تفعل كتبا إليها أن لا شأن لهما بها مذاك فصاعداً وأن عتبة بيتهما محرَّمة عليها.

ـ ولماذا لم تترك البيت؟

ـ قالت إنها تريد الانتظار فترة أخرى من الوقت لترى إن كان لن يتغير شيء في سلوك السيد **ك**. فهي ما عادت تطيق الحياة التي تحياها. فإن لم ترَ من تغيُّر، فستعطي إشعاراً ثم ترحل في حال سبيلها.

ـ وإلامَ انتهى الأمر بهذه الفتاة؟

ـ كل ما أعرفه أنها رحلت.

ـ ألم تنجب طفلاً من تلك المغامرة؟

ـ كلا.

هكذا انزاح النقاب في أثناء التحليل ـ وكما تنصّ القاعدة على ذلك ـ عن بعض الوقائع التي يمكن استخدامها في حلّ مشكلات سبقت إثارتها. وعليه فقد قلت لدورا:

ـ أعرف الآن لماذا رددت بصفعة على مكاشفة السيد **ك** لك بحبّه. فلم يكن ذلك لأن مطارحته لك الغرام قد جرحت مشاعرك، وإنما بدافع الانتقام الغيور. فحين روت لك المربِّية قصتها، كنت لا تزالين تتمتعين بكامل مقدرتك على تنحية كل ما لا يتمشى مع مشاعرك تجاه السيد **ك** جانباً، لكن لحظة نطق السيد **ك** بعبارته: «إن زوجتي لا تعني لي شيئاً» ـ وهي العبارة عينها التي استعملها مع الفتاة ـ ثارت فيك مشاعر جديدة فجعلت كفة الميزان ترجح. فأنت قلت في



نفسك: «أوَ يجترئ على أن يعاملني كمربية، كخادمة؟». ولم يكن مناص من أن يطفح الكيل أخيراً بعد هذه الطعنة الموجهة إلى كبريائك، فضلاً عن مشاعر الغيرة والدوافع المتبصرة الشعورية [٢٥]. وكدليل على أنك ما زلت واقعة تحت تأثير قصة المربِّية تلك، سأعيد إلى ذهنك المرات الكثيرة التي تماهيت معها في الحلم وفي سلوكك. فقد رويت لوالديك ما حدث، مثلما كتبت الفتاة إلى أبويها لتخبرهما بالأمر. وأعطيتني إشعاراً بانقطاعك، تماماً كما قد تفعل في هذه الحال مربية، بعد أن أبرمتِ قراراً بذلك قبل أسبوعين. ورسالة الحلم، التي أتاحت لك أن تعودي إلى بيتك، هي النظير المقابل لرسالة والدي الفتاة التي حرَّما فيها عليها عتبة بيتهما.

ـ ولكن لماذا لم أخبر، على أساس هذا الفرض، والديّ بما حدث فوراً؟

ـ كم تركت من الوقت يمرّ؟

ـ حدث المشهد في ٣٠ حزيران/ يونيو، وفي ١٤ تموز/ يوليو أخبرت به والدتي.

ـ إذاً مرة أخرى أسبوعان، وهي المهلة المألوفة للإشعار الذي تعطيه مربية قبل رحيلها! بوسعي الآن أن أجيب عن سؤالك. فأنت بكل تأكيد فهمت جيداً تلك الفتاة المسكينة. فهي ما كانت تريد الرحيل حالاً لأنها كانت لا تزال تداري الأمل وتتوقع أن يبادلها السيد **ك** حبَّها له. ولا بدّ أن هذا أيضاً كان دافعك إلى التأجيل. فقد انتظرت أن تنقضي الفترة نفسها لتري إن كان السيد **ك** سيكرر مطارحته لك، ولو فعل لكان وسعك أن تستخلصي من ذلك أنه يحمل الأمر على محمل الجدّ، وأنه لا يريد معابثتك كما فعل مع المربِّية.

ـ لقد بعث إليّ بعد بضعة أيام من رحيلي ببطاقة بريدية مصورة[٢٦].

---

٢٥ ـ إنه ليس أمراً عديم الأهمية في أرجح الظن أن تكون قد سمعت أباها ينطق بالعبارة نفسها في كلامه عن زوجته. وقد ردَّد هذه العبارة على مسمعي شخصياً. ومن المؤكد أن دورا كانت قادرة على فهم مغزاها.

٢٦ ـ تلكم هي نقطة الوصل مع المهندس المختبئ خلف الأنا في الموقف الحلمي الأول.



ـ أجل، ولكن بما أنه لم يصلك منه شيء بعد ذلك، فقد أطلقت العنان لمشاعر انتقامك، بل ربما أضمرت فكرة ما في رأسك: أن تستحثّيه، باتهامك إياه، على موافاتك إلى المكان الذي تقيمين فيه.

فأضافت من عندها:

ـ هذا بالأصل ما اقترحه في بادئ الأمر.

ـ وبذلك تكونين قد أشبعت رغبتك في رؤيته (وهنا أومأت رأسها موافقة، وهو ما لم أكن أتوقعه) ويكون قد قدَّم لك الترضية التي كنت تتطلبينها.

ـ أية ترضية؟

ـ لقد بدأت أعتقد أن نظرتك إلى علاقتك بالسيد **ك** كانت أكثر جدية بكثير مما صوَّرت لي حتى الآن. أفلم يدر كلام كثير بين كل من السيد والسيدة **ك** عن طلاقهما؟

ـ بالتأكيد، في أول الأمر ما كانت لها رغبة فيه، بسبب الطفلين، والآن هي التي تريد، على حين أنه هو ما عاد يريد.

قلت:

ـ ألم يدر في خلدك أنه يريد الطلاق كيما يتزوجك؟ وأنه عدل عنه الآن لأنه ليس لديه من يحلّ محلّها؟ صحيح أنك كنت صغيرة السن قبل عامين، لكنك أخبرتني بنفسك أن أمك خطبت وهي في السابعة عشرة من العمر، وأنها انتظرت بعد ذلك عامين لتتزوج. وغالباً ما تغدو قصة الأم نموذجاً لقصة الابنة. وعلى هذا، فقد أردت أنت أيضاً الانتظار وافترضت أنه بدوره ينتظر أن تكبري كيما تصيري امرأة له[٢٧]. وإني لأعتقد أن هذه كانت بالنسبة إليك خطة جادة تماماً. وليس لديك حتى الحق في أن تستبعدي وجود مثل هذه النية لدى السيد **ك**؛ فقد رويت لي عنه أشياء كثيرة تشير بالفعل إلى وجود نية كهذه لديه[٢٨].

---

٢٧ ـ الانتظار إلى حين بلوغ الهدف: هذا ما ينطوي عليه المضمون الكامن للموقف الحلمي الأول. وإني لأرى في تخييل انتظار الرجل لخطيبته هذا جزءاً من العنصر المقوِّم الثالث للحلم، على نحو ما سبقت لنا الإشارة إليه.

٢٨ ـ وعلى الأخص بعض العبارات التي خاطبها بها في العام الأخير من إقامتهما المشتركة في ب، وهي العبارات التي أشفع بها هدية أهداها في عيد الميلاد: علبة رسائل.



وحتى سلوكه في **ل** لا ينقض ذلك. فأنت لم تدعي له الإمكانية للإفصاح عن كل ما كان يريد الإفصاح عنه، ثم إنك لا تعرفين ما كان يريد قوله. وعلى أية حال، ما كانت تلك الخطة مستحيلة التنفيذ إلى هذا الحدّ. فعلاقة أبيك بالسيدة **ك**، وهي العلاقة التي عملتِ مطولاً، وربما لهذا السبب وحده، على تشجيعها، كانت تضمن لك أن توافق السيدة **ك** على الطلاق؛ أما فيما يتصل بأبيك، فأنت تحصلين منه على كل ما تبغين. أجل، لو أن موقف الإغواء في **ل** انتهى غير النهاية التي انتهى بها، لكان فيه الحلّ الوحيد المقبول بالنسبة إلى جميع الأطراف. ولهذا أسفت، على ما أظن، ذلك الأسف العميق على ما وقع، وبادرت إلى تصحيحه في ذهنك عن طريق أخيولة التهاب الزائدة الدودية. ولا بدّ أنك منيت بخيبة أمل مريرة حينما لم تتمخض اتهاماتك للسيد **ك** عن تجديد ملاحقته لك، بل عن إنكار وافتئات من جانبه. وأنت تقُرِّين معي بأن ما من شيء أثار غضبك مثلما أثاره الافتراضٍ بأن مشهد البحيرة كان من تلفيق خيالك. إني أعرف الآن ما لا تريدين أن يذكِّرك به أحد، وهو أنك كنت تصورت أن مطارحة السيد **ك** لك كانت جادة، وأنه ما كان ليملّ أو يكلّ عن السعي إلى أن تتزوَّجيه.

أصغت إليّ، على عكس عادتها، بدون أن تناقضني، وبدا عليها التأثر والانفعال، وودّعتني بمنتهى الودّ، متمنية لي أحرّ التهاني بمناسبة رأس السنة، و... لم تعد مرة أخرى. أما أبوها، الذي قدم لرؤيتي عدة مرات بعد ذلك، فقد أكد لي أنها ستعود؛ وزعم أن رغبتها في مواصلة العلاج بادية للعيان؛ ولكنه لم يكن في أرجح الظن صادقاً كل الصدق يوماً. فما دام يعتقد أنني سأتمكن من إثناء دورا عن الاشتباه بأن علاقته بالسيدة **ك** تتجاوز حدّ الصداقة، فقد كان يساند العلاجَ. غير أن حماسته خبت لما تبيَّن أن ليست هذه نيتي. وكنت أعلم أنها لن تعود ثانية أبداً. فقد كان عملاً انتقامياً لا لبس فيه من جانب دورا أن توقف العلاج على ذلك النحو المباغت، في اللحظة عينها التي تعاظم فيها إلى أقصى حدّ أملي في إحراز نتيجة ناجحة. فضلاً عن ذلك، كان ميلها إلى إنزال الأذى بنفسها قد وجد في طريقة تصرُّفها هذه ما يلبِّيه. ومن يوقظ، مثلما أفعل، من أعماق النفس البشرية أدهى الشياطين التي لم تروَّض ترويضاً كاملاً،



سعياً إلى مصارعتها، لا بدّ له أن يكون مستعداً لتحمُّل نصيبه مما سيلحقه من أذى في هذا الصراع. ترى هل كنت سأتمكن من استبقاء الفتاة قيد العلاج لو لعبت أنا نفسي دوراً تجاهها، ولو غاليت في أهمية ما يعنيه لي حضورها، ولو أظهرت لها اهتماماً شخصياً أكبر، وهو ما كان من شأنه، ولو خفَّف من أثره كوني طبيباً، أن ينوب مناب المحبة التي كانت بأحرٍّ التوق إليها؟ لست أدري. وبما أن جانباً من العوامل التي تعترضنا في صورة مقاومة يبقى، في جميع الحالات، مجهولاً منا، فقد تحاشيت على الدوام أن ألعب أدواراً، وقنعت بنصيب سيكولوجي أكثر تواضعاً. وعلى الرغم من كل الاهتمامات النظرية، وعلى الرغم من لهفة كل طبيب إلى أن يكون في مستطاعه مدّ يد العون، فإني أقول بين وبين نفسي إن ثمة حدوداً لكل تأثير نفسي، علاوة على أني أحترم إرادة المريض ووجهة نظره.

ترى هل كان السيد **ك** سيؤوب بحصة أكبر من تلك التي آب بها لو أننا كشفنا له أن تلك الصفعة لم تكن تعني على الإطلاق «لا» جازمة ونهائية من جانب دورا، بل أنها كانت تعبيراً عن الغيرة التي انبعثت حديثاً في قلب الفتاة، وأن انفعالات نفسية مضطرمة كانت لا تزال تعتمل في داخلها لصالحه؟ فلو أنه كان تغاضى عن ردّ فعلها، ولو أنه كان واصل مغازلتها بعاطفة مشبوبة قادرة على انتزاع اقتناعها، فلربما كان الحب تغلب على جميع الصعاب والعوائق الداخلية. لكنني أعتقد أنه كان بوسعها أيضاً أن تلبي نداء انتقامها منه بقدر أكبر من العنف بعد. ولا نستطيع أبداً أن نرهص في أي اتجاه سيتجه القرار في حالة نشوب صراع بين الدوافع: أفي اتجاه رفع الكبت أم في اتجاه تعزيزه؟ إن العجز عن تلبية المتطلبات **الواقعية** للحب هو سمة من السمات المميِّزة للعصاب؛ فالعصابيون يرزحون تحت وطأة التعارض القائم بين الواقع وأخاييلهم. وما يصبون إليه بأحرّ التوق في أحلام يقظتهم يهربون منه مع ذلك حالما يتيحه لهم الواقع، ولا يطيب لهم الاستسلام لأخاييلهم كما يطيب حينما لا يخشون من احتمال تحققها. ومع ذلك، يمكن للحاجز الذي ينصبه الكبت أن ينهار تحت ضغط انفعالات عنيفة يستثيرها الواقع؛ فالعصاب قابل بعد لأن



يهزمه الواقع. لكننا لا نستطيع بصفة عامة أن نتنبأ لدى من، وبأية وسيلة، يمكن الحصول على مثل هذا الشفاء(٢٩).

٢٩ ـ سأضيف بضع ملاحظات أخرى حول بنية ذلك الحلم الذي لم يتمّ لنا استجلاؤه بدرجة كافية لنحاول تركيب وحدته. فثمة جزء فيه أشبه بواجهة متقدمة بارزة، وهو تخييل الانتقام من الأب: فقد تركت دورا البيت بدون رجوع إلى رأي أحد غيرها، وكان أبوها مريضاً ثم مات. ولما رجعت إلى البيت كان الجميع في المقبرة. وصعدت إلى غرفتها وهي لا تشعر بأدنى حزن وقرأت بهدوء في موسوعة. وهنا تأتي إشارتان إلى فعل الانتقام الذي نفذته في الواقع فعلاً حين رتّبت الأمر بحيث يقع والدها على رسالتها الوداعية: الرسالة (وهي في الحلم رسالة أمها)، وذكر جنازة العمة التي كانت نموذجها المقتدى. وخلف هذا التخييل تختفي أفكارها الانتقامية ضد السيد **ك**، تلك الأفكار التي حققتها في الواقع في سلوكها معي. أما الخادمة والدعوة والغابة، و«الساعتان ونصف»، فمقتبسة كلها من أحداث وقعت فعلاً في **ل**. وذكرى المربّية وذكرى تراسل هذه المربّية مع والديها تنصهران مع العنصر الذي تمثله رسالتها الوداعية لتؤلف جميعها الرسالة التي وردت في المضمون الظاهر للحلم والتي أتاحت لها أن تعود إلى البيت. أما رفضها لمرافقة الرجل لها وقرارها بأن تمضي بمفردها فيمكن تأويلهما كما يلي: «لأنك عاملتني كخادمة، فإنني أتركك وأواصل طريقي بمفردي، ولا أتزوج». وخلف هذه الأفكار الانتقامية نستشفّ عناصر من تخييلات حانية نابعة من حبّ دورا للسيد **ك**، وهو الحبّ الذي صانته في لاشعورها: «كنت سأنتظرك إلى أن يصير في الإمكان أن أكون زوجة لك: ـ فض البكارة ـ إنجاب طفل. أما المجموعة الرابعة من الأفكار فهي الأعمق انطماراً: حب دورا للسيدة **ك**، تخييل فض البكارة من وجهة نظر رجل (تماهيها مع عابدها الذي يعيش في الخارج)، وكذلك الإشارة الواضحة، في موضعين، إلى كلمات مزدوجة المعنى (السيد فلان... هل يقطن هنا؟)، والإشارة أخيراً إلى المصادر غير الشفهية لمعارفها الجنسية (**الموسوعة**). وثمة نزعات إلى القسوة والسادية تجد متصرفاً لها في هذا الحلم.



(٤)

الخاتمة

كنت أعلنت أن هذا العرض لن يكون إلا نبذة من تحليل؛ ولكن ربما وجده القارئ أبعد عن الاكتمال بكثير مما كان يمكن له أن يتوقع بناء على هذا العنوان. ومن ثم لا مناص لي من أن أوضح أسباب هذه الثغرات والفجوات التي ما هي بحال بنت المصادفة.

إن عدداً من نتائج هذا التحليل قد أُغفل، إما لأن هذه النتائج لم تكن قد درست دراسة كافية لحظة إيقاف العلاج، وإما لأنها كانت تتطلب، كيما يمكن فهمها، أن تُطوَّر بحيث تتمخَّض عن نظرة إجمالية عامة. وفي مواضع أخرى، وحيثما بدا لي ذلك مباحاً، أشرت إلى الاتجاهات التي كان يمكن أن تفضي إلى حلول محددة. وقد أغفلت إغفالاً تاماً التقنية التحليلية، التي يتعذر فهمها من الوهلة الأولى، والتي بفضلها نتوصل إلى أن نستخلص من المادة الخام لتداعيات المرضى المضمون الصافي لأفكار لاشعورية ثمينة، ومن شأن هذا الإغفال أن يحرم قارئ هذا العرض من إمكانية التحقق بنفسه من صحة نهجي. غير أنني وجدت أن ثمة استحالة عملية تحول دون أن أعرض في آن معاً تقنية التحليل والبنية الداخلية لحالة هستيريا؛ وهذه مهمة يستحيل عليّ أصلاً تنفيذها، ولو فعلت لجاء النص بكل تأكيد مما لا تطاق قراءته. إن التقنية تقتضي عرضاً على حدة، ممثَّلاً عليه بعدد غفير من الحالات الشديدة التباين، بدون أن تكون هناك حاجة إلى بيان النتيجة التي أمكن الوصول إليها في كل حالة. كذلك لم أحاول البرهنة على صحة المقدمات السيكولوجية التي يكشف عنها توصيفي للظاهرات النفسية. فعرضها عرضاً سطحياً ما كان ليجدي فتيلاً، وعرضها عرضاً مفصَّلاً كان سيستغرق مجلداً بكامله. لكن باستطاعتي أن أؤكد أنني عكفت، بدون أن



أنضوي تحت لواء أي مذهب سيكولوجي، على دراسة الظاهرات التي جلتها لي ملاحظة الأعصبة النفسية، وأنني عدَّلت في تصوراتي إلى أن بدت لي قادرة على استيعاب مجمل الملاحظات وتعليلها. ولست أدعي أنني تحاشيت كل فرض نظري؛ غير أنني جمعت مادة فروضي من الملاحظات الأوسع نطاقاً والأكثر استئداء للجهد. ولعل صلابة وجهات نظري في مسألة اللاشعور ستصدم القارئ أكثر من سواها، لأنني أتناول الأفكار والتمثلات والانفعالات اللاشعورية على أنها موضوعات سيكولوجية لا تقلّ صدقاً ويقيناً عن سائر الظاهرات الشعورية؛ لكنني على ثقة من أن أي شخص يتصدى لدراسة الظاهرات نفسها بالمنهج عينه لن يجد مندوحة عن الأخذ بوجهة نظر مطابقة لوجهة نظري، بالرغم من كل اعتراضات الفلاسفة.

أما أولئك من زملائي في الاختصاص ممن اعتبروا نظريتي في الهستيريا سيكولوجية خالصة، وبالتالي غير مؤهلة قبْلياً لحلّ مشكلة باتولوجية، فربما كان في وسعهم أن يتبيَّنوا من هذا النص أنهم حينما وجَّهوا إليّ ذلك المأخذ حوَّلوا بدون حقّ سمة من سمات التقنية إلى النظرية. فالتقنية العلاجية هي وحدها سيكولوجية خالصة؛ أما النظرية فلا تغفل إطلاقاً الإشارة إلى الأساس العضوي للأعصبة، وإن لم تبحث عنه في تغيُّرات باتولوجية تشريحية، علاوة على أنها تستعيض مؤقتاً عن التغيرات الكيمياوية ـ وهي بكل تأكيد محتملة ولكن من المتعذر في الوقت الراهن الإمساك بها ـ بالفرضية المؤقتة بخصوص الوظيفة العضوية. ولن يكون في مستطاع أحد أن ينكر على الوظيفة الجنسية، التي أرى فيها علة الهستيريا، بل علة الأعصبة النفسية بوجه عام، خاصيتها كعامل عضوي. ولن يكون في مستطاع أية نظرية في الجنسية، على ما أفترض، أن تعفي نفسها من التسليم بالتأثير التهييجي لمواد جنسية محددة. فالتسممات والظاهرات الناشئة لدى المدمنين عن الامتناع عن تناول بعض السموم هي التي تشبه أكثر الشبه، بين جميع اللوحات السريرية التي تمدّنا بها الملاحظة في الطب السريري، الأعصبة النفسية الحقيقية.

كذلك لم أعرض في هذا النص كل ما يمكن قوله اليوم بخصوص «المسايرة



البدنية»، والبذور الطفلية للانحرافات، والمناطق الشهوية، والاستعداد المسبق للثنائية الجنسية. وقد اقتصرت على الإشارة إلى النقاط التي يصطدم عندها التحليل بتلك الأسس العضوية للأعراض. وما كان لي أن أفعل أكثر من ذلك في عرضي لحالة خاصة. ثم إنه كانت لديّ الأسباب عينها التي تقدمت الإشارة إليها للامتناع عن تقديم عرض سطحي لهذه العوامل. فهنا تتوفر مادة لأبحاث أخرى، تستند إلى تحليل حالات كثيرة.

لقد كان نصب عينيَّ هدفان من وراء نشري هذا النص غير الكامل: أولاً: أن أكمل كتابي **تأويل الحلم** ببياني الكيفية التي يمكن بها استعمال هذا الفن - غير المستخدم في العادة - للكشف عن الأجزاء الخبيئة والمكبوتة من النفس البشرية؛ ومن ثم تقيَّدت، في تحليلي لحلميْ دورا، بتقنية تأويل الأحلام التي تشبه تقنية التحليل النفسي؛ وثانياً، أردت أن أوقظ الاهتمام ببعض الظاهرات التي لا يزال العلم إلى اليوم يجهلها جهلاً مطبقاً، إذ لا سبيل إلى كشفها إلا بتطبيق هذا المنهج على وجه التحديد. فما كان في مستطاع أحد، قبل هذا المنهج، أن يصل إلى تصور صحيح عن تعقيد الظاهرات النفسية في الهستيريا، وعن تزامن أشدّ النزعات والميول تبايناً، وعن الارتباط المتبادل بين الأضداد وسيرورات الكبت والإزاحة والنقل، وإلخ. وما إبراز جانيه[1] لأهمية **الفكرة الثابتة**، التي تصير هي العرض، إلا تجريد خطاطي أولي فقير حقاً. ولن يكون أمامنا مفرّ من الافتراض بأن التنبيهات المصحوبة بتمثلات غير قابلة لأن تصير شعورية تؤثّر في بعضها بعضاً على نحو مغاير، وتسلك مساراً مبايناً، وتتمخض عن أنماط تعبيرية مخالفة، بالقياس إلى التنبيهات التي نسمّيها «سوية» والتي يصبح مضمونها التمثلي شعورياً عندنا. فإن قرّ ذلك في أذهاننا، فلن يعود صعباً علينا أن نفهم طريقة في العلاج تشفي الأعراض العصابية عن طريق تحويل تمثلات من النوع الأول إلى تمثلات سوية.

---

١ - بيير جانيه: طبيب نفسي وعصبي فرنسي (١٨٥٩ - ١٩٤٧). مدير مختبر علم النفس الباتولوجي في مستشفى السالبترير بباريس، وأستاذ علم النفس التجريبي والمقارن في كوليج دي فرانس. أعطى دفعاً قوياً لعلم النفس التجريبي. ومن أشهر مؤلفاته **الآلية السيكولوجية** (١٨٨٩)، **من القلق إلى الوجد** (١٩٢٧).



لقد حرصت أيضاً على أن أوضح أن الجنسية لا تتدخل لمرة واحدة يتيمة، وبكيفية سحرية[٢]، في جانب ما من آلية السيرورات المميِّزة للهستيريا، بل أنها هي التي تمدّ كل عرض من الأعراض وكل تظاهرة من تظاهرات عرض بعينه بالقوة الغريزية المحرِّكة. فالتظاهرات المرَضية هي، بصريح القول، **النشاط الجنسي للمرضى**. وليس لحالة مفردة واحدة أن تثبت نظرية عامة إلى هذا الحدّ، ولكن لا يسعني إلا أن أعيد القول تكراراً ـ لأني لا أجد الأمر أبداً على غير هذا النحو ـ بأن الجنسية هي مفتاح مشكلة الأعصبة النفسية، وكذلك الأعصبة بصفة عامة. ومن يرفض هذا المفتاح فلن يُقيَّض له أبداً أن يحلّ هذه المشكلة. وأنا ما زلت بانتظار أبحاث يكون من شأنها أن تنقض هذا القانون أو أن تحدّ من مداه. وجميع الانتقادات التي سمعت بأنها وُجِّهت إليه حتى الآن كانت تعبيراً عن استياء أو ارتياب شخصي؛ وحسبي في مثل هذه الحال أن أردّ بعبارة شاركو: «**هذا لا يمنع من وجود الشيء**»[٣].

إن الحالة التي نشرتُ هنا نبذة من تاريخها المرَضي ومن علاجها ليست بدورها من الحالات التي تتيح إدراك القيمة الحقيقية للتقنية التحليلية النفسية. فليس فقط قصر مدة العلاج، الذي دام أقل من ثلاثة أشهر، وإنما ثمة عامل آخر يتعلق بطبيعة الحالة قد حال دون أن ينتهي العلاج بذلك التحسن ـ الذي يعترف به المريض وأقاربه ـ الذي نحصل عليه في العادة والذي يكون بقدر أو بآخر أدنى إلى الشفاء الكامل. فنحن نصل إلى مثل هذه النتائج الباعثة على الرضى حيثما تتشكل تظاهرات المرض وتستمر بفعل الصراع الداخلي وحده بين الحاثات Motions ذات الصلة بالجنسية. ففي مثل هذه الحالات نلحظ تحسناً في وضع المرضى بقدر ما نسهم في حلّ مشكلاتهم النفسية عن طريق تحويل المادة النفسية الإمراضية إلى مادة سوية. لكن الأمور تجري غير هذا المجرى

٢ ـ باللاتينية في النص: Deus ex machina، وحرفياً: «إله أُنزل بواسطة آلة»، وهو تعبير يشير إلى تدخل قوة خارقة للطبيعة في مسار العمل المسرحي. «م».

٣ ـ بالفرنسية في النص. وهذه العبارة، التي يستشهد بها فرويد في عدة نصوص له، كان شاركو قد صاغها على النحو التالي: «النظرية شيء جيد، ولكن ذلك لا يمنع من وجود الشيء». «م».



عندما توظَّف الأعراض في خدمة دوافع خارجية في حياة المريض، على نحو ما حدث أصلاً لدى دورا خلال العامين المنصرمين. وقد تأخذنا الدهشة، بل حتى الحيرة، بسهولة إذا ما وجدنا حالة المريض لا تسجِّل تغيُّراً ملحوظاً، حتى في حال قطع شوط متقدم جداً في التحليل. والواقع أن الأمور ليست خطيرة إلى هذا الحدّ؛ فالأعراض لا تختفي في أثناء العمل التحليلي، وإنما بعيد ذلك بقليل، حينما تنقطع الصلات بين الطبيب والمريض. فتأخر الشفاء أو التحسن لا مرجع له في الواقع إلا شخص الطبيب وحده.

ولا بدّ لي من إضافة شيء آخر كيما أجعل هذا الأمر مفهوماً. فبوسعنا القول إن تمخُّض أعراض جديدة يتوقف بصفة عامة ـ بل نستطيع أن نقول بصورة نظامية ـ في أثناء العلاج التحليلي النفسي. غير أن إنتاجية العصاب لا تخمد البتة، وإنما تمارس وظيفتها باستحداثها حالات نفسية خاصة، لاشعورية في غالبيتها، نستطيع أن نطلق عليها اسم **التحويلات** Transferts.

فما هذه التحويلات؟ إنها طبعات جديدة، نسخ من الحاثات والتخييلات التي يتحتم إيقاظها وسوقها إلى الشعور طرداً مع تقدم التحليل، وخاصيتها المميِّزة لها إحلالها شخص الطبيب محلّ شخص معروف للمريض من قبل. وبعبارة أخرى، إن عدداً غير قليل من الخبرات النفسية السابقة يعاش من جديد، ولكن ليس كخبرات ماضية، بل كعلاقات راهنة بشخص الطبيب. وثمة تحويلات من هذا القبيل لا تختلف في شيء عن نموذجها الأصلي من حيث مضمونها، باستثناء بعض الإبدال. هي إذاً ـ برجوعنا إلى الصورة المجازية عينها ـ مجرد طبعات مكررة أو نسخ طبق الأصل. وثمة تحويلات أخرى تُصطنع بمزيد من الفن والبراعة، إذ يطرأ على مضمونها ضرب من التخفيف، أو إسماء Sublimation كما أؤثر؛ بل إنها قد تغدو شعورية باستنادها إلى خصوصية واقعية ـ تحسن استغلالها ـ ذات صلة بشخص الطبيب أو مقتبسة من ظروف حياته. وعندئذ تكون هذه التحويلات طبعات منقحة ومصححة، لا مجرد طبعات مكررة.

متى ما التزمنا بنظرية التقنية التحليلية النفسية يتضح لنا أن التحويل ضرورة حتمية تنبع منها. وحتى من الناحية العملية لا نجد بداً من التسليم باستحالة



تحاشي التحويل بأي وسيلة من الوسائل، وبضرورة محاربة هذا النتاج الجديد للمرض مثلما حاربنا نتاجاته السابقة. والحال أن هذا الجزء من العمل التحليلي هو الأصعب بما لا يقاس. فتأويل الأحلام، واستنباط أفكار وذكريات لاشعورية من تداعيات المريض، وغير ذلك من طرائق التأويل والترجمة، أمور يسير تعلمها؛ والمريض نفسه هو الذي يقدِّم على الدوام في هذه الحالة المادة والنص. غير أن التحويل، بالمقابل، يستوجب منا استشفافه بمفرده تقريباً، وعلى هدى إشارات وعلائم طفيفة، مع تحاشي التعسف في الاستنتاج. ومع ذلك، لا سبيل إلى تفادي التحويل، لأنه يُستخدم من قبل المريض في نصب شتى العوائق التي من شأنها أن تجعل مادة العلاج عصيَّة المتناول، ولأن الشعور بالاقتناع بصحة الارتباطات والأسيقة التي قمنا ببنائها لا يتولد لدى المريض إلا بعد أن يتمّ حلّ التحويل.

قد يميل بعضهم إلى أن يرى أن من المحاذير الخطيرة للطريقة التحليلية، التي هي بحدّ ذاتها مضنية، كونها تزيد في عناء الطبيب باستحداثها نوعاً جديداً من الظاهرات النفسية المَرَضية. بل قد ينزع بعضهم إلى أن يستنتج من ذلك أن العلاج التحليلي النفسي يمكن أن يلحق أذى بالمريض من جراء وجود التحويل. وهذان الاعتباران مغلوطان كلاهما. فعناء الطبيب لا يزداد بسبب التحويل: فسيان لديه ـ ما دامت مهمته أن يتغلب على ميل معيَّن لدى المريض ـ أن يفصح هذا الميل عن نفسه باتجاهه، هو الطبيب، أو باتجاه أي شخص آخر. كذلك، لا يفرض العلاج التحليلي على المريض، بفعل التحويل، جهوداً ما كان له أن يتجشَّمها. فلئن كانت الأعصبة تشفى أيضاً في المصحات التي لا تعتمد أية طريقة تحليلية نفسية، ولئن قيل إن الهستيريا تشفى لا بالطريقة، بل بالطبيب، ولئن كان ضرب من التبعية العمياء والتعلق الدائم يتجلى في العادة لدى المريض تجاه الطبيب الذي خلّصه من أعراضه بالإيحاء التنويمي، فإن التفسير العلمي لذلك إنما يكمن في التحويلات التي تعتمل بصورة مطردة لدى المريض تجاه شخص الطبيب. والعلاج التحليلي النفسي لا يخلق التحويل، وكل ما يفعله أنه يزيح النقاب عنه مثلما يزيحه عن سائر الظاهرات النفسية الخبيئة. وإن ما يميِّز طرائق العلاج الأخرى عن التحليل النفسي يقتصر على ما يلي: إن المريض لا



يستدعي عفوياً في مسعاه إلى الشفاء، في أثناء هذه المعالجات، إلا التحويلات العطوفة والودودة ؛ وحيثما تعذّر عليه ذلك، سارع إلى الانفصال عن طبيبه الذي يبدو له في هذه الحال سمجاً ثقيل الظل، بدون أن يتأثر به. أما في المعالجة التحليلية النفسية، بالمقابل، فإن النوازع والحاثات كافة، بما فيها النوازع والحاثات العدائية، لا بدّ ـ نظراً إلى تغيُّر الدوافع ـ من أن توقَظ وتُبتعث، بحيث يمكن للتحليل استخدامها بعدما تصير شعورية؛ وهكذا يتم باستمرار تحطيم التحويل. وهذا التحويل، الذي كان مقيَّضاً له أن يكون أعتى العوائق في وجه التحليل النفسي، يغدو أقوى حليف له إذا أفلح الطبيب في اكتشاف وجوده في كل مرة وفي ترجمة مغزاه للمريض[٤].

لم يكن لي من محيص عن الكلام عن التحويل، إذ بهذا العامل وحده يمكن تفسير خصائص تحليل دورا. فميزة هذه الحالة التي تؤهلها لأن تكون أول عمل ينشر كمدخل إلى التحليل النفسي، وأعني بها وضوحها الفائق، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعيبها الكبير الذي كان السبب في إيقاف التحليل قبل أوانه. ذلك أنني لم أنجح في السيطرة على التحويل في الوقت المناسب؛ فما أبدته دورا من تلهف إلى أن تضع في متناولي جزءاً من المادة الإمراضية قد جعلني أسهو عن إيلاء الانتباه للعلائم الأولى للتحويل الذي كانت تهيئ له بواسطة جزء آخر، بقي مجهولاً مني، من تلك المادة الإمراضية عينها. وقد بدا واضحاً في بداية الأمر أنني حلَلْت في مخيَّلتها محل أبيها، وهذا شيء ميسور فهمه، نظراً إلى فارق السن بينها وبيني. وعلى هذا فقد كانت تقارنني شعورياً به، وتسعى إلى أن تستوثق بلهفة مما إذا كنت صادقاً معها كل الصدق، لأن أباها، كما كانت تقول، كان «يفضل على الدوام التكتم والطرق الملتوية». وحين طرأ الحلم الأول، الذي رأت نفسها فيه وهي تنذرني برغبتها في ترك العلاج مثلما كانت تركت من قبل منزل السيد **ك**، كان ينبغي أن آخذ حذري وأن أقول لها: «لقد قمتِ بتحويل من السيد **ك** إليّ. فهل لاحظت أي شيء يحملك على الاعتقاد بوجود مقاصد سيئة لديّ

٤ ـ (حاشية أضيفت سنة ١٩٢٣) ـ إن تتمة ما قيل هنا عن التحليل موجودة في مقال تقني لي عن **حبّ التحويل**، ١٩١٥.



شبيهة بتلك التي هي عند السيد **ك** (أبصورة مباشرة أم عن طريق ضرب من الإسماء)، أو هل راعك شيء مني أو سمعت شيئاً عني قسَرك على الميل إليّ بعواطفك كما ملت بها من قبل نحو السيد **ك**؟». لو كنتُ فعلت، لكان انتباهها انجذب إلى تفصيل ما في علاقتنا يتصل بشخصي أو بظروفي، تفصيل يختفي وراءه شيء مماثل، ولكنه أهمّ بكثير، يتصل بالسيد **ك**، ولكان التحليل وجد، بفضل حلّ هذا التحويل، منفذاً له إلى مادة جديدة، مكوَّنة في أرجح الظن من ذكريات عن أحداث واقعية. غير أنني أهملت هذا الإنذار الأول، وقلت في نفسي إنه لا يزال لديّ متسع من الوقت، نظراً إلى أنه لم تظهر علائم أخرى للتحويل ولم تُستنفد مادة التحليل بعد. وهكذا فجأني التحويل على حين غرة. وبسبب ذلك العنصر المجهول الذي كان يذكِّرها في شخصي بالسيد **ك** انتقمت مني، مثلما كانت تبغي أن تنتقم منه، وتركتني على نحو ما خُدعتْ وتُركتْ من قبله على ما تعتقد. وهكذا نشَّطت فاعلية جزء مهم من ذكرياتها وتخييلاتها، بدلاً من أن تكاشفني بها في جلسات علاجها. ولا أستطيع بطبيعة الحال أن أعرف ما كان ذلك العنصر المجهول، وإنما أفترض انه كان يتصل بالمال، أو بالغيرة من مريضة أخرى بقيت على صلة بأسرتي بعد شفائها. وحيثما يتأتى لنا أن ندمج التحويل في التحليل في وقت مبكر، يدور التحليل ببطء أكبر ويغدو أقل وضوحاً، لكنه يكون أقوى مناعة ضد مقاومات فجائية عاتية.

ينطوي حلم دورا الثاني على عدة تلميحات واضحة إلى التحويل. فحين سردته لي كنت أجهل بعد (ولم أعرف إلا بعد يومين) أنه لم يعد أمامنا غير ساعتين من العمل: وهي الفترة نفسها التي قضتها أمام لوحة **مادونا السكستينا** والتي قاست بها (إذ صححتها إلى «ساعتين» بدلاً من «ساعتين ونصف») الطريق الذي كان عليها أن تقطعه لتدور حول البحيرة. وكان توقها إلى الوصول وانتظارها في الحلم ـ وهما عنصران يتصلان بالمهندس الشاب في ألمانيا وينبثقان من اضطرارها إلى الانتظار إلى أن يتمكن السيد **ك** من الزواج منها ـ قد تجليا في التحويل قبل ذلك ببضعة أيام. فالعلاج، كما صارت تقول، قد دام فترة أطول مما ينبغي، وهي لن تستطيع أن تصبر كل هذه المدة، على حين أنها كانت في



الأسابيع الأولى على درجة كافية من المنطق لكيلا تعترض ولا تحتج حين كنت أخبرها أن الوقت اللازم لبرئها ربما امتدّ إلى سنة. كذلك، إن رفضها في الحلم أن يصحبها الرجل، ورغبتها في أن تمضي بمفردها ـ وهما عنصران يرجعان أيضاً إلى زياتها لمتحف درسدن ـ كان محتَّماً أن أختبره بدوري في اليوم الذي حددته بنفسها. وكان معنى هذا الرفض كما يلي: «ما دام الرجال كلهم على هذه الدرجة من الشناعة، فإنني أفضل ألا أتزوج، وذلك هو انتقامي»[٥].

عندما تُحوَّل حاثات من القسوة ودوافع إلى الانتقام، كانت قد استخدمت من قبل في تكوين الأعراض، إلى شخص الطبيب في أثناء العلاج قبل أن يتسنى له الوقت اللازم لفصلها عن شخصه بإرجاعها إلى مصادرها، فليس لنا أن ندهش إن استعصت حالة المرض على التأثر بجهود الطبيب العلاجية. إذ هل من طريقة تنتقم بها المريضة من طبيبها أفضل من أن تجعله يتبيَّن في شخصها بالذات كم هو عاجز وفاشل؟ ومع ذلك، إني أرى أنه لا يجوز الغلو في الاستخفاف بالقيمة الشفائية لمثل هذه المعالجات، مهما تكن جزئية، حتى في حالة مثل حالة دورا.

فبعد خمسة عشر شهراً من نهاية هذه المعالجة ومن كتابتي هذا النص جاءتني لأول مرة أخبار عن صحة مريضتي وعن نتائج علاجي لها. ففي يوم ليس تاريخه بعديم الدلالة، وهو الأول من نيسان/ أبريل ـ نحن نعلم أن التواريخ لم تكن قط

---

٥ ـ (حاشية أضيفت سنة ١٩٢٣) ـ كلما ابتعدت في الزمن عن اليوم الذي أنهيت فيه هذا التحليل، اتضح لي بمزيد من الوثوق أن خطئي التقني يكمن في الإغفال التالي: فقد تهاونت في أن أكتشف في الوقت المناسب وفي أن أكاشف المريضة بأن حبها الجنسي المثلي (حب المرأة للمرأة) للسيدة **ك** هو نزعتها النفسية اللاشعورية الأقوى. وقد كان ينبغي أن أحزر أنه ما كان لشخص آخر غير السيدة **ك** أن تكون المصدر الرئيسي لمعارفها الجنسية، تلك السيدة نفسها التي أُتهمت دورا عن طريقها فيما بعد بأنها مشغوفة أكثر من اللازم بمثل هذه الموضوعات. وبالفعل، كان مما يلفت النظر أن تكون مطلعة على كل ما هو «مشين» من الموضوعات، وأن تجهل في الوقت نفسه المصدر الذي استقت منه معرفتها. وكان ينبغي عليّ أن أتخذ من هذا اللغز نقطة انطلاق فأفتش عن الدافع لهذا الكبت الفريد في نوعه. ولو فعلت لكان الحلم الثاني كشف لي عنه. فشهوة الانتقام الجارفة التي عبَّر عنها هذا الحلم كان موائمة، أكثر من أي شيء آخر، لحجب النزعة المضادة: كرم النفس الذي غفرت به خيانة صديقتها الحبيبة وأخفت به عن الجميع واقع أن هذه الصديقة هي نفسها التي أطلعتها على المعلومات التي استخدمتها فيما بعد في تسويد صفحتها (صفحة دورا). والحق أنني قبل أن أتبيَّن أهمية الميول الجنسية المثلية لدى المعصوبين، كنت أخفق في كثير من الأحيان في المعالجات أو أسقط في حيرة تامة.



عديمة الأهمية لديها ـ حضرت إليَّ لتكمِّل قصتها ولتسألني من جديد العون. غير أن سيماءها كانت تنمّ من النظرة الأولى عن أن طلبها هذا ليس مما يمكن أن يُحمل على محمل الجدّ. قالت إنها بقيت طيلة الأسابيع الأربعة أو الخمسة التي تلت إيقاف العلاج «مقلوبة الحال رأساً على عقب». ثم طرأ عليها تحسن كبير، فتباعدت نوباتها وراق مزاجها. وفي شهر أيار/مايو من العام المنصرم توفي أحد طفلي السيد **ك**، وهو الذي كان على الدوام معتل الصحة. فكان هذا المصاب ذريعة لها لتقوم بزيارة تعزية لآل **ك**، فاستقبلها الزوجان وكأن شيئاً لم يحدث خلال السنوات الثلاث الماضية. عندئذ تصالحت معهما، وانتقمت منهما، ووضعت حداً للموقف على نحو يبعث على الرضى. فقد قالت للسيدة **ك**: «أعلم أنك على علاقة ببابا»، فما أنكرت هذه ذلك. وأرغمت السيد **ك** على الإقرار بمشهد البحيرة، بعدما كان مارى في أن يكون قد حدث، ونقلت إلى أبيها هذا النبأ فارتدّ إليها اعتبارها. ومنذئذ لم تُعِدْ وصل ما انقطع بينها وبين تلك الأسرة.

دامت صحتها في أحسن حال إلى منتصف تشرين الأول/أوكتوبر. وعندئذ انتابتها نوبة جديدة من انحباس الصوت، استمرت أسابيع ستة. دُهشتُ وسألتها عن سببها، فعلمت أن هذه النوبة سبقها رعب عنيف. فقد رأت عربة تدهس عابر سبيل. وأخيراً أقرّت بأن ضحية الحادث لم يكن إلا السيد **ك** نفسه. التقته يوماً في الشارع، وتقدم نحوها في موضع يكثف فيه المرور، ثم وقف مضطرباً أمامها، وفي هذه اللحظة من شرود البال قلبته عربة[٦]. وأمكنها مع ذلك أن تطمئن نفسها إلى أنه خرج من الحادث دونما إصابة خطيرة. وذكرت لي أنه كان لا يزال يساورها انفعال طفيف متى ما سمعت أحدهم يتكلم عن علاقة السيدة **ك** بأبيها، وإن كانت عزفت عن التدخل فيها، وهي الآن مستغرقة في دروسها، وليس في نيتها أن تتزوج.

لقد قدمت تطلب عوني على ألم عصبي في الطرف الأيمن من وجهها تقاسي

٦ ـ يقدم هذا الحادث مساهمة طريفة في حالات الانتحار غير المباشر التي تكلمت عنها في كتابي: **علم نفس أمراض الحياة اليومية**.



منه ليل نهار. سألتها: منذ متى بدأتِ تعانين منه؟ فأجابتني: «منذ أسبوعين بالضبط»[٧]. فابتسمت، إذ أستطعت أن أبيِّن لها أنها قرأت، قبل أسبوعين بالضبط، نبأ في الصحف يتصل بي[٨]، فأكدت لي الأمر (عام ١٩٠٢).

كان هذا الألم العصبي الكاذب يعادل إذاً عقاباً ذاتياً، تبكيتاً على الصفعة التي كانت سدّدتها قبلاً إلى السيد **ك**، وكان ذا صلة بتحويل مشاعرها الانتقامية نحو شخصي. وإني لأجهل ما نوع العون الذي كانت تريده مني، لكني وعدتها بأن أغفر لها حرمانها إياي من متعة تخليصها بصورة أكثر جذرية من دائها.

انقضت سنون منذ تلك الزيارة، وتزوجت الفتاة. وإن لم تخدعني العلائم جميعها فإن من تزوجت منه كان ذلك الشاب الذي ألمعتْ إليه تداعياتها في بداية تحليل الحلم الثاني[٩]. وإن يكن الحلم الأول قد أشار إلى الانفصال عن الرجل الحبيب والعودة إلى الأب، أي الهرب من الحياة إلى المرض، فإن ذلك الحلم الثاني كان يعلن عن أنها على وشك الانفصال عن أبيها لتستردَّها الحياة من جديد.

* * *

٧ ـ انظر دلالة هذه الفترة الزمنية وصلتها بفكرة الانتقام في تحليل الحلم الثاني.

٨ ـ الأرجح أن هذا النبأ هو نبأ تعيين فرويد أستاذاً جامعياً مشاركاً في آذار/ مارس ١٩٠٢. «م».

٩ ـ في الطبعات اللاحقة (١٩٠٩ ـ ١٩١٢ ـ ١٩٢١) أضاف فرويد الحاشية التالية: «كان هذا الافتراض، كما علمت لاحقاً، مغلوطاً». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.





التحليل النفسي لرهاب الأطفال

(هانز الصغير)



تقديم

يستمد هذا النص أهميته من أنه أول تقرير ينشره فرويد عن **تحليل طفلي**.

فقد كان لهانز من العمر أربع سنوات وثمانية أشهر حينما أصيب في مطلع عام ١٩٠٨ برهاب PHOBIE حادّ من الجياد. وكان والدا هانز من مريدي فرويد، وكان هذا الأخير قد عالج الأم، كما كان الأب من المترددين على محاضراته ومن القارئين لمؤلفاته. وقد ظهرت حالة الرهاب لدى هانز بعد بضعة أشهر من ميلاد أخت له سُمِّيت آنا. وتبدَّى رهابه في إبائه الخروج خوفاً من أن يعضَّه في الطريق حصان.

كان هانز طفلاً ذكياً، وكان والداه قد عملا على تربيته تربية «حرة» دون قسر ولا إكراه بقدر الإمكان. وكان لديه نهم كبير إلى المعرفة، ولا يتوقف عن طرح الأسئلة. وكان قبل إصابته بالرهاب قد أثار بسرعة ملاحظته وحب استطلاعه إعجاب فرويد. فاستشهد ببعض أقواله وملاحظاته التي تنمّ عن تبكير الأطفال إلى «الاهتمام بألغاز الحياة الجنسية» في مقال نشره عام ١٩٠٧ عن «**الشروح الجنسية التي تعطى للأطفال**»[١]، مؤكداً أنه «صبي صغير مدهش». وقد رفض فرويد في حينه أن يعزو حب الاستطلاع الجنسي لدى هانز إلى «احتمال أن يكون طفلاً شهوانياً أو حتى ذا استعداد مسبق للمرض». وأكد على العكس أن هانز يتميَّز عن غيره من الأطفال بكونه لا يرزح، بالنظر إلى سماحة والديه في تربيته، «تحت وطأة الإحساس بالذنب»، فهو «يكاشفنا من ثم بسذاجة وبراءة بما يدور في فكره».

لكن لم تمضِ أشهر معدودة على توكيد فرويد هذا حتى كان هانز أصيب

١ـ انظر ترجمتنا لهذا النص في كتاب «**الحياة الجنسية**» في المجلد الرابع من **المؤلفات شبه الكاملة**.



برهاب الجياد الذي سيخلّد اسمه في تاريخ التحليل النفسي.

والد هانز هو الذي تولى تحليله وعلاجه تحت إشراف فرويد. ولم يتدخل هذا الأخير بصورة مباشرة في مجريات التحليل إلا مرة واحدة. ومع أن والد هانز لم يكن محللاً نفسياً مدرباً، فقد نجح العلاج، وشفي هانز من رهابه بعد أربعة أشهر من بدء تحليله. ومما ساعد على اختصار المسافة الزمنية أن والد هانز كان قد دوَّن ملاحظات مفصَّلة عن سلوك هانز قبل أن يتمّ عامه الثالث. وعندما ظهر لدى الصبي الصغير رهاب الجياد بعد زهاء سنتين، قامت تلك الملاحظات المدوَّنة من قبل الأب مقام التقرير عن تاريخ الحالة.

على الرغم من النجاح الذي تكلل به العلاج، بقي فرويد مقيماً يومئذ على اعتقاده بأن التحليل النفسي للأطفال غير قابل للتعميم. وبالفعل، كانت تلك هي المرة الوحيدة التي يتدخل فيها فرويد في مضمار العلاج التحليلي الطفلي، وبوساطة والد الطفل أصلاً. وكان لا بدّ للتحليل النفسي أن ينتظر مساهمات آنا فرويد ـ ابنة مؤسسة المذهب ـ وميلاني كلاين وغيرهما كيما ترى النور تقنية متطورة وناجعة في تحليل الأطفال.

إذاً ليس الجانب التقني هو المهم في هذا النص، وإنما الجانب النظري إن جاز القول. وبالفعل، إن حالة هانز الصغير أقامت الدليل على صحة القضايا الكبرى للتحليل النفسي، وفي المقام الأول عقدة أوديب، وعقدة الخصاء، والجنسية الطفلية، والنظريات الطفلية الجنسية. وبهذا المعنى، كان تحليل هانز الصغير بمثابة تطبيق عملي لنظريات فرويد في كتابه الطليعي **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**، مثلما كان تحليل حالة دورا من قبل تطبيقاً للنظريات التي تضمَّنها الكتاب العظيم الأول لمبتدع التحليل النفسي: **تأويل الحلم**.

واستكمالاً لفائدة القارئ من مطالعة هذا النص تجدر الإشارة إلى واقعتين: أولاهما أن فرويد نفسه سيعود إلى تحليل حالة هانز الصغير في نصوص أخرى، كما في كتابه **الكف، العرض، الحصر** الذي أصدره عام ١٩٢٦[٢]، وثانيتهما

٢ ـ انظر ترجمتنا لهذا الكتاب في المجلد الخامس من **المؤلفات شبه الكاملة**.



أن العديدين من نقاد فرويد اعترضوا على تحليله لحالة هانز الصغير وتقدموا لها بتفاسير وتآويل أخرى، من داخل النظرية التحليلية النفسية ومن خارجها على حدّ سواء. وربما كان من أكثر نقاده جذرية إريك فروم الذي خصّص فصلاً بكامله من كتابه **أزمة التحليل النفسي** ليعيد تحليل حالة المريض الصغير من منظور مغاير لمنظور فرويد، ولكن من دون أن يخرج مع ذلك على المعطيات الأساسية للتحليل النفسي. وخلاصة رأي إريك فروم أن فرويد أخفق في فهم حالة «الأوديبي الصغير» لأن موقفه من المجتمع البورجوازي، الذي يمثّله والدا هانز، هو موقف «النقد الليبيرالي لا الجذري»، إذ كان كل هدفه تحسين طرائق التربية والتخفيف من درجة القسوة في المناهج التربوية، بدون أن يصل به الأمر إلى نقد الأسس القمعية للتربية البورجوازية. ففرويد ارتأى أن تربية هانز العائلية تكاد تكون مثالية، وأن والديه كانا سموحين في تربيته إلى أقصى حدّ ممكن. والحال أن ما غاب عنه هو أن العنف غير غائب على الإطلاق عن هذه التربية، ولا كذلك الكذب. وقد بلغت لغة العنف بأمه أنها هددته بالخصاء فعلاً، ولغة الكذب أنها ادَّعت أنها تملك قضيباً حقاً. ومن ثم إن هانز لم يكن معصوباً أوديبياً صغيراً يشتهي أمه ويكره أباه، بل يكاد على العكس أن يكون هو الصحيح: فهانز يخشى أمه ويلتمس عند أبيه الحماية. لكن فرويد، المفعم بنزعته الأبوية كما يرى إ. فروم، ما استطاع أن يتصور أن تكون المرأة هي «السبب الحقيقي للخوف» وليست مجرد موضوع للحب. وحتى دور فرويد في القصة كلها لم يكن دور المحلل الذي يميط اللثام عن أسرار، بقدر ما كان دور «أب أعلى» ـ الأستاذ كما يسميه هانز نفسه ـ يوَّجه ويوحي بالأسرار التي يريد أن يكشفها.

إن هذا النقد لا يخلو من وجاهة. والشاهد يقدمه المآل الذي انتهت إليه تلك الأسرة «المثالية». فخلافاً لكل ما هو متوقع من الزوجين «المحبَّين» انتهت العلاقة بينهما بالطلاق.

ولكن حتى لو كان خوف هانز من الخصاء مبعثه الأم لا الأب، أي لو ثبت أن الأمهات، لا الآباء، هنّ المنبع الأعمق للمشاعر الرهابية عند الأطفال، وأن دورهن في الحياة النفسية ليس سلبياً إلى الحدّ الذي يطيب للنزعة الأبوية أن



تتصوره، فإن مأثرة فرويد الكبرى ـ التي لا ينكرها عليه فروم أصلاً ـ هي أنه كان كوبرنيك النفس البشرية، وأنه مع الثورة التحليلية النفسية صار للسيكولوجيا تاريخ بعد أن كانت من قبل غارقة في دياميس ما قبل التاريخ. وبديهي أن التحليل النفسي ليس غير قابل للنقد، ولكن من منطلقه فحسب يمكن أن يكون النقد فعالاً، فيحول دون انحطاط الفرضيات إلى مسلَّمات، ويسهم في الكشف عن مزيد من وجوه التعقيد والغنى في قوانين الأعماق النفسية.

يبقى أن نقول إن ذلك الغلام الصغير الذي اشتهر في تاريخ التحليل النفسي باسم «هانز الصغير» كان يدعى في الواقع هربرت غراف، وهو من باح باسمه الحقيقي قبل عام من وفاته للصحفي الفرنسي ريزو الذي نشر نص المقابلة تحت عنوان: «**مذكرات رجل لامرئي**». أما والد هانز، الذي تولى بنفسه تحليل ابنه وقدَّم تقريره عن حالته إلى فرويد، فكان يدعى ماكس غراف (١٨٧٣ ـ ١٩٥٨)، وكان ناقداً موسيقياً وصحفياً لامعاً. وعلى إثر العلاج التحليلي لزوجته على يد فرويد، صار هو نفسه محللاً وانضم إلى **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**. وقد دام تحليله لابنه من كانون الثاني/ يناير إلى أيار/ مايو ١٩٠٨. ولكن بعد عام ونيِّف افترق عن أم هانز وتزوج لمرتين على التوالي. وتابع في الوقت نفسه نشاطه كمحلل نفسي وكناقد موسيقي. أما ابنه هربرت غراف فقد التقى فرويد عام ١٩٢٢ وكاشفه بهويته باعتباره هو «هانز الصغير». ثم اشتهر أمره كمخرج أوبرات موسيقية، وتنقّل كمدير فني لدور الأوبرا بين نيويورك وزوريخ وجنيف. وفي عام ١٩٧٠ التقى بابنة فرويد آنا وكشف لها عن هويته كمريضٍ سابق عند أبيها. وكانت وفاته في نيسان/ أبريل ١٩٧٣.

وأخيراً، كنا اعتمدنا في ترجمة نص **هانز الصغير** على الترجمة المتميزة التي كانت قامت بها تلميذة فرويد الفرنسية الكبرى، ماري بونابرت، عام ١٩٢٨. ولكن صدور ترجمة جديدة أكثر تقيُّداً بحرف النص، في إطار مجموعة أعمال فرويد الكاملة، وبقلم رينيه لينه وجوهانا ستوت ـ كاديو، عن المنشورات الجامعية الفرنسية عام ١٩٩٨، أتاح لنا المزيد من التدقيق لترجمتنا.

ج. ط



(١)
مدخل

إن ما تتضمنته الصفحات التالية من وصف لتاريخ المرض والشفاء لدى مريض جدّ صغير لا ينبع، بحق معنى الكلمة، من معاينتي الخاصة. صحيح أنني وضعت الخطوط الكبرى للعلاج، بل تدخلت شخصياً لمرة يتيمة في أثناء محادثة مع الصبي الصغير، لكن العلاج ذاته اضطلع به أبو الطفل الذي أدين له بعرفان كبير لأنه وضع في متناولي ملاحظاته وأباح لي نشرها. والحق أن فضل الأب لا يقف عند هذا الحدّ: فما كان لأي شخص سواه، في رأيي، أن يتوصل إلى الفوز من الصبي بمثل هذه الاعترافات. وقد كانت المعرفة المتخصصة، التي بفضلها استطاع الأب تأويل أقوال ابنه الذي في الخامسة من عمره، لازمة لا غنى عنها: فلولاها لاستحال التغلب على الصعوبات التقنية التي تعترض سبيل التحليل في مثل هذه السن الصغيرة. واجتماع السلطة الأبوية والسلطة الطبية في شخص واحد، فضلاً عن جمع هذا الشخص بين الاهتمام الذي يمليه عليه الحب وبين الاهتمام ذي الطابع العلمي، هو وحده الذي أتاح في الحالة التي نحن بصددها إمكانية تطبيق المنهج على نحو ما كان ليصلح له بغير ذلك.

على أن القيمة الخاصة لهذه الحالة تكمن في ما يلي: فالطبيب الذي يعالج بالتحليل النفسي معصوباً راشداً يتوصل، عن طريق كشف التشكيلات النفسية المتناضدة طبقة فوق طبقة، إلى فروض معينة عن الجنسية الطفلية التي يتراءى له أنه اهتدى بين مقوِّماتها ومكوِّناتها إلى الدوافع الغريزية لجميع الأعراض العصابية في طور لاحق من الحياة. وقد عرضت هذه الفروض في كتابي **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**[١] المنشور عام

١ ـ انظر الترجمة العربية في المجلدالرابع من **المؤلفات شبه الكاملة**.



١٩٠٥، وأنا أعلم أنها تبدو مدهشة للقارئ غير المختص بقدر ما تبدو محتومة في نظر المحلل النفسي. لكن حتى المحلل النفسي قد تساوره الرغبة في العثور على برهان أقرب إلى أن يكون مباشراً، يتمّ الوصول إليه بطرق أقصر، على تلك الأطروحات الأساسية. أفمن المستحيل أن يتأتّى لنا أن نلاحظ بصورة مباشرة لدى الطفل، وبكامل النضارة الحية، تلك الحاثات Motions الجنسية وتلك التشكيلات التي تبنيها الرغبة والتي ننقّب عنها ببالغ العناء لدى الراشد ونتشلها من بين أنقاضها وردومها، فضلاً عن أننا نرى أنها ميراث مشترك بين البشر قاطبة وإن كانت لا تتظاهر لدى مرضى الأعصاب إلا معزّزة أو محرَّفة؟

سعياً وراء هذا الهدف كنت، منذ سنوات عديدة، أحثّ تلاميذي وأصدقائي على تجميع ملاحظات عن حياة الأطفال الجنسية التي يغمض الناس أعينهم عنها بحذق في العادة أو ينكرونها عن عمد وقصد. وبين جملة المواد التي حصلت عليها عن هذا الطريق ما لبثت التقارير، التي كانت تردني بصورة منتظمة، عن هانز الصغير أن تبوأت مكانة الصدارة. فقد كان والداه كلاهما من أقرب المريدين إليّ، وكانا اتفقا على تنشئة طفلهما الأول بلا قدر من الإكراه أكثر مما تستلزمه عند الاقتضاء ضرورة السلوك الحسن. وبما أن الطفل كان يتحول، مع نموه، إلى صبي صغير طيب ويقظ، فإن تجربة تركه يكبر ويشبّ عن الطوق بعيداً عن كل تخويف وترهيب كانت تمضي قدماً إلى الأمام على نحو يبعث على الرضى. وسأشرع الآن بسرد تقارير الأب عن هانز الصغير كما وصلتني، وسأمتنع بطبيعة الحال عن كل محاولة من شأنها أن تنال من سذاجة الطفولة وصدقها بتعديلات متواضع عليها.

يرجع تاريخ التقارير الأولى عن هانز إلى يوم لم يكن قد أكمل بعد عامه الثالث. فقد كان يبدي يومئذ، من خلال أقوال وأسئلة شتى، اهتماماً جامحاً بذلك الجزء من جسمه الذي اعتاد أن يسميه «فرفورته»[٢]. وقد طرح يوماً على أمه هذا السؤال:

---

٢ ـ بالألمانية Wiwimacher، وبالفرنسية LE ZIZI، وبالعربية يقال أيضاً «حمامة». «م».



هانز: هل عندك أنت أيضاً فرفورة؟

الأم: بالطبع. لماذا؟

هانز: فكرت فقط...

وفي تلك السن نفسها دخل يوماً إلى إصطبل ووقع نظره على بقرة تُحلب، فقال:

ـ انظري من فرفورتها يخرج حليب.

من هذه الملاحظات وحدها، لا غير، يسعنا أن نتوقع أن الكثير مما سنراه عند هانز الصغير، بله أغلبه، سيكون نمطياً من منظور النمو الجنسي للأطفال بصورة عامة. وكنت أوضحت في غير هذا الموضع[٣] أنه لا يجوز لنا أن نغلو في الاستفظاع إذا ما التقينا لدى كائن من الجنس المؤنث إشارة ما إلى مصّ عضو الذكورة. فهذه النزعة الجارحة للمشاعر لها أصل في غاية من البراءة، لأنها مشتقة من مص ثدي الأم. ويلعب هنا ضرع البقرة ـ الذي هو بطبيعته ثدي وبشكله وبموقعه قضيب ـ دوراً وسيطاً موائماً. ويؤكد اكتشاف هانز الصغير الشطر الأخير من وجهة نظري.

غير أن الاهتمام الذي يوليه للفرفورة لم يكن نظرياً خالصاً. فكما كان لنا أن نتوقع، كان هذا الاهتمام يحفزه على ملامسة عضوه. وفي الثالثة والنصف من عمره ضبطته أمه ويده تعبث بقضيبه، فهددته قائلة: «إذا فعلت ذلك، فسأستدعي الدكتور أ ليقطع لك فرفورتك. وعندئذ بأي شيء تفرفر؟

هانز: بطزطوزتي.

أجاب بذلك بدون شعور بالذنب بعد، ولكنه اكتسب بتلك المناسبة «عقدة الخصاء» التي لا نجد مناصاً في غالب الأحيان من المصادرة على وجودها في تحاليلنا للمرضى العصابيين، وإن أبوا بعنف الإقرار بها. وثمة أشياء كثيرة كان يمكن أن نقولها بصدد دلالة هذا العنصر في التاريخ الطفلي. وقد تركت «عقدة الخصاء» آثاراً بارزة في الأساطير (وليس فقط في الأساطير الإغريقية). وقد أشرت

٣ ـ **نبذة من تحليل حالة هستيريا**، ١٩٠٥ (انظر أعلاه **التحليل النفسي للهستيريا**). «م».



في كتابي **تأويل الحلم**[٤]، وفي مواضع أخرى، إلى الدور الذي تضطلع به هذه العقدة[٥].

وفي تلك السن عينها (السنة الثالثة والنصف)، هتف هانز في شونبرون[٦]، وهو يقف أمام قفص الأسد، جذلاً مهتاجاً:

٤ ـ اشتهر هذا الكتاب بالعربية بعنوان **تفسير الأحلام** بالإحالة إلى ترجمة مصطفى صفوان له، ولكنه بالمفرد طبقاً للعنوان الأصلي بالألمانية. «م».

٥ ـ حاشية أضيفت سنة ١٩٢٣: منذ أن كتبت ذلك طرأ على النظرية الخاصة بعقدة الخصاء توسيع مرموق بفضل مساهمات لو أندرياس(*) Lou ANDREAS، وأ. ستاركه(**) STARKE، وف. ألكسندر ALEXANDER(***). وآخرين. وقد جرى التنويه بأن الرضيع يستشعر سحب ثدي الأم في كل مرة خصاءً، أي فقداناً لجزء هام من جسمه بالذات، جزء يشعر أن له عليه حقوقاً، وبأنه لا يسعه من الجهة الثانية إلا أن يستشعر على النحو نفسه فقدانه المنظَّم لبرازه، وبأن الميلاد أخيراً، أي الانفصال عن الأم التي كان يؤلف وإياها إلى ذلك الحين كلاً واحداً، هو النموذج الأول لكل خصاء. ومع إقراري بوجود جميع هذه الجذور للعقدة، فقد كان رأيي أن مصطلح عقدة الخصاء ينبغي قصره على الإثارات والآثار المرتبطة بفقدان القضيب. وكل من اقتنع، من خلال تحليل الراشدين، بوجود منتظم ودائم لعقدة الخصاء سيكون عسيراً عليه بطبيعة الحال أن ينسبها إلى تهديد عابر، علاوة على أنه ليس مما يتكرر حدوثه بعمومية مطلقة؛ بل لن يجد أمامه مفراً من الافتراض بأن الطفل يبني لنفسه بنفسه هذا الخطر بدءاً من أبسط التلميحات، وهي التي لا ينعدم، والحق يقال، وجودها أبداً. وهذا هو أيضاً الدافع الذي حمل على البحث عن الجذور الأكثر عمقاً والعامة الوجود لهذه العقدة. ومما يزيد ذلك أهمية أن يكون التهديد بالخصاء في حالة هانز الصغير قد صدر عن الوالدين نفسيهما، وهذا في زمن لم يكن فيه الرهاب قد ظهر بعد لدى الطفل.

(*) لو أندرياس سالومي: أديبة ألمانية من أصل روسي (١٨٦١ ـ ١٩٣٧). وقع في عشقها، وهي الروائية والقاصة والمحللة النفسية، عديدٌ من المشاهير، ومنهم نيتشه وريلكه والمستشرق المختص بالإيرانيات فريدريش أندرياس. وقد هددها هذا الأخير بالانتحار إن لم تتزوجه، فتزوجته ولكن مشترطة عليه ألا يتمِّم الزواج جنسياً. وقد التقت فرويد عام ١٩١١ وصادقت ابنته آنا واختلفت معه في نهاية حياتها بسبب موقفه من الدين ومن اليهودية. من مؤلفاتها: **في التحليل النفسي، الشرجي والجنسي، حب النرجسية، رسالة مفتوحة إلى فرويد**. «م».

(**) أوغست ستاركه: محلل نفسي هولندي (١٨٨٠ ـ ١٩٥٤). قرأ نصوص فرويد عن الأحلام فصار يمارس التحليل النفسي من تلقاء نفسه. «م».

(***) فرانز ألكسندر: طبيب ومحلل نفسي أميركي من أصل مجري(١٨٩١ ـ ١٩٦٤). أسس في واشنطن معهد التحليل النفسي عام ١٩٣١، وكان من دعاة ما سماه بالتحليل النفسي الجديد الأكثر مواءمة لظروف المجتمع الأمريكي. من مؤلفاته: **مبادئ التحليل النفسي، المجرم وقضاته**. «م».

٦ ـ شونبرون: حي راقٍ في فيينا، فيه قصر كان يقيم فيه آل هابسبورغ، وكذلك حديقة للحيوان. «م».



ـ رأيت فرفورة الأسد!

إن الحيوانات تدين بجانب غير قليل من الأهمية التي تسبغها عليها الأساطير والحكايا الخرافية للطريقة المكشوفة التي تظهِر بها أعضاءها التناسلية ووظائفها الجنسية أمام الطفل البشري الصغير الذي يتآكله الفضول وحب الاستطلاع. وليس ثمة من ريب يحوم حول حب الاستطلاع الجنسي لدى صغيرنا هانز، غير أنه هو ما جعل منه باحثاً منقِّباً وهيَّأه للوصول إلى معارف مجردة حقيقية.

فقد رأى مرة في المحطة، وكان له من العمر ثلاث سنوات وتسعة أشهر، قاطرة يسيل منها ماء، فقال:

ـ انظر، القاطرة تفرفر. فأين إذاً فرفورتها؟

وبعد هنيهة أضاف بلهجة المستغرق في التفكير:

ـ إن للكلب والحصان فرفورة، والطاولة والكرسي لا فرفورة لهما.

وبذلك يكون قد وضع يده على خاصية رئيسية لتمييز الحيّ من الجامد.

إن الظمأ إلى المعرفة يبدو لصيق الصلة بحب الاستطلاع الجنسي. وكان حب الاستطلاع لدى هانز ينصبّ في المقام الأول على أبويه.

هانز (في السنة الثالثة والشهر التاسع): بابا، هل عندك أنت أيضاً فرفورة؟

الأب: نعم، بالطبع.

هانز: لكني لم أرها قط حينما تخلع ثيابك.

وفي مرة أخرى حدَّق، وكله انتباه، في أمه وهي تخلع ملابسها قبل أن تذهب إلى النوم. فسألته:

ـ إلى ماذا تنظر هكذا؟

هانز: أنظر فقط لأرى إن كانت لك فرفورة.

الأم: بالطبع. أما كنت تعرف ذلك؟

هانز: كلا، كنت أفكر أنك ما دمت كبيرة إلى هذا الحدّ، فلا بدّ أن تكون لك فرفورة مثل الحصان.



إن هذا التوقع من هانز الصغير جدير بأن نلاحظه، فسيكتسب دلالته فيما بعد.

غير أن الحدث الأكبر في حياة هانز كان ميلاد أخته الصغيرة آنا، عندما كان له من العمر ثلاثة أعوام ونصف عام بالضبط (فقد ولد في نيسان/ أبريل ١٩٠٣ وولدت أخته في تشرين الأول/ أوكتوبر ١٩٠٦). وقد دوَّن أبوه للحال سلوكه بهذه المناسبة: «في صبيحة هذا اليوم الباكرة، حينما بدأت آلام المخاض في الساعة الخامسة، نقلنا سرير هانز إلى الغرفة المجاورة. فاستيقظ فيها في الساعة السابعة، وسمع أنين الواضعة. فسأل: «لماذا تسعل ماما؟». ثم أردف بعد لحظة يقول: «لا شك أن اللقلق سيأتي اليوم»[٧].

«وبديهي أن هانز كثيراً ما كان قيل له في الأيام السابقة إن اللقلق سيأتي ببنت صغيرة أو بصبي صغير، وقد ربط بسداد الأنين غير المألوف بمجيء اللقلق.

«فيما بعد أُخذ إلى المطبخ، فرأى في الرواق حقيبة الطبيب، فسأل: «ما هذا؟»، فجاءه الجواب: «حقيبة». فقال على الأثر بلهجة من الاقتناع الراسخ: «اليوم سيأتي اللقلق!». وبعد الوضع، حضرت القابلة إلى المطبخ، فسمعها هانز تأمر بإعداد قدح من الشاي، فقال: «آه! إن ماما ستحصل على الشاي لأنها تسعل». ولما استدعي بعد ذلك إلى غرفة النوم، لم ينظر إلى أمه، وإنما إلى الطشوت التي كانت مليئة بماء ممتزج بالدم، والتي كانت لا تزال موجودة هناك، فلاحظ في دهشة بالغة وهو يومئ إلى طشت فيه دم: «لكن لا يخرج دم من فرفورتي أنا».

«إن جميع أقواله تدلّ على أنه يربط كل ما هو غير مألوف في الموقف بمجيء اللقلق. إنه يأخذ، إزاء كل ما يقع عليه نظره، سيماء من التوتر والريبة، **وليس ثمة من شك في أن شكوكه الأولى بخصوص قصة طائر اللقلق قد تولدت في نفسه يومئذ**».

٧ ـ كما درجت العادة في فرنسا على أن يقال للأولاد إن الأطفال يعثر عليهم في الملفوف، كذلك يقال في بلاد اللغة الألمانية إن اللقالق هي التي تأتي بالمواليد. هامش الترجمة الفرنسية.



إن هانز الصغير شديد الغيرة من الوافدة الجديدة، وما إن يمتدحها أحد أو يقول إنها جميلة، إلخ، حتى يبادر إلى الإعلان بلهجة متهكمة: «لكن ليس لديها أسنان بعد!»[٨]. وبالفعل، حين وقع نظره عليها للمرة الأولى، أخذته دهشة بالغة من كونها لا تستطيع أن تتكلم، وأعرب عن اعتقاده بأنها لا تستطيع الكلام لأنه ليس لديها أسنان. وكان من الطبيعي أن يُنحّى جانباً ويُهمل أمره قليلاً في الأيام الأولى، فوقع على حين فجأة مريضاً بذبحة لوزية. وقد سُمع في أثناء الحمّى يعلن: «لكني لا أريد أختاً صغيرة!».

«بعد زهاء ستة أشهر تمّ التغلب على الغيرة، وصار لأخته أخاً عطوفاً بقدر ما هو مقتنع بتفوقه عليها[٩].

«بعيد ذلك شهد هانز تحميم أخته، وكان صار لها من العمر أسبوعاً. فلاحظ قائلاً: «لكن فرفورتها لا تزال صغيرة»، وأضاف على سبيل العزاء: «غير أنها ستكبر، وستصبح فرفورتها أكبر»[١٠].

٨ ـ هذا من جديد سلوك نمطي. فثمة طفل آخر لا يكبر أخته إلا بعامين فقط، كان من عادته، في ظروف مماثلة، أن يهتف بغضب على سبيل الدفاع عن النفس: «صغيرة جداً! صغيرة جداً!».

٩ ـ «فليأخذه اللقلق من جديد!»: هكذا كان يقول طفل آخر، لا يكبر هانز إلا بقليل، من باب الترحيب بأخيه الأصغر. قارن ذلك مع ما قلته عن أحلام موت الأهل الأعزاء في كتابي **تأويل الحلم** (الطبعة الألمانية، ص ١٧١).

١٠ ـ الحكم نفسه، معبَّراً عنه بالكلمات نفسها ومرفوقاً بالتوقُّع نفسه، نُقل إلى علمي صدوره عن صبيين صغيرين آخرين لمّا أتيح لهما أن يشبعا لأول مرة فضولهما بمشاهدتهما جسم أختهما الرضيعة. وقد نرتاع لهذا الالتواء المبكر في عقل الطفل. فلماذا لا يعاين هؤلاء المنقِّبون الصغار ما يرونه حقاً، وهو أنه لا وجود لفرفورة؟ إننا نستطيع، فيما يتعلق بصغيرنا هانز على الأقل، أن نعطي تفسيراً كاملاً لتصوره المغلوط. فنحن نعلم أنه كان توصّل، بوساطة عمليات استقرائية جادة، إلى حكم عام مؤداه أن كل كائن حي، خلافاً للأشياء الجامدة، يملك فرفورة. وقد عززت أمه هذا الاقتناع لديه إذ قدَّمت له معلومات إثباتية فيما يتعلق بالأشخاص الذين لا يقعون تحت ملاحظته. وقد بات عاجزاً الآن عن التنازل عن مقتناه الفكري بالاستناد إلى ملاحظته وحدها عن أخته الصغيرة. ومن ثم ارتأى أن الفرفورة موجودة هنا أيضاً، ولكنها فقط لا تزال صغيرة جداً، ولسوف تكبر إلى أن تصير كبيرة بحجم فرفورة الحصان.

ولسوف نمضي إلى أبعد من ذلك في دفاعنا عن شرف صغيرنا هانز. فهو لا يتصرف في الحقيقة بأسوأ مما يتصرف الفيلسوف من مدرسة فونت[*]. فالشعور عند مثل هذا الفيلسوف خاصية ملازمة لما هو نفسي ولا ينعدم وجودها أبداً، مثلما أن الفرفورة مقياس لا غنى عنه عند هانز لما هو حيّ. فإن



«في تلك السن نفسها، أي في السنة الثالثة والشهر التاسع، سرد هانز لأول مرة حلماً رآه: «اليوم، فيما كنت نائماً، تصورت أني في غموندن[11] مع ماريدل».

«وماريدل الصغيرة هي ابنة المالك التي تبلغ الثالثة عشرة والتي كثيراً ما كان يلعب معها».

وفيما كان الأب يروي هذا الحلم للأم بحضور هانز، صحَّح هذا الأخير قائلاً:

ـ ليس مع ماريدل، بل وحدي فقط مع ماريدل.

ونعلم هنا ما يلي: «أمضى هانز صيف ١٩٠٦ في غموندن حيث كان يقضي اليوم كله يركض مع أولاد المالك. وحين غادرنا غموندن تصوَّرنا أن الرحيل والرجوع إلى المدينة سيحزّان في نفسه كثيراً. ولكن، لدهشتنا، لم نلحظ شيئاً من ذلك. فقد لاح عليه السرور من التغيير، ولم يتكلم طوال عدة أسابيع عن غموندن إلا فيما ندر. وإنما بعد انقضاء أسابيع عديدة بزغت لديه ذكريات ـ زاهية الألوان في الغالب ـ عن الزمن الذي أمضاه في غموندن. وفي الأسابيع الأربعة الأخيرة راح يصوغ ذكرياته في أخاييل. فهو يتخيَّل نفسه يلاعب الأطفال، برتا وأولغا وفريتزل، ويكلِّمهم كما لو أنهم حاضرون، وهو يستطيع أن

اتفق للفيلسوف في مثل هذه الحال أن وجد نفسه في مواجهة سيرورات نفسية لا يعرف عنها شيئاً ولكنه لا يستطيع مع ذلك الامتناع عن استنتاج وجودها استنتاجاً، فإنه لا يقول عنها عندئذ إنها سيرورات نفسية لاشعورية، بل يصفها بأنها شعورية مبهمة. فالفرفورة لا تزال صغيرة جداً! وحتى في هذه المقارنة ترجح الكفة لصالح صغيرنا هانز. إذ كما هو غالب في التنقيب الجنسي عند الأطفال، فإن جانباً من المعرفة الصحيحة يختفي هنا خلف الخطأ. فالبنت الصغيرة تملك بالفعل «فرفورة» صغيرة، نطلق عليها اسم البظر، بالرغم من أنها لا تكبر، بل تبقى ضامرة بصفة مستديمة (انظر دراستي الموجزة: **حول النظريات الجنسية الطفلية**، ١٩٠٨) (انظر ترجمتنا لهذا النص في **الحياة الجنسية**، في المجلد ٤ من المؤلفات شبه الكاملة). «م».

(*) فلهلم فونت: عالم نفسي وفيلسوف ألماني (١٨٣٢ ـ ١٩٢٠) مؤسس أول مختبر لعلم النفس التجريبي، وكان أول من استخدم منهج الاستبطان التجريبي. أكد على الطبيعة الفيزيولوجية لفعل الإدراك ورفض مفهوم اللاشعور. «م».

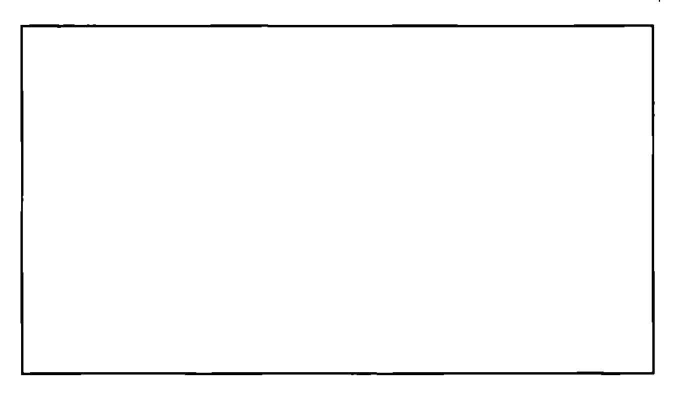
١١ ـ غموندن: مصيف في النمسا العليا في منطقة الألب. «م».



يسلِّي نفسه على هذا النحو طيلة ساعات في كل مرة. وأما الآن وقد صار له أخت واستحوذت عليه بطبيعة الحال مشكلة أصل الأطفال، فإنه ما عاد يسمِّي برتا وأولغا إلا «طفلتيه»، بل إنه أضاف قوله في إحدى المرات: «طفلتاي أيضاً، برتا وأولغا، جاء بهما اللقلق». وينبغي بالبداهة أن نفهم ذلك الحلم الذي طرأ بعد ستة أشهر من الرحيل عن غموندن على أنه تعبير عن الحنين إلى العودة إلى غموندن».

هذا هو الحدّ الذي وصل إليه الأب. وإني لألاحظ، من قبيل الاستباق، أن هانز حينما عبَّر عما بنفسه ذلك التعبير في حديثه عن طفلتيه اللتين أتى بهما اللقلق إنما كان يدحض بصوت عالٍ شكاً يقبع في أعماق نفسه.

لقد دوَّن الأب لحسن الحظ أشياء كثيرة ارتدت فيما بعد أهمية غير متوقعة. «كنت أرسم زرافة لهانز الذي تردد كثيراً في الآونة الأخيرة على حديقة الحيوان في شونبرون. فقال لي: «ارسم فرفورتها أيضاً». فأجبته: «ارسمها بنفسك». عندئذ أضاف إلى رسميَ للزرافة هذا الخط (انظر الرسم أدناه)، بادئاً برسم خط قصير، ثم مطيلاً إياه بخط آخر، ملاحظاً: «إن فرفورتها أطول».



الشكل ١

«مررت وهانز بحصان كان يبول، فقال هانز: «إن الحصان فرفورته من تحته مثلي».



«وشهد تحميم أخته، التي صار لها من العمر ثلاثة أشهر، فقال بلهجة من الإشفاق: «إن لها فرفورة صغيرة جداً. صغيرة جداً».

«وأهديتْ إليه دمية ليلعب بها، فجرّدها من ثيابها، وتفحّصها بدقة، وقال: لكن فرفورتها صغيرة جداً، صغيرة جداً!».

وقد رأينا من قبل أن هذه الصيغة تتيح له أن يواصل اعتقاده بالكشف الذي كشفه (انظر ص ١٤٩).

إن كل باحث عرضة للوقوع في الخطأ بين الحين والآخر، وإنه لعزاء له ـ مثله مثل هانز في المثال التالي ـ ألا ينفرد وحده بالخطأ، بل أن يحتجّ، تبريراً لخطئه، بالدارج من الاستعمالات اللغوية. فقد رأى هانز في كتابه المصوَّر قرداً، فأشار إلى ذنبه المرفوع إلى أعلى وقال: «انظر، يا بابا، فرفورته!».

إن الاهتمام الذي كان هانز يوليه لـ «الفرفورات» قد أوحى إليه بلعبة خاصة وشخصية. «كان المدخل الأمامي للدار يؤدي إلى مرحاض وإلى حجرة معتمة يخزَّن فيها الحطب. فصار هانز منذ بعض الوقت يذهب إلى حجرة الحطب ويقول: «أنا ذاهب إلى مرحاضي». وقد نظرت يوماً إلى ما يفعله في الحجرة المعتمة الصغيرة، فكشف عن عضوه وقال: «إنني أفرفر». وهذا معناه إذاً أنه كان يلعب لعبة المرحاض. ولا يتجلى طابع اللعب هذا في أنه كان يتظاهر بالتبويل بدون أن يفعل ذلك حقاً فحسب، بل كذلك في أنه كان لا يذهب إلى المرحاض ـ وهو ما كان يمكن أن يكون على كل حال أكثر بساطة ـ بل كان يفضل الحجرة المعتمة ويسمِّيها مرحاضه.

إننا لن نوفي هانز حقه لو قصرنا اهتمامنا على السمات الإيروسية الذاتية لحياته الجنسية. وسوف يدلي لنا أبوه بملاحظات مفصَّلة عن علاقاته الحبية بغيره من الأطفال، وهو ما يدلّ على وجود اختيار **موضوعاني**[١٢] عنده كما عند الراشد.

١٢ ـ الموضوعاني OBJECTAL: نسبة إلى الموضوع الحبّي الذي يقع عليه اختيار الشخص المعني. وقد أضفنا نون النسبة حتى نميّز هذا المصطلح الأساسي في المعجم الفرويدي عن النعت «الموضوعي» الدارج في الاستعمال كمقابل لـOBJECTIV. «م».



والحق أن هانز دلل أيضاً على تقلب لافت النظر في علاقاته هذه وعلى ميل مسبق إلى تعدد الزوجات.

«في الشتاء (ثلاث سنوات وتسعة أشهر) اصطحبت هانز إلى كاتنغ رنك[١٣]. وعرَّفته إلى ابنتيْ زميلي ن، وكان لهما من العمر زهاء عشر سنوات، فجلس هانز بقربهما، على حين راحت البنتان، بالنظر إلى تقدمهما عليه في السن، تنظران من علٍ، وفي شيء من الازدراء، إلى الطفل الصغير. أما هو فكان يتأملهما بإعجاب، وإن لم يترك ذلك فيهما انطباعاً ذا شأن. وعلى الرغم من ذلك، ما عاد هانز يتحدث عنهما فيما بعد إلا قائلاً: «بنتاي الصغيرتان». «أين بنتاي الصغيرتان؟ متى تحضر بنتاي الصغيرتان؟». وظل يلاحقني لبضعة أسابيع بالسؤال: «متى أذهب من جديد إلى حلبة التزلج لأرى بنتيّ الصغيرتين؟».

قدِم ابن عم له، يبلغ من العمر خمس سنوات، لزيارة هانز، وكان قد صار في الرابعة من العمر. فراح هانز يعانقه باستمرار، وقال مرة أثناء عناق حارّ: «كم أحبك! كم أحبك!».

إن هذه هي السمة الأولى، لكن ليست الأخيرة، للجنسية المثلية نلتقيها عند هانز. فصغيرنا هانز يبدو حقاً بحق مضرب مثل لكل «الرذالات»!

«أقمنا في شقة جديدة (كان هانز في الرابعة من العمر). وكان للمطبخ باب يفضي إلى شرفة يمكن منها إلقاء نظرة إلى داخل شقة أخرى مقابلة تقع في الجانب الآخر من الفناء. وقد اكتشف فيها هانز فتاة صغيرة في حوالي السابعة أو الثامنة من العمر. وصار يجلس، كيما يتسنى له أن يتأملها، على الدرجة المفضية إلى الشرفة، ويبقى على هذه الحال ساعات. وفي الساعة الرابعة من بعد الظهر بخاصة، حين تعود الفتاة من المدرسة، كان يتعذر علينا حمله على البقاء في الغرفة، وما كان لشيء أن يغريه بالامتناع عن شغل مركز مراقبته. وذات يوم لم تظهر الفتاة عند النافذة في الساعة المعهودة، فعزّ على هانز أن يَثْبُت في مكان واحد وحاصر أهل البيت بأسئلته: «متى تأتي الفتاة الصغيرة؟ أين الفتاة الصغيرة؟»

١٣ ـ حلبة للتزلج على الجليد في فيينا. «م».



إلخ. وحين ظهرت في نهاية الأمر استخفّ به الفرح، ولم يعد يحوِّل بصره عن الشقة المقابلة. والعنف الذي تبدى به هذا «الحب عن بعد»[١٤] يمكن تفسيره بأن هانز لم يكن له من رفيق في اللعب، لا ذكر ولا أنثى. وبديهي أن العلاقات الواسعة بأطفال آخرين ضرورية للنمو السوي للطفل.

«وجد هانز أخيراً رفاقاً، على نحو ما سنبيِّنه عما قليل (كان هانز آنئذ في الرابعة النصف من العمر)، حين انتقلنا للإقامة صيفاً في غموندن. وكان رفاقه في اللعب هناك أولاد المالك: فرانزل (في حوالي الثانية عشرة) وفريتزل (ثماني سنوات) وأولغا (سبع سنوات) وبرتا (خمس سنوات). وكان يلعب معه أيضاً أولاد الجيران: آنا (عشر سنوات) وفتاتان صغيرتان أخريان في التاسعة والسابعة نسيت اسميهما. وكان رفيقه المفضل فريتزل، فكان كثيراً ما يعانقه ويؤكد له حبه. وقد سألناه يوماً: «أي الفتيات الصغيرات تحبُّها أكثر؟». فأجاب: «فريتزل». وكان في الوقت نفسه يعامل البنات بطريقة عدوانية، ذكرية، اعتدادية، وكان يأخذهن بين ذراعيه ويغدق عليهن بالقبلات، وكانت برتا بوجه خاص تتقبل ذلك بطيبة خاطر. وفيما كانت برتا تهمّ بالخروج ذات مساء من الغرفة طوّق عنقها بذراعيه وقال لها بلهجة ملؤها الحب: «ما ألطفك يا برتا!». ولكن هذا لم يمنعه على كل حال من أن يعانق الأخريات أيضاً وأن يؤكد لهن حبَّه. وكان يحب أيضاً ماريدل، وهي ابنة أخرى للمالك، ولها من العمر أربعة عشرعاماً، وقد درجت على ملاعبته. وقد قال مرة، وهو يوضع في سريره: «أريد ماريدل أن تنام معي». فلما أجيب بأن هذا غير ممكن، أردف يقول: «ينبغي إذاً أن تنام مع ماما أو مع بابا». فقيل له إن هذا أيضاً غير ممكن، وإن ماريدل لا بدّ لها أن تنام عند أهلها. فدار عندئذ الحوار التالي:

هانز: إذاً أنا سأنزل لأنام مع ماريدل.

الأم: أتريد حقاً أن تترك ماما لتذهب وتنام تحت؟

١٤ ـ خلاصة القول إن الحب عن بعد لا يروق لي إطلاقاً. فلهلم بوش(*).

(*) فلهلم بوش: شاعر ورسام ألماني متخصص بالقصص المصورة (١٨٣٢-١٩٠٨). «م».



هانز: أوه! سأصعد من جديد غداً صباحاً لأتناول فطوري ولأذهب إلى المرحاض.

الأم: إذا كنت تريد حقاً أن تترك بابا وماما، فخذ معطفك و سروالك و.. وداعاً!

«فأخذ هانز ملابسه واتجه إلى الدرج، كي يذهب وينام مع ماريدل، ولكننا بالطبع أعدناه».

إن خلف هذه الأمنية: «أريد ماريدل أن تنام معي» تكمن بكل تأكيد أمنية أخرى: «أريد ماريدل (التي يحبّ جداً أن يكون معها) أن تصبح واحدة من أسرتنا». غير أن أبوي هانز كانا يأخذانه ـ وإن في غير كثرة من الأحيان ـ إلى فراشهما، ومن المحقق أن أحاسيس إيروسية كانت في مثل هذه الأحوال تستيقظ لديه وهو راقد بينهما، وهذا ما يضفي معنى إيروسياً أيضاً على رغبته في النوم مع ماريدل. فالرقاد إلى جانب الأب أو الأم في الفراش كان لدى هانز، كما لدى كل طفل آخر، مصدراً لأحاسيس وانفعالات إيروسية.

لقد تصرف صغيرنا هانز، في مواجهته تحدي أمه، تصرف رجل صغير حقاً، بالرغم من نزواته الجنسية المثلية.

«في مناسبة أخرى قال هانز لأمه أيضاً: «أتعرفين، لكم أحبّ أن أنام مع البنت الصغيرة». وهذه الحادثة كانت مصدراً كبيراً للتسلية لنا، لأن هانز تصرف فيها تصرف راشد عاشق بملء معنى الكلمة. فقد درجت فتاة صغيرة جميلة، لها من العمر ثماني سنوات، في الأيام القليلة الماضية، على المجيء إلى المطعم الذي نتناول فيه طعام الغداء، وللحال شغف بها هانز. فكان لا يتوقف عن الالتفات من فوق كرسيه ليرميها بنظرات والهة، وإذا ما فرغ من تناول الطعام ذهب يجلس بجانبها ليغازلها، ولكنه إذا ما شعر وهو يفعل ذلك أن ثمة أحداً يراقبه علته حمرة قرمزية. وإذا استجابت الفتاة الصغيرة لغمزاته، تحوَّل عنها بعينيه إلى الجانب الآخر وقد بدا عليه الارتباك. وطبيعي أن سلوكه هذا كان يدخل البهجة على قلوب جميع رواد المطعم. وفي كل يوم كان يسأل عند اقتياده إلى المطعم: «هل تعتقد أن البنت الصغيرة ستأتي اليوم؟». وعندما تظهر في آخر الأمر تعلو



وجهه الحمرة، شأنه شأن الراشد في مثل هذا الموقف. وذات مرة أقبل عليّ مشعّ الوجه وهمس في أذني: «أتعرف، يا بابا، أنا أعرف الآن أين تسكن البنت الصغيرة. فقد رأيتها تصعد الدرج في المكان الفلاني». وعلى حين كان يتصرف بطريقة عدوانية مع البنات الصغيرات الساكنات في البيت، كان في الحالة المستجدة أقرب إلى أن يكون عاشقاً أفلاطونياً أخذه الوجد. وربما كان مردّ ذلك إلى أن البنات الصغيرات في البيت ريفيات، بينما فتاة المطعم الصغيرة سيدة من سيدات المجتمع الراقي. وقد سبقت الإشارة إلى ما قاله هانز يوماً من أنه يودّ لو ينام معها.

«بما أنني كنت لا أريد أن يبقى هانز نهباً للتوتر النفسي الذي عانى منه إلى الآن من جراء حبه للبنت الصغيرة، فقد أجريت بينهما تعارفاً، ودعوت البنت الصغيرة إلى القدوم لرؤيته في الحديقة حين يفيق من قيلولته. وقد انفعل هانز انفعالاً شديداً وهو ينتظر البنت الصغيرة، فما استطاع لأول مرة أن يغفو بعد الظهر، بل راح يتقلب على فراشه بلا انقطاع. سألته أمه: «لماذا لا تنام؟ هل تفكر بالبنت الصغيرة؟». فأجاب وملؤه السعادة: «نعم». وكان لدى عودته من المطعم إلى البيت قد روى لكل من فيه: «أتعرفون، اليوم ستأتي بنتي الصغيرة لتراني». وقد ذكرت ماريدل، التي لها من العمر ١٤ سنة، أنه راح يسألها بلا انقطاع: «أتعتقدين أنها ستكون لطيفة معي؟ أتعتقدين أنها ستعطيني قبلة حينما أعانقها؟»، وما إلى ذلك.

«لكن السماء أمطرت عصر ذلك اليوم، فلم تتمَّ الزيارة. فتسلى هانز عنها مع برتا وأولغا».

إن ملاحظات أخرى، سُجِّلت في فترة العطلة الصيفية تلك، تبيح لنا أن نفترض أن ضروباً شتى من التغيرات كانت تتهيأ في نفس الصبي الصغير.

«هانز له الآن من العمر أربع سنوات وثلاثة أشهر. أعطته أمه هذا الصباح حمامه اليومي، وبعد الحمام جففته وذرَّرته. وفيما كانت تذرِّر المنطقة المحيطة بقضيبه، مع حرصها على عدم مسّه، سألها هانز: «لماذا لا تضعين إصبعك عليه؟».



الأم: لأن ذلك رذالة.

هانز: ماذا؟ رذالة؟ لماذا؟

الأم: لأن ذلك أمر لا يليق.

هانز (ضاحكاً): ولكنه مبهج جداً!»[١٥].

في تلك الفترة ذاتها تقريباً رأى هانز حلماً يلفت النظر بتعارضه مع ما كان أبداه من جرأة تجاه أمه. كان أول حلم للطفل يصيبه من التحريف ما يجعله مستغلقاً. غير أن الأب استطاع بثقوب بصيرته أن ينفذ إلى معناه.

«هانز (أربع سنوات ونصف)، حلم - روى هانز حين استيقظ هذا الصباح: «أتعرف، هذه الليلة فكرت: **واحد قال: من يريد أن يأتي معي؟ فقال واحد: أنا. وعندئذ كان عليه أن يجعله يفرفر**».

«لقد أظهرت أسئلة أخرى بوضوح أن هذا الحلم يفتقد أي عنصر بصري، وأنه ينتمي إلى «الطراز السمعي»[١٦] الصرف. كان هانز في الأيام القليلة الماضية يلعب ألعاباً ومنها لعبة الرهن مع أولاد المالك، ومن ضمنهم صديقتاه أولغا (سبع سنوات) وبرتا (خمس سنوات). (ولعبة الرهن تُلعب كالآتي: أ - لمن هذا الرهن الذي في يدي؟» **ب** - «لي أنا». وعندئذ يتقرر ما ينبغي على **ب** أن يفعله). وقد انبنى الحلم على غرار هذه اللعبة، وكل ما هنالك أن هانز تمنى فيه أن يحكم على من يعود له الرهن، لا بأن يعطى كالمعتاد قبلة أو أن يتلقى كالمعتاد أيضاً صفعة، بل بأن يفرفر، أو بعبارة أدق: أن يجعل الآخر يفرفر.

«طلبت إليه أن يروي لي الحلم مرة أخرى، فرواه بالعبارات نفسها، ولكنه استبدل جملة: «**واحد قال**» بجملة: «**هي قالت**». ومن الواضح أن «هي» هذه

---

١٥ - روت لي أم أخرى، تعاني هي نفسها من العصاب ولا تريد أن تصدق بوجود الاستمناء الطفلي، تفاصيل محاولة إغراء مشابهة بدرت عن ابنتها البالغة من العمر ثلاث سنوات ونصف سنة. فقد خاطت لصغيرتها سروالاً، وفيما كانت تقيسه عليها لتتأكد من أنه ليس ضيّقاً يعيقها عن المشي، واضعة يدها على السطح الداخلي لأعلى الفخذين، أطبقت الصغيرة ساقيها فجأة على يد أمها وقالت: «ماما، اتركي يدك هنا، هذا لذيذ جداً!».

١٦ - بالفرنسية في النص: TYPE AUDITIF «م».



هي برتا أو أولغا، إحدى البنتين اللتين كان يلعب معهما. وبترجمة الحلم يكون كما يلي: ألعب لعبة الرهن مع البنات الصغيرات. أسأل: «من يريد أن يأتي معي؟». تجيب هي (برتا أو أولغا): «أنا». عندئذ يكون عليها أن تجعلني أفرفر (أي أن تساعده على التبوُّل، وهذا، كما هو واضح للعيان، ما يستطيبه هانز)».

من الواضح أن عملية جعله يفرفر[١٧]، بما يرافقها من فكٍّ لأزرار بنطلونه وإخراج لقضيبه، كانت تصطبغ بصبغة من اللذة بالنسبة إلى هانز. وفي أثناء النزهات كان الأب في الغالب هو الذي يعينه على ذلك، وهذا ما يسَّر تثبيت ميل جنسي مثلي على الأب.

«قبل ذلك بيومين، كما أسلفنا الذكر، سأل أمه بينما كانت تنظف وتذرر منطقته التناسلية: «لماذا لا تضعين إصبعك عليه؟». وبالأمس، وفيما كنت أهِمُّ بأن أعينه على قضاء حاجته الصغيرة، طلب إليّ للمرة الأولى أن أذهب به إلى ما وراء البيت كيلا يراه أحد، وأضاف قوله: «في السنة الماضية، عندما كنت أفرفر، كانت برتا وأولغا تنظران إليّ». وهذا يعدل القول، على ما أعتقد، أنه كان يستطيب في السنة الماضية أن تنظر إليه البنات الصغيرات وهو يفعل ذلك، ولكن الأمر لم يعد كذلك اليوم. فنزعته الاستعرائية قد سقطت الآن تحت الكبت. وأن تكون رغبته في أن تنظر إليه برتا وأولغا وهو يفرفر (أو وهما تجعلانه يفرفر) قد أمست الآن مكبوتة في الحياة الواقعية، فهذا ما يفسر ظهور هذه الرغبة في الحلم، حيث تنكرت تنكراً بارعاً في إهاب لعبة الرهن. وقد لاحظت منذئذ، في مناسبات عدة، أنه ما عاد يرغب في أن يراه أحد وهو يفرفر».

وسأنبِّه تحديداً إلى أن هذا الحلم يتقيَّد بالقاعدة التي عرضتها في **تأويل الحلم**[١٨]، والتي تنصّ على أن الأقوال التي يُنطق بها أو تُسمع في الحلم تُشتقّ من أقوال سمعها الحالم نفسه أو نطق بها في الأيام السابقة.

---

١٧ ـ قد لا يكون تركيب الجملة هذا عربياً فصيحاً، ولكننا آثرنا الترجمة على هذا النحو الحرفي حفاظاً على النبرة الطفلية للجملة. «م».

١٨ ـ **تأويل الحلم**، الطبعة السابعة، ص ٢٣٨ وما يليها.



وقد دوّن والد هانز ملحوظة أخرى يرجع تاريخها إلى الحقبة التي أعقبت مباشرة عودة الأسرة إلى فيينا:

«شهد هانز (أربع سنوات ونصف) مرة أخرى تحميم أخته الصغيرة وطفق يضحك. فسئل: «لماذا تضحك؟»».

هانز: أضحك من فرفورة آنا.

ـ لماذا؟

ـ لأن فرفورتها حلوة كثيراً».

«لم يكن الجواب صادقاً بطبيعة الحال: ففرفورتها بدت له في الواقع مضحكة. وهذه، على كل حال، هي المرة الأولى التي تعرَّف فيها بمثل هذا الجلاء الفارق بين الأعضاء التناسلية المذكرة والمؤنثة، بدلاً من أن ينكره».




مكتبة
الفكر الجديد

(٢)

تاريخ المرض والتحليل

«سيدي الأستاذ المحترم! أبعث إليك بشيء آخر يتصل بهانز ـ ولكنه لا يعدو أن يكون هذه المرة، مع الأسف، مساهمة في تاريخ حالة. وكما سترى، فقد تظاهرت لديه، في الأيام الأخيرة، اضطرابات عصبية سبَّبت لنا، أنا وزوجتي، قلقاً شديداً، لأننا لم نستطع الاهتداء إلى أية وسيلة لإزالتها. وسأبيح لنفسي أن أذهب غداً.. لرؤيتك، لكني.. أرسل إليك تقريراً مكتوباً عما أمكنني جمعه.

«في أرجح الظن أن التربة قد تهيأت لديه من جراء إثارة جنسية زائدة عن الحدّ نجمت عن حنان أمه، لكنني لا أستطيع تعيين العلة المباشرة لتلك الاضطرابات العصبية. ويبدو أن **خوفه من أن يعضّه حصان في الشارع** مرتبط على نحو ما بارتعابه من قضيب كبير ـ فهو قد لاحظ في سن مبكرة، كما تعلم من تقرير سابق، كِبَر قضيب الخيل، واستنتج يومئذ أن أمه، ما دامت كبيرة إلى هذا الحدّ، تملك ولا بدّ فرفورة مثل الحصان.

«لست أدري ما يمكن استخلاصه من هذه المعطيات. هل رأى في مكان ما شخصاً استعرائياً؟ أم أن الأمر كله لا يرتبط بغير أمه؟ إنه ليس مما يبهجنا أن يبدأ في مثل هذه السن المبكرة بمواجهتنا بألغاز. على أن هانز، فيما عدا خوفه من الخروج إلى الشارع وفيما خلا اكتئاب يطرأ عليه كل مساء، لا يزال على عهده دائم المرح والابتهاج».

لن نتبع أبا هانز في ما ينتابه من هموم يسهل فهمها ولا في ما حاوله من محاولات أولى للتفسير، بل سنبدأ بتفحص المادة التي زوّدنا بها. وليست مهمتنا بحال من الأحوال أن «نفهم» دفعة واحدة حالة من الحالات المرضية، فهذا أمر لا



يتأتى لنا إلا في مرحلة لاحقة، بعد أن تكون تجمعت لدينا انطباعات كافية. أما في الوقت الحاضر فسنعلِّق حكمنا وسنولي كل ما هو متاح لملاحظتنا قدراً متماثلاً من الاهتمام.

هاكم التقارير الأولى التي يرجع تاريخها إلى الأيام الأولى من شهر كانون الثاني/يناير من هذه السنة (١٩٠٨):

«نهض هانز (٤ سنوات و٩ أشهر) ذات صباح دامع العينين. سألته والدته عن سبب بكائه فأجاب: «فيما كنت نائماً اعتقدت أنك رحلت وأنه لم يعد لي أم **لأتدلع** معها.

«إذاً هو حلم من أحلام الحَصر Angoisse[1].

«وكنت لاحظت في ذلك الصيف في غموندن شيئاً مماثلاً. فعند المساء، كان هانز ينزع في غالب الأحيان، وهو في سريره، إلى أن يكون عاطفياً جداً، وقد أبدى مرة هذه الملاحظة: «إذاً، لم يعد لي أمّ» أو «لو رحلت من هنا» (أو شيء من هذا القبيل)، فأنا ما عدت أذكر كلماته بدقة. ومن سوء الحظ أن أمه، كلما ظهر عليه هذا المزاج الحزين، كانت تأخذه إلى سريرها.

«في الخامس من كانون الثاني/يناير على وجه التقدير، سعى إلى سرير أمه في ساعة مبكرة وقال لها: «أتعرفين ما قالته خالتي م: «ما أجمل حمامته الصغيرة!»[2] (كانت الخالة م تنزل عندنا منذ نحو أربعة أسابيع، وفيما كانت ذات يوم ترقب زوجتي وهي تحمِّم الصبي الصغير، فاهت بالفعل بتلك الكلمات بصوت خافت. وقد سمع هانز هذه الكلمات وهو يسعى الآن إلى استغلالها لصالحه).

«في السابع من كانون الثاني/يناير، ذهب كالمعتاد مع الخادمة إلى

١ ـ في **لسان العرب**: الحَصر ضرب من العيّ. حَصِر الرجل حصراً مثل تعب تعباً فهو حصِر: عيي في منطقه، وحصر صدره: ضاق. والحصر ضيق الصدر. «م».

٢ ـ بالألمانية PISCHL = العضو التناسلي. وإنه لمن أكثر الأمور شيوعاً ـ وحالات التحليل النفسي مليئة بها ـ أن تداعَب الأعضاء التناسلية للأولاد الصغار بالأقوال، بل أحياناً بالأفعال، من قبل أقاربهم المحبين، بمن فيهم الوالدان نفسهما.



شتادبارك[٣]. وفي الطريق طفق يبكي ويطلب العودة إلى البيت: فهو يريد أن «يتدلع» مع ماما. ولما سئل في البيت لماذا أبى مواصلة النزهة وانخرط في البكاء، رفض الكلام. وظل على مرحه المعتاد حتى المساء، ولكن في المساء انتابه خوف ظاهر، وبكى، وتعذر إبعاده عن أمه: فهو يريد من جديد أن يتدلع. ثم عاد بعد ذلك إلى مرحه ونام نوماً هادئاً.

«في الثامن من كانون الثاني/يناير صممت زوجتي على أن تقتاده بنفسها إلى النزهة في شونبرون، حيث يطيب له الذهاب عادة، لتتبيَّن حقيقة الأمر. فطفق يبكي من جديد، راغباً عن الخروج، وقد بدا عليه الخوف. غير أنه في نهاية الأمر ذهب، إلا أن رعباً ظاهراً استولى عليه في الشارع. وفي طريق العودة من شونبرون قال لأمه بعد صراع داخلي كبير: **كنت خائفاً من أن يعضّني حصان** (كانت إمارات القلق قد بدت عليه بالفعل لدى مرآه حصاناً في شونبرون). وفي المساء عرته على ما يبدو نوبة مماثلة لنوبة مساء اليوم السابق. وطلب أن يتدلع. وأمكنت تهدئته. وقال باكياً: «أعرف أنه سيكون عليّ غداً أن أذهب من جديد للنزهة»، ثم أضاف: «الحصان سيدخل إلى الغرفة».

«في ذلك اليوم نفسه سألته أمه: «لعلك تضع يدك على فرفورتك؟». فأجاب: «نعم، كل مساء حين أكون في فراشي». وفي اليوم التالي، التاسع من كانون الثاني/يناير، جرى تحذير هانز، قبل قيلولته، من ملامسة فرفورته. وعندما استيقظ سئل عما حدث، فأجاب أنه لامسها على كل حال لهنيهة من الزمن».

تلكم هي إذاً بداية الحصر والرهاب عند هانز. ولدينا أسباب وجيهة ـ وهذا مفهوم ـ للفصل بينهما. والمادة التي في متناولنا تبدو لنا، فضلاً عن ذلك، كافية تماماً لتسديد خطانا. وما من مرحلة من مراحل المرض أحسن لفهمه من المرحلة الاستهلالية، على نحو ما نتبيَّنها هنا، علماً بأن هذه المرحلة غالباً ما تُهمل مع الأسف أو تُغفل. فلقد بدأ الاضطراب العصبي بأفكار عاطفية وحَصَرية في آن معاً، ثم بحلم حَصَري كان مضمونه كالتالي: هانز يفقد أمه، مما يعني أنه ما عاد

٣ ـ شتادبارك STADPARK: حديقة عامة في وسط فيينا. «م».



يستطيع أن «يتدلع» معها. إذاً لا بدّ أن تكون محبة هانز لأمه قد زادت زيادة هائلة. وتلكم هي الظاهرة الرئيسية التي هي بمثابة الأساس لحالته. ولنستعد في أذهاننا، تأييداً لهذه الواقعة، محاولتي الإغواء اللتين قام بهما هانز تجاه أمه، وإحداهما يرجع تاريخها إلى الصيف، وثانيتهما ـ ولا تتعدى امتداحه قضيبَه لها ـ جاءت مباشرة قبل تمخُّض خوفه الحصَري من الشوارع. ومحبته المزدادة لأمه هي التي تحولت على نحو مفاجئ إلى حصر وهي التي وقعت، كما سنقول، تحت الكبت. ولا نعرف بعد من أين جاء الدافع إلى الكبت، وربما حدث هذا الكبت نتيجة فقط لزيادة شدة الانفعالات التي ما عاد بوسع الطفل السيطرة عليها، وربما تكون قوى أخرى، لم نتعرَّفها بعد، قد تدخلت. وهذا ما سوف نتبيَّنه فيما بعد. وذلك الحصر، المناظر لصبوة إيروسية مكبوتة، هو أولاً، وككل حصر طفلي، بلا موضوع: مجرد حصر، وليس بعد خوفاً. فالطفل لا يستطيع أن يدرك مما هو خائف. وحين لم يشأ هانز، بعد نزهته الأولى مع الخادمة، أن يفصح عما هو خائف منه، فذلك لأنه كان بكل بساطة لا يعلمه بعد. وقد قال كل ما يعرف؛ فهو يفتقد أمه في الشارع، أمه التي يمكنه أن يتدلع معها، ولا يريد الابتعاد عنها. وقد كشف بذلك بصدق تام عن المغزى الأول لنفوره من الشارع.

كذلك إن الحالة التي كان عليها لأمسيتين على التوالي قبل ذهابه للنوم ـ وهي حالة حصر مصبوغة بصبغة عاطفية جلية ـ تثبت أنه لم يكن ثمة وجود بعد في بداية مرضه لرهاب من الشارع أو من النزهة أو حتى من الخيل. ولو وجد مثل هذا الرهاب، لتعذَّر تفسير الأحوال التي تعتريه مساء: فمنذا الذي يكلِّف نفسه، ساعة الرقاد، مؤونة التفكير بالشارع وبالنزهة؟ وبالمقابل، إن تعليل تلك الأحوال المسائية يغدو شافاً كل الشفافية إذا ما وضعنا في اعتبارنا أن هانز يقع، ساعة الرقاد، فريسة ليبيدو معزز، موضوعه الأم، وهدفه في أرجح الظن أن ينام معها. وبالفعل، كانت التجربة في غموندن قد علَّمته أنه من الممكن أن ترضى أمه، إذا ما اعترت طفلها تلك الأحوال، بأخذه إلى سريرها؛ ولا شك في أنه كان يريد أن يصل هنا، في فيينا، إلى النتيجة عينها. ولا يغرب عنا أيضاً أنه كان قضى في غموندن بعض الوقت مع أمه بمفرده، إذ لم يكن في مقدور الأب تمضية العطلة



بكاملها هناك. أضف إلى ذلك أن نوازع الحب لديه كان أسقطها هناك على عدد من رفاقه في اللعب، من أصدقاء وصديقات، على حين أنه لم يعد له أحد منهم في فيينا، بحيث صار في وسع طاقته الليبيدوية أن ترتدّ بتمامها نحو أمه.

هكذا يناظر الحصر شهوة ليبيدوية مكبوتة من دون أن يكون هو بحدّ ذاته هذه الشهوة؛ فالكبت أيضاً له دور ههنا. إن الشهوة تنقلب بتمامها إلى إشباع إذا ما تأمّن لها الموضوع الذي تشتهيه، ولكن علاجاً كهذا لا يعود ناجعاً في حالات الحصر؛ إذ حتى ولو توفرت إمكانية ما لإشباع الشهوة، فإن الحصر يبقى مستمراً ولا يعود قابلاً للتحويل بتمامه إلى ليبيدو. وثمة شيء لا ندري ما هو يبقي على الليبيدو في حالة كبت[٤]. وقد تبيَّن أن هذا هو واقع الحال لدى هانز حينما صحبته أمه في النزهة التالية. فمع أنه كان في هذه المرة مع أمه، فقد ساوره حصر، أي صبوة غير مشبعة إليها. صحيح أن الحصر كان أقلّ، إذ ارتضى هانز بأن يُقتاد إلى النزهة، على حين أنه كان من قبل قد أرغم الخادمة على إعادته إلى البيت؛ وهذا فضلاً عن أن الشارع ليس بالمكان المناسب لـ «التدلع» أو لأي شيء آخر مما كان يمكن أن يتوق العاشق الصغير إلى فعله. غير أن الحصر صمد للامتحان، ولا بدّ الآن من أن يجد له موضوعاً. وإنما في أثناء تلك النزهة عبَّر هانز لأول مرة عن خوفه من أن يعضّه حصان. فمن أين جاءت مادة هذا الرهاب؟ في أغلب الظن من تلك العقد التي لا تزال مجهولة لدينا، والتي أسهمت في الكبت وأبقت على صبواته الليبيدوية تجاه أمه في حالة كبت. وذلكم هو لغز آخر، ولن يكون في وسعنا أن نهتدي إلى حلّ إلا إذا تتبعنا تطورات حالة هانز. وكان أبو هانز قد زوَّدنا ببعض نقاط الارتكاز، وبوسعنا في أغلب التقدير أن نركن إليها: فهانز كان يلاحظ الخيل باهتمام دوماً بالنظر إلى كبر فرفورتها، وقد افترض هانز أن أمه لا بدّ أن تكون لها فرفورة مثل فرفورة الحصان، وهلُّم جرا. وبوسعنا على هذا الأساس أن نذهب إلى أن الحصان هو

٤ ـ إذا أردنا الصراحة في الكلام قلنا إن ذلك هو المعيار الذي بمقتضاه نصف بالسواء أو بعدمه مثل تلك المشاعر التي يخالطها حصر وشهوة: فنحن نسمِّيها حصراً مَرَضياً، ابتداء من اللحظة التي لا يعود ممكناً فيها التفريج عنها بالحصول على الموضوع المشتهى.



مجرد بديل للأم. ولكن ما معنى ما أبداه هانز في هذه الحال من خوف في المساء من أن يدخل الحصان إلى الغرفة؟ قد يقال: مخاوف سخيفة لطفل صغير. غير أن العصاب لا يقول أبداً أشياء سخيفة، مثله في ذلك مثل الحلم. وما أسهل ذمّ الأشياء التي لا نفهمها. فأجمِلْ بها من وسيلة لتيسير المهمة على أنفسنا!

علينا أن نحاذر السقوط في شراك هذا الإغراء بصدد نقطة أخرى أيضاً. فقد أقرّ هانز بأنه يتسلى في كل ليلة، وقبل أن ينام، بملامسة قضيبه. عندئذ هتف طبيب الأسرة: «آه! كل شيء يتضح الآن. فالطفل يستمني، ومن هنا كان الحصَر». ولكن رويدنا! فأن يتدبر الطفل لنفسه أحاسيس لاذَّة بالاستمناء، فأمر لا يفسِّر لنا على الإطلاق حصره، بل يجعل منه بالأحرى لغزاً مستغلقاً كل الاستغلاق. فحالات الحصر لا تتولد عن الاستمناء، ولا كذلك عن أي إشباع. زد على ذلك أنه لا مناص لنا من التكهن بأن هانز، البالغ من العمر الآن ٤ أعوام و٩ أشهر، يمنح نفسه هذه اللذة منذ نحو سنة على الأقل (انظر ص ١٤٥). وسوف نرى أنه كان في هذه الفترة عينها منخرطاً في صراع ليتخلص من هذه العادة، وهذا ما يتفق على نحو أفضل مع الكبت وتكوين الحصر.

ولزام علينا أيضاً أن نقول كلمة حق إنصافاً لوالدة هانز، العظيمة الطيبة والتفاني. فالأب يتهمها، وإن بظاهر من الحق، بأنها تسببت في تمخض العصاب من جراء غلوّها في إحاطة الطفل بالحب ومسارعتها، المجاوزة الحدّ في تواترها، إلى أخذه إلى فراشها. ومن الممكن لنا على هذا الأساس أن نلومها أيضاً على أنها عجّلت بسيرورة الكبت إذ صدّت صداً أعنف مما ينبغي عروض الطفل (قولها: «هذه رذالة»). بيد أنه كان عليها أن تضطلع بدور رسمه القدر، وكان موقفها صعباً.

لقد اتفقتُ مع والد هانز على أن يقول له إن كل قصة الأحصنة تلك ليست إلا حماقة، لا أكثر، وإن الحقيقة هي أنه (= هانز) مغرم جداً بأمه ويريدها أن تأخذه إلى فراشها؛ وإنه ما بات الآن يخشى الأحصنة إلا لأن فرفورة الأحصنة أثارت اهتمامه كثيراً؛ وإنه (= هانز) قد لاحظ أنه ليس المستحسن الانشغال إلى هذا الحدّ بـ «الفرفورات»، ولا حتى بفرفورته هو، وإن وجهة النظر هذه كانت



صائبة تماماً. واقترحت، فضلاً عن ذلك، على الأب أن يشرع بتنوير هانز بصدد بعض الأمور الجنسية. إذ كما يبيح لنا سلوك الطفل الماضي أن نفترض، فقد بقي الليبيدو عنده متشبثاً بالرغبة في رؤية فرفورة أمه: ومن ثم اقترحت على أبي هانز أن يلغي هذا الهدف لرغبة هانز بإفهامه أن أمه، مثلها مثل سائر النساء، لا تملك على الإطلاق فرفورة ـ وهو ما يمكنه أن يتحقق منه من خلال مثال آنا. وطلبت إليه أن يتخيَّر مناسبة موائمة لتقديم هذا الإيضاح الأخير لهانز، كأن ينتظر منه أن يبادره بسؤال أو أن تبدر عنه ملاحظة يمكن استغلالها لهذا الغرض.

* * *

إن الملاحظات المدونة التالية عن هانز تغطي الفترة الممتدة من الأول من آذار/ مارس إلى السابع عشر منه. وهذا الفاصل الزمني، الذي امتد لأكثر من شهر، سنتبيَّن عما قليل علَّته[٥].

«أعقبت الإيضاحات[٦] فترة تتسم بقدر أكبر من الهدوء، أمكن في أثنائها الخروج بهانز دونما صعوبة كبيرة إلى النزهة يومياً في شتادبارك. وتحوَّل الخوف من الأحصنة رويداً رويداً إلى دافع قهري إلى النظر إلى الأحصنة. قال: «لست أستطيع أن أمنع نفسي من النظر إلى الأحصنة، وعندئذ أخاف».

«بعد نزلة وافدة ألزمته الفراش أسبوعين، تعزز رهابه إلى حدّ بات من المتعذر معه حمله على الخروج. وصار في أحسن الأحوال يخرج إلى الشرفة. وفي كل يوم كان يأتي معي إلى لاينز[٧]، لأن العربات في هذا اليوم لا تكون كثيرة في الطرقات[٨]، ولأن المسافة إلى المحطة قصيرة جداً. وفي لاينز رفض مرة أن يذهب للتنزه خارج الحديقة، لأن عربة كانت تقف أمامها. وبعد أسبوع آخر اضطر إلى

---

٥ ـ الفاصل الزمني المشار إليه هو الفاصل بين تاريخ آخر تقرير لوالد هانز(٨ كانون الثاني/ يناير) وبين تاريخ تقريره الجديد (١ آذار/ مارس). «م».

٦ ـ المتعلقة بدلالة حصره، وليس بعد بـ «فرفورة» النساء.

٧ ـ ضاحية في فيينا كان يقيم فيها جد هانز وجدته. «م».

٨ ـ لا ننسَ أن العربات تجرّها الأحصنة. وقد كانت وسيلة النقل الرئيسية في المدن عصرئذ (١٩٠٩). «م».



قضائه في البيت، على إثر استئصال لوزتيه، تعزز الرهاب من جديد على نحو لافت للنظر. كان يخرج إلى الشرفة، ولكن ليس للتنزه، أي أنه كان يستدير على عقبيه بسرعة حالما يصل إلى الباب المفضي إلى الطريق.

«في يوم الأحد، الأول من آذار/مارس، دارت المحادثة التالية في أثناء طريقنا إلى المحطة. حاولت من جديد أن أقنع هانز بأن الأحصنة لا تعضّ. هو: «لكن الأحصنة البيض تعضّ. في غموندن حصان أبيض يعضّ. إذا مددت له أصابعك يعضّ». (أدهشني قوله «أصابعك» بدلاً من «يدك»). وسرد عندئذ القصة التالية التي أورِدُها هنا بترابط:

«حين كانت ليزي على وشك الرحيل، كانت عربة مربوطة إلى حصان أبيض تقف أمام بيتها لتحمل أمتعتها إلى المحطة (قال هانز إن ليزي فتاة صغيرة تسكن منزلاً مجاوراً). كان أبوها يقف بجانب الحصان، فأدار الحصان رأسه (ليلمسه)، وعندئذ قال والد ليزي لها: «**لا تضعي إصبعك على الحصان الأبيض وإلا عضّك**». فقلت لهانز عندئذ: «أتعرف، يخيَّل إليّ أنك لا تقصد أن تتكلم عن حصان، وإنما عن فرفورة لا ينبغي وضع اليد عليها».

هو: ولكن الفرفورة لا تعضّ.

أنا: لعلها تفعل هذا مع ذلك.

«وعلى الأثر راح هانز يحاول بحدة وحماسة أن يثبت لي أن الأمر يتعلق فعلاً بحصان أبيض[٩].

«في الثاني من آذار/ مارس قلت لهانز لما ظهرت عليه من جديد أمارات الخوف: أتعرف؟ إن الحماقة ـ هكذا كان يسمي رهابه ـ ستفقد قوتها كلما أكثرت من الخروج للنزهة. وهي ليست قوية الآن إلا لأنك لم تخرج من البيت إذ كنت مريضاً.

٩ ـ ما كان لوالد هانز من سبب يدعوه للشك في أن ما رواه هانز هنا لم يكن حادثة واقعية. أما أحاسيس الأُكال في حشفة القضيب التي تحمل الأطفال على ملامسته، فيقال لها في العادة بالألمانية ES BEISST MICH = إنه يعضّني.



هو: لا، لا، إنها قوية جداً لأني ما زلت أضع يدي على فرفورتي كل ليلة».

يتفق الطبيب والمريض، الأب والابن، إذاً على عزو الدور الرئيسي للأسباب المولِّدة لحالة هانز المرَضية الراهنة إلى عادة الاستمناء. غير أن هناك من الدلائل ما يشير إلى وجود عوامل أخرى أيضاً.

«في الثالث من آذار/مارس جاءتنا خادمة جديدة نالت رضى هانز وإعجابه البالغ. فكانت تدعه يمتطي ظهرها فيما هي تمسح الأرضية، فصار من ثم لا يسمِّيها إلا «حصاني» ويشدّها باستمرار من تنورتها صائحاً: «حا حا!». وفي حوالي العاشر من آذار/مارس قال لهذه الخادمة: «إذا فعلتِ هذا الشيء أو ذاك، فسيتعيَّن عليك أن تخلعي ثيابك كلها، بما فيها قميصك الداخلي» (كان يفهم ذلك على أنه عقوبة، لكننا نستطيع بسهولة أن نتعرف الرغبة الكامنة وراء ذلك).

هي: وما همّني؟ سأقول لنفسي بكل بساطة إنه ليس لديّ مال لأشتري ملابس.

هو: لكن هذا عيب. تصوري أن الناس سيرون عندئذ فرفورتك!».

إنه حب الاستطلاع القديم عنده وقد وجّهه إلى موضوع آخر وبطَّنه ـ بما يلائم مرحلة الكبت ـ بظاهر من نزعة أخلاقية!

«في صبيحة اليوم الثالث عشر من آذار/مارس قلت لهانز: أتعرف، إذا لم تضع يدك بعد الآن على فرفورتك، فإن الحماقة ستغدو بالتأكيد أضعف.

هانز: لكني ما عدت أضع يدي على فرفورتي.

أنا: ولكنك ترغب في أن تفعل.

هانز: نعم، هذا صحيح، لكن **الرغفة** غير **الفعل**، **والفعل** غير **الرغفة**...(!!!)[١٠].

أنا: إذاً، حتى لا تراودك رغبة في ذلك فسنعطيك هذا المساء كيساً لتنام فيه.

«إثر ذلك خرجنا إلى أمام البيت. كان بالطبع خائفاً، لكنه قال وقد اطمأن

١٠ ـ يدمج هانز بين الرغبة والفعل فيقول: رغفة. «م».



على نحو واضح إلى ما سيلقاه من مساعدة في صراعه: «أوه! إذا نمت هذا المساء في كيس، فإن الحماقة تكون قد زالت غداً». وبالفعل، بات خوفه من الأحصنة **أقلّ بكثير**، وقد راح ينظر بهدوء نسبي إلى العربات وهي تمرّ أمامه.

«كان هانز قد وعدني بالذهاب معي إلى لاينز في يوم الأحد التالي، الواقع في ١٥ آذار/ مارس. وقد قاوم في أول الأمر، ثم ما لبث أن صحبني. في الطريق كانت العربات قليلة، وكان واضحاً أنه يشعر بأنه على أحسن ما يرام، وقال: «ما أعظم ذكاء الله: فقد قضى على الأحصنة!». وفي الطريق شرحت له أن أخته ليس لها فرفورة نظير فرفورته. وقلت له إن البنات الصغيرات والنساء لا فرفورة لهن. وماما ليس لها، وآنا كذلك، وهلمّ جرا.

هانز: وأنت، ألك فرفورة؟

أنا: بالطبع، ماذا كنت تتصور؟

هانز: (بعد هنيهة صمت): كيف تفرفر البنات الصغيرات إذاً، إن لم يكن لهم فرفورة؟

أنا: ليس لهن فرفورة مثل فرفورتك. ألم تلاحظ ذلك عند تحميم آنا؟

«بقي طوال النهار في غاية من المرح، وتزحلق على الجليد، إلخ، ولم يعاوده الاكتئاب إلا مساء، وبدا عليه الخوف من الأحصنة.

«في ذلك المساء كانت النوبة العصبية والحاجة إلى **التدلُّع** أقل بروزاً مما في الأيام السابقة. وفي اليوم التالي أخذته أمه معها إلى المدينة، فأصابه رعب شديد في الشوارع. وفي الغداة لزم البيت، وكان في غاية المرح. وفي صبيحة اليوم الثالث استيقظ بعد حوالي الساعة السادسة فريسة لحصَر شديد. ولما سألناه ما به، روى قائلاً:«وضعت إصبعي، ولكن قليلاً جداً، على فرفورتي. عندئذ رأيت ماما عارية تماماً في قميصها الداخلي، وتركتني أرى فرفورتها. أريْتُ غريتا(١١)، غريتتي، ما كانت تفعله ماما، وأريتها فرفورتي. حينئذ أبعدت يدي بسرعة عن فرفورتي». ولما اعترضت عليه بقولي إنه إما أن يكون رآها في قميصها الداخلي أو

١١ ـ غريتا هي واحدة من البنات الصغيرات في غموندن، وحولها يبني تخييلاته، وهو يثرثر ويلعب معها.



عارية تماماً، أجاب هانز: «كانت في قميصها الداخلي، لكن القميص كان قصيراً جداً فرأيت فرفورتها».

لم يكن ذلك كله حلماً، بل تخييلاً استمنائياً، وهو على كلّ حال مكافئ لحلم. وبديهي أن ما حمل هانز على أن يجعل أمه تفعله كان يفيده في تبرير ذاته: «إن كانت ماما تعرض فرفورتها، فباستطاعتي أن أفعل مثلها».

إن هذا التخييل يشفّ لنا عن شيئين: أولهما أن تأنيبات أمه كان لها، في حينها، تأثير بالغ على هانز، وثانيهما أن الشروح التي قُدِّمت له عن عدم وجود فرفورة لدى النساء لم تلقَ للوهلة الأولى قبولاً عنده. فقد أسف لأن الأمر كذلك، وتشبّث في مخيِّلته بوجهة نظره السابقة. وربما كان لديه أيضاً من الأسباب ما حمله على رفض تصديق والده في بداية الأمر.

التقرير الأسبوعي لوالد هانز

«سيدي الأستاذ المحترم! أرفق ضمناً تتمة قصة هانز ـ وهي نبذة مهمة للغاية. لعلي سأبيح لنفسي أن أحضر يوم الاثنين القادم لاستشارتك، وأن آتي معي بهانز إذا أمكن ـ بشرط أن يقبل بالمجيء. لقد سألته اليوم: «أتريد أن تأتي معي إلى عند الأستاذ الذي سيخلِّصك من «حماقتك»؟

هو: كلا.

أنا: لكن له بنتاً صغيرة جميلة جداً.

«وعلى الأثر وافق هانز وهو مسرور.

«الأحد ٢٢ آذار/ مارس. اقترحت على هانز، رغبة مني في توسيع برنامج يوم الأحد، أن نذهب أولاً إلى شونبرون، وأن ننتظر العصر لنذهب من هناك إلى لاينز. وعلى هذا، كان عليه أن يسير على قدميه، لا من بيتنا إلى محطة الجمارك المركزية في شتاتبان[١٢] فحسب، بل كذلك من محطة هيتزينغ[١٣] إلى

١٢ ـ محطة الجمارك المركزية لسكة الحديد المحلية لضواحي فيينا. «م».

١٣ ـ ضاحية مجاورة لقصر شونبرون. «(م)».



على نحو واضح إلى ما سيلقاه من مساعدة في صراعه: «أوه! إذا نمت هذا المساء في كيس، فإن الحماقة تكون قد زالت غداً». وبالفعل، بات خوفه من الأحصنة **أقلّ بكثير**، وقد راح ينظر بهدوء نسبي إلى العربات وهي تمرّ أمامه.

«كان هانز قد وعدني بالذهاب معي إلى لاينز في يوم الأحد التالي، الواقع في ١٥ آذار/ مارس. وقد قاوم في أول الأمر، ثم ما لبث أن صحبني. في الطريق كانت العربات قليلة، وكان واضحاً أنه يشعر بأنه على أحسن ما يرام، وقال: «ما أعظم ذكاء الله: فقد قضى على الأحصنة!». وفي الطريق شرحت له أن أخته ليس لها فرفورة نظير فرفورته. وقلت له إن البنات الصغيرات والنساء لا فرفورة لهن. وماما ليس لها، وآنا كذلك، وهلمّ جرا.

هانز: وأنت، ألك فرفورة؟

أنا: بالطبع، ماذا كنت تتصور؟

هانز: (بعد هنيهة صمت): كيف تفرفر البنات الصغيرات إذاً، إن لم يكن لهم فرفورة؟

أنا: ليس لهن فرفورة مثل فرفورتك. ألم تلاحظ ذلك عند تحميم آنا؟

«بقي طوال النهار في غاية من المرح، وتزحلق على الجليد، إلخ، ولم يعاوده الاكتئاب إلا مساء، وبدا عليه الخوف من الأحصنة.

«في ذلك المساء كانت النوبة العصبية والحاجة إلى **التدلّع** أقل بروزاً مما في الأيام السابقة. وفي اليوم التالي أخذته أمه معها إلى المدينة، فأصابه رعب شديد في الشوارع. وفي الغداة لزم البيت، وكان في غاية المرح. وفي صبيحة اليوم الثالث استيقظ بعد حوالي الساعة السادسة فريسة لحصَر شديد. ولما سألناه ما به، روى قائلاً:«وضعت إصبعي، ولكن قليلاً جداً، على فرفورتي. عندئذ رأيت ماما عارية تماماً في قميصها الداخلي، وتركتني أرى فرفورتها. أريْتُ غريتا[١١]، غريتتي، ما كانت تفعله ماما، وأريتها فرفورتي. حينئذ أبعدت يدي بسرعة عن فرفورتي». ولما اعترضت عليه بقولي إنه إما أن يكون رآها في قميصها الداخلي أو

١١ ـ غريتا هي واحدة من البنات الصغيرات في غموندن، وحولها يبني تخييلاته، وهو يثرثر ويلعب معها.



عارية تماماً، أجاب هانز: «كانت في قميصها الداخلي، لكن القميص كان قصيراً جداً فرأيت فرفورتها».

لم يكن ذلك كله حلماً، بل تخييلاً استمنائياً، وهو على كل حال مكافئ لحلم. وبديهي أن ما حمل هانز على أن يجعل أمه تفعله كان يفيده في تبرير ذاته: «إن كانت ماما تعرض فرفورتها، فباستطاعتي أن أفعل مثلها».

إن هذا التخييل يشفّ لنا عن شيئين: أولهما أن تأنيبات أمه كان لها، في حينها، تأثير بالغ على هانز، وثانيهما أن الشروح التي قُدِّمت له عن عدم وجود فرفورة لدى النساء لم تلقَ للوهلة الأولى قبولاً عنده. فقد أسف لأن الأمر كذلك، وتشبّث في مخيِّلته بوجهة نظره السابقة. وربما كان لديه أيضاً من الأسباب ما حمله على رفض تصديق والده في بداية الأمر.

التقرير الأسبوعي لوالد هانز

«سيدي الأستاذ المحترم! أرفق ضمناً تتمة قصة هانز ـ وهي نبذة مهمة للغاية. لعلي سأبيح لنفسي أن أحضر يوم الاثنين القادم لاستشارتك، وأن آتي معي بهانز إذا أمكن ـ بشرط أن يقبل بالمجيء. لقد سألته اليوم: «أتريد أن تأتي معي إلى عند الأستاذ الذي سيخلِّصك من «حماقتك»؟

هو: كلا.

أنا: لكن له بنتاً صغيرة جميلة جداً.

«وعلى الأثر وافق هانز وهو مسرور.

«الأحد ٢٢ آذار/ مارس. اقترحت على هانز، رغبة مني في توسيع برنامج يوم الأحد، أن نذهب أولاً إلى شونبرون، وأن ننتظر العصر لنذهب من هناك إلى لاينز. وعلى هذا، كان عليه أن يسير على قدميه، لا من بيتنا إلى محطة الجمارك المركزية في شتاتبان[١٢] فحسب، بل كذلك من محطة هيتزينغ[١٣] إلى

---

١٢ ـ محطة الجمارك المركزية لسكة الحديد المحلية لضواحي فيينا. «م».

١٣ ـ ضاحية مجاورة لقصر شونبرون. «(م)».



شونبرون، ومن هناك من جديد إلى محطة الترام البخاري في هيتزينغ. وقد أمكن له أن يقطع هذه المسافة كلها، محوِّلاً عينيه بسرعة، وقد أخذه رعب ظاهر، كلما رأى أحصنة تمرّ، وكان بعمله هذا يتقيَّد بنصيحة أسدتها إليه أمه.

«في شونبرون انتابه الخوف من بعض الحيوانات التي كان يتأملها فيما سبق بلا خوف. ومن ذلك أنه أبى إباءً باتراً الدخول إلى جناح الزرافة، وأبى كذلك أن يذهب لرؤية الفيل الذي كان يسلِّيه إلى أقصى حدّ في العادة. وقد انتابه الخوف من جميع الحيوانات الكبيرة، بينما طاب له مرأى الحيوانات الصغيرة. ومن بين الطيور كان البجع هو الذي أخافه هذه المرة، بسبب حجمه أيضاً بطبيعة الحال، وهذا أمر لم يحدث له من قبل قط.

«قلت عندئذ لهانز: أتعرف لماذا تخاف من الحيوانات الكبيرة؟ إن للحيوانات الكبيرة فرفورة كبيرة، وأنت تخاف في الواقع من الفرفورات الكبيرة.

هانز: لكنني لم أرَ إلى الآن فرفورة الحيوانات الكبيرة[١٤].

أنا: لكنك رأيت فرفورة الحصان، والحصان حيوان كبير بالتأكيد.

هانز: أوه! فرفورة الحصان، كثيراً! مرة في غموندن، حين كانت العربة واقفة أمام الباب، ومرة أخرى أمام الجمارك المركزية.

أنا: حينما كنت صغيراً، فالأرجح أنك دخلت إلى إصطبل...

هانز (مقاطعاً إياي): أجل، في غموندن كنت أذهب يومياً إلى الإصطبل ساعة رجوع الأحصنة إلى البيت.

أنا: وأرجح الظن أنك ارتعبت لما رأيت مرة فرفورة الحصان الكبيرة. لكن ما كان عليك أن تخاف. فالحيوانات الكبيرة لها فرفورات كبيرة، والحيوانات الصغيرة لها فرفورات صغيرة.

هانز: وجميع الناس لهم فرفورة، وفرفورتي ستكبر معي، عندما أكبر، لأنها ثابتة في مكانها.

١٤ ـ هذا غير صحيح. انظر تعجب هانز أمام قفص الأسد (ص ١٤٧). وهذه في أغلب الظن بداية «نساية» ناجمة عن الكبت.



«هنا انتهت محادثتنا. وفي الأيام التالية بدا خوفه وكأنه ازداد من جديد بعض الشيء! وصار هانز لا يجازف إلا بعد لأي بالخروج إلى أمام باب البيت، حيث يُقتاد إليه بعد الغداء».

إن كلمات العزاء الأخيرة التي وجهها هانز إلى نفسه تسلط ضوءاً على الموقف وتتيح لنا أن نجري بعض التصحيح على توكيدات أبيه. فصحيح أن هانز يخاف من الحيوانات الكبيرة لأنه يجد نفسه مكرهاً على التفكير بفرفورتها. لكن لا يسعنا القول حقاً إنه يخاف من الفرفورة الكبيرة بحدّ ذاتها. ففي السابق كانت فكرة الفرفورة الكبيرة فكرة سارة له حقاً، وكان يسعى بكل قواه إلى أن يلمح واحدة. لكن هذه اللذة فسدت بالنسبة إليه بعدئذ، وهذا بنتيجة الانقلاب العام للذة إلى كدر، وهو الانقلاب الذي أصاب، على نحو لا تفسير له بعد، كل تحرياته الجنسية، وكذلك - وهو ما يبدو لنا أكثر وضوحاً - بنتيجة بعض الخبرات والملاحظات التي أفضت إلى نتائج مؤلمة. إن تعزية هانز لنفسه: «فرفورتي ستكبر معي عندما أكبر»، تتيح لنا أن نستنتج أن هانز ما انفكّ، في أثناء معايناته ومشاهداته، يعقد المقارنات، وأنه لم يكن راضياً عن حجم فرفورته. وكانت الحيوانات الكبيرة تذكِّره بهذه النقيصة. ولهذا كان يستكره مرآها. ولكن بما أن كل سلسلة الأفكار هذه لا تقتدر، في أرجح الظن، على أن تصير شعورية إلى حدّ واضح، فإن ذلك الإحساس المؤلم انقلب بدوره إلى حصَر، بحيث يكون حصر هانز الراهن انبنى على الشيئين كليهما: لذته السابقة وألمه الحاضر. ومتى ما قامت حالة حصر، فإن الحصر يبتلع جميع المشاعر الأخرى. ومع تقدم الكبت، وطرداً مع أيلولة التمثلات المشحونة انفعالياً إلى اللاشعور، بعد أن كانت شعورية، تغدو جميع الشحنات الانفعالية قابلة للتحوُّل إلى حصَر.

إن ملاحظة هانز الغريبة: «لأنها ثابتة في مكانها» تتيح لنا، بإرجاعها إلى جملة أقواله العزائية، أن نحزر كثرة من الأشياء التي لا يسعه التعبير عنها، والتي لم يعبر عنها على كل حال في أثناء هذا التحليل. وسأسدّ جزئياً هذه الثغرة بالاستناد إلى ما كسبته من خبرة في تحليل الراشدين، لكني آمل ألا يُعتبر تأويلي هذا مبتسراً أو تعسفياً. فإن تكن قولته «لأنها ثابتة في مكانها» ضرباً من العزاء والتحدي، فإنها



تذكِّرنا بالتهديد القديم الذي تلقاه هانز من أمه حينما قالت له إنها ستبعث في طلب من يقطع له فرفورته إن استمرّ يعبث بها. وقد بقي هذا التهديد، الذي واجهه هانز يوم كان له من العمر ثلاث سنوات ونصف سنة، غير ذي مفعول آنئذ، إذ أجاب هانز بطمأنينة إنه سيتبول حالتئذ من «طزطوزته». وإنه لأمر مألوف تماماً ألا يفعل التهديد بالخصاء فعله إلا آجلاً، وألا يقع هانز فريسة الحصر والخوف من أن يفقد ذلك الجزء الثمين من أناه إلا بعد مرور عام واحد وثلاثة أشهر. وفي مقدورنا أن نلحظ، في حالات مرَضية أخرى، مثل هذه المفاعيل الآجلة لأوامر وتهديدات صادرة في عهد الطفولة، إذ يمتد الفاصل الزمني بين الأمر أو التهديد وبين مفعوله عشراً من السنين أو أكثر. بل إني لأعرف حالات كان فيها لـ «**الطاعة المؤجلة**» بتأثير الكبت الدور الرئيسي في تعيين الأعراض المرَضية.

أما الإيضاحات التي قُدمت مؤخراً إلى هانز بخصوص انعدام وجود فرفورات لدى النساء فلا يمكن إلا أن تكون زعزعت ثقته بنفسه وأيقظت عقدته الخصائية. ولهذا تمرد على هذه الإيضاحات، ولهذا أيضاً لم تتمخض عن نتائج علاجية. أتوجد حقاً مخلوقات لا فرفورة لها؟ إذاً فليس أمراً بعيداً إلى هذا الحدّ عن التصديق أن يكون في المستطاع تجريده من فرفورته، وتحويله، إن جاز القول، إلى امرأة(١٥)!

١٥ ـ لا أستطيع أن أقطع هنا مجرى هذا العرض لأبيِّن كم هي نمطية هذه السلسلة اللاشعورية من الأفكار التي أعزوها هنا إلى هانز الصغير. فعقدة الخصاء هي الجذر اللاشعوري الأعمق للاسامية، لأن الصبي الصغير يسمع، حتى وهو في دار الحضانة، أن اليهودي يُقتطع شيء ما من قضيبه ـ قطعة من القضيب نفسه، هكذا يفهم ـ وهذا ما يخوّله الحقَّ في احتقار اليهودي. وليس ثمة من جذر لاشعوري أعمق أيضاً للإحساس بالتفوق على النساء. إن الفيلسوف الشاب فايننغر(*)، الذي كان رفيع الموهبة وإن كان يعاني أيضاً من اضطرابات جنسية والذي انتحر بعد أن فرغ من كتابه العجيب: **الجنس والطبع**، قد عامل، في فصل كان له وقع كبير من كتابه هذا، اليهود والنساء بقدر متعادل من العدائية، وصبّ عليهم جميعاً مسبّاته. ولقد كان فايننغر، كعصابي، تحكمه عقده الطفلية؛ ومن هذا المنظور كانت العلاقة بالخصاء هي القاسم المشترك بين اليهودي والمرأة.

(*) فايننغر: كاتب وفيسلوف نمساوي يهودي (١٨٨٠ ـ ١٩٠٣). عرف كتابه **الجنس والطبع** شهرة كبيرة بعد انتحاره في سن الثالثة والعشرين، وقد حاول أن يثبت فيه «علمياً» أن الإنسان مركب من مقوِّمين مذكر ومؤنث، وبالتالي من عقل وجسد، وأن عليه بالتالي أن يغلّب ذكورته على أنوثته وعقله على جسده. «م».



«في ليلة السابع والعشرين إلى الثامن والعشرين فاجأنا هانز بنهوضه من سريره في قلب الليل وبقدومه للانضمام إلينا في سريرنا. كانت حجرة صغيرة تفصل غرفته عن غرفتنا. وسألناه لماذا فعل ذلك، وهل هو خائف. فأجاب: «كلا، سأخبركما بذلك غداً»، ونام في سريرنا، ثم حملناه بعد ذلك إلى سريره.

«في اليوم التالي استجوبت هانز لأتبيَّن سبب قدومه للانضمام إلينا في أثناء الليل، وبعد شيء من المقاومة من جانبه دار بيننا الحوار التالي الذي دوَّنته حالاً بطريقة الاختزال:

هو: في الليل، كان في الغرفة زرافة كبيرة وزرافة مدعوكة، وقد صاحت الكبيرة لأنني أخذت منها المدعوكة. بعدئذ توقفت عن الصياح، وعندئذ جلست على الزرافة المدعوكة.

أنا (متحيراً): ماذا؟ زرافة مدعوكة؟ كيف ذلك؟

هو: بلى (ذهب وأتى بسرعة بقطعة من الورق، ودعكها وقال):

«كانت مدعوكة هكذا».

أنا: وجلست على الزرافة المدعوكة؟ كيف؟

«فأراني ذلك من جديد بجلوسه على الأرض.

أنا: لماذا جئت إلى غرفتنا؟

هو: أنا نفسي لا أعرف.

أنا: هل خفت؟

هو: كلا. بالتأكيد لا!

أنا: هل حلمت بتلك الزرافات؟

هو: كلا، لم أحلم. تخيّلت ذلك. تخيّلت ذلك كله. كنت قد استيقظت من قبل.

أنا: ماذا تعني: زرافة مدعوكة؟ أنت تعلم أنه ليس في المستطاع كرمشة الزرافة باليد وكأنها قطعة ورق.



هو: أعلم، وإنما تخيَّلت الأمر فقط. مؤكد أنه لا وجود لذلك حقاً[١٦]. كانت المدعوكة متمددة على الأرض تماماً، وقد حملتها، وأخذتها بيدي.

أنا: عجباً! كيف أمكنك أن تأخذ زرافة كبيرة كتلك بيديك؟

هو: المدعوكة، أخذتها بيدي.

أنا: أين كانت الكبيرة في أثناء ذلك؟

هو: الكبيرة كانت تقف على بعد قليل.

أنا: ماذا فعلت بالمدعوكة؟

هو: أمسكتها بيدي لوقت قليل، إلى أن انتهت الكبيرة من الصياح، وحين انتهت الكبيرة من الصراخ جلست فوقها.

أنا: لماذا صاحت الكبيرة؟

هو: لأنني أخذت منها الصغيرة (لاحَظَ أنني أدوِّن كل شيء وسأل: «لماذا تكتب ذلك؟»).

أنا: لأنني سأرسله إلى أستاذ يستطيع أن يخلِّصك من **حماقتك**.

هو: آه! إذاً، فقد كتبت أيضاً أن ماما خلعت قميصها، وسوف ترسل ذلك أيضاً إلى الأستاذ.

أنا: أجل، لكنه لن يفهم كيف يمكنك أن تتصور أنه في الإمكان دعك زرافة.

هو: قل له فقط إنني أنا نفسي لا أعرف، ولن يسأل شيئاً، ومع ذلك، إن سأل ما هي الزرافة المدعوكة، ففي استطاعته عندئذ أن يكتب إلينا وسوف نجاوبه، أو فلنكتب له حالاً أنني أنا نفسي لا أعرف.

أنا: ولكن لماذا جئت إلينا ليلاً؟

هو: لا أعرف.

أنا: قل لي بسرعة بأي شيء تفكر؟

---

١٦ ـ بجلاء كبير يعبِّر هانز هكذا بطريقته الخاصة عن أن الأمر كان مجرد تخييل.



هو (بشيء من الدعابة): بشراب التوت [واحدة من أمانيه].

أنا: وبماذا أيضاً؟

هو: ببندقية للقتل[١٧] [واحدة أيضاً من أمانيه].

أنا: أمتأكد أنك لم تحلم بذلك؟

هو: بالتأكيد لا، أنا متأكد تماماً.

«واستطرد يقول: «رجتني ماما طويلاً أن أخبرها لماذا أتيت إليكما ليلاً. لكني لم أشأ إخبارها، لأنني أولاً كنت أشعر بالخجل أمام ماما».

أنا: لماذا؟

هو: لا أدري.

«وبالفعل، كانت زوجتي قد استجوبته طوال الصباح إلى أن روى لها قصة الزرافات».

في اليوم نفسه اهتدى والد هانز إلى حلّ أخيولة الزرافات:

«الزرافة الكبيرة هي أنا ـ أو بالأحرى القضيب الكبير (العنق الطويل)، والزرافة المدعوكة، هي زوجتي، أو بالأحرى عضوها التناسلي، وهذا ما ينمّ عن نجاح تلك الإيضاحات التي كنت قدَّمتها إلى هانز».

«الزرافة: إحالة إلى النزهة في شونبرون. وفضلاً عن ذلك كان قد علَّق فوق سريره صورة لزرافة وفيل».

«المشهد برمَّته تكرر بصورة شبه يومية في صبيحة كل يوم من الأيام القليلة الأخيرة. فهانز يأتي للانضمام إلينا في ساعة مبكرة من الصباح، وزوجتي لا تستطيع أن تقاوم أخذه إلى سريرها بضع دقائق، فأبدأ عندئذ دوماً بتنبيهها إلى عدم جواز أخذه على هذا النحو إلى سريرها («صاحت الكبيرة لأنني أخذت منها الزرافة المدعوكة»). وكانت زوجتي تجيب أحياناً، وبشيء من الاحتداد، أن هذا

---

١٧ ـ يحاول الأب هنا، في حيرته، أن يستخدم التقنية التقليدية للتحليل النفسي. وهي لم تفضِ به إلى شيء يذكر، غير أن ما تمخضت عنه يمكن مع ذلك أن يكتسب أهمية على ضوء كشوف سيأتي بيانها لاحقاً.



سخف، وأن دقيقة واحدة لا يمكن أن تسبِّب ضرراً، وما إلى ذلك. وعندئذ يبقى معها هانز لهنيهة من الزمن («بعدئذ توقفت الزرافة الكبيرة عن الصياح، وعندئذ جلست على الزرافة المدعوكة»).

«وتفسير هذا المشهد في سرير الحياة الزوجية، المنقول إلى حياة الزرافات، هو التالي على هذا الأساس: لقد استبدّ بهانز في الليل الحنين إلى أمه، وإلى مداعباتها، وإلى عضوها التناسلي، ولهذا جاء إلى غرفتنا. والأمر برمته استمرار لخوفه من الأحصنة».

لن أضيف إلى تأويل الأب النافذ إلا هذا: فأرجح الظن أن «الجلوس فوق» هو عند هانز تمثيل لفعل **الامتلاك**[١٨]. والأمر كله تخييلُ تحدٍّ، مرتبط باغتباطه بالانتصار على المقاومة الأبوية. «لك أن تصيح ما شئت، فماما ستأخذني على كل حال إلى فراشها، وماما ملكي أنا!». وما ذهب إليه ظن الأب يبدو هنا معقولاً: خوف هانز من أن أمه لا تحبه، لأن فرفورته ليست قابلة للمقارنة مع فرفورة أبيه.

في صبيحة اليوم التالي تسنى للأب أن يتحقق من صحة تأويله.

«في يوم الأحد، ٢٩ آذار/ مارس، ذهبت مع هانز إلى لاينز. عند الباب استأذنت زوجتي بالذهاب وقلت لها مازحاً: «إلى اللقاء، أيتها الزرافة الكبيرة!». فسأل هانز: «لماذا زرافة؟». فقلت: «ماما هي الزرافة الكبيرة». وعلى الأثر قال هانز: «أليس كذلك؟ وآنا هي الزرافة المدعوكة؟».

«في القطار شرحت له أخيولة الزرافات، فما كان منه إلا أن قال: «نعم هذا صحيح». ولما قلت له إنني أنا الزرافة الكبيرة، وإن العنق الطويل هو ما ذكّره بالفرفورة، أجاب: «لماما الصغيرة أيضاً عنق كالزرافة، وقد رأيتها حينما كانت تغسل عنقها الأبيض»[١٩].

١٨ ـ إن في الألمانية صلة اشتقاقية بين فعل امتلك BESITZEN وفعل جلس SITZENS. «م».

١٩ ـ يؤكد هانز هنا فقط صحة تأويل الزرافتين على أنهما الأب والأم، لا صحة الرمزية الجنسية التي تمثل بمقتضاها الزرافة عينها القضيب. هذه الرمزية هي في أرجح الظن صحيحة، ولكن ليس علينا أن نطلب من هانز المزيد.



«في يوم الاثنين، ٣٠ آذار/مارس، قدِم هانز إليّ صباحاً وقال: «أتعرف، لقد تخيَّلت شيئين هذا الصباح». - «الأول؟» - «أنا معك في شونبرون، حيث هناك الخراف، وعندئذ تسللنا من تحت الحبال، ثم أخبرنا بذلك رجل الشرطة الذي يقف عند باب الحديقة، فأوقفونا نحن الاثنين». أما الشيء الثاني فقد نسيه هانز.

«سأسجل هنا الملاحظة التالية، وهي أننا عندما عزمنا على الذهاب للتفرج على الخراف، كان ذلك الجزء من الحديقة مقفلاً بحبل، مما حال بيننا وبين الدخول. وقد دهش هانز كثيراً من إقفال جزء من الحديقة بمحض حبل يمكن التسلل من تحته بسهولة. فقلت له إن الناس المهذَّبين لا يمرّون من تحت الحبال. فقال إن ذلك سهل جداً، فأجبته إنه من الممكن أن يتدخل عندئذ رجل الشرطة فيقتادنا. وعند مدخل شونبرون كان يقف حارس من الشرطة، وقد قلت عنه مرة لهانز إنه يقبض على الأشقياء من الأطفال.

«لدى عودتنا من زيارتنا لك، وهي التي تمّت في اليوم نفسه، اعترف هانز برغبة أخرى في فعل شيء ممنوع: «أتعرف، هذا الصباح تخيَّلت شيئاً آخر أيضاً». - «ما هو؟». - كنت معك في القطار، فكسرنا زجاج نافذة، واقتادنا رجل الشرطة».

تلك كانت التتمة الحقيقية لأخيولة الزرافات. فهانز يشتبه أنه من المحظور امتلاك الأم، إذ اصطدم بحاجز المحارم. لكنه يعتقد أن الشيء محظور بحدّ ذاته. لذا فإن أباه يكون معه دائماً ويُعتقل معه في جميع المغامرات المحظورة التي يقوم بها في مخيِّلته. فهو يحسب أن أباه يفعل مع أمه ذلك الشيء المحظور الغامض الذي يستعيض عنه بفعل من أفعال العنف كتحطيم زجاج نافذة أو اقتحام مكان مغلق عنوة.

في عصر ذلك اليوم قدِم الأب والابن لمقابلتي في عيادتي. وكنت أعرف من قبل هذا الصبي الصغير الظريف، وكان، على اعتداده بنفسه، لطيفاً للغاية، فكنت في كل مرة أُسرّ لرؤيته. لست أدري إن كان يذكرني، ولكنه سلك سلوكاً لا غبار عليه وكأنه عضو عاقل تماماً من أعضاء المجتمع البشري. ولم تدم الاستشارة طويلاً. وقد استهلَّها الأب بالقول إنه، بالرغم من كل ما قدَّمه من إيضاحات لهانز، بقي خوفه من الأحصنة كما هو لم ينقص. ولم يكن لنا مناص



من أن نقرّ أيضاً بأن العلاقات كانت ضئيلة للغاية بين الأحصنة التي يخافها وبين صبواته الحبِّية التي تكشَّفت تجاه أمه. وبعض التفاصيل التي علمتها إذ ذاك - ومنها أنه كان يتضايق جداً مما يوضع حول عيون الأحصنة ومن «الشيء الأسود» حول الفم - لم تكن بالتأكيد قابلة للتفسير بما كنا نعرفه. ولكن فيما كنت أنظر إلى الأب والابن كليهما، وهما جالسان أمامي، وأصغي إلى وصف هانز «لأحصنته المثيرة لحَصَره»، تبادر إلى ذهني على نحو مفاجئ جانب جديد من حلّ المعضلة، وهو جانب أفهم أن يكون قد أفلت من الأب تحديداً. سألت هانز بلهجة مازحة عما إذا كانت أحصنته تضع «عوينات»[٢٠]، فأنكر ذلك، ثم عما إذا كان أبوه يضع عوينات، فأنكر أيضاً بكل بداهة؛ وسألته أخيراً عما إذا كان يقصد بالشيء الأسود حول «الفم» الشارب؛ وكشفت له عندئذ أنه يخاف أباه على وجه التحديد لأنه يحبّ أمه حباً جماً. وقلت له إنه لا بدّ أن يكون تصوَّر أن أباه غاضب عليه لهذا السبب، ولكن هذا غير صحيح، فأبوه يحبّه، وبوسعه أن يفضي إليه بكل شيء دونما خوف. وقلت له أيضاً إنني، قبل أن يأتي إلى العالم بزمن طويل، كنت أعلم أن هانزاً صغيراً سوف يولد يوماً وسوف يكون مغرماً بأمه إلى حدٍّ سيرغمه فيما بعد على أن يخاف من أبيه، وإنني أعلمت أباه بذلك. عندئذ قاطعني والد هانز ليقول له: «لماذا تعتقد أنني غاضب عليك؟ هل وبَّختك أو ضربتك يوماً؟». فقال هانز مصححاً: «أوه! نعم، لقد ضربتني». - «هذا غير صحيح. متى كان ذلك؟». - «هذا الصباح»، أجاب الصبي الصغير. وتذكر أبوه أن هانز كان نطحه برأسه على نحو مباغت في بطنه، فضربه بيده على سبيل ردّ الفعل غير الإرادي. وإنه لأمر يدعو إلى الاستغراب ألا يكون الأب قد سجّل هذا التفصيل ضمن السياق الإجمالي للعصاب؛ على أنه تنبَّه له الآن، بوصفه تعبيراً عن موقف الطفل العدائي منه، وربما أيضاً بوصفه تعبيراً عن الحاجة إلى أن يعاقب على ذلك[٢١].

٢٠ - العوينات BINOCLES: نظارت توضع على الأنف بدون الأذنين. «م».

٢١ - كرّر الطفل فيما بعد هذا المسلك تجاه أبيه على نحو أوضح وأكمل، إذ كان يضرب أباه أولاً على يده، ثم يقبّل بحنان وعطف هذه اليد نفسها.



سأل هانز أباه وهما في طريق العودة من عندي: «هل يتكلم الأستاذ مع الله بحيث يمكنه أن يعرف كل ذلك سلفاً؟». وكنت سأكون عظيم الفخر بهذه الشهادة الصادرة على لسان طفل، لولا أني كنت استثرتها بنفسي بتفاخري الفكِه. وابتداء من يوم تلك الاستشارة تلقيت تقارير شبه يومية عن التغيرات الطارئة على حالة المريض الصغير. وما كان لنا أن نتوقع أن تخلصه إيضاحاتي دفعة واحدة من حصره، لكن غدا من الواضح أن الإمكانية باتت متاحة له الآن ليخرِج إلى النور منتجاته اللاشعورية وليعمل على تصفية رهابه. وابتداء من ذلك الحين مضى ينفِّذ برنامجاً أمكنني أن أتوقَّعه وأخبر به أباه سلفاً.

«في الثاني من نيسان/أبريل طرأ **أول تحسن حقيقي** جدير بالتسجيل. فعلى حين أننا ما كنا نستطيع في السابق أن نحمله على الخروج لبعض الوقت متخطياً الباب الخارجي، وعلى حين أنه كان يرتدّ على عقبيه إلى البيت مهرولاً كلما اقتربت أحصنة، وقد بدت عليه إمارات الخوف، لبث هذه المرة ساعة كاملة أمام الباب الخارجي، حتى في أثناء مرور العربات، وهو مشهد متواتر أمام منزلنا. صحيح أنه كان بين الحين والآخر يجري عائداً إلى البيت إذا ما أبصر بعربة قادمة من بعيد، ولكنه سرعان ما كان يرجع القهقرى وكأنه عدل عن رأيه. ومهما يكن من أمر، فإنه لم يتبقَّ من الحصر إلا رسابة، والتقدم الذي تمّ إحرازه منذ الإيضاحات التي قُدِّمت لهانز ليس مما يمكن تجاهله.

«في المساء قال: «ما دمنا سنذهب الآن إلى أمام الباب الخارجي، فسنذهب أيضاً إلى شتادبارك».

«في الثالث من نيسان/أبريل جاء في ساعة مبكرة إلى سريري، على حين كان امتنع في الأيام السابقة عن المجيء، بل كان يبدو عليه الفخر لامتناعه هذا. سألته: «لماذا جئت اليوم؟».

هانز: حينما لن أعود أخاف فلن أجيء أبداً.

أنا: إذاً فقد جئت إليّ لأنك خائف؟

هانز: حينما لا أكون معك أخاف، وحينما لا أكون في السرير معك، فعندئذ



أكون خائفاً. يوم لن أعود أخاف فلن أجيء أبداً.

أنا: إذاً فأنت تحبّني، وأنت تخاف عندما تكون في سريرك صباحاً، ولهذا تأتي إليّ؟

هانز: نعم. لماذا قلت لي إنني أحبّ **ماما** وإنني لهذا السبب أخاف، مع أنني أحبّك أنت؟».

يدلِّل الصبي الصغير هنا على درجة في وضوح الرؤية نادرة حقاً. فهو يتيح لنا أن ندرك أن حبه لأبيه يصطرع في داخله مع عدائه له بسبب الدور الذي يضطلع به كغريم له لدى الأم، وهو يلوم والده على أنه لم يتوجَّه بانتباهه بعد إلى صراع القوى هذا الذي لم يكن مناص من أن يفضي إلى حصر. والواقع أن الأب لم يكن يفهمه بعد تمام الفهم، لأنه لم يفلح، في أثناء ذلك الحديث، إلا بالاقتناع بعدائية الصبي الصغير تجاهه، على نحو ما أكَّدته له في أثناء زيارتهما لاستشارتي. وما سيلي ـ وسأنسخه بدون أي تغيير ـ هو في الحقيقة أكثر أهمية بخصوص تقدُّم الفهم عند الأب منه عند المريض الصغير.

«من سوء الحظ أنني لم أفهم للحال معنى ذلك اللوم. فلأن هانز يحبّ أمه، فمن الواضح أنه يتمنى لو أنني لم أكن موجوداً: ففي هذه الحال كان سيأخذ مكان أبيه. وهذه الرغبة العدائية المكبوحة تتحول إلى حصر بخصوص ما يقع للأب، ولذا يأتيني صباحاً ليرى إن كنت رحلت. من سوء الحظ أنني لم أفهم ذلك وقتئذ، بل قلت له:

أنا: إذاً عندما تكون وحيداً، يأخذك القلق عليَّ، وتأتي لتراني.

هانز: أنا عندما لا تكون هنا، أخاف ألا ترجع إلى البيت.

أنا: هل هددتك مرة بأنني لن أرجع إلى البيت؟

هانز: أنت لا، بل ماما. ماما قالت لي إنها لن ترجع إلى البيت و(أرجح الظن أنه كان أتى فعلاً من أفعال الشقاوة فهدَّدته بأن ترحل).

أنا: قالت ذلك بسبب شقاوتك.

هانز: نعم.



أنا: أنت تخاف إذاً أن أرحل بسبب ما كان من شقاوتك، ولهذا تأتي لتراني.

«عندما كنت أهمّ بالنهوض عن المائدة بعد طعام الإفطار، قال هانز: «بابا، ابقَ! لا تذهب عدْواً!». فعجبت لقوله «عدواً»[٢٢] بدلاً من «ركضاً»، وأجبت: «أوه، أوه، أنت تخاف أن يتركك الحصان عدواً». فما كان منه إلا أن ضحك.

إننا نعلم أن لهذا الجزء من حصر هانز مقوّمين اثنين: الخوف من الأب والخوف على الابن. والأول ناشئ عن عدائه لأبيه، والثاني عن الصراع بين الحب ـ المغالى فيه من قبيل ردّ الفعل ـ وبين العداء.

تابع الأب يقول: «تلك بلا ريب بداية مرحلة مهمة. فهو إن كان يجازف في أحسن الأحوال بالخروج إلى أمام البيت، وإن كان لا يجرؤ مع ذلك على الابتعاد عن البيت، بل يقفل راجعاً في منتصف الطريق حالما تنتابه مشاعر الحصر الأولى، فالدافع إلى ذلك كله خوفه من ألا يجد والديه في البيت إذ يكونان قد رحلا. إنه يبقى لصيقاً بالبيت بسبب حبِّه لأمه، ويخاف من رحيلي عنه بسبب الرغبات العدائية التي يكنّها ضدي، وذلك لأن رحيلي أنا يعني أن يصير هو الأب.

«كنت في الصيف المنصرم قد اضطررت في عدة مناسبات إلى مغادرة غموندن إلى فيينا بسبب أعمالي، وكان يصير عندئذ هو الأب. وسأعود فأذكِّر بأن خوفه من الأحصنة يرتبط بواقعة من أيام غموندن، حينما كان يتعيَّن على حصان من الأحصنة أن يحمل أمتعة ليزي إلى المحطة. فالرغبة المكبوتة في أن يراني أذهب إلى المحطة كيما يبقى بمفرده مع أمه («كان على الحصان أن يذهب») تتحول عندئذ إلى حصر من رؤية الأحصنة تتهيأ للرحيل. وفي الواقع ما كان يثير فيه مثل هذه الحالة من الحصر كأن تتقلقل، من فناء محطة

---

٢٢ ـ العَدْو: جري الفرس السريع، ونحن نلجأ هنا إلى التعبير بالعربية الفصحى لعجزنا عن إيجاد مقابل عربي للتعبير الألماني بلغة الصغار. «م».



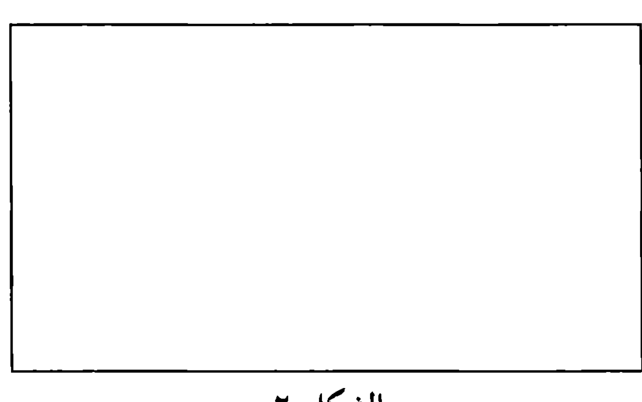
الجمارك المركزية المواجهة لمنزلنا، عربة استعداداً للرحيل وأن تشرع الأحصنة بالتحرك.

«كان لا بدّ، كيما ترسي هذه المرحلة الجديدة (مشاعر العداء تجاه الأب) جذورها، من أن يعلم هانز أنني لست غاضباً عليه لحبّه المغرم بأمه.

«عند العصر خرجت من جديد معه إلى أمام الباب الخارجي. وقدم إلى أمام البيت وبقي هناك حتى عندما مرّت عربات. وما انتابه الخوف فجرى إلى ردهة المدخل إلا لدى مرور بعض عربات بعينها. وقدّم لي أيضاً هذا التفسير: «ليست جميع الأحصنة البيض تعضّ». وهذا يعدل القول بأن بعض الأحصنة تمّ تعرّفها، بفضل التحليل، على أنها «بابا» فما عادت تعضّ، ولكن لا تزال هناك أحصنة أخرى تعضّ.

«إن خريطة الأماكن أمام بابنا الخارجي لهي كما يلي: ففي قبالتنا مستودع الجمارك للسلع الغذائية، وله رصيف للتحميل تمرّ أمامه، طوال النهار، عربات لتحميل صناديق وطرود وما شابه. ومن جهة الشارع كان حاجز من الشبك يسدّ هذا الفناء. وفي مواجهة منزلنا تقع بوابة الدخول إلى الفناء (انظر الشكل ٢). وكنت لاحظت منذ بضعة أيام أن هانز يرتعب بصفة خاصة حينما تدخل العربات إلى الفناء أو تخرج منه، مما يضطرها إلى الانعطاف. فسألته عندئذ لماذا يخاف إلى هذا الحدّ فأجاب: «**أخاف أن تقع الأحصنة منقلبة حين تدور العربة**» (أ). وهو يخاف أيضاً حينما تشرع بالتحرك على نحو مباغت العرباتُ الواقفة أمام رصيف التحميل استعداداً للرحيل (ب). وفضلاً عن ذلك إنه يخاف (جـ) من الأحصنة الكبيرة التي تستعمل كدواب أكثر مما يخاف من الأحصنة الصغيرة، ومن أحصنة المزارع البليدة أكثر من الأحصنة ذات الأشكال الرشيقة (وعلى سبيل المثال أحصنة عربات الأجرة). كما أنه يخاف عندما تمرّ عربة مسرعة (د) أكثر مما يخاف حين تتقدم الأحصنة على مهل. وهذه الفروق الدقيقة ما ظهرت بجلاء، بطبيعة الحال، إلا في الأيام القليلة الماضية».





الشكل ٢

إني لأجدني ميالاً إلى القول أن ليس المريض وحده، بل كذلك رهابه اكتسب، من جراء التحليل، مزيداً من الشجاعة واجترأ على الإبانة عن نفسه.

«في الخامس من نيسان/ أبريل، حضر هانز من جديد إلى غرفة نومنا، فرددناه إلى سريره. قلت له: «ما دمت تأتي صباحاً إلى غرفتنا، فإن خوفك من الأحصنة لن تحسن». إلا أنه أجابني بتحدٍ: «سآتي على كل حال، حتى ولو كنت خائفاً». وهذا معناه أنه لا يريد أن يرضخ للنهي عن الزيارات التي يقوم بها إلى أمه.

«بعد تناول طعام الفطور تهيأنا للنزول. فاغتبط هانز لذلك أيما اغتباط وفكَّر بأن يعبر الشارع، بدل أن يلبث كالعادة عند الباب الخارجي، ويدلف إلى الفناء، حيث كثيراً ما رأى الأولاد يلعبون، فقلت له إنني سأكون مسروراً إذا ما عبر إلى الفناء، وانتهزت هذه السانحة لأسأله لماذا يخاف إلى هذا الحدّ حينما تشرع العربات المحمَّلة بالتحرك عند رصيف التحميل (ب).

هانز: إنني أخاف إذا كنت فوق العربة أن تنطلق العربة بسرعة، فأبقى فوقها، وأمضي مع العربة، مع أنني أريد أن أنزل على العلوة (رصيف التحميل).

أنا: وعندما تقف العربة ساكنة؟ ألا تكون خائفاً عندئذ؟ ولماذا لا؟

هانز: عندما تكون العربة ساكنة، أستطيع بسرعة أن أصعد إلى العربة وأنزل منها إلى العلوة.

(«لقد خطط هانز إذاً للقفز إلى رصيف التحميل من فوق عربة، وهو يخشى



أن تمضي به العربة بينما هو فوقها)».



الشكل ٣

أنا: لعلك تخشى ألا تتمكن من الرجوع إلى البيت ثانية إن مضت بك العربة؟

هانز: أوه كلا، بوسعي أن أرجع لأجد ماما، إما بالعربة نفسها أو في عربة أجرة. أستطيع أيضاً أن أخبره برقم المنزل.

أنا: ممَّ خوفك إذاً؟

هانز: لا أعرف. غير أن الأستاذ سيعرف، أتعتقد أنه سيعرف؟

أنا: لماذا تريد إذاً أن تذهب إلى العلوة؟

هانز: لأنني لم أذهب إليها قط، وأريد جداً أن أذهب إليها. وهل تعرف لماذا أريد أن أذهب إلى هناك؟ لأنني أودّ تفريغ الطرود وتحميلها، وأريد أن أتسلق هناك فوق الطرود. أنا أحبّ كثيراً التسلق فوق الطرود. تسلَّق أولاد فوق الطرود وقد رأيتهم، وأنا أريد أن أفعل مثلهم.

«لم تتحقق رغبته، إذ عندما جازف هانز من جديد بالخروج إلى أمام البيت الخارجي، أيقظت فيه الخطوات القليلة التي خطاها في الشارع وفي الفناء مقاومات عاتية، نظراً إلى أن العربات كانت تدخل إلى الفناء وتخرج منه بلا انقطاع».

على كلٍّ، إن ما يعرفه الأستاذ هو أن تلك اللعبة التي كان هانز أزمع أن يلعبها مع العربات المحملة لا بدّ أن تُربط بعلاقة رمزية، بديلة، مع رغبة أخرى من رغباته



لم يكن قد أفصح عنها بعد. ولكن إذا لم يكن في الأمر غلوّ في الجرأة، فإن هذه الرغبة قابلة، حتى في هذا الطور، لأن يعاد بناؤها.

«بعد الظهر خرجنا من جديد إلى أمام الباب الخارجي، وفيما نحن عائدان سألت هانز: «من أي الأحصنة تخاف في الحقيقة أشدَّ الخوف؟»».

هانز: منها كلها.

أنا: هذا غير صحيح!

هانز: الأحصنة التي تخيفني أكثر من غيرها هي تلك التي لها شيء على فمها.

أنا: ماذا تقصد بذلك؟ أقطعة الحديد التي في أفواهها؟

هانز: كلا، إن لها شيئاً أسود حول فمها (وغطى فمه بيده).

أنا: ماذا؟ شارب، من الجائز؟

هانز (ضاحكاً): أوه لا!

أنا: ألها كلها هذا؟

هانز: كلا، بعضها فقط.

أنا: ما هذا الذي على فمها؟

هانز: شيء أسود (أعتقد أنه في الواقع تلك القطعة السميكة من الجلد التي توضع حول أخطام أحصنة الجر) (الشكل ٤).

الشكل ٤



هانز: وعربات نقل الأثاث، إني أخاف منها أيضاً أشدَّ الخوف.

أنا: لماذا؟

هانز: حين تجرّ أحصنةُ نقل الأثاث عربةً ثقيلة، أتصوَّر أنها ستقع.

أنا: إذاً، فأنت لا تخاف من العربات الصغيرة؟

هانز: كلا، لا أخاف من عربة صغيرة ولا من عربة بريد. ولكنني أخاف أشدَّ الخوف أيضاً حينما تأتي عربة أومنيباص(٢٣).

أنا: لماذا؟ لأنها كبيرة جداً؟

هانز: كلا، لأن حصان عربة أومنيباص وقع مرة.

أنا: متى كان ذلك؟

هانز: حينما خرجت مرة مع ماما على الرغم من **الحماقة**، وذلك عندما اشتريت الصدرية.

«أكَّدت أمه ذلك لاحقاً».

أنا: بماذا فكرت حين وقع الحصان؟

هانز: إن الأمر سيكون هكذا على الدوام. إن جميع أحصنة الأومنيباص ستقع.

أنا: في كل عربات الأومنيباص؟

هانز: بلى! وكذلك عربات نقل الأثاث. ولكن ليس كثيراً في عربات نقل الأثاث.

أنا: أكانت عندك **الحماقة** يومئذ؟

هانز: كلا، ولكنني حينئذ أصبت بها. حين وقع حصان الأومنيباص، خفت خوفاً شديداً حقًّاً! وفي تلك اللحظة أصبت بها.

---

٢٣ ـ الأومنيباص: أول عربة نقل عام اخترعت سنة ١٨٢٦، وهي عبارة عن عربتين تجرّهما الأحصنة وتتسعان لـ ١٦ راكباً. أما «الأومني» فهو اسم مخزن لبيع القبعات اتخذ منه الحوذيون الفييناويون محطة انطلاق لعرباتهم فصارت تُعرف باسم أومنيباص. «م».



أنا: كانت **الحماقة** اعتقادك بأن حصاناً سيعضّك، وها أنت تقول الآن إنك تخاف من أن حصاناً سيقع على قفاه.

هانز: يقع على قفاه ويعضّ[٢٤].

أنا: لماذا سبَّب لك ذلك كل هذا الخوف؟

هانز: لأن الحصان فعل هكذا بأرجله (تمدد أرضاً وأراني كيف كان الحصان يرفس). لقد خفت، **لأنه أحدث ضجيجاً شديداً بأقدامه.**

أنا: أين ذهبت في ذلك اليوم مع ماما؟

هانز: أولاً إلى سكاتنغ رينك[٢٥]، ثم إلى المقهى، ثم لشراء الصدرية، ثم إلى بائع الحلويات، ثم إلى البيت عند المساء. وقد عدنا عن طريق شتادبارك.

(كل ذلك أكدته فيما بعد زوجتي، كما أكدت أن حصر هانز تفجر بعد ذلك حالاً).

أنا: هل مات الحصان عندما وقع على قفاه؟

هانز: أجل.

أنا: كيف عرفت؟

هانز: لأنني رأيته - (وضحك). كلا، لم يمت.

أنا: لعلك اعتقدت أنه مات؟

هانز: كلا، بالتأكيد لا، قلت ذلك فقط للضحك.

«غير أن تعابير وجهه كانت جادة حين قال ذلك.

«نظراً إلى أنه كان متعباً، فقد تركته يذهب ويجري. وقال لي بعد ذلك أيضاً إنه كان يخاف من البداية من أحصنة الأومنيباصات، ثم من سائر الأحصنة،

---

٢٤ ـ إن هانز على حقّ، مهما بدت هذه المقاربة بعيدة الاحتمال. فسلسلة أفكاره كانت بالفعل، وكما سنرى، كما يلي: إن الحصان (الأب) سيعضّ هانز بسبب رغبة الطفل في أن يقع الحصان (الأب) على قفاه.

٢٥ ـ ميدان للتزلج. «م».



وأخيراً من أحصنة عربات نقل الأثاث.

«وفي طريق العودة من لاينز كانت بضعة أسئلة أخرى:

أنا: حين وقع حصان الأومنيباص، ما كان لونه؟ أبيض، أو أصهب، أو بنياً، أو رمادياً؟

هانز: أسود، الحصانان كلاهما كانا أسودين.

أنا: هل كان كبيراً أم صغيراً؟

هانز: كبيراً.

أنا: ضخماً أم هزيلاً؟

هانز: ضخماً، كبيراً جداً وضخماً.

أنا: حين وقع الحصان، هل فكرت ببابا؟

هانز: جائز. نعم. هذا ممكن».

من الممكن أن تكون استقصاءات والد هانز قد جانبها التوفيق في العديد من النقاط؛ لكن لا ضرر إطلاقاً من التعرف عن قرب إلى رهاب من هذا النوع، وهو رهاب لا نجد في أنفسنا ميلاً إلى تسميته إلا بحسب موضوعه الجديد. وعلى هذا النحو يتأتى لنا أن ندرك مدى اتساع حقل انتشاره في الواقع. فموضوعه أحصنة وعربات، أحصنة تقع وتعضّ، أحصنة من نوع خاص، وعربات ثقيلة الحمولة. وبوسعنا أن نكشف من الآن عن أن جميع هذه الخصائص ترجع إلى أن الحصر لم يكن له في الأصل من صلة بالأحصنة، ولكنه انزاح ثانوياً باتجاه الأحصنة وتثبَّت عندئذ على عناصر عقدة الأحصنة، وهي العناصر التي تكشفت على أنها موائمة لبعض التحويلات. وعلينا أن نكيل ثناءً خاصاً لنتيجة رئيسية توصل إليها استقصاء والد هانز. فقد بتنا نعلم الآن ما المناسبة المباشرة التي ارتبط بها تفجُّر الرهاب. كان ذلك عندما رأى الصبي الصغير حصاناً كبيراً ضخماً يقع، ويبدو أن أحد التأويلات الممكنة لهذا الانطباع القوي كان ذاك الذي أشار إليه الأب: فقد ساورت هانز الرغبة عندئذ في أن يقع أبوه بالطريقة نفسها ويموت. وأرجح الظن أن تعابير وجه هانز الجادة وهو يروي القصة كان مردّها إلى



هذا المعنى اللاشعوري. لكن أليس من المحتمل أن معنى آخر يختفي وراء هذا كله؟ وما دلالة الضجيج الشديد بالأرجل؟

* * *

«كان هانز منذ بعض الوقت يلعب لعبة الحصان في الغرفة، فكان يجري ويقع، ويرفس بقدميه في كل اتجاه، ويصهل. وذات يوم علق في رقبته كيساً صغيراً كما لو أنه مخلاة. وفي غير مرة ركض نحوي ورفسني».

بهذه الكيفية يكون قد أفصح عن تقبله للتأويلات الأخيرة بصورة أشدّ جزماً مما كان يمكن له أن يفعل بواسطة الكلمات، ولكن بعد أن عكس الأدوار بطبيعة الحال، إذ كانت اللعبة تخدم استيهاماً رغبياً عنده. هكذا صار هو الحصان، وهو الذي يعضّ أباه، وعلى هذا النحو تماهى مع هذا الأخير.

«لاحظت في اليومين الأخيرين أن هانز يتحداني على نحو ظاهر للعيان، لا بقحة، وإنما بأسلوب مرح. ترى هل السبب في ذلك أنه ما عاد يخافني، أنا الحصان؟

«٦ نيسان/ أبريل. خرجت مع هانز بعد الظهر إلى أمام البيت. وكلما مرّ حصان سألته إن كان يرى «الشيء الأسود على الفم»، فكان في كل مرة يجيب بالنفي. سألته ماذا يشبه حقاً ذلك الشيء الأسود، فقال إنه حديد أسود. وعلى هذا، إن افتراضي البدئي بأنه كان يعني بذلك القطعة الجلدية السميكة التي هي جزء من عدّة أحصنة الجرّ لم تتأيد صحته. سألته إن كان «الأسود» يذكِّره بشارب، فقال: فقط من حيث اللون. وهكذا أنا لا أعرف ما هو ذلك الشيء في الواقع.

«الخوف تناقص، تجرأ هذه المرة على الابتعاد حتى البيت المجاور، لكنه سرعان ما دار على عقبيه حين سمع من بعيد صوت عدو حصان. وعندما دنت عربة من بيتنا وتوقفت أمام بابنا استبد به الهلع وعاد ركضاً إلى البيت، إذ راح الحصان يضرب الأرض بقدمه. سألته لماذا خاف، وعما إذا كان ارتعب لأن الحصان فعل هكذا (ضربت الأرض بقدمي)، فقال عندئذ: «لا تفعل مثل هذا الضجيج بقدميك!»». وهو قول ينبغي أن يقارن بما كان تفوَّه به بخصوص حصان الأومنيباص الذي وقع.



«أحدث مرور عربة لنقل الأثاث خوفاً شديداً لديه، وجرى للحال إلى داخل البيت. سألته بلهجة لاأبالية: «إن عربة لنقل الأثاث كهذه، ألا تبدو شبيهة بعربة الأومنيباص؟»، فلم ينبس ببنت شفة. كررت سؤالي. فقال عندئذ: بالتأكيد، ولولا ذلك لما خفت إلى هذا الحدّ من عربة لنقل الأثاث».

«٧ نيسان/ أبريل. اليوم عاودت سؤاله عما يشبه ذلك «الشيء الأسود على فم» الأحصنة. فقال هانز: «يشبه الكمامة». وأغرب ما في الأمر أنه لم يمر منذ ثلاثة أيام أي حصان كان يمكن لهانز أن يلحظ لديه هذه «الكمامة». وأنا نفسي لم أرَ، في أثناء نزهاتي، حصاناً واحداً مكمماً على ذلك النحو، على الرغم من أن هانز يؤكد وجود هذا النوع من الأحصنة. وما افترضته هنا هو أن نوعاً معيناً من الألجمة ـ وربما القطعة الجلدية السميكة حول أفواه الأحصنة ـ ذكّره فعلاً بشارب، وأن ذلك الخوف تلاشى بدوره بعدما ألمحت إلى ذلك.

«التحسن في حالة هانز مستمرّ. وقطر دائرة نشاطه ـ على اعتبار الباب الخارجي مركزها ـ في اتساع مطرد. بل لقد أنجز مفخرة ـ ما كانت ممكنة التحقيق بالنسبة إليه حتى ذلك اليوم ـ حينما عبر ركضاً إلى ناصية الشارع المقابلة. أما كل ما تبقى من خوف فكان يرتبط بمشهد الأومنيباص، وهو ما لم تتوضح لي دلالته بعد بجلاء.

«٩ نيسان/ أبريل. دخل هانز هذا الصباح غرفتي فيما كنت أغتسل ونصفي الأعلى عارٍ.

هانز: بابا، كم أنت جميل وشديد البياض!

أنا: أليس كذلك؟ كحصان أبيض.

هانز: الشيء الأسود الوحيد شاربك (وأردف يقول:) أو ربما الكمامة السوداء؟

«رويت له عندئذ أنني ذهبت مساء البارحة إلى عند الأستاذ ثم أضفت قائلاً: «بودّه أن يعرف شيئاً». فقال هانز: «أنا بتوق إلى معرفة ذلك!».

«قلت له إنني أعرف ما المناسبة التي يحدِث فيها ضجيجاً بقدميه. فقاطعني



بقوله: «أليس ذلك عندما أكون غاضباً أو عندما يكون عليّ أن أعمل لومف[٢٦]، في حين أنني أريد بالأحرى أن ألعب؟» (كان من عادته بالفعل، عندما يكون غاضباً، أن يحدث ضجيجاً بقدميه، أي أن يدقّ بهما الأرض ـ أما أن «يعمل لومف» فمعناها أن يقضي الحاجة الكبيرة[٢٧]. فحينما كان هانز صغيراً قال يوماً وهو ينهض عن «القصرية»: «انظر اللومف LUMPF»، وكان يعني الجورب STRUMPF بالنظر إلى الشكل واللون. وظلت هذه التسمية باقية إلى اليوم. وفي الأيام الأولى، وحين كان يتحتم أن يوضع هانز على القصرية، بينما هو مصرّ على ألا يترك اللعب، كان يضرب الأرض بقدميه حانقاً، ويرفس في كل اتجاه، بل يرمي بنفسه أرضاً).

أنا: وأنت ترفس بقدميك في كل اتجاه أيضاً حين يتعيَّن عليك أن تفرفر بينما أنت لا تريد، إذ تفضل لو تواصل اللعب.

هو: أتعرف، ينبغي أن أذهب لأفرفر.

«وخرج هانز من الغرفة، توكيداً منه بلا شك لما كنا نتكلم عنه».

لقد كان والد هانز سألني، في أثناء زيارته، عما يمكن أن يكون الحصان قد ابتعث في ذاكرة هانز لما وقع وراح يرفس بقدميه؟ وقد أشرت آنئذ إلى أن ذلك يمكن أن يكون ردّ فعله الخاص حينما يمسك بوله. وقد أيّد هانز صحة ذلك الآن إذ عاودته الحاجة إلى التبول في أثناء المحادثة، وأضاف إليها الدلالات الجديدة للضجيج الذي يُحدَث بالقدمين.

«خرجنا عندئذ إلى أمام الباب الخارجي. فلما اقتربت عربة فحم قال هانز: «أتعرف، إنني أخاف أشدَّ الخوف أيضاً من عربات الفحم».

أنا: ربما لأنها كبيرة في مثل حجم الأومنيباص أيضاً.

هانز: نعم، ولأنها محمَّلة جداً، ولأن الأحصنة يجب أن تجرّ مثل هذا الحمل الثقيل، ومن المحتمل جداً أن تقع. لكن عندما تكون العربة فارغة، لا ينتابني خوف.

---

٢٦ ـ لومف LUMPF: كلمة خاصة بهانز يشير بها إلى برازه، كما سيتضح من النص. «م».

٢٧ ـ قضاء الحاجة الكبيرة عند الأطفال: التغوُّط، وقضاء الحاجة الصغيرة: التبوُّل. «م».



«وبالفعل، وكما لاحظنا من قبل، فإن العربات الضخمة المحمَّلة هي وحدها التي تضعه في حالة من الحصر».

إن الموقف يبقى رغم ذلك غامضاً. والتحليل لا يحرز تقدماً يذكر، وإني لأخشى أن يصير عرضه مملاً للقارئ. غير أن كل تحليل يمرّ بمثل هذه الفترات من الظلمة. ثم إن هانز يوشك أن يدلف إلى منطقة ما كنا نتوقع أن نراه يتجه صوبها.

* * *

«قفلت راجعاً إلى البيت وتحادثت مع زوجتي التي كانت اشترت أشياء شتى، وراحت ترينا إياها. وكان من بينها سروال نسائي أصفر. فصاح هانز تكراراً: «كخ!»، وارتمى أرضاً وبصق. وقالت زوجتي إنه سبق له أن فعل ذلك عدة مرات عند رؤية السروال.

«سألته: لماذا تقول كخ؟».

هانز: بسبب السروال.

أنا: لماذا؟ بسبب لونه؟ لأنه أصفر ويذكرك بالفرفرة أو اللومف؟

هانز: اللومف ليس أصفر، بل أبيض وأسود.

«ثم أردف مباشرة: «قل لي، هل من السهل أن يعمل الإنسان لومف حين يأكل جبناً؟» (كنت قلت له يوماً ذلك، حين سألني لماذا آكل جبناً).

أنا: نعم.

هانز: ألهذا السبب تذهب دوماً منذ الصباح وتعمل لومف؟ إني أحب كثيراً أن آكل جبناً مع الخبز والزبدة.

«كان قد سألني بالأمس، فيما هو ينطنط من حولي في الشارع: «قل لي، حينما ينطنط الواحد هكذا، ألا يعمل لومف بسهولة؟». كان التبرز صعباً عليه دوماً، وكثيراً ما كنا نضطر إلى إعطائه ملّينات وحقناً شرجية. وقد بلغ مرة إمساكه المعتاد درجة من القوة لم تجد معها زوجتي بداً من طلب نصيحة الدكتور ل... فأعرب هذا عن اعتقاده بأن هانز يعاني من فرط التغذية ـ وكان هذا



صحيحاً ـ وأوصى بنظام غذائي أخفّ، وهذا ما وضع نهاية سريعة للحالة المشار إليها. غير أن الإمساك عاد إلى الظهور في الآونة الأخيرة على نحو أكثر تواتراً.

«بعد طعام الغداء قلت: «سنكتب من جديد للأستاذ». فأملى هانز عليَّ: «عند رؤيتي السروال الأصفر قلت: كخ! وبصقت، وارتميت أرضاً، وأغمضت عينيّ، ولم أنظر».

أنا: لماذا؟

هانز: لأنني رأيت السروال الأصفر، ومع السروال الأسود[٢٨] فعلت الشيء نفسه تقريباً. السروال الأسود هو أيضاً سروال كهذا، لكنه فقط أسود.. (وقاطع نفسه قائلاً): أتعرف، إنني مسرور، حين أتمكن من الكتابة إلى الأستاذ أكون دوماً مسروراً.

أنا: لماذا قلت: «كخ!»؟ هل كنت مقروفاً من شيء ما؟

هانز: نعم، لأنني رأيت ذلك، تصورت أنه سيتعيَّن عليّ أن أعمل لومف.

أنا: لماذا؟

هانز: لا أعرف.

أنا: متى رأيت السروال الأسود؟

هانز: ذات يوم، كانت آنا (خادمتنا) في البيت منذ وقت طويل، لدى ماما، وكانت قد جاءت بالسروال إلى البيت بعد أن اشترته (أكدت زوجتي صحة ذلك).

أنا: هل أثار ذلك قرفك؟

هانز: نعم.

أنا: هل رأيت ماما ترتدي سروالاً كهذا؟

---

٢٨ ـ اقتنت زوجتي منذ بعض الوقت سروالاً(*) أسود لتقوم بنزهاتها على الدراجة.

(*) ليس لدينا بالعربية، كما بالفرنسية أو الإنكليزية أصلاً، مقابل دقيق للكلمة الألمانية Reformhose، وهو عبارة عن سروال خارجي وداخلي معاً اخترعه د.غوستاف ياغر برسم استعمال النساء في الرياضة والفروسية وركوب الدراجة. «م».



هانز: كلا.

أنا: حينما ترتدي ملابسها؟

هانز: حينما اشترت السروال الأصفر، كنت قد رأيته مرة قبل ذلك (في هذا تناقض! إنما عندما اشترت أمه ذلك السروال رآه للمرة الأولى). إنها ترتدي اليوم أيضاً الأسود (هذا صحيح)، لأنني رأيتها هذا الصباح حينما خلعته.

أنا: ماذا؟ أخلعت هذا الصباح السروال الأسود؟

هانز: لما خرجت هذا الصباح خلعت السروال الأسود، ولما رجعت لبسته من جديد.

«سألت زوجتي عن الأمر إذ بدا لي غير معقول. فقالت إن ذلك غير صحيح على الإطلاق، فهي لم تبدِّل سروالها عندما خرجت.

«على الأثر سألت هانز: «قلت إن ماما ارتدت سروالاً أسود، وإنها لما خرجت خلعته، ولما رجعت لبسته من جديد. لكن ماما تقول إن هذا غير صحيح».

هانز: أعتقد أنني ربما نسيت أنها لم تخلعه. (وبمزاج متعكِّر) «دعني وشأني».

لديّ بضعة تعليقات أريد الإدلاء بها بخصوص قصة السروالات هذه: فمن الواضح أن هانز أخذ بجانب المراءاة حين زعم أنه مسرور جداً للفرصة التي أتيحت له ليتكلم عن المسألة. لكنه في نهاية المطاف ألقى القناع وسلك سبيل قلة التهذيب مع أبيه. فالأمر يتعلق بأشياء كانت قد وفّرت له فيما سبق **قدراً كبيراً من اللذة**؛ ولكنه بات الآن، بعد أن استقر الكبت، يخجل منها أشدّ الخجل ويجهر بقرفه. وهو يلجأ الآن إلى الكذب الصريح ليخفي الظروف التي رأى فيها أمه تغيِّر سروالها. والواقع أن خلعها سروالها ولبسه أمر ينتمي إلى سياق «اللومف». والأب على علم تام بحقيقة الأمر وبما يحاول هانز إخفاءه.

«سألت زوجتي إن كان هانز يرافقها كثيراً إلى المرحاض. فأجابت: «نعم، كثيراً، إنه لا يفتأ «يضايقني» إلى أن «أسمح» (جميع الأطفال يفعلون مثله).

إن هذه الرغبة ـ التي باتت مكبوتة لدى هانز ـ في أن يرى أمه تعمل «لومف» ـ جديرة بأن نوليها كامل اهتمامنا لاحقاً.



«خرجنا إلى أمام البيت. كان مرحاً، وإذ راح يطفر كالحصان، سألته: قل لي، مَن حصان الأومنيباص؟ أنا أو أنت أو ماما؟».

هانز: (بلا تردد): أنا، إنني حصان صغير.

«أما حين كان يرى، في أسوأ أويقات حصره، أحصنة تطفر فقد كان يتملكه الرعب ويسألني لماذا تفعل ذلك، فأقول له لأبعث الطمأنينة في نفسه: «إنها، كما ترى، أحصنة صغيرة، وهي تثب كالصبيان الصغار. وأنت أيضاً تثب، فأنت صبي صغير». ومنذئذ، صار إذا ما رأى أحصنة تثب يقول: «هذا صحيح، إنها أحصنة صغيرة!».

«وفيما نحن نصعد الدرج، سألته دونما سابق تفكير تقريباً: «هل لعبت في غموندن لعبة الحصان مع الأولاد؟».

هو: نعم! (متفكراً) أعتقد أنني هناك أصبت بالحماقة.

أنا: من كان الحصان؟

هو: أنا، وبرتا كانت الحوذي.

أنا: لعلك وقعت عندما كنت حصاناً؟

هانز: كلا! حين كانت برتا تقول: حا! كنت أجري سريعاً، بل كنت أجري بأقصى سرعتي[٢٩].

أنا: أما لعبت قط لعبة الأومنيباص؟

هانز: كلا، بل لعبة العربات العادية ولعبة الحصان بلا عربة. وعندما يكون للحصان عربة، فإنه يستطيع أن يمضي أيضاً بلا عربة، والعربة يمكن أن تبقى في البيت.

أنا: هل لعبت لعبة الحصان كثيراً؟

هانز: كثيراً جداً. كان فريتز (أحد أطفال المالك، كما نعلم) مرة هو الحصان، وفرانز هو الحوذي، وقد جرى فريتز بأقصى سرعته، وفجأة ارتطمت قدمه بحجر ونزفت.

أنا: هل وقع؟

٢٩ ـ «كان لدى هانز أيضاً علبة مع أجراس صغيرة ليلعب بها لعبة الفرس».



هانز: كلا، وضع قدمه في الماء ثم لفَّها بقطعة قماش[٣٠].

أنا: هل كثيراً ما كنت الحصان؟

هانز: أوه نعم!

أنا: وهناك أصبتَ بالحماقة؟

هانز: لأنهم كانوا يقولون طول الوقت: «بسبب الحصان»، «بسبب الحصان» (شدَّد على **بسبب**). وعندئذ، وربما لأنهم تكلموا هكذا: بسبب الحصان، ربما أصبت بالحماقة»[٣١].

تابع والد هانز لبعض الوقت استقصاءه في دروب أخرى بلا جدوى:

أنا: هل قالوا لك شيئاً بخصوص الأحصنة؟

هانز: نعم!

أنا: ماذا؟

هانز: نسيت.

أنا: لعلهم تكلموا عن فرفورتها؟

هانز: أوه كلا!

أنا: هل كنت تخاف من الأحصنة آنذاك؟

هانز: أوه كلا! لم أكن أخاف على الإطلاق.

أنا: ربما قالت لك برتا إن الحصان...

هانز (مقاطعاً): يفرفر؟ كلا!

«في العاشر من نيسان/أبريل استأنفت محادثة الأمس، وسعيت إلى معرفة ما يمكن

٣٠ ـ انظر لاحقاً. إن والد هانز محقّ تماماً إذ افترض أن فريتز وقع حينذاك.

٣١ ـ ينبغي أن أوضح أن هانز لا يقصد أنه آنذاك أصيب بالحماقة، وإنما أن الأمر له صلة بها. ولا بدّ أن يكون كذلك هو واقع الحال، لأن النظرية تقضي بأن ما هو اليوم موضوع لرهاب كان من قبل موضوعاً للذة جارفة WEGEN هي التي فتحت الطريق لتوسيع نطاق الرهاب بحيث يمتدّ من الأحصنة إلى العربات WAGEN. ولا يجوز أن يغرب عنا أبداً أن الطفل يعامل الكلمات معاملة أكثر عيانية بكثير مما يعاملها به الراشد، وهذا ما يجعل للجناس الصوتي أهمية قصوى عنده.



أن تعنيه عبارة «بسبب الحصان». ما استطاع هانز أن يتذكر، وكان كل ما حضر إلى ذاكرته أن عدة أولاد كانوا مجتمعين في صباح أحد الأيام عند الباب الأمامي وكانوا يقولون: «بسبب الحصان، بسبب الحصان!» وكان هو في عدادهم. ولما ألحفت عليه بالسؤال، صرح أنهم لم يقولوا قط: «بسبب الحصان». فذاكرته قد خانته.

أنا: ولكن لا شك أنكم ذهبتم جميعاً إلى الإصطبل، ولا بدّ أنكم تكلمتم هناك عن الأحصنة. ـ لم نتكلم عنها؟ ـ عم تكلمتم؟ ـ عن لا شيء. ـ كنتم كثرة من الأولاد وما تكلمتم عن شيء؟ ـ تكلمنا عن شيء، ولكن ليس عن الأحصنة. ـ عن أي شيء إذاً؟ ـ ما عدت أذكر.

«عدلت عن الأمر بالنظر إلى أن المقاومات كانت عاتية[٣٢]، وسألت: «أكنت تحب أن تلعب مع برتا؟».

هو: أجل، كثيراً. ولكن ليس مع أولغا. أتعرف ما فعلته أولغا؟ أعطتني غريتا، هناك في غموندن، ذات مرة طابة من الورق، فمزقتها أولغا تمزيقاً. برتا ما كانت لتمزق قط طابتي. كنت أحب كثيراً أن ألعب مع برتا.

أنا: هل رأيت ماذا تشبه فرفورة برتا؟

هانز: كلا، لكني رأيت فرفورة الحصان، لأنني كنت على الدوام في الإصطبل، وهناك رأيت فرفورة الحصان.

أنا: ومن ثم شاقك أن تعرف ماذا تشبه فرفورة برتا أو ماما؟

هو: نعم!

«ذكَّرته بأنه اشتكى لي مرة من أن البنات الصغيرات كن يرغبن دائماً في أن ينظرن إليه وهو يفرفر.

هو: برتا أيضاً كانت تنظر إليَّ دوماً (بدا لي غير متضايق، بل راضياً جداً)، نعم، كثيراً جداً. هناك في البستان الصغير، حيث الفجل، كنت أفرفر، وكانت تقف أمام الباب وتنظر إليَّ.

---

٣٢ ـ لم يكن في الواقع ثمة شيء آخر يُكتشف غير التداعي اللفظي الذي غاب عن والد هانز. وذلك مثال جيّد على الظروف التي في ظلّها تخطئ جهود المحلّل مرماها.



أنا: وحين كانت تفرفر، هل كنت أنت تنظر؟

هو: كانت تذهب إلى المرحاض.

أنا: وكان عندك فضول لأن ترى؟

هو: كنت أذهب إلى المرحاض حين تكون فيه هي.

(هذا صحيح! أبلغنا الخدم ذلك يوماً وأذكر أننا نهينا هانز عنه).

أنا: هل كنت تقول لها إنك تريد الدخول؟

هانز: دخلت من تلقاء نفسي ولأن برتا كانت تسمح لي. ليس في هذا شيء معيب.

أنا: وكان يطيب لك أن ترى فرفورتها؟

هو: أجل، ولكنني لم أرها.

«ذكّرته بحلمه في غموندن: لمن هو الرهن الذي في يدي[٣٣]، إلخ، وسألته: «هل تمنيت في غموندن أن تجعلك برتا تفرفر؟».

هو: لم أقل لها ذلك قط.

أنا: لماذا لم تقل لها ذلك قط؟

هو: لأنني لم أفكر في ذلك. (مقاطعاً نفسه) إذا كتبت هذا كله للأستاذ، أفلن تذهب حماقتي سريعاً؟

أنا: لماذا تمنيت أن تجعلك برتا تفرفر؟

هو: لا أدري. لأنها كانت تنظر إليّ.

أنا: هل فكرت بأنه سيتعيَّن عليها عندئذ أن تضع يدها على فرفورتك؟

هو: أجل. (مغيِّراً وجهة الحديث) في غموندن كان الأمر مسلياً جداً. في البستان الصغير حيث الفجل، كانت هناك كومة صغيرة من الرمل، فكنت ألعب هناك برفشي.

---

٣٣ ـ انظر أعلاه، ص ١٧٥.



(إنه البستان الذي كان من عادته أن يفرفر فيه).

أنا: في غموندن، أكنت تضع يدك على فرفورتك حين تكون في السرير؟

هو: كلا، ليس بعد. في غموندن كنت أنام جيداً فما كنت أفكر بذلك على الإطلاق. فعلت ذلك فقط في شارع[٣٤].... وهنا.

أنا: لكن برتا لم تضع يدها قط على فرفورتك؟

هو: ما فعلت ذلك قط، كلا، لأني لم أطلب إليها ذلك قط.

أنا: متى اشتهيت أن تفعل ذلك لك؟

هو: ذات مرة في غموندن.

أنا: مرة فقط؟

هو: نعم، عدة مرات.

أنا: كانت تنظر إليك دوماً وأنت تفرفر، لعلها كان بها فضول إلى أن ترى كيف تفرفر.

هو: لعلها كان بها فضول إلى أن ترى ماذا تشبه فرفورتي.

أنا: ولكن أنت أيضاً كان بك فضول، أفقط إلى أن ترى برتا؟

هو: برتا وأولغا أيضاً.

أنا: ومن كذلك؟

هو: لا أحد آخر.

أنا: هذا غير صحيح. ماما أيضاً.

هو: أوه نعم! ماما.

أنا: لكنك الآن ما عاد بك فضول. فأنت تعرف ماذا تشبه فرفورة آنا؟

هو: لكنها ستكبر، أليس كذلك[٣٥]؟

---

٣٤ ـ الشقة السابقة التي كانوا يقطنون فيها قبل انتقالهم.

٣٥ ـ يريد هانز أن يطمئن إلى أن فرفورته هو ستكبر.



أنا: بلى، بالتأكيد، لكنها عندما ستكبر فلن تشبه فرفورتك.

هو: أعرف. سوف تكون هكذا [أي كما هي الآن][٣٦]، وإنما أكبر.

أنا: في غموندن، هل كان بك فضول حين كانت ماما تخلع ثيابها؟

هو: أجل، وقد رأيت أيضاً فرفورة آنا، حين كانت في حمامها.

أنا: وكذلك فرفورة ماما؟

هو: كلا!

أنا: هل قرفت عندما رأيت سروال ماما؟

هو: فقط حين رأيت الأسود، عندما اشترته، وعندئذ بصقت، ولكنها عندما تلبس أو تخلع سروالها فعندئذ لا أبصق. **إنني أبصق، لأن السروال الأسود أسود مثل «اللومف»، والأصفر أصفر مثل الفرفرة، وعندئذ أتصور أن عليَّ أن أفرفر.** وعندما ترتدي ماما سروالها، فعندئذ لا أراه، لأنه يكون مخفياً تحت ثوبها.

أنا: وعندما تخلع ملابسها؟

هو: عندئذ لا أبصق. لكن عندما يكون سروالها جديداً، يكون شكله مثل اللومف. وعندما يكون عتيقاً، يذهب لونه ويصير وسخاً. عند شرائه يكون نظيفاً تماماً، وفي البيت يكون قد اتسخ. عندما تشتريه يكون جديداً، وعندما لا تشتريه يكون عتيقاً.

أنا: العتيق لا يقرفك؟

هو: عندما يكون عتيقاً، يكون أكثر سواداً من اللومف، أليس كذلك؟ إنه يكون أكثر سواداً بعض الشيء[٣٧].

أنا: هل كثيراً ما كنت مع ماما في المرحاض؟

---

٣٦ ـ الجملة بين [ ] إضافة من فرويد. «م».

٣٧ ـ إن صغيرنا هانز يتخبط هنا ليعبّر عن موضوع لا يعرف كيف يعرضه، لذا يعسر علينا فهمه. وربما كان يقصد أن السراويل لا تبعث فيه شعوراً بالقرف إلا عندما يراها منفردة. ولكن ما إن ترتديها أمه حتى يمتنع عن الربط بينها وبين اللومف أو الفرفرة، وعندئذ تثير اهتمامه من نواحٍ أخرى.



هو: كثيراً جداً.

أنا: هل أشعرك ذلك بالقرف؟

هو: نعم.. لا!

أنا: أتحب أن تكون هناك عندما تفرفر ماما أو تعمل لومف؟

هو: نعم، كثيراً.

أنا: لماذا تحب ذلك كثيراً؟

هو: لا أدري.

أنا: ألأنك تعتقد أنك سترى فرفورتها؟

هو: نعم، أعتقد ذلك.

أنا: ولكن لماذا ما كنت تريد قط في لاينز أن تذهب إلى المرحاض؟

(كان يرجوني دوماً في لاينز ألا آخذه إلى المرحاض، فقد خاف مرة من الضجيج الذي يحدثه شدّ السيفون).

هو: ربما لأن ذلك يحدث ضجيجاً شديداً عندما يُشدّ.

أنا: عندئذ تخاف؟

هو: نعم.

أنا: وهنا، في مرحاضنا؟

هو: هنا لا. في لاينز كنت أخاف عندما يُشدّ. عندما أكون في الداخل وينزل الماء، فعندئذ أخاف أيضاً.

«وكيما يريني أنه هنا، في شقتنا، لا يخاف، جعلني أذهب إلى المرحاض وأشدّ السلسلة التي تجعل الماء يتدفق. وعندئذ شرح لي: «إنه في البداية ضجيج قوي، وبعد ذلك ضجيج خفيف (حينما ينزل الماء). عندما يُحدِث ذلك ضجيجاً قوياً، فإني أفضل أن أكون في الداخل، وعندما يُحدِث ذلك ضجيجاً خفيفاً، فإني أفضل أن أخرج».

أنا: ألأنك تخاف؟



هو: لأنه عندما يكون الضجيج قوياً، فإني أحب أن أراه.. (يصحِّح نفسه) أن أسمعه، وعندئذ أفضِّل أن أبقى في الداخل كيما أسمعه جيداً.

أنا: بأي شيء يذكِّرك الضجيج القوي؟

هو: بأن عليّ أن أعمل لومف في المرحاض (إذاً بالشيء نفسه الذي يذكِّره به السروال الأسود).

أنا: لماذا؟

هو: لا أدري. إنني أعرف أن الضجيج القوي هو كما عندما نعمل لومف. إن ضجيجاً كبيراً يذكِّرني باللومف، وضجيجاً صغيراً يذكِّرني بالفرفرة (قارن بين السروالين الأسود والأصفر).

أنا: قل لي، ألم يكن حصان الأومنيباص له لون اللومف نفسه؟ (بحسب رواية هانز كان أسود).

هو: (مندهشاً جداً): بلى!».

ينبغي عليّ هنا أن أقحم بضع كلمات. إن والد هانز يطرح أسئلة كثيرة أكثر مما ينبغي، ويدفع باستقصائه في اتجاه أفكار مسبقة التصور، بدلاً من أن يدع الصبي الصغير يعبِّر عن أفكاره الخاصة. لهذا يغدو التحليل غامضاً وغير مؤكد. فهانز يمضي في طريقه الخاص، ولا يعرب عن شيء إن شاء أحدهم تحويله عنه. ومن الواضح أن انتباهه يستأثر به في الوقت الراهن اللومف والفرفرة، ولا ندري لماذا. وقصة «الضجيج» لم تتوضح أكثر مما توضحت قصة السروالين الأصفر والأسود. وإني أفترض أن إرهاف أذنه قد التقط جيداً الفارق في الصوت الذي يحدثه كل من المرأة والرجل عندما يتبولان. وقد أرغم التحليل، بطريقة مصطنعة وقسرية بعض الشيء، المعطيات التي قدَّمها هانز على الإفصاح عن التباين بين الحاجتين الطبيعيتين. وأما القراء الذين لم يمارسوا بأنفسهم التحليل حتى الآن، فإني لا أستطيع إلا أن أسدي إليهم النصح بألا يتطلعوا إلى فهم كل شيء فوراً، بل أن يولوا ضرباً من الانتباه الحيادي لكل ما يردهم، ثم أن ينتظروا التتمة.

* * *



في صبيحة الحادي عشر من نيسان/أبريل حضر هانز من جديد إلى غرفتنا، وكما في جميع الأيام السابقة صرفتُه.

«وروى بعيد ذلك: «أتعرف، لقد تخيَّلت شيئاً: **كنت في المغطس**[٣٨]، **فجاء السنكري وفكّه**[٣٩]. ثم أمسك بمثقب كبير وغرزه في بطني»».

وقد ترجم الأب هذا التخييل على النحو التالي:

«كنت في السرير مع ماما. فجاء بابا وطردني. وبقضيبه الكبير أزاحني عن مكاني قرب ماما».

أما نحن فسنعلِّق في الوقت الراهن حكمنا.

«روى أيضاً فكرة ثانية خطرت له: «كنا في القطار مسافرين إلى غموندن. في المحطة رحنا نرتدي ملابسنا، لكننا لم نتمكن من الانتهاء في الوقت المناسب، وانطلق القطار من جديد وأخذنا معه»».

«بعيد ذلك بقليل سألته: «هل رأيت قط حصاناً يعمل لومف؟»».

هانز: نعم، كثيراً جداً.

أنا: هل يصدر ضجيجاً كبيراً عندما يعمل لومف؟

هانز: نعم!

أنا: بأي شيء يذكِّرك الضجيج الكبير؟

هانز: بلومف يقع في القصرية.

«إن حصان الأومنيباص الذي يسقط ويصدر ضجيجاً بقدميه هو في أرجح الظن لومف يسقط ويحدث بسقوطه ضجيجاً. إذا فالخوف من التبرز والخوف من العربات المحمَّلة بأحمال ثقيلة يكافئ الخوف من بطن ثقيل الحمل».

من خلال هذه الطريق المتعرجة بدأ والد هانز يستشفّ وضع الأشياء الحقيقي.

* * *

٣٨ ـ كانت والده هانز تحمِّمه بنفسها.

٣٩ ـ ليحمله بغية إصلاحه.



«في الحادي عشر من نيسان/أبريل قال هانز في أثناء تناولنا طعام الغداء: «لو كان عندنا فقط مغطس في غموندن، فلا يكون عليَّ أن أذهب إلى الحمامات العمومية!». وبالفعل، كان يتعيَّن عليه دائماً، في غموندن، أن يذهب إلى الحمام العام القريب ليأخذ حماماً ساخناً، وهذا ما كان من عادته أن يحتجّ عليه بدموع ساخنة. كذلك كان في فيينا يصرخ دائماً كلما أجلسناه أو مدَّدناه في المغطس الكبير، فكنا نضطر إلى تحميمه وهو راكع أو واقف».

إن كلام هانز هذا، بعد أن طفق الآن يغذي التحليل ببياناته التلقائية، هو ما يعقد الصلة بين تخييليه الأخيرين (تخييل السنكري الذي يفكّ المغطس، وتخييل الرحلة المحبطة إلى غموندن). وكان أبوه على حقّ حين استنتج من التخييل الثاني أن هانز يضمر شيئاً من النفور من غموندن. وهذه مناسبة مؤاتية لنتذكر مرة أخرى أن ما ينبثق من اللاشعور ينبغي أن يفهم، لا على ضوء ما يسبقه، بل على ضوء ما يتبعه:

«سألته إن كان خائفاً وممَّ:

هانز: خائف من السقوط في داخله.

أنا: ولكن لماذا لا تخاف أبداً حين نحمِّمك في المغطس الصغير؟

هانز: فيه كنت أجلس، ولا أستطيع أن أتمدد، فهو صغير جداً.

أنا: حين كنت تذهب إلى غموندن بالقارب، أما كنت تخاف من السقوط في الماء؟

هانز: كلا، لأنني كنت أمسك بثبات، ومن ثم ما كان من الممكن أن أقع. إنني لا أخاف أن أقع إلا وأنا في المغطس الكبير.

أنا: مع أن ماما هي التي تحمّمك، فهل تخشى أن ترميك ماما في الماء؟

هانز: أخاف أن تفلتني فيسقط رأسي في الماء.

أنا: لكنك تعلم أن ماما تحبّك ولن تفلتك أبداً.

هانز: لقد تخيّلت ذلك تخيّلاً.

أنا: لماذا؟



هانز: لا أدري البتة.

أنا: ربما لأنك أظهرت شقاوة، فتصورت أنها ما عادت تحبّك؟

هانز: نعم!

أنا: حينما كنت تتفرج على ماما وهي تحمِّم آنا، ربما تكون تمنيت أن ترخي يديها لكي تسقط آنا في الماء؟

هانز: نعم!».

ونحن نعتقد أن والد هانز أصاب تماماً هنا في حدسه.

* * *

«١٢ نيسان/ أبريل. في أثناء رجوعنا من لاينز بالقطار في عربة من الدرجة الثانية، قال هانز وهو ينظر إلى وسائد الجلد الأسود: «كخ! هذا يجعلني أبصق! السراويل السود والأحصنة السود تجعلني أيضاً أبصق، لأنه يكون عليّ أن أعمل لومف».

أنا: هل رأيت لدى ماما شيئاً أسود جعلك ترتعب؟

هانز: بلى!

أنا: ما هو؟

هانز: لا أعرف. بلوزة سوداء أو جوارب سود.

أنا: ربما رأيت عند فرفورتها شعراً أسود، عندما كان عندك فضول ونظرت.

هانز: (مدافعاً عن نفسه) لكني لم أرَ فرفورتها.

«لما ظهرت عليه من جديد علائم الخوف إذ أبصر بعربة تخرج من بوابة الفناء المواجه لنا، سألته: «هذه البوابة ألا تشبه مؤخرة؟».

هو: والأحصنة هي اللومف!

«ومنذئذ صار يقول كلما رأى عربة تخرج: (انظر! هوذا «لومفي» يأتي! وكان تحوير الكلمة على هذا النحو (لومفي) جديداً تماماً بالنسبة إليه. وكان أشبه بصيغة تدليل. فزوجة أخي تنادي طفلها دوماً: «فومفي» (WUMPFI).



«في ١٣ نيسان/ أبريل رأى في الحساء قطعة من كبد فقال: «كخ! لومف!». كذلك كان يأكل بتقزز واضح كفتة اللحم بسبب شكلها ولونها اللذين يذكِّرانه باللومف.

«في المساء روت زوجتي أن هانز كان خارجاً إلى الشرفة وقال: «تخيّلتُ أن آنا كانت في الشرفة وسقطت منها». وكنت قد قلت له مراراً إنه يتعيَّن عليه، حين تكون آنا في الشرفة، أن ينتبه حتى لا تقترب أكثر مما ينبغي من الدرابزين، وهو درابزين كان صمّمه معماري من المدرسة «الانفصالية»[٤٠] على نحو غير عملي على الإطلاق، فجعل له فتحات كبيرة اضطررت فيما بعد إلى إغلاقها بمشبك. وقد شفَّت رغبة هانز المكبوتة عن نفسها بوضوح: فقد سألته أمه إن كان يفضل ألا تكون آنا قد خلقت، فأجاب بالإيجاب.

«١٤ نيسان/ أبريل. موضوع آنا يشغل مكانة الصدارة. وكما يمكنك أن تذكر، من تقارير سابقة، كان هانز قد ساوره نفور شديد من الطفلة الوليدة التي سلبته جانباً من حبّ والديه ـ وهو نفور لم يختفِ بعد بتمامه، وإن عوِّضتْ عنه جزئياً تعويضاً زائداً عن الحدّ محبةٌ مغالى فيها[٤١]. وكان أفصح من قبل مراراً عن الرغبة التالية: «ينبغي على اللقلق ألا يأتي بطفل آخر، وعلينا أن ندفع له مالاً حتى لا يخرِج أطفالاً آخرين من **الصندوق الكبير** الذي منه يؤتى بالأطفال» (قارن مع الخوف من عربات نقل الأثاث. أفلا تشبه عربة نقل الأثاث صندوقاً كبيراً؟). وهو يقول إن آنا تصرخ كثيراً، وإن هذا يضايقه.

«قال يوماً على حين بغتة: «أتذكر حين جاءت آنا؟ كانت بجانب ماما في السرير، غاية في اللطف والهدوء» (كان هذا المديح ذا وقع كاذب!).

«ولكن تحت، أمام البيت، بات في إمكاننا أن نلاحظ تقدماً كبيراً. فحتى عربات الشحن صارت تبعث لديه خوفاً أقل. وقد هتف يوماً، بشبه فرح: «هوذا

٤٠ ـ مدرسة فنية ومعمارية قطعت مع التقاليد الأكاديمية في ألمانيا والنمسا في العقد العاشر من القرن التاسع عشر. «م».

٤١ ـ إن موضوع آنا يعقب مباشرة موضوع اللومف. وهذا ما يوحي لنا بتفسير: فآنا هي نفسها لومف، والمواليد الجدد لومفات.



حصان مع شيء أسود على الفم!». وقد وسعني أخيراً أن أتبيَّن أنه حصان بكمامة من الجلد. غير أن هانز لم يكن خائفاً على الإطلاق من هذا الحصان.

«ضرب يوماً بلاط الطريق بعصاه وسأل: «قل لي، هل يوجد رجل تحته... واحد مدفون... أم أن ذلك لا يكون إلا في المقبرة فقط؟». هكذا كان مشغولاً لا بلغز الحياة فحسب، بل كذلك بلغز الموت.

«رأيت لدى عودتي إلى البيت صندوقاً في الدهليز، وقال هانز: «سافرت آنا إلى غموندن معنا في صندوق كهذا. في كل مرة ذهبنا إلى غموندن جاءت معنا في الصندوق. ألا تصدِّقني بعد؟ هذا صحيح، يا بابا. صدقني، لقد أخذنا صندوقاً كبيراً، وكان داخله مليئاً بالأطفال. كانوا جالسين في المغطس» (كان مغطس صغير قد وضع في الصندوق). «لقد وضعتهم أنا في داخله، هذا صحيح. أستطيع أن أتذكر ذلك جيداً»[٤٢].

أنا: ماذا تستطيع أن تتذكر؟

هانز: أن آنا سافرت في الصندوق، لأنني لم أنسَ ذلك. هذه كلمة شرف!

أنا: لكن آنا سافرت معنا في العام الماضي في عربة القطار.

هانز: **لكن من قبل سافرت دوماً معنا في الصندوق.**

أنا: أليست ماما هي التي عندها الصندوق؟

هانز: أجل كان عند ماما.

أنا: أين؟

هانز: في بيتنا، في السقيفة.

أنا: لعلها حملته معها[٤٣]؟

---

٤٢ ـ بدأ الآن ينسج تخيُّلات. ونحن نتبيَّن أن الصندوق والمغطس هما بالنسبة إليه متكافئان ومماثلان للمكان الذي يوجد فيه الأطفال. انظر توكيداته المتكررة بصدد هذا الموضوع.

٤٣ ـ الصندوق هو، بالطبع، بطن الأم، وكان الأب يحاول أن يفهِم هانز أنه مدرك لذلك. وكذلك أيضاً شأن السبَت (الصندوق) الذي كان يُهجر فيه الكثيرون من الأبطال الأسطوريين، ابتداء من الملك سرجون الأكادي(*).

(ملحوظة أضيفت سنة ١٩٢٣) ـ انظر رانك: **أسطورة ميلاد البطل**، ١٩٠٩، الطبعة الثانية ١٩٢٢.



هانز: كلا! وعندما سنذهب هذه المرة، ستسافر آنا من جديد في الصندوق.

أنا: كيف خرجتْ إذاً من الصندوق؟

هانز: أخرجوها.

أنا: أخرجتها ماما؟

هانز: أنا وماما. عندئذ صعدنا إلى العربة وكانت آنا على الحصان وقال الحوذي: «حا!». كان الحوذي على مقعده. هل كنت أنت هناك أيضاً؟ ماما تعرف كل ذلك. ماما ما عادت تعرف، فقد نسيت ذلك، ولكن لا تخبرها بشيء من ذلك!

«جعلته يكرر كل ما قاله.

هانز: عندئذ خرجت آنا.

أنا: لكن ما كان في استطاعتها بعد أن تمشي.

هانز: حسناً، نحن الذين أنزلناها.

أنا: لكن كيف استطاعت أن تقعد على الحصان؟ تذكر أنها ما كانت تستطيع بعد الجلوس في العام الماضي!

هانز: أوه بلى! كانت تجلس وتصيح: «حا!»، وتضرب بالكرباج: «حا! حا!»، الكرباج الذي كان لي، أنا. لم يكن للحصان رِكاب، لكن آنا كانت تركب فوقه مع ذلك. إنني لا أقول ذلك على سبيل المزاح، أنت تعرف يا بابا».

ماذا يمكن أن يكون السبب الذي حمل هانز على التشبث بمثل هذا العناد

(*) **سرجون الأول** (بالأكادية: شارّو كِن، بمعنى الملك الأسد): هو مؤسس السلالة الأكادية. امتدت إمبراطوريته الواسعة من عيلام إلى البحر المتوسط، وامتداداً من بلاد ما بين النهرين إلى الأناضول. حكم منذ عام ٢٣٣٤ حتى ٢٢٧٩ ق.م من عاصمة جديدة هي أكاد، التي تقع في الضفة اليسرى لنهر الفرات. ولم يكن سرجون هذا من أبناء الملوك، لكن الأساطير السومرية اصطنعت له سيرة روتها على لسانه؛ فهو يقول: "وحملت بي أمي الوضيعة الشأن، وأخرجتني إلى العالم سراً ووضعتني في قارب من الأسل كالسلة وأغلقت عليَّ الباب بالقار". ولكن خلصه أحد العمال، فقرَّبه إليه. وبعد أن صار ساقيه وزاد نفوذه وسلطانه خرج على سيده وخلعه وجلس على عرش أكاد، وسمَّى نفسه "الملك صاحب السلطان العالي». «م».



بكل هذا الهراء؟ أوه! إنه ليس هراء، وإنما محاكاة ساخرة وانتقام من قبل هانز من أبيه. وهذا يعدل القول: **إذا كنت تتوقع أن أصدِّق أن اللقلق جاء بآنا في تشرين الأول/ أكتوبر، بعدما كنتُ رأيت في الصيف الماضي، حين كنا في غموندن، بطن ماما وقد تضخمت، ففي وسعي عندئذ أن أتوقع أيضاً أن تصدِّق أنت أكاذيبي**. ماذا يمكن أن تكون دلالة توكيده بأن آنا سافرت معهم، في العام الماضي، إلى غموندن «في الصندوق» سوى أن هانز كان على علم بحبل أمه؟ وإن يكن هانز قد توقع أن تتجدد تلك السفرة في الصندوق في جميع السنوات القادمة، فهذا شكل مألوف من الأشكال التي تلبستها الفكرة اللاشعورية حين تبزغ من ثنايا الماضي، أو ربما كان لهذه الواقعة أسبابها الخاصة وتعبر عن خشية هانز من أن يتجدد مثل ذلك الحبَل في العطلة الصيفية القادمة. وقد تبيَّنا الآن الظروف الخاصة التي أفسدت عليه رحلته إلى غموندن، على نحو ما كشفت عن ذلك أخيولته الثانية.

«سألته بعد ذلك بقليل كيف أمكن لآنا، بعد ولادتها، أن تأتي إلى فراش أمه».

عندئذ أمكن لهانز أن يندفع، وكله جذل وحبور، في السخرية من أبيه:

هانز: جاءت آنا ببساطة. السيدة كراوس (القابلة) وضعتها في الفراش. وفي الحقيقة، ما كانت تستطيع أن تمشي. لكن اللقلق حملها بمنقاره. مؤكد أنها ما كانت تستطيع أن تمشي. (وتابع دون توقف) صعد اللقلق الدرج إلى عند العتبة. ثم طرق الباب، وكان الجميع نياماً، وكان معه المفتاح اللازم، وفتح الباب ووضع آنا في سريرك **أنت**[٤٤]، وكانت ماما نائمة ـ كلا، وضعها اللقلق في سريرها **هي**. كان ذلك في منتصف الليل. وقد وضعها اللقلق بهدوء تام في السرير، ولم يحدث صوتاً على الإطلاق بقدميه، ثم أخذ قبعته وانصرف. لم تكن لديه قبعة.

أنا: من أخذ قبعته؟ ربما الدكتور؟

هانز: بعدئذ انصرف اللقلق، عاد إلى بيته، ثم دقّ جرس الباب، وما عاد أحد

---

٤٤ ـ هذا من قبيل السخرية، بطبيعة الحال، مثل طلبه اللاحق منه بألا يفشي السرّ لأمه.



في البيت إلى النوم. لكن لا تخبر بذلك ماما أو تيني (الطاهية). هذا سرّ!

أنا: هل تحب آنا؟

هانز: أوه نعم! أحبها كثيراً.

أنا: هل كنت تفضل لو أن آنا لم تخلق أم تفضل أن تكون خلقت؟

هانز: كنت أفضل لو أنها لم تخلق.

أنا: لماذا؟

هانز: على الأقل ما كانت ستصرخ هكذا، وأنا لا أستطيع أن أتحمل صراخها.

أنا: لكنك أنت نفسك تصرخ.

هانز: لكن آنا تصرخ أيضاً.

أنا: لماذا لا تستطيع أن تتحمل صراخها؟

هانز: لأنها تصرخ عالياً جداً.

أنا: لكنها لا تصرخ إطلاقاً.

هانز: عندما تضرب على طزطوزتها العارية، بان بان، عندئذ تصرخ.

أنا: وهذا يضايقك؟

هانز: كلا.. لماذا؟ لأنها تحدث ضجيجاً شديداً بصراخها.

أنا: ما دمت تفضِّل لو أنها لم تخلق، فهذا معناه أنك لا تحبّها على الإطلاق.

هانز: (باستحسان): همْ! همْ!

أنا: لهذا تخيَّلتَ أن ماما لو أفلتتها، وهي تحمِّمها، فعندئذ تسقط آنا في الماء.

هانز (متمِّماً الجملة)... وتموت.

أنا: وعندئذ تصبح بمفردك مع ماما. والصبي الصغير الطيب لا يجوز له أن يتمنى شيئاً كهذا.

هانز: **لكنه يستطيع أن يتخيَّل ذلك.**

أنا: هذا ليس حسناً.



هانز: **إذا تخيَّل ذلك، فهذا أمر حسن على كل حال، حتى يمكن أن نكتب به إلى الأستاذ**[٤٥].

«قلت لهانز بعيد ذلك بقليل: «أتعرف، عندما ستكبر آنا قليلاً وتستطيع أن تتكلم، فستحبُّها بكل تأكيد أكثر».

هانز: أوه، كلا. إنني أحبها من الآن. عندما ستكبر آنا، في الخريف، فسأذهب معها بمفردي إلى شتادبارك وسأفسر لها كل شيء.

«ولما بدأت أقدِّم له إيضاحات جديدة، قاطعني كيما يشرح لي، في أرجح الظن، أنه ليس أمراً سيئاً إلى هذا الحدّ أن يكون قد تمنى موت آنا.

هانز: أتعرف، لقد كانت خُلقت من زمن بعيد، حتى قبل أن تأتي إلى هنا، كانت قد خلقت حتى وهي عند اللقلق.

أنا: كلا، لعلها ما كانت في نهاية الأمر عند اللقلق.

هانز: من أتى بها إذاً؟ إن اللقلق هو الذي أتى بها.

أنا: لكن من أين أتى بها؟

هانز: بكل تأكيد من عنده.

أنا: أين كان يحتفظ بها إذاً؟

هانز: في الصندوق، في **صندوق اللقلق**.

أنا: ما شكل هذا الصندوق؟

هانز: إنه أحمر. مدهون بالأحمر (بالدم؟).

أنا: من أخبرك بهذا؟

هانز: ماما.. تخيّلت ذلك بنفسي.. إنه في الكتاب.

أنا: في أي كتاب؟

هانز: في الكتاب المصور (طلبت إليه أن يأتيني بكتابه المصور الأول. كان فيه

---

٤٥ ـ مرحى لهانز الصغير! فليس لي أن أتمنى، حتى لدى الراشد، فهماً أفضل للتحليل النفسي.



صورة عشّ لطيور اللقلق، مع لقالق تقف على مدخنة حمراء. ذلك هو الصندوق. وكان في الصفحة نفسها - وهذا موضع الغرابة - صورة لحصان تُركَّب له حدوة[٤٦]. وقد قام هانز بتحويل الأطفال إلى الصندوق، لأنه لم يجدهم في العشّ).

أنا: ماذا فعل اللقلق بآنا؟

هانز:عندئذ حمل آنا إلى هنا. بمنقاره. أنت تعرف، اللقلق الذي في شونبرون والذي يعضّ المظلة (استذكار لحادثة بسيطة وقعت في شونبرون).

أنا: هل رأيت كيف جاء اللقلق بآنا؟

هانز: أنت تعرف، كنت لا أزال نائماً. إن اللقلق لا يستطيع أن يأتي بصبي صغير أو ببنت صغيرة في الصباح[٤٧].

أنا: لماذا؟

هانز: إنه لا يستطيع. اللقلق لا يستطيع أن يفعل ذلك. أتعرف لماذا؟ كيلا يراه الناس، وعندئذ نجد عندنا، على حين فجأة، بنتاً صغيرة.

أنا: لكن كان عندك فضول حينئذ إلى أن تعرف كيف فعل اللقلق ذلك.

هانز: أوه نعم!

أنا: كيف كان شكلها حين جاءت؟

هانز (بلهجة مرائية): بيضاء جداً ولطيفة. وكأنها من ذهب.

أنا: لكنك عندما رأيتها للمرة الأولى لم تعجبك.

---

٤٦ - استباقاً لما سوف يأتي، من المفيد أن نلاحظ أن اللفظة الألمانية BESCHLAGEN (تُركَّب له الحدوة) لا تختلف إلا بحرف واحد عن اللفظة الألمانية GESCHLAGEN (يُضرب). هامش الترجمة الفرنسية.

٤٧ - ليس لنا أن نتوقف عند التناقض في منطق هانز. ففي المحادثة السابقة كان عدم تصديقه لحكاية اللقلق قد بزغ من لاشعوره حينما ثار السخط في نفسه على أبيه الذي كان يسرف في اصطناع الألغاز. أما الآن فقد استردّ هدوءه وراح يردّ على أسئلته بصورة متكلفة، بعد أن اختلق لنفسه تفسيرات يتغلب بها على الإشكالات التي تنطوي عليها فرضية اللقلق.



هانز: أوه، كثيراً.

أنا: لكنك دهشت إذ وجدتها صغيرة جداً.

هانز: أجل!

أنا: كانت صغيرة مثل ماذا؟

هانز: مثل لقلق صغير.

أنا: وكيف أيضاً؟ ربما مثل لومف؟

هانز: أوه، كلا، إن اللومف أكبر بكثير.. في الحقيقة، أصغر بقليل من آنا».

كنت قد تنبأت لوالد هانز بأن رهاب هذا الأخير قابل للإرجاع إلى أفكار ورغبات تتصل بمولد أخته الصغيرة، لكني أغفلت أن ألفت انتباهه إلى أن الوليد، بحسب النظريات الجنسية عند الأطفال، يكون عبارة عن «لومف»؛ ومن ثم، إن الطريق الذي سلكه هانز كان محتماً أن يمرّ بالعقدة التغوّطية. أما وقد توضحت المسألة الآن، فإن الأب سيحاول أن يستجوب هانز مرة ثانية بصدد هذه النقطة المهمة.

«في اليوم التالي، جعلتُه يكرر من جديد القصة التي رواها بالأمس. فقال هانز: «سافرتُ أنا إلى غموندن في الصندوق الكبير، وماما في عربة القطار، وآنا في قطار الشحن مع الصندوق، ثم لما وصلنا إلى غموندن قمنا، أنا وماما، بإخراج آنا من الصندوق وأجلسناها على الحصان. كان الحوذي فوق مقعده وكان مع آنا الكرباج السابق (العام السابق)، فضربت الحصان بالكرباج وهي تصيح باستمرار: «حا!»، وكان ذلك مسلّياً جداً، وكان الحوذي أيضاً يضرب بالكرباج ـ لم يضرب الحوذي بالكرباج على الإطلاق، لأن الكرباج كان مع آنا. كان الحوذي يمسك بالأعنّة. ـ كانت آنا أيضاً تمسك بالأعنّة (إننا نستقل على الدوام العربة من المحطة إلى البيت، وهانز يحاول هنا التوفيق بين الواقع والخيال). في غموندن أنزلنا آنا عن الحصان، وصعدت الدرج بمفردها» (في العام الماضي، حين كنا في غموندن، كانت آنا في الشهر الثامن من العمر. وقبل ذلك بعام ـ إن تخييل هانز يرتبط بغير شك بذلك التاريخ ـ كانت أمه، لدى وصولنا إلى غموندن، حبلى في شهرها الخامس).



أنا: في العام الماضي كانت آنا موجودة.

هانز: في العام الماضي كانت في العربة، لكن في العام قبل الماضي، عندما كانت موجودة معنا...

أنا: أكانت موجودة معنا منذ ذلك الحين؟

هانز: نعم، كنت أنت دائماً موجوداً، لتركب معي في القارب، وآنا كانت تضايقك.

أنا: لكن لم يكن ذلك في العام قبل الماضي. فآنا لم تكن قد خلقت بعد.

هانز: **بلى، كانت قد خلقت**. وحتى عندما كانت لا تزال تسافر في الصندوق كانت تستطيع أن تركض، وكانت تستطيع أن تقول: آنا (ما كان لها أن تقول ذلك إلا منذ أربعة أشهر).

أنا: ولكن كيف؟ إنها لم تكن قد وجدت بعد عندنا على الإطلاق في ذلك الوقت.

هانز: أوه بلى، كانت موجودة، عند اللقلق.

أنا: ما عمر آنا إذاً؟

هانز: سيصير لها عامان في الخريف، كانت آنا موجودة هنا بالتأكيد، أنت تعرف ذلك.

أنا: ومتى كانت مع اللقلق قي صندوق اللقلق؟

هانز: من زمن بعيد، قبل أن تسافر في الصندوق. أجل، من زمن بعيد جداً.

أنا: منذ كم من الزمن صار في مستطاع آنا أن تمشي؟ عندما كانت في غموندن ما كان في مستطاعها بعد أن تمشي.

هانز: في العام الماضي لا، وعدا ذلك كانت تستطيع.

أنا: ولكن آنا لم تذهب إلى غموندن إلا مرة واحدة.

هانز: كلا! بل ذهبت إليها مرتين، نعم، هو كذلك. أستطيع التذكر جيداً. اسأل ماما، فتخبرك حالاً.



أنا: غير أن هذا غير صحيح.

هانز: بلى، صحيح. **عندما كانت في غموندن لأول مرة، كان في مستطاعها أن تمشي وأن تركب الحصان، وفيما بعد صار يتحتم حملها.** - كلا، فيما بعد ركبت الحصان، وفي العام الماضي كان يتحتم حملها.

أنا: لكن آنا ما اقتدرت على المشي إلا منذ وقت وجيز جداً. وفي غموندن ما كانت تستطيع أن تمشي.

هانز: بلى، اكتب ذلك فقط. إنني أذكر جيداً. لماذا تضحك؟

أنا: لأنك مهرج، لأنك تعرف جيداً أن آنا لم تذهب إلى غموندن إلا لمرة واحدة.

هانز: كلا، هذا غير صحيح. في أول مرة ذهبت على الحصان... وفي ثاني مرة (هنا بدا عليه التردد واضحاً).

أنا: ربما كان الحصان هو ماما؟

هانز: كلا، كان حصاناً حقيقياً، بعربة ذات عجلتين.

أنا: لكننا نستقل على الدوام عربة بحصانين.

هانز: حسناً، كانت إذاً عربة أجرة.

أنا: ماذا كانت تأكل آنا، وهي في الصندوق؟

هانز: وضعوا في داخله خبزاً وزبداً وسمك رنك وفجلاً (طعام العشاء المعتاد في غموندن). وفيما كانت آنا تسافر كانت تدهن خبزها بالزبدة وقد أكلت خمسين مرة.

أنا: أما كانت آنا تصرخ؟

هانز: كلا!

أنا: ماذا كانت تفعل إذاً؟

هانز: كانت تجلس بكل هدوء في الداخل.

أنا: أما كانت تتحرك؟



هانز: كلا، كانت تأكل طوال الوقت وبدون توقف، ولم تتحرك مرة واحدة. شربت فنجانين كبيرين من القهوة - وفي الصباح كان كل شيء قد أفرغ، وقد تركت الفضلات في الصندوق، وأوراق الفجلتين وسكيناً لقطع الفجل. التهمت كل شيء كأرنب بري، وفي دقيقة واحدة كان كل شيء قد انتهى. كان ذلك ظريفاً حقاً. بل لقد سافرنا أنا وآنا معاً في الصندوق، ونمت في الصندوق طوال الليل (كنا بالفعل قد سافرنا إلى غموندن ليلاً قبل عامين)، وكانت ماما تسافر في القطار. وأكلنا بلا توقف أيضاً في العربة، وكان ذلك رائعاً! لم تكن على الإطلاق فوق الحصان (لقد ساوره الآن الشك، لأنه يعرف أننا كنا ركبنا عربة بحصانين)... بل كانت جالسة في العربة. أجل، هكذا كان، لكنني أنا وآنا كنا بمفردنا في العربة... وكانت ماما على الحصان، وكارولين (خادمتنا في تلك السنة) على الحصان الآخر... أتعرف، إن ما أقصّه هنا ليس صحيحاً على الإطلاق.

أنا: أي شيء هو غير الصحيح؟

هانز: لا شيء من هذا كله صحيح. أتعرف، لقد أجلسناها في الصندوق(٤٨) وأنا معها، وسأفرفر في الصندوق. سأفرفر في بنطلوني، فهذا عندي سيان، وليس فيه ما يخجل. أتعرف، هذا ليس تهريجاً، ولكنه مسلٍ جداً مع ذلك!

«روى عندئذ قصة الكيفية التي جاء بها اللقلق، كما بالأمس، لكنه أغفل هذه المرة أن يذكر أن اللقلق أخذ قبعته عند انصرافه.

أنا: أين كان اللقلق يحمل مُفتاح الباب؟

هانز: في جيبه.

أنا: وأين يوجد جيب للقلق؟

هانز: في منقاره.

أنا: في منقاره؟ لم أرَ حتى اليوم لقلقاً وفي منقاره مفتاح.

٤٨ - الصندوق الذي كان في الدهليز والذي حملناه في جملة أمتعتنا إلى غموندن.



هانز: كيف كان يمكنه إذاً بغير ذلك أن يدخل؟ كيف يدخل اللقلق من الباب إذاً؟ هذا غير صحيح؛ لقد أخطأتُ فقط، فاللقلق يقرع الباب، فيفتح له أحدهم.

أنا: وكيف يقرع؟

هانز: يقرع الجرس.

أنا: كيف يفعل؟

هانز: يستخدم منقاره ليضغط على الجرس.

أنا: وهل أغلق الباب وراءه؟

هانز: كلا، أغلقته الخادمة، كانت قد استيقظت، ففتحت الباب للقلق وأغلقته.

أنا: أين يسكن اللقلق؟

هانز: أين؟ في الصندوق الذي يحتفظ فيه بالبنات الصغيرات. ربما في شونبرون.

أنا: في شونبرون لم أرَ صناديق.

هانز: حسناً! ربما يكون ذهب إلى مكان آخر. أتعرف كيف يفتح اللقلق الصندوق؟ يستخدم منقاره ـ للصندوق أيضاً مفتاح ـ؛ يستخدم منقاره ويفتح نصفه (نصف المنقار) ويفتح هكذا (أراني كيف يفعل اللقلق بقفل المكتب). هذا أيضاً مقبض.

أنا: وبنت صغيرة هكذا.. أليست ثقيلة على اللقلق؟

هانز: أوه، كلا.

أنا: قل لي، ألا يشبه الأومنيباص صندوق اللقلق؟

هانز: بلى!

أنا: وعربة نقل الأثاث؟

هانز: وعربة البعبع لحمل الأولاد الأشقياء أيضاً».

* * *



«١٧ نيسان/ أبريل. بالأمس نفّذ هانز مشروعه، الذي طالما راوده الأمل فيه، في العبور إلى الفناء المواجه. لكنه اليوم بالمقابل لم يشأ أن يفعل ذلك، إذ كانت تقف عربة أمام رصيف التحميل، في مواجهة بوابة الدخول بالضبط. وقال لي: «حين تكون هناك عربة، فعندئذ أخاف من أن أعاكس الأحصنة فتقع وتحدث ضجيجاً بأقدامها».

أنا: وكيف تكون معاكَسة الأحصنة؟

هانز: عندما تكون غاضباً منها، فعندئذ تعاكسها، عندما تصيح «حا!حا!»[٤٩].

أنا: هل حدث لك أن عاكست أحصنة؟

هانز: نعم، كثيراً جداً، إنني أخاف من أن أفعل ذلك. والحق أني لا أفعله.

أنا: هل سبق لك في غموندن أن عاكست أحصنة؟

هانز: كلا!

أنا: ولكنك تحب أن تعاكس الأحصنة؟

هانز: أوه نعم! كثيراً.

أنا: هل تحب أن تضربها بالكرباج؟

هانز: نعم!

أنا: هل تحب أن تضرب الأحصنة كما تضرب ماما آنا؟ أنت تحب ذلك إذاً.

هانز: الأحصنة لا يؤذيها أن تضرب (كنت قلت ذلك له يوماً حتى أخفِّف من خوفه كلما رأى الأحصنة تُضرب). فعلت ذلك حقاً، ذات مرة. كان معي الكرباج مرة في يدي، فضربت الحصان، فوقع، وأحدث ضجيجاً بأقدامه.

أنا: متى كان ذلك؟

هانز: في غموندن.

أنا: حصان حقيقي؟ مربوط إلى عربة؟

---

٤٩ ـ «وكثيراً ما كان هانز يخاف خوفاً شديداً عندما كان الحوذية يضربون أحصنتهم ويصيحون: حا!»



هانز: لم يكن مربوطاً إلى العربة.

أنا: أين كان إذاً؟

هانز: كنت أمسكت بهِ فقط حتى لا يركض بعيداً (كان ذلك كله بالطبع مما لا يحتمل التصديق).

أنا: أين كان ذلك؟

هانز: قرب المعلف.

أنا: من سمح لك بذلك؟ هل كان الحوذي ترك الحصان هناك؟

هانز: لم يكن إلا حصاناً من الإصطبل.

أنا: كيف وصل إلى المعلف؟

هانز: اقتدته إليه.

أنا: من أين؟ من الإصطبل؟

هانز: أخرجته لأنني كنت أريد أن أضربه.

أنا: هل كان في الإصطبل أحد؟

هانز: أوه، نعم لويزل (حوذيّ غموندن).

أنا: هل سمح لك بذلك؟

هانز: كلَّمته بلطف فقال إن بوسعي أن أفعل ذلك.

أنا: ماذا قلت له؟

هانز: إن كان بوسعي أن آخذ الحصان وأن أضربه بالكرباج وأن أصيح به بعد ذلك، فقال: نعم.

أنا: هل ضربته بالكرباج كثيراً؟

هانز: **إن ما رويته لك الآن ليس صحيحاً على الإطلاق.**

أنا: ما الصحيح فيه؟

هانز: لا شيء فيه صحيح، رويت لك ذلك لا لشيء إلا للضحك.



أنا: ألم تخرج قط حصاناً من الإصطبل؟

هانز: أوه كلا!

أنا: ولكن كان بودِّك لو تفعل ذلك؟

هانز: أوه نعم! كان بودِّي، لقد تخيّلت ذلك.

أنا: في غموندن؟

هانز: كلا، هنا فقط. تخيّلت ذلك صباحاً عندما كنت بلا ثياب على الإطلاق، كلا، في الصباح وأنا في السرير.

أنا: لماذا لم تخبرني بذلك قط؟

هانز: لم أفكر بذلك.

أنا: تخيّلت ذلك لأنك رأيت من يفعله في الطريق؟

هانز: نعم!

أنا: من بودِّك في الحقيقة أن تضربه، ماما أو أنا أو آنا؟

هانز: ماما.

أنا: لماذا؟

هانز: لأنني أحبّ أن أضربها.

أنا: أرأيت قط أحداً يضرب أمه؟

هانز: ما رأيت ذلك قط، ما رأيت ذلك في حياتي قط.

أنا: وهذا، مع ذلك، ما بودِّك أن تفعله. بماذا كنت ستضرب؟

هانز: بمضرب السجاد.

«(كثيراً ما تهدده أمه بضربه بهذا المضرب»).

«كنت مضطراً يومئذ إلى إيقاف الحديث عند هذا الحد».

«في الطريق أوضح لي هانز أن الأومنيباصات وعربات نقل الأثاث وعربات الفحم هي جميعها عربات **للّقلق**».



هذا معناه: نساء حبالى. أما النزوة السادية، التي أفصحت عن نفسها قبيل ذلك مباشرة، فلا يمكن أن تكون منعدمة الصلة بموضوعنا.

* * *

«٢١ نيسان/ أبريل. روى هانز هذا الصباح أنه تخيَّل ما يلي: «كان هناك قطار في لاينز وكنت مسافراً مع جدتي من لاينز إلى محطة الجمارك المركزية. ما كنت أنت نزلت بعد عن المعبر، عندما كان القطار الثاني قد وصل إلى سان ـ فايت[٥٠]. وعندما نزلتَ، كان القطار قد توقّف، فصعدنا إليه».

«كان هانز في لاينز بالأمس. وللوصول إلى رصيف الانطلاق، كان لا بدّ من عبور معبر. ومن الرصيف كان يمكن للمرء أن يرى السكة على مدى امتدادها إلى سان ـ فايت. والأمر كله يلفّه قدر من الغموض. وكانت فكرة هانز الأصلية كالتالي في أغلب الظن: لقد استقل هو القطار الأول الذي فاتني، ومن سان ـ فايت وصل قطار ثانٍ، فسافرت فيه. ولكنه حرَّف جزءاً من هذا التخييل الهروبي، فقال في نهايته: «لقد سافرنا كلانا ولكن فقط في القطار الثاني».

«إن هذا التخييل مرتبط بسابقه، الذي لم نؤوله بعد، والذي بحسبه استغرقنا زمناً أطول مما ينبغي في ارتداء ملابسنا في محطة غموندن، مما جعل القطار يمضي بنا قبل أن ننزل منه».

«عند العصر، أمام البيت، هرع هانز فجأة إلى داخل البيت .عندما ظهر حصانان يجران عربة، وقد تعذر عليَّ أن أرى في هذين الحصانين شيئاً غير عادي».

«سألته ما به، فقال: «إن الحصانين مزهوان جداً، حتى إني لأخاف أن يقعا» (كان الحوذي يشد لجام هذين الحصانين، فيتقدمان بخطى موزونة متهادية، مرفوعي الرأس، وكان مظهرهما ينمّ حقاً عن زهو»).

«سألته من هو في الواقع المزهو جداً؟

هو: أنت، حين آتي إلى فراش ماما.

---

٥٠ ـ سان ـ فايت: هي المحطة التالية للاينز بعد مغادرة فيينا. «م».



أنا: أتريدني إذاً أن أقع أرضاً؟

هو: أجل. ينبغي عندئذ أن تكون عارياً (يقصد عاري القدمين، نظير فريتز) وأن ترتطم بحجر، وعندئذ يسيل الدم وأستطيع على الأقل أن أبقى بمفردي مع ماما. وعندئذ ستصعد إلينا، وسيكون في وسعي أن أهرب بسرعة بعيداً عن ماما، كيلا تراني.

أنا: أتستطيع أن تتذكر من الذي ارتطم بحجر؟

هو: نعم. فريتز.

أنا: وحين وقع فريتز، بأي شيء فكرت[٥١]؟

هو: بأنه كان ينبغي أن تكون أنت الذي ارتطم بحجر.

أنا: إذاً فأنت تريد أن تبقى بمفردك مع ماما؟

هو: نعم!

أنا: بسبب أي شيء وبّختك، في الواقع؟

هو: لا أعرف (!!!).

أنا: لماذا؟

هو: لأنك تغضب.

أنا: لكن هذا غير صحيح!

هو: بلى، صحيح، إنك تغضب، أعرف ذلك. لا بدّ أنه صحيح.

«من الواضح أنه لم يتأثر تأثراً ملحوظاً بما شرحته له من أن صغار الصبيان هم وحدهم الذين يأتون إلى فراش أمهم، بينما الكبار ينامون في فراشهم».

«يذهب بي الظن إلى أن الرغبة في «معاكسة» الحصان، أي ضربه والصياح به، لا تنصبّ، كما زعم هانز، على أمه، بل عليّ أنا. وأرجح الظن أنه لم يضع أمه في الصدارة إلا لأنه ما كان يريد أن يقرّ أمامي بشعوره الأخير. وفي الأيام القليلة الماضية أظهر نحوي ودّاً ملحوظاً».

٥١ ـ هكذا يكون فريتز قد وقع حقاً، وهو ما كان هانز أنكره من قبل.



نبادر هنا، معتمدين على التفوق الذي نكتسبه بيسر وسهولة بعد انقضاء الحدث، إلى تصحيح تأويل الأب: فرغبة هانز في «معاكسة» الحصان تقوم على عنصرين مقوِّمين اثنين: شهوة غامضة، سادية، إلى أمه، وحفزة واضحة إلى الأخذ بثأره من أبيه. وما كان لهذه الحفزة أن تعلن عن نفسها قبل أن تظهر تلك الشهوة إلى النور في سياق عقدة الحبل. وعندما يتكون رهاب من الأرهبة ابتداء من أفكار لاشعورية كامنة، يحدث تكثيف، ولهذا لا يمكن لمسار التحليل أبداً أن يتبع مسار تمخُّض العصاب.

* * *

«٢٢ نيسان/ أبريل. تخيَّل هانز من جديد هذا الصباح شيئاً ما: **غلام من غلمان الشوارع يسافر في عربة قطار شحن، يصل السائق ويجرده من ثيابه ويعريه تماماً ويدعه هناك إلى صباح اليوم التالي، وفي الصباح يعطي الغلام للسائق ٥٠,٠٠٠ فلوران كيما يدعه يسافر في العربة**».

«إن النوردبان[٥٢] يمرّ بمواجهة بيتنا تماماً. وعلى سكة فرعية كانت تقف عربة صغيرة كان هانز قد رأى في أحد الأيام غلاماً يركب عليها، فتمنى لو أنه يفعل مثله. لكنني قلت له حينئذ إن ذلك غير مسموح به، وإنه إن فعل فإن السائق «سيزعل» منه. وينطوي التخييل على عنصر ثانٍ، وهو رغبة مكبوتة في التعري».

لقد تسنى لنا أن نلاحظ، منذ بعض الوقت، أن مخيلة هانز تعمل ضمن نطاق «وسائل الاتصال»[٥٣]، وتتقدم بالتالي من الحصان الذي يجرّ العربة إلى السكك الحديدية. وهكذا، إن كل رهاب من أرهبة الشوارع لا يلبث أن يقترن به مع مرور الوقت رهاب من أرهبة السكك الحديدية.

«علمت بعد الظهر أن هانز **لعب طوال الصباح بدمية من المطاط كان يدعوها غريتا. وقد أدخل مدية صغيرة في الفتحة التي ثُبِّتت بها الصفارة**

٥٢ ـ أي سكة حديد الشمال.

٥٣ ـ كلمة الاتصال بالألمانية Verkehr تعني (كما بالعربية) العلاقة، المعاشرة، التجارة، النقل، الوصال الجنسي. ومن ثم فهي تهيِّئ أساساً نفسياً لاشعورياً لأرهبة السكة الحديدية. هامش الترجمة الفرنسية.



الصغيرة المسطحة، ثم مزَّق ما بين ساقي الدمية بحيث يمكن للنصل أن يخرج من هذا الموضع. وقال عندئذ للخادمة وهو يريها ما بين ساقي الدمية: (انظري، هي ذي فرفورتها!)».

أنا: ما اللعبة التي لعبتها اليوم مع الدمية؟

هو: مزقتها بين ساقيها، أتعرف لماذا؟ لقد كان بداخلها مدية هي لماما. وقد أدخلتها من الفتحة التي يصرخ منها رأسها، ثم مزقتها بين ساقيها، فخرجت المدية من هناك.

أنا: لماذا مزقتها بين ساقيها؟ ألترى فرفورتها؟

هو: كانت فرفورتها موجودة من قبل. وكان بوسعي أن أراها على كل حال.

أنا: لماذا وضعت المدية في داخلها؟

هو: لا أعرف.

أنا: ماذا كانت المدية تشبه؟

«فجاءني بها».

أنا: لعلك تخيَّلت أنها طفل صغير؟

هو: كلا، لم أتخيَّل شيئاً على الإطلاق، لكن يبدو أن اللقلق كان لديه مرة طفل صغير، أو أحد ما غيره.

أنا: متى؟

هو: ذات مرة. سمعت بذلك، أو لعلي لم أسمع به إطلاقاً؟ أو ربما قلت ذلك مواربة؟

أنا: ماذا تعني بقولك: **مواربة؟**

هو: أعني أن ذلك غير صحيح.

أنا: كل ما يقوله المرء يكون صحيحاً إلى حدّ ما.

هو: أوه! نعم، إلى حدّ قليل.

أنا (بعد أن غيَّرت موضوع الحديث): كيف تتصور أن الفراخ تُخلق؟



هو: إن اللقلق هو الذي يجعلها تكبر. اللقلق يجعل الفراخ تكبر ـ كلا، بل الله تعالى.

«شرحت له أن الدجاجات تبيض بيضاً، وأنه من البيض تخرج دجاجات أُخر.

أنا: لماذا تضحك؟

هو: لأن ما تقوله لي يعجبني.

«وقال لي إنه كان رأى ذلك من قبل».

أنا: أين؟

هانز: أنت فعلت ذلك.

أنا: أين بضت، أنا، بيضة؟

هانز: في غموندن، بضت بيضة في الحشيش، وللحال خرجت منها فرخة. لقد بضت بيضة ذات يوم، أعرف ذلك، أعرف أن هذا مؤكد، لأن ماما هي التي قالته.

أنا: سأسأل ماما إن كان ذلك صحيحاً.

هانز: هذا غير صحيح على الإطلاق، لكنني أنا بضت مرة بيضة فخرجت منها فرخة.

أنا: أين؟

هانز: في غموندن، تمددت على الحشيش، كلا، ركعت على ركبتي، وما كان الأولاد يرونني على الإطلاق، وفجأة في الصباح قلت: «ابحثوا، يا أولاد، بالأمس بضت بيضة!». وفجأة نظروا، وفجأة رأوا بيضة، وخرج منها هانز صغير. لماذا تضحك؟ ماما لا تعرف ذلك، وكارولين لا تعرف ذلك، لأن ما من أحد كان يراني وفجأة بضت بيضة، وفجأة صارت هنا. حقيقة. متى تكبر الفرخة، يا بابا، في البيضة؟ عندما تترك وشأنها؟ هل يجب أن نأكلها؟

«شرحت له الأمر».

هانز: حسناً جداً، فلندع البيضة للدجاجة، فعندئذ تخرج منها فرخة. ولنلفّها في الصندوق ولنحملها إلى غموندن».



لقد أمسك هانز بجرأة بمسار تحليله بين يديه، بعدما تردد والداه في إعطائه الإيضاحات التي كان عليهما أن يزوِّداه بها منذ وقت بعيد؛ وبفعل هو بمثابة عرَض صارخ قال لهما: **انظرا، هاكما كيف أن الولادة تحدث**. أما ما قاله للخادمة بخصوص مغزى لعبته مع الدمية فلم يكن صادقاً، إذ حينما سأله أبوه هل كان يريد فقط أن يرى فرفورتها نفى ذلك بصراحة: ولما فسّر له أبوه بعد ذلك، وكأنما يسدد قسطاً من دينه، كيف تخرج الصيصان من البيض، تضافر عدم رضاه وريبته ومعرفته المتفوقة بحقيقة الأمر ليأخذ ذلك كله شكل تهكم رائع ارتفع، في عباراته الأخيرة، إلى حدّ التلميح السافر إلى مولد أخته.

أنا: ماذا كنت تلعب مع دميتك؟

هانز: كنت أناديها: غريتا.

أنا: لماذا؟

هانز: لأنني كنت أناديها غريتا.

أنا: كيف كنت تلعب؟

هانز: كنت أعتني بها وكأنها طفل صغير حقيقي.

أنا: هل تحبّ أن تكون لك بنت صغيرة؟

هانز: أوه نعم! لمَ لا؟ أحبّ لو كانت لي بنت، لكن ماما لا ينبغي أن يكون لها بنت صغيرة، أنا لا أحبّ ذلك.

«كثيراً ما كان أفصح عن هذه الفكرة. كان يخشى، إذا ما جاء طفل ثالث، أن يفقد المزيد من امتيازاته».

أنا: لكن النساء وحدهن يكون لهن أطفال.

هانز: سيكون لي بنت صغيرة.

أنا: من أين ستأتي بها إذاً؟

هانز: حسناً، من اللقلق. **إنه يخرج البنت الصغيرة**، والبنت الصغيرة تبيض حالاً بيضة، ومن البيض تخرج آنا أخرى ـ آنا أخرى بعد. من آنا تخرج آنا



أخرى، كلا، تخرج آنا **واحدة.**

أنا: أتودّ فعلاً لو كانت لك بنت صغيرة؟

هانز: **نعم، ستكون لي واحدة في السنة القادمة،** وسيكون اسمها آنا أيضاً.

أنا: لكن لماذا لا ينبغي أن يكون لماما بنت صغيرة؟

هانز: لأنني أنا أريد أن تكون لي هذه المرة بنت صغيرة.

أنا: ولكن لا يمكن أن تكون لك بنت صغيرة.

هانز: أوه بلى! إن للصبيان الصغار بناتاً، وللبنات الصغيرات صبياناً[٥٤].

أنا: الصبيان الصغار لا يمكن أن يكون لهم أولاد. النساء وحدهن، الماماتْ، هن اللواتي يكون لهنّ أولاد.

هانز: ولكن لماذا لا يكون لي أنا؟

أنا: لأن الله تعالى رتّب الأمور على هذا النحو.

هانز: لماذا لا يكون لك أنت أيضاً ولد؟ أوه نعم، سيكون لك بكل تأكيد أنت أيضاً ولد، عليك فقط أن تنتظر.

أنا: سأنتظر في هذه الحال طويلاً!

هانز: هل آنا لي أو لماما؟

أنا: لماما.

هانز: كلا، بل لي. لماذا لا تكون لي ولماما؟

أنا: آنا هي لي ولماما ولك.

هانز: إذاً أرأيت!».

وبالفعل، ما دام الطفل لم يكتشف وجود الأعضاء التناسلية عند المرأة، فإن عنصراً أساسياً ينقصه لفهم العلاقات الجنسية.

* * *

٥٤ ـ هذا أيضاً جزء ذو دلالة غير متوقعة من النظرية الجنسية الطفلية.



«في ٢٤ نيسان/ أبريل تلقى هانز مني ومن زوجتي إيضاحات وصلت إلى نقطة معينة: فقد أعلمناه أن الأطفال يكبرون داخل أمهاتهم، ثم يُدفعون بعد ذلك إلى الخارج ـ وهو شيء مؤلم جداً ـ مثل «اللومف»، وهكذا يكون مولدهم.

«وقفنا بعد الظهر أمام باب البيت. كان تحسن ظاهر قد طرأ على حالته، إذ راح يجري خلف العربات، والشيء الوحيد الذي كان ينمّ عن بقية من حَصَر لديه أنه ما كان يجازف بتخطي الدائرة المحيطة مباشرة بالباب الخارجي، وأنه ما كان من الممكن حمله على القيام بأية نزهة طويلة.

«في ٢٦ نيسان/ أبريل انقضّ هانز نحوي ونطحني برأسه في بطني، مثلما كان فعل مرة من قبل. فسألته إن كان عنزة، فقال:

«نعم، كبش».

«سألته أين رأى كبشاً.

هو: في غموندن، كان لدى فريتز واحد (كان لدى فريتز حَمَل حيّ ليلاعبه).

أنا: قصّ عليّ ما كان يفعله ذلك الحمَل.

هانز: أنت تعرف، كانت الآنسة متزي (معلمة مدرسة كانت تقطن في البيت) تضع دوماً آنا فوق الحمل الصغير، لكنه ما كان يستطيع عندئذ أن ينهض، ولا يستطيع أن ينطح برأسه. حينما نقترب منه، فإنه ينطح، لأن له قروناً. وكان فريتز يجرّه بحبل ويربطه إلى شجرة. إنه يربطه دوماً إلى شجرة.

أنا: هل نطحك الحمل برأسه؟

هانز: لقد وثب عليَّ. أخذني فريتز مرة إلى مقربة منه... اقتربت منه مرة دون علمي، فوثب فجأة عليَّ. كان ذلك مسلياً جداً ـ ولم أخف.

«كان واضحاً أن ذلك غير صحيح».

أنا: هل تحب بابا؟

هانز: أوه نعم!



أنا: لعلك لا تحبه أيضاً؟

«كان هانز يلعب آنئذ بلعبة هي عبارة عن حصان صغير. وفي تلك اللحظة وقعت منه اللعبة. فهتف: «الحصان وقع! انظر، ما أقوى الضجيج الذي أحدثه»».

أنا: هناك شيء يضايقك في بابا، لأن ماما تحبه.

هانز: كلا.

أنا: إذاً لماذا تبكي دائماً كلما قبلتني ماما؟ أليس ذلك لأنك غيران؟

هانز: بلى، هو كذلك.

أنا: ماذا كنت ستفعل لو كنتَ بابا؟

هانز: وكنت أنت هانز؟ ـ كنتُ سآخذك إلى لاينز كل يوم أحد، كلا، بل في كل أيام الأسبوع. لو كنت أنا بابا لكنت دوماً في غاية اللطف.

أنا: وماذا كنت ستفعل مع ماما؟

هانز: كنت سآخذها أيضاً إلى لاينز.

أنا: وماذا أيضاً؟

هانز: لا شيء.

أنا: إذاً لماذا أنت غيران؟

هانز: لا أعرف.

أنا: هل كنت في غموندن أيضاً غيران؟

هانز: في غموندن لا (هذا غير صحيح). في غموندن كانت لي أشيائي الخاصة، في غموندن كان لي بستان وكذلك أولاد.

أنا: هل يمكنك أن تتذكر كيف حصلت البقرة على عجلها الصغير؟

هانز: أوه نعم، جاء بالعربة (هذا ما قيل له في أرجح الظن في غموندن، ثم إن في هذا طعناً في نظرية اللقلق). وبقرة أخرى دفعته خارج مؤخرتها (هذه بلا شك ثمرة الإيضاحات التي قُدِّمت لهانز والتي مثَّلت له معطيات جديدة حاول التوفيق بينها وبين «نظرية العربة الصغيرة»).



أنا:غير صحيح أن العجل جاء بالعربة، بل خرج من البقرة التي كانت في الإصطبل.

«جادل هانز في ذلك، قائلاً إنه رأى العربة في صبيحة ذلك اليوم. فلفتُّ نظره إلى أنه من المحتمل أن يكونوا ذكروا له أن العجل الصغير جاء بالعربة. فسلَّم بذلك في نهاية الأمر: «الأرجح أن برتا هي التي أخبرتني بذلك، أو كلا، ربما المالك. فقد كان هناك، وكان الوقت ليلاً، إذاً فصحيح ما قلته لك، أو يبدو لي أن ما من أحد أخبرني بذلك، وأنني أنا الذي تخيَّلته بمفردي طوال الليل».

«إن لم أكن مخطئاً، فإن العجل الصغير اقتيد في عربة. ومن هنا كان الخلط.

أنا: لماذا لم تتخيَّل أن اللقلق هو الذي أتى به؟

هانز: لم أشأ أن أتخيَّل ذلك.

أنا: لكنك تخيَّلت أن اللقلق أتى بآنا؟

هانز: في الصباح (صباح يوم الولادة) تخيَّلت ذلك. قل لي يا بابا، هل كان السيد رايزنبشلر (المالك) موجوداً هناك عندما خرج العجل الصغير من البقرة؟[٥٥].

أنا: لا أعرف. هل تعتقد ذلك؟

هانز: أعتقد ذلك... بابا، هل لاحظت أن ثمة أحصنة لها شيء أسود على الفم؟

أنا: أجل، لاحظت ذلك مراراً في الشارع في غموندن[٥٦].

أنا: في غموندن، هل كنت تأتي كثيراً إلى فراش ماما؟

هانز: نعم.

أنا: عندئذ كنت تخاف من بابا؟

٥٥ ـ إن هانز ـ ولديه من الأسباب ما يحمله على الارتياب في المعلومات التي يزوِّده بها الكبار ـ يتساءل هنا عما إذا لم يكن المالك أجدر بالتصديق من أبيه.

٥٦ ـ إن ترابط الأفكار هو كالتالي: فوالد هانز لم يشأ، لمدة طويلة من الزمن، أن يصدِّق ما كان يقوله هانز عن وجود شيء أسود حول خطم الأحصنة إلى أن ثبتت صحة ذلك في خاتمة المطاف.



هانز: **أنت تعرف كل شيء؛ أنا ما كنت أعرف شيئاً.**

أنا: حين وقع فريتز فكرت في نفسك: آه لو أن بابا يقع هكذا! وحين نطحك الحمل برأسه فكرت: آه لو أنه ينطح بابا برأسه! هل تذكر الدفن في غموندن؟ (أول دفن شهده هانز. وهو كثيراً ما يذكره، وهذه بلا أدنى شك ذكرى ستارية)(٥٧).

هانز: نعم، وماذا بعد؟

أنا: يومئذ فكرت في نفسك: لو أن بابا مات لصرت أنا بابا؟

هانز: نعم.

أنا: من أي العربات لا تزال تخاف في الواقع؟

هانز: منها كلها.

أنا: ولكن ذلك غير صحيح.

هانز: إنني لا أخاف من عربات الأجرة ولا من العربات ذات الحصان الواحد. إنني أخاف من الأومنيباصات، من عربات الأمتعة، ولكن فقط حين تكون محمَّلة، وليس عندما تكون فارغة. عندما يكون هناك حصان واحد، وعندما تكون العربة محمَّلة بتمامها فعندئذ أخاف، وعندما يكون هناك حصانان وتكون العربة محمَّلة بتمامها فعندئذ لا أخاف.

أنا: أتخاف من الأومنيباصات لأنه يوجد في داخلها كثير من الناس؟

هانز: لأنه يوجد في أعلاها كثير من الأمتعة.

أنا: حينما كانت ماما على وشك أن تنجب آنا، أفما كانت محمَّلة هي الأخرى بتمامها؟

هانز: ماما ستُحمَّل مرة أخرى بتمامها حينما ستنجب ولداً آخر، حينما

٥٧ ـ الذكرى الستارية SOUVENIR - ECRAN: ذكرى طفلية تتميز في آن واحد بجلائها الكبير وبالتفاهة الظاهرية لمضمونها. وهي، مثلها مثل الهفوة أو زلة اللسان، أو العرض بصورة أعم، تحجب كالستارة بعض الأخاييل اللاشعورية الأساسية. «م».



سيبدأ ولد آخر يكبر فيها، حينما سيوجد طفل آخر في داخلها.

أنا: هل تحب أن يحدث ذلك؟

هانز: نعم.

أنا: كنت قلت إنك لا تريد ماما أن تنجب طفلاً آخر.

هانز: حسناً، إنها لن تُحمَّل عندئذ مرة أخرى. ماما قالت إنها إذا لم تعد تريد طفلاً، فإن الله تعالى لن يريد هو الآخر طفلاً. إذا لم تعد ماما تريد طفلاً آخر، فلن يكون لها طفل آخر (كان هانز بالأمس قد سأل بالطبع ما إذا كان لا يزال هناك أطفال آخرون في داخل أمه. فقلت له أن لا، وإن الله تعالى إن كان لا يريد ذلك، فلن ينمو أي طفل في داخلها).

هانز: لكن ماما قالت إنها إذا كانت لا تريد طفلاً آخر، فلن ينمو فيها طفل آخر، أما أنت فتقول: إذا كان الله تعالى لا يريد.

«أجبته إن الأمر هو كما قلت له، فردَّ على ذلك ملاحظاً: «لقد كنت هناك، أليس كذلك؟ إذاً فأنت بالتأكيد تعرف الأمر بشكل أفضل».

«لقد كان استفسر من أمه عن الأمر، فوفَّقت فيما بيننا بأن قالت له بأن ما لا تريده هي لا يريده الله تعالى أيضاً»(٥٨).

أنا: لكن يخيَّل إليَّ مع ذلك أنك تتمنى لو أن ماما تنجب طفلاً؟

هانز: لكنني لا أرغب في أن يحدث ذلك.

أنا: لكنك تتمناه؟

هانز: أتمناه، نعم.

أنا: أتعرف لماذا تتمناه؟ لأنك تريد أن تكون بابا.

هانز: نعم.. إذاً ما هذه القصة؟

---

٥٨ - CE QUE FEMME VEUT DIEU LE VEUT(*): إن هانز، بحسّه المرهف، قد وضع هنا من جديد إصبعه على مشكلة بالغة الخطورة.

(*) بالفرنسية في النص، وهو قول سائر ترجمته: ما تريده المرأة يريده الله. «م».



أنا: أية قصة؟

هانز: أنت تقول إن الأب لا يمكن أن ينجب طفلاً، فما هذه القصة التي ترويها عن أنني أريد أن أكون بابا؟

أنا: أنت تريد أن تكون بابا وأن تتزوج ماما، وتريد أن تكون كبيراً مثلي وأن يكون لك شارب، وتريد أن تنجب ماما طفلاً.

هانز: بابا، عندما سأتزوج فلن يكون لي طفل إلا إذا أردت ذلك، وذلك عندما أتزوج ماما، وإذا لم أرد طفلاً فإن الله تعالى لن يريد هو الآخر طفلاً متى ما تزوجت.

أنا: هل تحب أن تتزوج ماما؟

هانز: أوه نعم!»

من السهل أن نتبين كيف أن المتعة التي يجدها هانز في تخييله لا تزال معكَّرة بسبب عدم يقينه من دور الأب وشكوكه بصدد مسألة من يعود إليه الأمر في إنجاب الأطفال.

* * *

«في مساء اليوم نفسه قال لي هانز ونحن نضعه في فراشه: «أتعرف، يا بابا، ماذا سأفعل الآن؟ سأتكلم حتى الساعة العاشرة مع غريتا، فهي في الفراش معي. إن أولادي هم دوماً في فراشي. هل بوسعك أن تقول لي كيف يحصل ذلك؟» (وبما أنه كان شديد النعاس، فقد وعدته بتدوين ذلك كله في اليوم التالي، ومن ثم غرق في النوم).

«كنت قد أشرت، في التقارير السابقة، إلى أن هانز لا يزال، منذ عودته من غموندن، يتخيَّل خيالات بصدد «أولاده»، ويدير أحاديث معهم، وهلمَّ جراً»[٥٩].

٥٩ ـ ليس من الضروري هنا أن نفترض أن هانز توجد عنده رغبة، من طبيعة مؤنثة، في إنجاب أطفال. فمع أمه عاش هانز، طفلاً، أسعد أوقاته، وهو يسترجع الآن تلك الأوقات، مضطلعاً بالدور الإيجابي، أي دور الأم.



«وعليه فقد سألته، يوم ٢٧ نيسان/٤ أبريل، لماذا يتكلم على هذا النحو دوماً عن أولاده.

هانز: لماذا؟ **لأنني أحب كثيراً لو يكون لي أولاد، لكني لا أتمنى ذلك أبداً، لا أحب أن يكون لي أولاد**[٦٠].

أنا: هل كنت تتخيَّل دائماً أن برتا وأولغا والآخرين هم أولادك؟

هانز: نعم، فرانزل وفريتز، وكذلك بول (رفيقه في لاينز) ولودي (اسم بنت تخيّله لطفلته المفضلة التي يتكلم عنها كثيراً جداً) ـ ويجدر بي أن أنوِّه هنا بأن شخصية لودي ليست من ابتكار الأيام القليلة الماضية، بل كانت موجودة من قبل تاريخ تزويده بالإيضاحات الأخيرة (٢٤ نيسان/ أبريل).

أنا: من هي لودي؟ هل تعيش في غموندن؟

هانز: كلا.

أنا: هل هناك وجود للودي؟

هانز: أجل، وأنا أعرفها.

أنا: من هي إذاً؟

هانز: إنها التي معي هنا.

أنا: ما شكلها؟

هانز: شكلها؟ عيناها سوداوان، شعرها أسود... لقد قابلتها مرة مع ماريدل (في غموندن) بينما كنت أتنزه في المدينة.

«لما أردت أن أتعمق في الأمر اكتشفت أن كل شيء مبتدع[٦١].

أنا: إذاً فقد تخيلت أنك أمهم جميعهم؟

---

٦٠ ـ إن هذا التناقض الصارخ هو التناقض القائم بين الخيال والواقع، بين الرغبة والحيازة. فهو يعلم أنه في الواقع طفل، وأن أطفالاً آخرين من شأنهم أن يكونوا مصدر مضايقة له، لكنه في خياله هو الأم، وبحاجة إلى أطفال يجدِّد معهم ضروب الحنان التي كان هو نفسه فيما مضى موضوعاً لها.

٦١ ـ على أنه من الممكن أن يكون هانز قد رفع إلى مرتبة المثال شخصاً التقاه مصادفة في غموندن، وكان لون عينيه ولون شعره نسخة عن لون عيني أمه وشعرها.



هانز: كنت أيضاً حقاً أمهم.

أنا: ماذا كنت تفعل إذاً مع أولادك؟

هانز: كنت أدعهم ينامون معي، بناتاً وصبياناً.

أنا: في كل يوم؟

هانز: نعم، بالتأكيد.

أنا: وكنت تكلمهم؟

هانز: عندما كنت لا أستطيع أن أضع جميع الأولاد معي في الفراش، كنت أضع بعضهم على الأريكة، وكنت أجعل بعضهم الآخر يجلس في عربة الأطفال، فإن بقي منهم بعد، كنت أحملهم إلى السقيفة وأضعهم في الصندوق، وإن بقي منهم بعد أيضاً كنت أضعهم في الصندوق الآخر.

أنا: إذاً فصناديق أطفال اللقلق كانت في السقيفة؟

هانز: نعم.

أنا: متى أنجبت أولادك؟ هل كانت آنا وقتئذ قد خلقت؟

هانز: نعم، منذ زمن بعيد.

أنا: لكن ممن تعتقد أنك أنجبت الأولاد؟

هانز: **بالتأكيد مني أنا**[٦٢].

أنا: لكنك ما كنت تعرف حينئذ على الإطلاق أن الأولاد يأتون من شخص ما؟

هانز: تخيَّلت أن اللقلق أتى بهم (كذبٌ وتهرُّب بطبيعة الحال)[٦٣].

أنا: بالأمس كانت غريتا في فراشك، لكنك تعلم جيداً أن الصبي لا يمكن

---

٦٢ ـ لا يستطيع هانز أن يجيب من وجهة نظر أخرى غير وجهة نظر الإيروسية الذاتية.

٦٣ ـ كانوا أطفال خياله، أي أونانيته(*).

(*) الأونانية أي الاستمناء: نسبة إلى أونان، وهو رجل ذكرت التوراة أنه كان يمارس الجماع المبتور. فكانت زوجته، وهي امرأة أخيه المتوفى، تستمني). «م».



أن ينجب أولاداً.

هانز: نعم، نعم، لكنني أعتقد ذلك على كل حال.

أنا: كيف عثرت على اسم لودي؟ ما من بنت صغيرة لها هذا الاسم، ربما لوتي، بالأحرى؟

هانز: أوه كلا! لودي. لا أعرف، ولكنه على كل حال اسم جميل.

أنا (مازحاً): ربما كنت تقصد **شوكو لودي**(٦٤).

هانز(على الفور): كلا، بل سافالودي(٦٥).. لأنني أحب **المقانق والسالامي**(٦٦).

أنا: قل لي، ألا يشبه السافالودي لومفاً؟

هانز: بلى.

أنا: واللومف ما شكله إذاً؟

هانز: أسود. أنت تعرف (مشيراً إلى حاجبيَّ وشاربي)، كهذا وكهذا.

أنا: وماذا أيضاً؟ أهو مكوَّر مثل السافالودي؟

هانز: نعم.

أنا: عندما تجلس على القصرية وينزل لومف، هل سبق أن تخيَّلت أنك توشك أن تلد طفلاً؟

هانز: نعم. من قبل في شارع ن.. وكذلك هنا.

أنا: أتعرف، عندما وقعت أحصنة الأومنيباص؟ لقد كانت العربة تشبه صندوق اللقلق، وعندما وقع الحصان الأسود كان ذلك كأنما...

هانز (مكملاً):... كأنما طفل يوشك أن يولد.

٦٤ - بالألمانية يقال للشوكولاته شوكولادا. «م».

٦٥ - «سافالادي» مقانق مطبوخة، ويحلو لزوجتي أن تروي أن خالتها تلفظها دوماً سوفيلودي. وربما يكون هانز سمع بذلك.

٦٦ - السالامي: نوع إيطالي من المقانق. «م».



أنا: وماذا تخيَّلت عندما أحدث ضجيجاً بأقدامه؟

هانز: حسناً، عندما لا أريد أن أجلس على القصرية وأفضل أن ألعب، فإنني أفعل عندئذ ضجيجاً بقدميَّ هكذا (ضرب الأرض بقدميه).

«من هنا كان اهتمام هانز بالسؤال التالي: هل يكون للناس أولاد بإرادتهم أو بغير إرادتهم؟

«لعب هانز اليوم طوال النهار لعبة تحميل عربات الأمتعة وتفريغها، وقال إنه يودّ لو يحصل على عجلة طنبر وصناديق لتكون لعبة له. وكان أكثر ما يجذب اهتمامه في فناء محطة الجمارك المركزية المواجهة لنا تحميل العربات وتفريغها. وكان خوفه يشتدّ إلى أقصى حدّ عند الانتهاء من تحميل عربة من العربات وتهيؤها للرحيل. كان يقول: «الأحصنة ستقع»[٦٧]. وكان من عادته أن يسمي أبواب عنبر محطة الجمارك المركزية «فتحة» (ومن ثم: الفتحة الأولى، الفتحة الثانية، الفتحة الثالثة). ولكنه يقول الآن بدلاً من فتحة: «فتحة المؤخرة».

«اختفت أعراض الحصر تماماً تقريباً، خلا أن هانز يؤثر البقاء بجوار البيت كيما يكون في وسعه الانسحاب إذا ما استولى عليه الخوف. بيد أنه ما عاد يلوذ بحمى البيت، بل يبقى طول الوقت في الشارع. وكما نعلم، فقد بدأ مرضه يوم عاد باكياً من إحدى النزهات، ولما قسرناه على الخروج في نزهة ثانية، لم يذهب إلى أبعد من محطة الجمارك المركزية في شتاتبان، حيث يظل في الإمكان رؤية بيتنا منها. وعندما وضعت زوجتي فُصل عنها بطبيعة الحال؛ وما حصره الحالي، الذي يمنعه من الابتعاد عن جوار البيت، إلا الحنين الذي ساوره إلى أمه آنئذ».

* * *

٦٧ ـ ألا يقال NIEDERKOMMEN (حرفياً: **جاء إلى أسفل**) حين تضع المرأة؟ هذا بالألمانية. وبالفرنسية أيضاً يقال METTRE BAS (حرفياً: **وضع إلى أسفل**) لأنثى الدواب حين تلد. هامش الترجمة الفرنسية.



«٣٠ نيسان/ أبريل، فيما كان هانز يلعب من جديد مع أولاده الخياليين، قلت له: «كيف لا يزال أولادك أحياء؟ فأنت تعلم حق العلم أن الصبي لا يمكن أن ينجب أولاداً».

هانز: أعرف ذلك. من قبل كنت لهم ماما. **أما الآن فإنني بابا**.

أنا: ومن هي أمّ أولادك؟

هانز: حسناً، إنها ماما، وأنت الجدّ.

أنا: إذاً، فأنت تريد أن تكون كبيراً مثلي، وأن تتزوج ماما، وعندئذ يتوجب عليها أن تنجب أولاداً.

هانز: نعم، هذا ما أرغب فيه، وعندئذ، إن تلك التي في لاينز (أمي)[٦٨] ستكون جدتهم».

إن الأمور تمضي إلى نهايتها الحسنة. فأوديب الصغير اهتدى إلى حلّ أحسن توفيقاً من ذلك الذي سطَّرته الأقدار. فبدلاً من أن يقتل أباه، منحه السعادة نفسها التي كان يطمح إليها هو: رقّاه إلى مرتبة جد وزوَّجه بدوره من أمه.

* * *

«في الأول من أيار/ مايو جاءني هانز ساعة الغداء وقال لي: «أتعرف؟ دعنا نكتب شيئاً إلى الأستاذ».

أنا: مثل ماذا؟

هانز: هذا الصباح كنت مع جميع أولادي في المرحاض. في البداية عملت لومف وفرفرت، وكانوا ينظرون. عندئذ أجلستهم على المرحاض، ففرفروا وعملوا لومف، ومسحت مؤخرتهم بالورق. أتعلم لماذا؟ لأنني أحب كثيراً أن يكون لي أولاد، فعندئذ سأفعل كل شيء من أجلهم، وسآخذهم إلى المرحاض، وسأنظِّف مؤخراتهم، وسأعمل لهم كل ما يُعمل للأولاد».

٦٨ ـ أي أم والد هانز. «م».



إنه لمن الصعب، بعد الاعتراف الذي انطوى عليه هذا التخييل، أن نماري في أن الوظائف الإخراجية عند هانز مشحونة باللذة.

«بعد الظهر غامر بالذهاب لأول مرة إلى شتادبارك. وبما أن ذلك اليوم كان الأول من أيار/مايو[٦٩]، فقد كان عدد العربات القمينة بأن تثير رعبه أقل من المعتاد، ولكنه كان على كل حال كافياً. إنه مزهو جداً بإنجازه، وكان عليَّ، بعد التعصيرة[٧٠]، أن أصحبه من جديد إلى شتادبارك. في الطريق صادَفنا أومنيباص، فأشار إليه قائلاً: «انظر، عربة بصندوق اللقلق!». وإذا ما ذهب هانز معي غداً إلى شتادبارك، كما اتفقنا، فبوسعنا أن نعتبر أنه شفي من مرضه.

«في ٢ أيار/مايو جاءني هانز هذا الصباح: «أتعرف، لقد تخيَّلت اليوم شيئاً». في أول الأمر نسيه، ثم عاد فيما بعد فرواه لي وإن بدت عليه علامات مقاومة شديدة: «**جاء السنكري واقتلع أولاً مؤخرتي بالكماشة، ثم أعطاني مؤخرة غيرها، ثم فعل الشيء نفسه بفرفورتي**. وقد قال لي: «دعني أرى مؤخرتك»، فكان عليَّ عندئذ أن أستدير، فاقتلعها، ثم قال: (دعني أرى فرفورتك)».

لقد أدرك الأب دلالة هذا التخييل الرغبي[٧١]، ولم يساوره الشك لحظة في التأويل الوحيد الذي ينطوي عليه.

أنا: **أعطاك فرفورة أكبر ومؤخرة أكبر.**

هانز: نعم.

أنا: مثل ما عند البابا، لأنك ترغب في أن تكون بابا؟

هانز: نعم، وأرغب أيضاً في أن يكون لي شارب مثلك، وكذلك شعر مثلك (أشار إلى الشعر على صدري).

«ينبغي على ضوء هذا أن نصحح تأويل تخييل هانز السابق الذي تصور

---

٦٩ ـ عيد العمال. «م».

٧٠ ـ التعصيرة: عند العامة، الطعام الخفيف الذي يتمّ تناوله عصراً ما بين الغداء والعشاء. «م».

٧١ ـ الرغبي: نسبة إلى الرغبة. «م».



بموجبه أن السنكري حضر وفكّ المغطس، وغرز مثقباً في بطنه. فالمغطس الكبير يعني «المؤخرة»، والمثقب أو الكماشة يعني الفرفورة، كما سبق لنا تأويل ذلك(٧٢). فالتخييلان متطابقان.

«إن ضوءاً جديداً قد سُلِّط أيضاً على خوف هانز من المغطس الكبير، وهذا الخوف قد تناقص أصلاً. فهو يكره أن تكون «مؤخرته» صغيرة جداً بالقياس إلى المغطس الكبير».

في الأيام التالية كلَّمتني والدة هانز عدة مرات لتعرب عن غبطتها بشفاء ابنها.

* * *

بعد ذلك بأسبوع كتب إليّ والد هانز ما يلي:

«سيدي الأستاذ المبجَّل،

بودي أن أضيف ما يلي إلى تاريخ مرض هانز:

«١ ـ إن خمود المرض، الذي أعقب الإيضاحات الأولى التي زوَّدته بها بخصوص المسائل الجنسية، لم يكن كاملاً على نحو ما يمكن أن أكون قد صوّرته. فصحيح أن هانز صار يخرج للنزهة، ولكن فقط عندما نقسره عليها قسراً، وفي حال من الحَصَر الشديد. وقد ذهب معي مرة إلى أمام محطة الجمارك المركزية، حيث يظل في الإمكان رؤية بيتنا، أعني ما استطعت قط أن أحمله على الذهاب إلى أبعد من ذلك.

«٢ ـ فيما يتعلق **بشراب التوت والبندقية**: إننا نعطي هانز شراب التوت حين

---

٧٢ ـ ربما كان بوسعنا أن نضيف أن كلمة «مثقب» BOHRER لم يقع الاختيار عليها بعيداً عن كل ارتباط بكلمتي «مولود» و«ولادة» GEBOREN، GEBRURT. وهكذا لا يكون الصبي ميَّز بين «مولود» و«مثقوب» GEBOREN ، GEBOHRT. وقد أخذت بهذا الرأي عن زميل خبير، لكن لا يسعني أن أقول هنا هل نحن بصدد رابطة عميقة وعامة بين الفكرتين أم بصدد محض توافق لفظي خاص باللغة الألمانية. إن بروميثيوس (برامانثا)(*)، خالق البشر، هو أيضاً، من الناحية الاشتقاقية، «الثاقب» BOHRER. راجع أبراهام: **الحلم والأسطورة**، المجلد ٤ من **كتابات في علم النفس التطبيقي**، ١٩٠٨.

(*) يعقد فرويد هنا صلة معنوية ولفظية معاً بين بروميثيوس خالق البشر من الطين في الميتولوجيا اليونانية وبين برامانثا، وهو السيخ الذي كان الكهنة السنسكريتيون يستخدمونه في تحريك النار المقدسة. «م».



يكون مصاباً بالقبض. أما Schiessen (يطلق النار) و Scheissen (يخرى) فكلمتان يخلط بينهما هانز كثيراً.

«٣ ـ كان هانز في حوالي السنة الرابعة من العمر حين أفردنا له غرفة خاصة. وإلى ذلك الحين كان ينام في غرفتنا.

«٤ ـ ثمة رسابة من مرضه لا تزال باقية، غير أنها لم تعد تتظاهر في صورة خوف، بل في صورة حفزة سوية لدى الأطفال إلى طرح الأسئلة. وهذه الأسئلة تنصبّ بصورة رئيسية على ما يلي: ممَّ تصنع الأشياء (الحافلات الكهربائية، الآلات، إلخ..)، ومن يصنع الأشياء، إلخ؟ وإنه لمما يميِّز أغلب هذه الأسئلة أن هانز يطرحها وإن يكن سبق له هو نفسه أن أجاب عنها. فهو يبحث فقط عن توكيد. قلت له يوماً وقد أرهقتني أسئلته: «أتعتقد إذاً أن في مستطاعي الجواب عن كل ما تسأله؟». فكان ردّه: «اعتقدت أنك ما دمت عرفت بخصوص الحصان فلا بدّ أن تعرف هذا أيضاً».

«٥ ـ ما عاد هانز يتكلم عن مرضه إلا على أنه واقعة تاريخية ماضية: «في السابق عندما كانت عندي الحماقة...».

«٦ ـ الرسابة الكامنة وراء ذلك هي التالية: إن هانز يعصر دماغه ليفهم ما يمكن أن تكون عليه صلة الأب بطفله ما دامت الأم هي التي تنجب هذا الأخير. نستطيع أن نستشفّ ذلك من أسئلته، وعلى سبيل المثال عندما يسأل: «إنني أخصُّك أنت أيضاً، أليس كذلك؟.. (يقصد أنه لا يخصّ أمه وحدها). أما كيف يخصُّني، فهذا غير واضح له. ومن جهة أخرى، ليس لديّ أي دليل مباشر على أنه استرق النظر مصادفة واتفاقاً، كما تفترض، إلى جماع بين والديه.

«٧ ـ ربما يكون من الضروري، في حال عرض هذه الحالة، التنويه بعنف الحصَر، لأنه لولا ذلك لكان يمكن أن يقال إنه ما كان ليتأخر عن الخروج إلى النزهة فيما لو نال علقة ساخنة على إليتيه».

* * *



ختاماً سأضيف ما يلي: إن الحصر، الصادر عن عقدة الخصاء، تمّ التغلب عليه في تخييل هانز الأخير، فتحوَّل الترقب القلِق إلى شيء يجلب السعادة. أجل، لقد حضر الدكتور (السنكري)، واقتلع قضيبه، ولكنه لم يفعل ذلك إلا ليعطيه عوضاً عنه واحداً أكبر. وأما ما عدا ذلك فإن باحثنا الصغير اكتشف ببساطة، منذ وقت مبكر، أن كل ما يعرفه المرء جزئي، وأن كل درجة يرتقيها الإنسان في سلم المعرفة تترك وراءها رسابة بغير حلّ.

(٣)

تحليل لاحق

سأتفحص من ثلاث زوايا هذه المعطيات عن تمخُّضِ رهابٍ وانحلاله لدى صبي صغير دون الخامسة من العمر. سأنظر، أولاً، في مدى ما تقدمه هذه المعطيات من تأييد للأطروحات التي تقدمت بها في كتابي **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**، المنشور سنة ١٩٠٥. وسأتقصى، ثانياً، مدى ما يمكن أن تسهم به في تفهم هذه الحالة الباتولوجية الشائعة جداً. وسأتقصى، ثالثاً، ما يمكن أن تفيده في مجال استكناه حياة الطفل النفسية وانتقاد الأهداف التي ننشدها في موضوع التربية.

- ١ -

يخالجني انطباع بأن لوحة الحياة الجنسية الطفلية التي يمكن استخلاصها من هذا التقرير عن حالة هانز الصغير تتفق أتم الاتفاق مع الوصف الذي تقدمت به عن هذه الحياة في نظريتي الجنسية التي تمّ بناؤها بالاستناد إلى الفحوص التحليلية النفسية للراشدين. لكن قبل أن أخوض في تفاصيل هذا التوافق، ينبغي لي أن أردّ على اعتراضين لا بدّ أن يثارا على استخدامي تحليل هذه الحالة لهذا الغرض. الاعتراض الأول: إن هانز الصغير ليس طفلاً سوياً وإنما - كما يثبت ذلك مرضه - طفل لديه استعداد مسبق للعصاب، أي أنه «منحطّ»[١] صغير، ولهذا لا يجوز أن تُسحب استنتاجات، قد تكون صحيحة بالنسبة إليه، على أطفال آخرين هم من الأسوياء. على أني سأرجئ الرد على هذا الاعتراض، لأنه يحدّ فقط من قيمة

١ - «منحطّ» أو «منحلّ»: تعبير كان يكثر، قبل فرويد، استخدامه في الأوساط السيكولوجية، ويشار به إلى كل من يشكو من ضعف جسدي أو نفسي أو خلقي، أو من «فساد» في الجِبِلّة. «م».



المعطيات الخاصة بحالة هانز، ولكنه لا يلغيها تماماً.

أما الاعتراض الثاني والأخطر شأناً فهو التالي: «إن تحليل طفل من قبل أبيه، ولا سيما إن أقدم هذا الأب على التحليل وهو مشبع بآرائي النظرية ومصاب بعدوى أحكامي المسبقة، لا بدّ أن يأتي مجرَّداً من أية قيمة موضوعية. فالطفل قابل بطبيعة الحال للإيحاء إلى أقصى درجة، وربما من قبل أبيه أكثر منه من قبل أي شخص، ولسوف يقبل بأي شيء يوحي به إليه هذا الأب عرفاناً منه بمدى ما يحيطه به من اهتمام، ومن ثم فلا شيء مما يقوله يمكن أن تكون له قوة إقناعية، وجميع تداعياته وأفكاره العارضة وأخاييله وأحلامه ستسير بطبيعة الحال في المنحى الذي دُفع به فيه بكل الوسائل. خلاصة القول، مرة أخرى، إن الأمر كله مجرد «إيحاء»، مع فارق وحيد وهو أن هتك الستار عن هذا الإيحاء أيسر بكثير في حالة الطفل منها في حالة الراشد.

ألا ما أغرب الأمر! فأنا ما زلت أذكر مدى السخرية التي كانت تقابل بها، يوم شرعت قبل ٢٢ سنة بالتدخل في خصومة الآراء العلمية، الأطروحةُ المتعلقة بالإيحاء ومفاعيله من جانب الجيلِ القديم من أطباء الأعصاب وأطباء الأمراض العقلية. ومنذئذ تبدل الموقف تبدلاً جذرياً: فالنفور الأولي انقلب بسهولة فائقة إلى قبول مساير، وما ذلك لما كان لا بدّ لأبحاث ليبيو[٢] وبرنهايم[٣] وتلاميذهما أن تحدثه من تأثير خلال العقدين الأخيرين فحسب، وإنما كذلك تحت تأثير الكشف التالي: وهو مدى ما يمكن اقتصاده في الجهد العقلي في حال استخدام كلمة «الإيحاء» في كل ما هبّ ودبّ من الأمور. وبالفعل، لا أحد يعرف ولا أحد يبالي بأن يعرف ما هو الإيحاء، ومن أين يصدر، ومتى يحدث، بل يكفي أن يوضع كل ما هو مربك في النفسية البشرية تحت يافطة «الإيحاء».

---

٢ ـ أمبرواز ليبيو: طبيب فرنسي ريفي (١٨٢٣ ـ ١٩٠٤). أسس مع برنهايم عام ١٨٤٤ مدرسة نانسي التي حاولت علاج المرضى النفسيين بالإيحاء والتنويم المغنطيسي. «م».

٣ ـ هيبوليت برنهايم: أستاذ في الطب (١٨٣٧ ـ ١٩١٩). اشتهر بكتابه الصادر عام ١٨٨٤: **حول الإيحاء في الحالة النوامية وحالة اليقظة**. وقد تأثر فرويد بآرائه عندما أمضى بضعة أسابيع للدراسة في نانسي. «م».



إنني لا أتفق مع وجهة النظر الشائعة اليوم والقائلة إن أقوال الأطفال هي على الدوام اعتباطية وغير جديرة بالتصديق. فالاعتباطية لا وجود لها في الحياة النفسية، وعدم اليقين في أقوال الأطفال مردّه إلى غلبة الخيال لديهم، مثلما أن عدم اليقين في أقوال الراشدين مردّه إلى غلبة الأحكام المسبقة لديهم. وعلى كل، إن الأطفال لا يكذبون هم أيضاً بلا سبب، وميلهم بالإجمال إلى حب الحقيقة أقوى من ميل الكبار. ولو رفضنا جملة وتفصيلاً أقوال صغيرنا هانز، لارتكبنا بحقِّه بكل تأكيد إجحافاً كبيراً. وإنما الأولى بنا أن نميِّز تمييزاً واضحاً بين الحالات التي يحوِّر فيها، تحت ضغط مقاومة ما، الوقائع أو يكتمها، وبين الحالات التي يكون فيها هو نفسه متردداً فيجاري أباه في أقواله (وهي حالات ينبغي ألا يؤخذ فيها ما يقوله بعين الاعتبار)، وأخيراً بين الحالات التي تفيض فيها نفسه عفوياً، وبعيداً عن كل ضغط وإكراه، بما تتكون منه حقيقته الصميمة، وبما لا يعلمه إلى ذلك الحين أحد سواه. والحق أن أقوال الراشدين لا تنطوي على قدر من اليقين أكبر. ويبقى من دواعي الأسف أن ما من عرض تحليلي نفسي لحالة ما يستطيع أن يؤدي بدقة الانطباعات التي يلتقطها المحلِّل أثناء التحليل، وأن ما من اقتناع حاسم ونهائي يمكن أن يتولد عن محض القراءة: فمثل هذا الاقتناع لا يتأتى إلا من خلال التجربة المعاشة. غير أن هذه النقيصة ملازمة بدرجة مماثلة لتحاليل الراشدين أيضاً.

يصور والدا هانز الصغير ابنهما على أنه طفل مرح، صريح، وهكذا كان ينبغي بالفعل أن يكون بمقتضى التربية التي كانا يوفِّرانها له والتي كان قوامها الأساسي الابتعاد عن أخطائنا المعهودة في المضمار التربوي. فما دام متاحاً لهانز أن يوالي استقصاءاته في حالة من السذاجة الفرحة، بدون أن تخطر له ببال الصراعات التي كان محتماً أن تنشأ عنها عما قريب، فقد كان يفضي بكل شيء بلا تحفظ؛ والملاحظات المدونة في تاريخ سابق زمنياً لرهابه لا يرقى إليها بالفعل شك أو شبهة. وإنما مع تمخُّض المرض وفي أثناء التحليل بدأت تظهر تباينات بين ما يقوله وبين ما يعتقده. وهذا من جهة أولى لأن المادة اللاشعورية، التي يعجزه أن يتحكم بها دفعة واحدة، كانت تفرض نفسها عليه فرضاً، ومن جهة ثانية لأن مضمون



أفكاره، بحكم علاقاته بوالديه، كان يستدعي منه تحفظاً. وأعتقد أنني أبقى بعيداً عن التغرض إن تقدمت برأي مفاده أن هذه الصعاب والإشكالات عينها لم تكن هنا أعظم شأناً مما في الكثير من تحاليل الراشدين.

صحيح أنه من المحتم في أثناء التحليل أن تقال لهانز أشياء كثيرة ما كان في مقدوره هو أن يقولها، وأن تُساق إليه أفكار ما كان شيء بعد قد كشف عن وجودها لديه، وأن يوجَّه انتباهه في الاتجاه الذي يتوقع أبوه أن ينبثق فيه منه شيء. وكل ذلك يضعف بلا شك من القيمة الإقناعية للتحليل، ولكن مثل هذا النهج هو المتَّبع في كل تحليل. ذلك أن التحليل النفسي ليس مبحثاً علمياً متجرداً، وإنما هو إجراء علاجي، وما يرمي إليه، في جوهره، ليس إثبات شيء، بل تغيير شيء. وفي أثناء التحليل النفسي يقدِّم الطبيب دوماً للمريض، بقدر يزيد أو ينقص تبعاً للحالات، التمثلات الشعورية الاستباقية التي بفضلها يتأتى للمريض أن يتعرف ما هو لاشعوري وأن يمسك به. ويختلف المرضى في حاجتهم إلى هذه المساعدة، فمنهم من يحتاج إلى قدر كبير منها، ومنهم من يحتاج إلى قدر طفيف، لكن لا يسع أحداً منهم أن يستغني عنها كلياً. وقد يتمكن المرء من أن يسيطر بمفرده على اضطرابات هيِّنة الشأن، ولكنه لا يستطيع أبداً السيطرة على عصاب، إذ إن العصاب ينتصب في مواجهته وكأنه عنصر غريب لا علاقة له به. وللتغلب عليه لا بدّ من معونة شخص آخر، وبقدر ما يمكن لهذا الشخص أن يقدِّم معونته يكون العصاب قابلاً للعلاج. فإن يكن من ماهية هذا العصاب أن يشيح عن هذا «الشخص الآخر» ـ وهذه فيما يبدو سمة مميزة لجميع الحالات التي تندرج تحت اسم الخبل المبكر ـ فعندئذ تبقى مثل هذه الحالات لهذا السبب بالذات مستعصية على الشفاء رغم جهودنا كافة. ومن ثم يمكننا أن نسلَّم بأن الطفل، بحكم النمو الضعيف لأنظمته العقلية، يحتاج إلى مساعدة كبيرة حقاً. غير أن ما يزوِّد الطبيب مريضه به من معلومات إنما ينبع في خاتمة الحساب من تجربته التحليلية. وهذا التدخل من جانب الطبيب لا بدّ أن يحظى باقتناعنا بقدر ما يتأدى إلى فهم المادة المسبِّبة للمرض وإلى تصفيتها.

على أن مريضنا الصغير دلَّل، في أثناء تحليله بالذات، على قدر من الاستقلال



يكفي لتبرئته من تهمة «الإيحاء». وقد طبَّق، مثله مثل سائر الأطفال، نظرياته الجنسية الطفلية على المادة التي كانت متاحة له، وهذا من دون أي تحريض على ذلك. وهذه النظريات بعيدة غاية البعد عن عقلية الراشدين. والحق أني إذا كنت غفلت عن شيء في هذه الحالة فتحديداً عن تنبيه والد هانز إلى أن الطريق الذي يتأدى بهانز إلى موضوع ولادة الأطفال كان لا بدّ أن يمر بالعقدة الإخراجية. وهذا الإهمال من جانبي، وإن قضى على التحليل بأن يمرّ بمرحلة من الغموض، جاء مع ذلك شهادة رائعة على أصالة العمل العقلي واستقلاله لدى هانز. فقد شرع بغتة يهتم بـ «اللومف» بدون أن يفهم والده على الإطلاق، وهو المتهم بأنه كان يوحي إليه، كيف وصل به الأمر إلى ذلك وما سيتمخَّض عنه ذلك. كذلك لا يمكن أن نعزو إلى إيحاءات الأب أي دور في التخييلين المتمحورين حول السنكري والمنبثقين عن «عقدة الخصاء» المبكِّرة إلى الظهور لدى هانز. ولزام عليَّ أن أقرّ هنا بأنني كتمت عن والد هانز ما كنت أتوقعه من مثل هذه العلاقة، وذلك لاعتبارات نظرية، وعلى الأخص كيلا أضعف القوة الإقناعية لمستند إثباتي نادراً ما يقع نظيره في أيدينا.

لو تعمقنا أكثر من ذلك في دراسة تفاصيل التحليل لفزنا بوفرة من البراهين الجديدة على استقلالية هانز إزاء «الإيحاء»، لكنني سأوقف هنا مناقشة هذا الاعتراض الأول[٤]. فأنا أعلم أنني، حتى بمثل هذا التحليل، لن أقنع أحداً ممن لا يريدون الاقتناع، لذا سوف أمضي في مناقشة هذه الحالة برسم القراء الذين ترسَّخ لديهم من قبل الاقتناع بالواقعية الموضوعية للمادة الإمراضية اللاشعورية. وأنا أفعل ذلك وكلي ثقة ـ تبعث على الرضى ـ بأن عدد هؤلاء القراء في تزايد مطرد.

* * *

إن أول سمة يمكن اعتبارها لدى هانز جزءاً من حياته الجنسية اهتمامه البالغ الحدَّة بـ «فرفورته»، كما يسمِّي هذا العضو تبعاً لإحدى وظيفتيه، التي هي بالكاد

٤ ـ الحق أن هذا الاعتراض المتعلق بالإيحاء هو الثاني، وإن يكن فرويد قدّمه في المناقشة على الأول، أي ذاك المتعلق بـ «عدم سواء» هانز. «م».



أقلّها أهمية، والتي لا سبيل إلى تفاديها في طور الحضانة. وهذا الاهتمام جعل من هانز باحثاً مستقصياً، فاكتشف من ثم أنه من الممكن تمييز الحيّ من الجامد تبعاً لوجود فرفورة أو لعدم وجودها. وقد صادر على أهمية هذا العضو من البدن لدى جميع الكائنات الحية التي تصوَّرها مماثلة له، ولاحظ وجوده عند الحيوانات الكبيرة، وافترض أن والديه كليهما مجهزان به، وما توقف حتى أمام شهادة عينيه فعزا وجوده حتى إلى أخته التي ولدت لتوها. ويمكننا القول إنها كانت ستكون هزة مروِّعة لـ «رؤية العالم» عنده لو أنه اضطر إلى حزم أمره على التسليم بعدم وجود هذا العضو لدى كائن مماثل له: فقد كان ذلك سيكون وكأنما اقتلع منه هو نفسه. وربما كان هذا هو السبب في أن أمه لما هددته باحتمال خسارة «فرفورته» ما وجد هذا التهديد مكاناً له في فكره ولم يظهر أثره من ثم إلا في وقت لاحق. وكان الحافز إلى تدخل الأم أن هانز كان يطيب له أن يتدبر لنفسه أحاسيس لاذَّة بملامسته عضوه الصغير: إذ كان الصبي الصغير قد شرع يمارس الضرب الأكثر شيوعاً ـ والأكثر سواءً ـ من أشكال النشاط الجنسي الإيروسي الذاتي.

إن اللذة التي حصل عليها هانز عن طريق عضوه التناسلي الخاص به ترتبط، من خلال ما أسماه ألفريد آدلر[٥] بمنتهى السداد: «**تصالب الدوافع الغريزية**[٦]، بالنظارية SCOPTOPHILIE بشقّيها الإيجابي والسلبي[٧]. فصبيُّنا الصغير يتحيَّن الفرص لرؤية «فرفورة» الآخرين، وفضوله الجنسي ينمو ويتطور، ويحلو له في الوقت نفسه أن يُريَ الآخرين «فرفورته». وينطوي حلم من أحلامه، يعود في تاريخه إلى الآونة الأولى للكبت، على رغبة في أن

٥ ـ ألفريد آدلر: طبيب ومعالج نفسي نمساوي (١٨٧٠ ـ ١٩٣٧). مؤسس علم النفس الفردي. بعد مرحلة أولى من النشاط في الحلقة التحليلية النفسية الفييناوية افترق عن فرويد، وأعطى الأولوية لعقدة النقص القابلة للتحول إلى عقدة تفوق. من مؤلفاته: **معرفة الإنسان ومعنى الحياة**. «م».

٦ ـ انظر: **الغريزة العدوانية في الحياة وفي العصاب** في FORTSCHRITTE DER MEDIZIN، ١٩٠٨، العدد ١٩.

٧ ـ النظارية: الحب الجنسي للنظر، ولها شكلان: إيجابي وهو التلصصية VOYEURISME أي حب النظر إلى أعضاء الآخرين الجنسية، وسلبي هو الاستعرائية EXHIBITIONNISME أي حب عرض الأعضاء التناسلية لأنظار الآخرين. «م».



تساعده واحدة من صديقاته الصغيرات على الفرفرة، أي أن تشارك في المشهد. وينمّ الحلم أيضاً عن أن هذه الرغبة ظلت قائمة إلى ذلك الحين بدون أن تُكبت، كما أن معلومات لاحقة أكدت أن هانز اعتاد أن يشبع هذه الرغبة. وسرعان ما ارتبط الشقّ الإيجابي من النظارية عنده بدافع محدد. فحين اشتكى هانز مراراً وتكراراً لأبيه وأمه على حدّ سواء من أنه لم يرَ قط بعد «فرفورتهما»، فأرجح الظن أن دافعه إلى ذلك كان الحاجة إلى المقارنة. فالأنا هو على الدوام المعيار الذي به يقيس الفرد العالم، وإنما عن طريق المقارنة الدائمة مع ذاته يبدأ بفهم العالم. وقد لاحظ هانز أن الحيوانات الكبيرة لها «فرفورات» أكبر نسبياً من «فرفورته»، ولهذا افترض أن كذلك هو واقع الحال لدى والديه، وتمنى لو يتحقق من ذلك. وقد تصوَّر أن لأمه بكل تأكيد فرفورة «مثل الحصان»، ومن ثم تسلح بهذا العزاء الجاهز: إن «فرفورته» ستكبر معه. وهكذا يبدو أن رغبة الطفل في أن يكبر قد تركزت على عضوه التناسلي. إذاً فالمنطقة التناسلية في الجِبِلَّة الجنسية لهانز الصغير كانت هي من البداية المنطقة الشهوية التي توفِّر له أعظم اللذة الإخراجية، أي اللذة المرتبطة بالفتحتين التي عن طريقهما يتمّ إفراغ البول وإفراغ البراز. وحين يتصور هانز، في تخييله الهنيء الأخير، الذي بفضله تمّ التغلب على مرضه، أن له أولاداً يأخذهم إلى المرحاض ويجعلهم يفرفرون ويمسح لهم مؤخراتهم، وبالاختصار يعمل معهم كل ما يُعمل للأولاد، فإنه يبدو مستحيلاً أن نتحاشى الافتراض بأن هذه الممارسات كانت مصدر أحاسيس لاذّة له يوم كان طفلاً صغيراً يلقى من ذويه مثل هذه العناية. وقد استحصل من مناطقه الشهوية على هذه اللذة بمعونة الشخص الذي كان يتولى العناية به طفلاً، أي في الواقع أمه، ومن ثم إن هذه اللذة هي التي حددت الطريق إلى الاختيار الموضوعاني. على أنه من المحتمل أن يكون اعتاد في زمن أبكر على تدبُّر أمر اللذة لنفسه وفق النمط الإيروسي الذاتي، فكان على هذا الأساس واحداً من أولئك الأطفال الذين يحلو لهم أن يمسكوا مفرزاتهم إلى أن يوفِّر لهم إفراغها إثارة لاذّة. أنا أقول فقط إن ذلك ممكن، لأن التحليل لم يجلُ الأمر على نحو قاطع. وما «الضجيج» الذي يحدثه بقدميه (الرفس)، وهو ما



صار فيما بعد يرعبه أشدَّ الرعب، إلا مؤشر في هذا الاتجاه. لكن مهما يكن من أمر، فإن مصدري اللذة هذين لم يكن لهما لدى هانز تلك الأهمية الملفتة للنظر التي غالباً ما تُلحظ لدى أطفال آخرين. فقد «نظُف» هانز في وقت مبكر، ولم يلعب لديه سلسل البول، الليلي أو النهاري، أي دور في سنواته الأولى. كما لم يُلحظ لديه قط ميل إلى اللعب ببرازه، وهو ميل منفِّر للغاية لدى الراشدين وكثيراً ما يعاود ظهوره في نهاية سيرورة الارتكاس النفسي.

ولنتنبه هنا للحال إلى أنه حدث في أثناء الرهاب كبت لا سبيل إلى تجاهله لهذين المقوّمين السبّاقين إلى النمو من مقوِّمات النشاط الجنسي، إذ كان هانز يخجل من التبول أمام الآخرين، ويتهم نفسه بأنه وضع يده على «فرفورته» ويجاهد للعزوف عن الأونانية، ويبدي قرفاً من «اللومف» والبول ومن كل ما يمكن أن يذكِّره بهما. وواضح بالمقابل أن هذا الكبت تحديداً هو ما ألغاه في الأخيولة التي تصور فيها أنه يتعهد أولاده بالعناية.

إن جِبِلَّة جنسية كجِبِلَّة صغيرنا هانز لا يبدو أنها تنطوي على استعداد لتمخُّضٍ الانحرافات أو صورتها السالبة (ولنقتصر هنا على الهستيريا)[٨]. فبحسب ما أستدل من خبرتي (وينبغي هنا حقاً أن نتكلم بتحفظ بالغ)، فإن الجِبِلَّة الفطرية للهستيريين تتميَّز بهيمنة ضعيفة للمنطقة التناسلية بالقياس إلى المناطق الشهوية الأخرى. وهذا يكاد يكون بدهياً عند المنحرفين. إلا أن مظهراً بعينه من مظاهر «الشذوذ» في الحياة الجنسية ينبغي استثناؤه من هذه القاعدة. فلدى أولئك الذين سيصيرون في زمن لاحق من الجنسيين المثليين ـ والذين يكونون قد مروا جميعهم في طفولتهم، بحسب توقعي كما بحسب ملاحظات إ. سادجر[٩]، بمرحلة مزدوجة التكوين[١٠] ـ نلتقي

٨ ـ كان فرويد في **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية** (١٩٠٥) قد عرّف العصاب بأنه الوجه السالب للانحراف. وكان من قبل في رساله منه إلى فلهلم فليس عام ١٨٩٦ قد عرّف الهستيريا بأنها رفض، لا للجنس، بل للانحراف. فلكأن فرويد يريد أن يقول: إن الإنسان يهستر حتى لا ينحرف. «م».

٩ ـ إيزيدور سادجر: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٦٧ ـ ١٩٤٢). مات في معسكر اعتقال نازي. أول من نحت مصطلح النرجسية ومصطلح السادية الشرجية. «م».

١٠ ـ في مرحلة أمفيجينية AMPHIGENE: وهي مرحلة في النمو يكون فيها الأفراد من كلا الجنسين بلا تمييز موضوعاً للرغبة الجنسية. «م».



هيمنة طفلية للمنطقة التناسلية، وبخاصة القضيبية، مماثلة لما نلتقيه لدى الأسوياء. بل أكثر من ذلك: فالتقدير الكبير الذي يكنّه الجنسيون المثليون لعضو الذكورة هو ما يحدد في الواقع مصيرهم. فهم يختارون في طفولتهم المرأة موضوعاً جنسياً لهم، ما داموا يعزون إليها امتلاك ذلك الجزء من الجسم الذي هو في نظرهم لا غنى عنه؛ ومتى ما تولَّد لديهم الاقتناع بأن المرأة خيَّبت آمالهم بصدد هذه النقطة لا تعود المرأة مقبولة لديهم كموضوع جنسي. إنهم لا يستطيعون استغناءً عن وجود القضيب لدى كل من يفترض فيه أن يستثيرهم إلى الاتصال الجنسي، ويثبّتون، في الحالة الأكثر مؤاتاة، طاقتهم الليبيدوية على «المرأة المجهزة بقضيب»، أي على مراهق ذي مظهر أنثوي. وهكذا، إن الجنسيين المثليين أشخاص لا يستطيعون، بالنظر إلى الأهمية الشهوية لعضو الذكورة عندهم، أن يستغنوا عن أن يكون موضوع رغبتهم الجنسية موافقاً في مواصفاته لما عندهم هم أنفسهم. وهم في تقدمهم من الإيروسية الذاتية إلى الحب الموضوعاني لبثوا مثبَّتين عند نقطة وسيطة هي أدنى إلى الأولى منها إلى الثانية.

ليس من مبرر على الإطلاق للقول بغريزة جنسية مثلية خاصة. فما يجعل الشخص جنسياً مثلياً ليس خاصية معيَّنة في حياته الغريزية، وإنما اختياره للموضوع. وسأحيل القارئ هنا إلى ما أبنته في كتابي عن **النظرية الجنسية**[١١] من أننا توهمنا خطأ أن الاتحاد بين الدافع الغريزي والموضوع في الحياة الجنسية أوثق وأمتن مما هو عليه في الواقع. فالجنسي المثلي لا يتمكن من فصل دوافعه الغريزية ـ وقد تكون سوية ـ عن صنف بعينه من المواضيع التي لا يقع اختياره عليها إلا لصفة خاصة تتصف بها. ونظراً إلى أن هذه الصفة الخاصة تبدو له عمومية في الطفولة، لذا يكون في وسعه أن يسلك مسلك صغيرنا هانز الذي كان يحب بغير ما تمييز الصبيان والبنات على حدّ سواء، والذي صرَّح بالمناسبة أن صديقه فريتزل هو «أعزّ بنت لديه». إن هانز جنسي مثلي، كما قد يكون كذلك الأطفال جميعاً، وهذا على ألا تغيب عن نظرنا أبداً الحقيقة التالية، وهي أنه **لا يعرف غير ضرب واحد من العضو التناسلي**،

١١ ـ يقصد **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**. «م».



هو الذي مثل عضوه[١٢].

غير أن النمو اللاحق لداعرنا الصغير لم يقده إلى الجنسية المثلية، وإنما إلى ذكورة عارمة ذات ميل إلى تعدد الزوجات. فقد كان يعرف كيف يغيّر سلوكه بتغيُّر مواضيعه الأنثوية التي يميل إليها؛ فهو في حالة بعينها عدواني إلى حدّ التهور، وفي أخرى دنف مسترخ. وكان حبه في بادئ الأمر قد تحوَّل من أمه إلى مواضيع أخرى، ولكن مع تنادر هذه المواضيع ارتدّ حب هانز نحو أمه وعندئذ سقط في العصاب. وعندئذ أيضاً تجلى لنا مدى ما بلغه حبّه لأمّه من شدة، وما التقلبات التي مرّ بها. وكان الهدف الجنسي الذي ينشده هانز لدى رفيقاته الصغيرات، وهو **النوم معهن**، قد نشأ عن علاقته بأمه، وقد عبَّر عنه في عبارات كان يمكن أن تكون ملائمة على لسان راشد، وإن أخذت عند هذا الأخير معنى أكثر امتلاء. وقد اهتدى الصبي الصغير إلى طريق الحب الموضوعاني بالطريقة المألوفة: أي من خلال العناية التي تلقّاها حين كان طفلاً صغيراً، وصار ضرب جديد من المتعة عنده هو المتعة العظمى: أن ينام مع أمه. وسننوّه هنا بأهمية لذة الملامسة الجلدية (وهي لذة مشاعة بيننا جميعاً بحكم جِبِلّتنا) باعتبارها واحداً من مقوِّمات هذا الإشباع لدى هانز ـ على حين أننا لو أخذنا بمدونة المصطلحات التي يقترحها مول Moll[١٣] (وهي في رأينا مصطنعة) لكان علينا أن نردّ هذا الإشباع إلى تسكين **غريزة الملامسة**.

يؤكد هانز، بموقفه من أبيه وأمه، على نحو باهر وملموس إلى أقصى حدّ، صحة كل ما كنت ذكرته، في **تأويل الحلم** وفي **النظرية الجنسية**، عن علاقات الأطفال بوالديهم. فهو بحقٍّ أوديب صغير، بودّه لو «ينحّي» أباه ويتخلص منه

---

١٢ ـ (ملحوظة أضيفت سنة ١٩٢٣): لفتُ الانتباه في وقت لاحق (١٩٢٣)(*) إلى واقع أن مرحلة النمو الجنسي التي كان يمرّ بها مريضنا الصغير تتميز دوماً وأبداً بمعرفة نوع واحد للعضو التناسلي، هو عضو الذكورة. وبالتعارض مع مرحلة النضج اللاحقة تتسم هذه المرحلة اللاحقة، لا بزعامة تناسلية، بل بزعامة قضيبية.

(*) الإحالة هنا إلى مقال فرويد: **نظريات جنسية طفلية**. «م».

١٣ ـ ألبرت مول: طبيب ألماني (١٨٦٢ ـ ١٩٣٩). من أشهر علماء الجنس في عصره. له كتاب مشهور بعنوان: **حياة الطفل الجنسية**. «م».



كيما ينفرد بمامته الجميلة وينام معها. وقد رأت هذه الأمنية النور في أثناء العطلة الصيفية، حينما جذب تناوب حضور الأب وغيابه انتباه هانز إلى الشروط التي تتحكم بالصلة الحميمة بأمه، تلك الصلة التي طالما كان يحنّ إليها. وقد اكتفت الأمنية وقتئذ بهذه الصيغة: إن الأب لا بدّ أن «يرحل»، وفي طور لاحق صار من الممكن لخوفه من أن يعضّه حصان أبيض أن يرتبط ارتباطاً مباشراً بتلك الصورة الأولى للرغبة، من جراء انطباع عارض استشعره لحظة رحيل شخص آخر. ولكن فيما بعد ـ وفي أرجح الظن قبل عودتهم إلى فيينا حيث لم يعد في الإمكان التعويل على الغيابات الأبوية ـ تضخمت الأمنية إلى أن اتخذت صورة رغبة في أن يبقى الأب دائم الغياب، أي في أن «يموت». والخوف المنبعث من هذه الرغبة في موت الأب، وهو الخوف الذي يمكن أن نقول إنه ناشئ على هذا النحو عن دافع سويّ، مثَّل العقبة الكبرى في وجه التحليل، إلى أن أمكن تبديده في الحديث الذي دار في عيادتي[١٤].

غير أن صغيرنا هانز لم يكن بحقٍّ وغداً، ولا حتى طفلاً من أولئك الأطفال الذين تتفتح عندهم بحرية، في ذلك الطور من العمر، نوازع الطبيعة البشرية إلى القسوة والعنف. بل على العكس من ذلك، فقد كان في طبعه على درجة نادرة من الحنو والطيبة، وقد روى أبوه أن تحوُّل الميول العدوانية إلى مشاعر شفقة قد تمّ لديه في سن مبكرة جداً. فقبل وقت طويل من إصابته بالرهاب، كان يستشعر ضيقاً إذا ما رأى أحصنة مدينة الملاهي تضرب، وما كان يستطيع أن يرى بغير انفعال أحداً يبكي في حضوره. صحيح أنه، عند نقطة معينة من التحليل، تتصل بسياق محدد، برز عنده للنور جانب من ساديته المكبوحة[١٥]، ولكنها كانت بالتحديد سادية مكبوحة، ويبقى علينا الآن أن نكتشف ما السياق الذي ظهرت فيه هذه السادية وماذا يفترض بها أن تمثِّله. وبالفعل، كان هانز يكنّ حباً عميقاً

١٤ ـ من المؤكد أن فكرتي هانز المتداعيتين: «شراب التوت والبندقية للقتل» لم يكن لهما تعيين واحد. وأغلب الظن أنهما ترتبطان بكراهية هانز لأبيه بقدر ما ترتبطان بعقدة الإمساك. وحتى الأب، الذي حدس بهذه العلاقة، ربط «شراب التوت» بفكرة الدم.

١٥ ـ حينما رغب في أن يضرب الأحصنة ويعاكسها.



للأب فيما كانت تعتمل في نفسه الرغبة في موته، وهو تناقض ما كان ذكاؤه ليقبل به[١٦]. وبالفعل، كان هانز يكشف عن التناقض في موقفه حينما كان ينطح أباه ثم يسارع إلى تقبيل الموضع الذي نطحه منه. ولزام علينا نحن أنفسنا أن نحترز من استغراب وجود التناقض: فحياة البشر الوجدانية منسوجة، بوجه عام، من أمثال هذه الأزواج من المتناقضات[١٧]. بل لو لم يكن الأمر كذلك فلربما لم يكن هناك كبت ولا عصاب. وبصفة عامة لا تغدو هذه الأزواج من المتناقضات الوجدانية شعورية لدى الراشدين، بكلا جانبيها في آن معاً، إلا في ذروة الهوى والعشق؛ أما فيما عدا ذلك من الأزمان فمن عادتها أن يكبح جانب منها الجانب الآخر، إلى أن يفلح أحدهما في الظهور على الآخر ومواراته. ولكن من الممكن لهما، في حياة الطفل النفسية، أن يتعايشا جنباً إلى جنب في سلام لفترة مديدة من الزمن.

لقد كان لميلاد أخت صغيرة أعظم الوقع على نمو هانز الجنسي ـ النفسي حين كان في الثالثة والنصف من العمر. فقد وثّق هذا الحدث صلاته بوالديه، وحمله على التفكير بمشكلات لا حلّ لها، ثم جاء مشهد العناية المبذولة للطفلة الصغيرة ليحيي الآثار الذاكرية للعهد الذي كان فيه هانز نفسه ينعم بهذه الملذات. وإن تأثيراً كهذا لهو بدوره نمطي: ففي عدد يفوق كل توقع من تواريخ المرضى أو الأسوياء نجدنا مضطرين إلى أن نتخذ من مثل ذلك التفجر للرغبة والفضول الجنسيين، المرتبط ـ كما في الحالة التي نحن بصددها ـ بمولد أخ صغير أو أخت صغيرة، نقطة بداية لنا. ومسلك هانز إزاء الطارئة الجديدة هو عينه ما وصفته في **تأويل الحلم**[١٨]. فبعد مضيّ أيام قلائل أفصح هانز، وهو تحت وطأة الحمى، عن ضآلة ترحيبه بالإضافة الجديدة الطارئة على الأسرة. وهنا كانت العدائية سابقة

١٦ ـ انظر آنفاً السؤال المحرج الذي وجهه هانز إلى أبيه.

١٧ ـ «إني لست في الحقيقة خرافة ملفقة، بل أنا إنسان بكل متناقضاته». ك. ف. ماير: **آخر أيام هوتن**(*).

(*) كونراد فرديناند ماير: شاعر وقاصّ سويسري ألماني اللغة (١٨٢٥ ـ ١٨٩٨). و**آخر أيام هوتن** ديوان له عن شاعر عصر النهضة أولريخ هوتن. «م».

١٨ ـ **تأويل الحلم**، الطبعة (الألمانية) السابعة، ص ١٧٤.



إلى الظهور، ثم تلتها المحبة[١٩]. ومنذئذ بات الخوف من قدوم طفل صغير آخر يحتل مكاناً له بين أفكاره الشعورية. وفي العصاب تمثلت العدائية، التي كان قد كبحها، في خوف من نوع خاص: الخوف من المغطس. وقد أفصح هانز في التحليل بلا مواربة عن رغبته في موت أخته، ولم يقنع بتلميحات كان يتحتم على أبيه أن يتمّمها. ولم تتبدَّ هذه الرغبة له على ضوء نقده الذاتي آثمة كمثل الرغبة، المشابهة في طبيعتها، التي كان وجَّهها ضد أبيه. ولكن من الواضح أن لاشعوره كان يعامل الشخصين كليهما معاملة متماثلة، لأن كلاً من أخته وأبيه كان ينتزع منه أمه ويحول دون انفراده بها.

أضف إلى ذلك أن هذا الحدث، والمشاعر التي أيقظها، حدَّد لرغباته وجهة جديدة. ففي تخييله الأخير والمظفَّر جمع معاً نوازعه وحاثاته motions الإيروسية كافة، سواء منها ما ينبع من المرحلة الإيروسية الذاتية أو ما يتصل بحبه الموضوعاني. فبموجب ذلك التخييل تزوج من أمه الجميلة، وأنجب عدداً لا يحصى من الأولاد، وصار بمستطاعه أن يعنى بهم على طريقته الخاصة.

- ٢ -

ذات يوم، وفيما كان هانز في الطريق، أخذته نوبة من الحصَر المرَضي. ولم يكن في طاقته بعد أن يفصح عما هو منه خائف، ولكنه شفّ بما قاله لأبيه، في مستهل حالة الحصر هذه، عن دافعه إلى أن يمرض، أي عن مكسبه من المرض. فهو يريد أن يبقى لصق أمه، ويرغب في أن «يتدلع» معها. ومن المحتمل أيضاً أن يكون تذكُّره بأنه كان أُبعد عنها حينما ولدت الطفلة الصغيرة قد أسهم، على ما يعتقد أبوه، في ابتعاث ذلك الحنين. وسرعان ما غدا واضحاً أن الحصر لم يعد قابلاً للتحويل من جديد إلى الرغبة التي ناب منابها. فقد صار هانز يخاف حتى عندما تصحبه أمه. وفي أثناء ذلك أتيح لنا أن نعرف، من خلال بعض القرائن، ما الذي تثبَّت عليه الليبيدو بعد أن انقلب إلى حصر. فقد أبدى هانز عن خوف من نوع خاص تماماً: الخوف من أن يعضّه حصان أبيض.

١٩ ـ انظر آنفاً خطط هانز لما يريد فعله يوم ستتمكن أخته من الكلام.



إننا نطلق على مثل هذه الحالة المرضية اسم «الرهاب» أو «الفوبيا» PHOBIE. وكان يمكننا أن نصنِّف حالة هانز في عداد الآغورافوبيات[٢٠] لولا أن هذا الداء يتَّسم بأن الانتقال في المكان، الذي يبقى مستحيلاً بغير ذلك، يغدو على الدوام ممكناً متى ما صحب المريض شخص معيَّن، وفي الحالات القصوى الطبيب. ورهاب هانز لا يتوفر فيه هذا الشرط، بل سرعان ما توقَّف عن أن يكون له صلة بالمكان، واتخذ موضوعاً له بصورة متزايدة الوضوح الحصان. ففي الآونة الأولى من الرهاب، وفيما كان هانز في أوج قلقه، عبَّر صغيرنا عن خوفه من أن «يدخل الحصان إلى الغرفة». وهذا ما سهَّل عليّ للغاية فهم عصابه.

إن المكان الذي يمكن أن تُخصَّ به «الأرهبة» في تصنيف الأعصبة لم يتمّ إلى الآن تعيينه بوضوح. ويبدو مؤكداً أننا لا نستطيع أن نرى فيه سوى تناذرات[٢١] يمكن أن ترجع إلى أعصبة مختلفة، وأنه لا يتحتم علينا أن نصنفها في عداد سيرورات مرضية خاصة. وفيما يتصل بالأرهبة التي من قبيل رهاب مريضنا الصغير، وهي في الواقع أكثر الأرهبة شيوعاً، فإن اسم «الهستيريا الحَصَرية» لا يبدو لي غير موائم. وقد كنت اقترحت هذه التسمية على د. ف. شتيكل حين عكف على وصف حالات القلق العصابي، وإني لآمل أن تلقى قبولاً فتدرُّج[٢٢]. وما يبرر هذه التسمية التشابه في الآلية النفسية بين هذه الأرهبة وبين الهستيريا، وهو تشابه تام فيما عدا نقطة واحدة. على أن هذه النقطة هي في الحق فاصلة الأهمية، وكافية لإجراء تمييز. ففي الهستيريا الحصرية، لا يخضع الليبيدو، المنفصل عن المادة الإمراضية عن طريق الكبت،

٢٠ ـ الآغورافوبيا: رهاب الخلاء أو رهاب الأماكن المكشوفة، وتقابلها الكلوستروفوبيا، أي رهاب الأماكن المغلقة. «م».

٢١ ـ التناذرات جمع تناذر (اجتماع عدة نذر): ترجمة دارجة طبياً لمصطلح SYNDROMES. والتناذر جملة أعراض مرَضية متزامنة، وخاصة بمرض واحد. وقد درجت المدرسة المصرية على ترجمته بـ «زملة» جمع «زملات». «م».

٢٢ ـ ف. شتيكل(*): **حالات الحصر العصبية وعلاجها**، ١٩٠٨.

(*) فلهلم شتيكل: طبيب وعالم نفس نمساوي (١٨٦٨ ـ ١٩٤٠). كان من أوائل أتباع فرويد «قبل أن يتبع طريقه الخاص» على حدّ تعبير فرويد نفسه. «م».



لعملية **استبدال**[٢٣]، أي لا ينزاح من النفسي إلى تعصيب بدني - بل يتم إطلاقه في صورة حَصَر. وفي متاحنا أن نلتقي في الحالات السريرية بجميع صيغ التمازج بين هذه «الهستيريا الحَصَرية» و«الهستيريا الاستبدالية». وثمة حالات من الهستيريا الاستبدالية الخالصة لا أثر فيها على الإطلاق للحصر، كما أن ثمة حالات من الهستيريا الحصرية الخالصة تتبدى في مشاعر قلق وأرهبة، بدون أن ينضاف إليها أي استبدال: وحالة صغيرنا هانز هي من هذا النوع.

إن ضروب الهستيريا الحصَرية هي الأكثر شيوعاً بين الأمراض العصابية النفسية. ولكنها بوجه خاص أبكرها إلى الظهور في الحياة: فهي في المقام الأول أعصبة الطفولة. فحينما تتحدث أمّ عن ابنها واصفة إياه بأنه «عصبي»، فلنا أن نكون على ثقة في تسع حالات من عشر من أن الطفل مصاب بأحد أشكال الحَصَر أو بعدة أشكال منه. ومن المؤسف أن الآلية المرهفة لهذه الاضطرابات العظيمة الدلالة لم تدرس بعد دراسة كافية، ولم يتقرر بعد إلى الآن هل تنشأ الهستيريا الحصرية، خلافاً للهستيريا الاستبدالية ولأعصبة أخرى، عن العوامل الجِبِلِّية وحدها أو عن الخبرات العارضة وحدها، أو عن ائتلاف بين النوعين لا يزال مطلوباً تحديده[٢٤]. ويبدو على كل حال أن هذا الاضطراب العصابي هو أقل نظائره حاجة إلى جِبِلَّة خاصة، ومن ثم يمكن اكتسابه بأعظم اليسر في أية مرحلة من مراحل الحياة.

٢٣ - CONVERSION الاستبدال: آلية تشكُّل الأعراض في الهستيريا. وتتميز بانزياح ما هو نفسي إلى ما هو بدني. ومن ثم تكون الأعراض الاستبدالية تعبيراً رمزياً، عن طريق البدن، عن تمثلات مكبوتة. ولهذا جاز لنا أن نطلق على الهستيريا الاستبدالية اسم الهستيريا الاستبدانية. «م».

٢٤- (ملحوظة أضيفت سنة ١٩٢٣): إن التقصي الذي أشرنا إلى ضرورته هنا لم يحظَ بمتابعة. ولكن ليس من سبب يدعونا إلى الافتراض بأن الهستيريا الحصرية تشذّ عن القاعدة التي تنصّ على أن الاستعداد المسبق والخبرة المكتسبة يسهمان كليهما بالضرورة في إتيولوجيا العصاب. ويبدو أن وجهات نظر رانك بخصوص آثار رضة الميلاد تلقي ضوءاً خاصاً على الاستعداد المسبق للهستيريا الحصرية الذي يكون بالغ القوة في الطفولة (انظر مع ذلك نقد فرويد اللاحق لتصور رانك في الفصل الثامن من كتابه **الكف، العرض، الحصر**. هامش الترجمة الفرنسية).



يتأتّى لنا بسهولة أن نتبيَّن خاصية رئيسية من خواص الهستيريا الحصرية. فالهستريا الحصرية تنزع، طرداً مع تقدمها، إلى الانقلاب إلى «رهاب»؛ وفي النهاية قد يتخلص المريض من كل حصره، ولكن فقط لقاء ضروب شتى من الكفّ والتقييد يتعيَّن عليه أن يخضع لها. وتنطوي الهستيريا الحصرية من البداية على مجهود نفسي دائب يعمل على أن يقيِّد نفسياً من جديد الحصر الذي غدا طليقاً. غير أن هذا المجهود لا يستطيع أن يعيد تحويل الحصر إلى ليبيدو ولا أن يقيِّد نفسه إلى تلك العقد عينها التي منها ينبثق الليبيدو. ولا يبقى أمامه ما يفعله سوى أن يسدّ الطريق على كل مناسبة يمكن أن تؤدي إلى تمخُّض الحصر، وهذا بإقامة حواجز نفسية: احتياطات، كفوف، تحظيرات. وهذه الأبنية الدفاعية هي التي تتبدى لنا في صورة أرهبة وتؤلف أمام أنظارنا ماهية المرض.

يمكن القول إن علاج الهستيريا الحصرية كان إلى الآن علاجاً سالباً تماماً. وقد دلَّت الخبرة أنه من المستحيل، بل في بعض الحالات أنه من الخطر محاولة شفاء رهاب من الأرهبة بطرائق عنيفة، أي بوضع المريض، بعد تجريده من وسائله الدفاعية، في موقف يضطر فيه إلى أن يتحمل هجمة حصَره المنفلت من عقاله. وعلى هذا، إن أصحاب الشأن يتركون المريض، وقد أعيتهم الحيلة، يبحث عن ملجأ يلوذ به حيثما يعتقد أنه واجده، ويبدون تجاهه عن ازدراء، ليس من شأنه أن يعينه على الشفاء، بسبب «جبنه اللامعقول».

لقد قرّ قرار والديْ مريضنا الصغير، منذ ابتداء مرضه، على ألا يسخرا منه وألا يلجآ معه إلى الغضب والعنف، بل أن يحاولا النفاذ إلى رغباته المكبوتة بطرق التحليل النفسي. وقد تكللت الجهود الخارقة للمألوف التي تجشمها الأب بالنجاح، وسوف تتيح لنا التقارير التي سجّلها إمكانية النفاذ إلى نسيج هذا النوع من الرهاب وتتبُّع مسار تحليله.

* * *

من المحتمل في نظري أن يكون التحليل، باستطراداته وتفاصيله، قد غدا غامضاً بعض الشيء بالنسبة إلى القارئ. وعليه سوف أبدأ بتقديم خلاصة مقتضبة عنه، مستبعداً كل ما هو جانبي وغير مجدٍ، ولافتاً الانتباه إلى النتائج طرداً مع بروزها.



إن أول شيء نتبيَّنه أن تمخُّض الحالة العصبية لم يكن على الإطلاق فجائياً على نحو ما بدا للوهلة الأولى. فقبل ذلك بأيام قليلة أفاق الطفل من كابوس كان مضمونه كالتالي: لقد رحلت أمه ولم تعد له ماما «يتدلع» معها. ويشير هذا الحلم بحدّ ذاته إلى وجود سيرورة كبت ذات شدة لافتة للنظر. ولا نستطيع تفسير هذا الكابوس، كما نفعل مع العديد من أحلام الحصر الأخرى، بافتراضنا أن الطفل ساوره في حلمه حصر ذو أصل بدني وأن هذا الحصر جرى استخدامه عندئذ لتحقيق رغبة لاشعورية كانت ستبقى لولا ذلك أسيرة كبت شديد[٢٥]. فما يواجهنا هنا إنما هو حلم حقيقي من أحلام العقاب والكبت، انتفت فيه أيضاً وظيفة الحلم، وذلك لأن الطفل استيقظ وهو محصور. وبوسعنا في يسر أن نعيد بناء ما حدث في اللاشعور. فقد كان الطفل يحلم بمداعبات أمه، ويحلم بأنه نائم معها، لكن اللذة كلها انقلبت إلى حصَر، كما انقلب مضمون كل تمثُّل من التمثلات إلى نقيضه. فالكبت أحرز النصر على آلية الحلم.

على أن البدايات الأولى لهذا الموقف السيكولوجي تعود إلى ما قبل ذلك أيضاً. فقد كانت اعترت هانز خلال الصيف السابق حالات نفسية مماثلة هي مزيج من الشهوة والحصر، وكان أفصح في أثنائها عن أمور مشابهة، وقد عادت عليه يومئذ بفائدة: فقد أخذته أمه معها إلى فراشها. وبوسعنا أن نفترض أن هانز غدا منذئذ في حالة من تهيُّج جنسي مضطرم كانت الأم موضوعاً له. وقد تجلت شدة هذا التهيج في محاولتين قام بهما هانز لإغراء أمه (حدثت الثانية قبيل تمخُّض الحصر). وقد وجد هذا التهيُّج الشديد طريقه إلى الإشباع الجزئي كل مساء بالأسلوب الاستمنائي. أما كيف تمّ تحول هذا التهيُّج فجأة إلى حصر، أتلقائياً أم على إثر رفض الأم لعروض هانز أم أيضاً من جراء الاستيقاظ الطارئ لانطباعات سابقة كنتيجة لـ «الظرف المسبِّب» الذي تمثَّل بمرضه (وهو ما سنتعرف إليه عما قليل)، فهذا ما لا نملك أن نبتّ فيه، وهو في الواقع غير مهم، نظراً إلى أن هذه الاحتمالات الثلاثة لا يمكن اعتبارها متنافية. ويبقى أن الواقعة المهمة هي التحول الفجائي لتهيُّجه الجنسي إلى حصر.

٢٥ ـ انظر **تأويل الحلم**، الطبعة السابعة، ص ٤٢٣.



سبق لنا أن رأينا ما كانه سلوك الطفل في الآونة الأولى لحصره، وكذلك ما كانه المضمون الأول الذي نسبه إلى هذا الحصر، وهو أن حصاناً يهمّ بأن يعضّه. وهنا حدثت أول مداخلة علاجية، فوالدا هانز قالا له إن الحصر هو نتيجة استمناء وحثّاه على الإقلاع عن هذه العادة. وقد أوصيت والديْ هانز بأن يلحّا أشدَّ الإلحاح، في حديثهما معه، على محبته لأمه، هذه المحبة التي سعى إلى أن يحِلّ محلها خوفه من الأحصنة. وتمخضت هذه المداخلة الأولى عن تحسُّن طفيف، غير أن الأشبار القليلة من الأرض التي تمَّ كسبها سرعان ما ضاعت من جديد في غمرة مرض بدني. وبقيت حالة هانز بلا تغيُّر. وبعيد ذلك بقليل ربط هانز خوفه من أن يعضَّه حصان بذكرى انطباع تلقاه في غموندن. فقد كان أب قال لطفلته في غموندن وهي على وشك الرحيل: «لا تضعي أصابعك على الحصان وإلا عضّك»؛ والكلمات التي استخدمها هانز في روايته لهذا التحذير الصادر عن الأب تشابه الكلمات التي حُظِّر عليه بها الاستمناء. وهكذا بدا للوهلة الأولى أن والدي هانز كانا على حق إذ افترضا أن ما يخافه هو إشباعه الاستمنائي بالذات. غير أن العلاقة في جملتها لا يزال يلفّها الإبهام، ويبدو أن الحصان ما اضطلع بدور «الفزاعة» إلا من قبيل المصادفة.

لقد كنت أعربت عن الفرض التالي، وهو أن رغبة هانز المكبوتة يحتمل جداً أن تكون الآن رغبته في رؤية «فرفورة» أمه مهما كلف الأمر. وبما أن سلوكه إزاء خادمة قدمت إلى البيت حديثاً جاء متفقاً مع هذا الفرض، فقد زوَّده أبوه بالإيضاح الأول، وهو أن النساء لا فرفورة لهن. وقد استجاب هانز لهذه المحاولة الأولى لمساعدته بأن روى أنه رأى أمه في تخييل له وهي تعرض «فرفورتها»[٢٦]. وهذا التخييل وملاحظة أدلى بها هانز في حوار معه، وفحواها أن فرفورته «ثابتة» في مكانها، يتيحان لنا أن نلقي نظرة أولى على السيرورات الذهنية اللاشعورية عند المريض. فقد كان واقعاً حقاً، وإن بعد تأخير، تحت تأثير التهديد بالخصاء الذي كانت أمه وجَّهته إليه قبل نحو خمسة عشر شهراً. ذلك أن تخيُّله أن أمه

٢٦ ـ وبحسب السياق يجدر بنا أن نضيف: تلمسها (ص ١٧٠). فهو نفسه لا يستطيع بالفعل أن يعرض فرفورته بدون أن يلمسها.



تفعل نفس ما يفعله هو (تعبير الأطفال الشهير: «وأنت أيضاً» حين يوضعون موضع اتهام) كان يقوم له مقام التبرير الذاتي، وعلى هذا كان تخييل حماية ودفاع. على أنه لزام علينا أن نأخذ في اعتبارنا أن والدي هانز هما اللذان استخلصا من المادة الإمراضية التي كانت تفعل فعلها فيه الفكرة الخاصة المتعلقة باهتمامه بـ «الفرفورات». وقد اقتفى أثرهما في هذا الطريق، ولكنه لم يتدخل بعد هو نفسه في مجرى التحليل. ولم يكن من الممكن آنئذ ملاحظة أي نجع علاجي. فالتحليل قد شطَّ بعيداً عن الأحصنة، وما تلقاه هانز من تبصير بأن النساء لا «فرفورة» لهن كان من شأنه بالأحرى، بحكم مضمونه، أن يزيد من حرصه على صون «فرفورته».

ومع ذلك، ليس النجاح العلاجي هو ما نصبو إليه بادئ ذي بدء، وإنما بغيتنا أن نضع المريض في وضع يقتدر معه على أن يعي شعورياً رغباته اللاشعورية. وإننا لنتوصل إلى ذلك إذا ما استخدمنا ما يمدُّنا به من مؤشرات وقرائن لنقدِّم لشعوره، بفضل فننا في التأويل، ترجمة لعقدته اللاشعورية في **مفردات من قاموسنا**. وسوف يكون ثمة قدر من التشابه بين ما يسمعه منا وبين ما يبحث عنه وما ينزع، بالرغم من المقاومات جميعاً، إلى أن يشقّ لنفسه طريقاً إلى الشعور، وهذا التشابه هو الذي يهيئ للمريض الفرصة لتعرُّف المادة اللاشعورية. إن الطبيب يسبقه في طريق الفهم، بينما يتبع المريض، وإن متأخراً بعض الشيء، طريقه الخاص به، إلى أن يلتقي الأثنان عند الهدف المحدد. ومن عادة المحلِّلين المبتدئين أن يخلطوا بين هذين العاملين، فيدخل في روعهم أن اللحظة التي تتكشف لهم فيها إحدى عقد المريض اللاشعورية هي أيضاً اللحظة التي يكون فيها المريض قد وعاها بدوره. وهم يتوقعون أكثر مما ينبغي لهم توقُّعه من مكاشفتهم مريضهم بكشفهم، إذ يتخيَّلون أنهم مستطيعون بذلك شفاءه: والحق أن المريض لا يستطيع أن يفيد من المعرفة التي يقدِّمونها له إلا بوصفها معونة تساعده على تعرُّف العقدة اللاشعورية الكامنة في أعماق لاشعوره، **وبالتحديد حيث هي راسية**. وإن نجاحاً أولياً من هذا القبيل هو ما توصَّلنا إلى الحصول عليه عند هانز. فقد بات الآن مقتدراً، بعد أن سيطر جزئياً على عقدة خصائه، على الإفضاء إلينا



برغباته التي تدور حول أمه، وهو يفعل ذلك في صورة لا تزال مشوبة بالتحريف بوساطة **تخييل الزرافتين** اللتين راحت إحداهما تصيح في غير طائل لأن هانز امتلك الأخرى. وقد عبّر هانز تعبيراً تشكيلياً عن واقعة «الامتلاك» بواقعة «الجلوس على». وقد تعرَّف الأب في هذا التخييل صورة مكررة لمشهد كان يجري صباحاً في غرفة النوم بين الطفل ووالديه، وبادر إلى تجريد الرغبة الخبيئة من الثوب الذي كانت لا تزال تتنكر فيه. فالزرافتان هما أبو هانز وأمه. ولئن يكن الاختيار، في هذا التخييل، قد وقع على الزرافَ لتنكير الرغبة، فقد كان ذلك متعيّناً إلى حدٍّ كبير بالزيارة التي قام بها هانز لتلك الحيوانات الكبيرة قبل بضعة أيام في حديقة شونبرون، وبالرسم الذي رسمه هانز للزرافة والذي احتفظ به أبوه، وربما أيضاً بمقارنة لاشعورية ذات صلة بعنق الزرافة الطويل والصلب[٢٧]. ونلاحظ هنا أن الزرافة بوصفها حيواناً كبير الحجم ومثيراً للاهتمام بحكم «فرفورتها» كان يمكن أن تدخل في منافسة مع الأحصنة في دور «الفزاعة». وفضلاً عن ذلك، لئن يكن أبوه وأمه تمثَّلا له كلاهما في صورة زرافتين فهذا ينهض قرينة إضافية لم تتم الإفادة منها بعد في تأويل «أحصنة الحصَر».

أعقب قصة الزراف مباشرة تخييلان مقتضبان لهانز؛ ففي أحدهما دخل عنوة إلى مكان ممنوع في شونبرون، وفي ثانيهما حطَّم نافذة عربة القطار في شتاتبان، وفي التخييلين كليهما يبرز بجلاء الشعور بالذنب ويتبدى الأب كأنه شريك متواطئ. ومن سوء الحظ أن والد هانز لم يتمكن من تأويل التخييلين، ومن ثم لم يجنِ فائدة من سردهما عليه. بيد أن ما بقي على هذا النحو غير مفهوم يعاود دائماً ظهوره في التحليل، وكأنه روح هائمة، إلى أن يتمّ العثور على الحل والفوز بالخلاص.

إن فهم التخييلين «الإجراميين» لا يصطدم عندنا بأية عقبة. فهما جزء من العقدة: امتلاك الأم. فثمة في نفس الطفل إرهاص مبهم بأن ثمة شيئاً مبهماً يمكنه فعله مع الأم، وبه يتمّ امتلاكه لها؛ ومن ثمّ إنه يلجأ، للتعبير عما لا يستطيع

٢٧ ـ وقد يتفق مع الإعجاب الذي أبداه هانز لاحقاً بعنق أبيه.



إدراكاً له، إلى تمثلات مشخَّصة معيَّنة، سمتها المشتركة العنف والمحظور، ومضمونها يبدو لنا متفقاً إلى حدّ مدهش مع الحقيقة الفعلية المخفية. وكل ما نستطيعه هو أن نعتبر هذه التمثلات تخييلات رمزية للجماع، وليس من قبيل التفاصيل العديمة الشأن أن يمْثُل أبوه فيها باعتباره شريكاً. فلكأن هانز يقصد أن يقول: «بودِّي أن أفعل شيئاً مع ماما، شيئاً ممنوعاً، لست أدري بالضبط ما هو، لكني أعرف أنك أنت الآخر تفعله».

لقد عزز تخييل الزراف لديَّ الاقتناع الذي كان تولَّد في ذهني حين عبَّر هانز عما بنفسه على النحو التالي: «إن الحصان سيدخل إلى الغرفة». وقد وجدت الفرصة مؤاتية لتبصيره بأن خوفه إنما هو من أبيه لما يضمره في نفسه له من غيرة وعداء ـ وكان من الضروري المصادرة على ذلك باعتباره جزءاً من حاثاته اللاشعورية. وبذلك أكون قد فسّرت له جزئياً خوفه من الأحصنة: فالحصان لا بدّ أن يكون أباه، وقد كانت لديه أسباب داخلية وجيهة ليخشى هذا الأب. وقد تهيأ لي أن بعض التفاصيل التي كانت تخيف هانز، كالسواد حول أفواه الأحصنة والشيء الذي أمام عيونها (الشارب والعوينات كامتيازات للإنسان الراشد)، قد انزاحت مباشرة من الأب إلى الحصان.

لقد حررتنا هذه الشروح من أنجع المقاومات التي كانت تحول دون وعي هانز للمادة اللاشعورية، وكان أبوه في الواقع هو الذي يضطلع بدور المحلِّل. وبما أن ذروة الحالة قد تمّ آنئذ تخطِّيها، فقد تدفقت المادة هنا فياضة، واجترأ المريض الصغير على سرد تفاصيل رهابه، ولم يلبث أن تدخل بصورة مستقلة في مسار تحليله الذاتي(٢٨).

وها نحنذا نعلم الآن فقط من أي المواضيع ومن أي الانطباعات والخبرات يخاف هانز. فلم يكن يخاف فقط من الأحصنة ومن عضّة الأحصنة ـ وسرعان

٢٨ ـ حتى في التحاليل التي يكون فيها المحلل والمريض غريبين واحدهما عن الآخر، يلعب الخوف من الأب دوراً من أهم الأدوار على سبيل المقاومة ضد إعادة إنتاج المادة الإمراضية اللاشعورية. فطبيعة المقاومات هي من جهة أولى من طبيعة القصد والباعث؛ ومن جهة أخرى، وكما في هذا المثال، يكون جزء من المادة اللاشعورية قادراً، بحكم مضمونه بالذات، على أن يفيد في الحؤول دون إعادة إنتاج جزء آخر من هذه المادة عينها.



ما توقف عن الكلام عن ذلك ـ بل كذلك من العربات، ومن عربات نقل الأثاث والأومنيباصات (والسمة المشتركة، كما سنرى عما قليل، هي أنها محمَّلة تحميلاً ثقيلاً)، ومن الأحصنة التي تشرع بالتحرك، ومن الأحصنة الكبيرة والثقيلة، ومن الأحصنة التي تسرع في عدْوها. وقد شرح هانز بنفسه ما تعنيه هذه التحديدات: فهو يخاف من أن تقع الأحصنة **على قفاها**، ويضمِّن رهابه كل ما يبدو أن من شأنه أن يسهِّل هذا «الوقوع على القفا» للأحصنة.

وليس من النادر ألا يتوصل المحلل إلى معرفة المضمون الدقيق لرهاب ما، أو الصيغة اللفظية لحفزة وسواسية، إلا بعد أن يقطع شوطاً معلوماً من العمل التحليلي النفسي. فالكبت لم يطل فقط العقد اللاشعورية، بل استمر يتصدى لفسائلها أيضاً، ويحول بين المريض وبين أن يعي حتى منتجات مرضه. وهنا يجد المحلِّل نفسه في موقف غريب يرغمه على أن يتدخل كطبيب لمدّ يد العون للمرض نفسه حرصاً منه على لفت انتباه المريض إليه. غير أن أولئك الذين يجهلون جهلاً مطبقاً طبيعة التحليل النفسي هم وحدهم الذين يقدِّمون في الأهمية هذه المرحلة من مجهودنا على ما عداها ويستنتجون أنه لزام علينا أن نتوقع أن ينال منها المريض أذى يتحمَّل مسؤوليته التحليل نفسه. أما حقيقة الأمر فهي أنه لا بدّ أولاً من الإمساك باللص قبل شنقه، وأنه لا بدّ لنا من أن نتجشم عناء البدء بالإمساك بالتشكيلات المرَضية قبل أن نتطلع إلى القضاء عليها.

لقد سبق لي أن ذكرت، في التعليقات التي أرفقت بها تاريخ المرض، أنه من المفيد جداً أن نتعمق على هذا النحو في تفاصيل الرهاب، ليتولد لدينا من ثم اقتناع أكيد بثانوية العلاقة التي تقام بين الحصر ومواضيعه. ولهذا تكون الأرهبة غير محددة الماهية إلى حدّ يبعث على العجب، ومحددة الشروط بالمقابل بإحكام بالغ. ومن الواضح أن هانز اقتبس معطيات الأشكال الجديدة التي تلبّسها رهابه من الانطباعات التي كانت تعرض لناظريه يومياً بحكم موقع بيته في مواجهة محطة الجمارك المركزية. وفضلاً عن ذلك كشف هانز، في هذا السياق الجديد، عن حفزة ـ وإن كفّها الحصر ـ إلى أن يلعب بحمولة العربات، من طرود وبراميل وصناديق، كما يفعل صبيان الشوارع.



عند هذه المرحلة من التحليل استعاد هانز ذكرى ذلك الحدث، العديم الأهمية بحدّ ذاته، الذي سبق مباشرة تظاهر المرض والذي يمكن أن يُعدّ بحق السبب الطارئ لهذا التظاهر. فقد كان خرج في نزهة مع أمه، فرأى حصان أومنيباص يقع على قفاه ويرفس بأقدامه في كل اتجاه. وكان لذلك وقع عظيم على هانز. فقد تملكه الذعر وتوهم أن الحصان مات، وفي ذلك اليوم تحديداً ترسخ لديه الاعتقاد بأن الأحصنة جميعها ستقع. وقد لفت أبوه انتباهه إلى أنه حين رأى الحصان يقع فلا بدّ أن يكون الفكر ذهب به إليه هو، أي إلى أبيه، وأن يكون قد تمنى لو أن أباه يقع على هذا النحو ويموت. ولم ينكر هانز هذا التأويل. وبعيد ذلك بقليل بدأ يلعب لعبة قوامها أن يعضّ أباه، كاشفاً بذلك عن تقبُّله لمماهاة أبيه بالحصان الذي كان يخافه. وابتداء من ذلك اليوم صار سلوكه تجاه أبيه طليقاً ومنعتقاً من الخوف، بل لا يخلو من شيء من القحة. ومع ذلك، بقي خوفه من الأحصنة مستمراً. ونحن لم نتبين بجلاء بعدُ ما هي سلسلة التداعيات التي أيقظ من خلالها الحصانُ الذي وقع رغبات هانز اللاشعورية.

لنلخِّص ما عرفناه حتى الآن. فوراء الخوف الذي أفصح عنه هانز في بادئ الأمر، أعني خوفه من أن يعضّه حصان، نكتشف خوفاً أعمق غوراً من أن تقع الأحصنة؛ والحصانان كلاهما، ذاك الذي يعضّ وذاك الذي يقع، هما الأب الذي سيعاقب هانز على ما يبطنه من رغبات شريرة ضده. وخلال هذه الفترة ابتعد التحليل عن الأم.

وعلى غير توقع منا، وبالتأكيد دونما تدخل من جانب أبيه على الإطلاق، بدأ هانز يشغل نفسه الآن بـ «عقدة اللومف» ويبدي قرفه من جميع الأشياء التي تذكِّره بالإفراغ المعوي. بيد أن أبا هانز، غير المتهيئ للمضيّ معه في هذا الطريق الجديد، تابع عنوة التحليل في الوجهة التي كان يريد المضيّ فيها، فحمل هانز على أن يتذكر حادثة وقعت في غموندن، وكان انطباعه عنها يختفي وراء انطباعه عن حصان الأومنيباص الذي وقع. ذلك أن فريتزل، رفيق اللعب الذي كان هانز يحبه كثيراً، وربما أيضاً منافسه لدى رفيقاتهما الصغيرات العديدات، كان قد ارتطم بحجر في قدمه، وهو يلعب لعبة الحصان، فوقع أرضاً وسال الدم



من قدمه. وحينما وقع حصان الأومنيباص ذكّر هانز بتلك الحادثة. ويجدر بنا أن نلاحظ أن هانز، الذي كان مشغولاً عندئذ بمسائل أخرى، بدأ ينكر أن يكون فريتزل قد وقع، مع أن هذه الحادثة هي التي ربطت بين المشهدين. ولم يسلّم بذلك إلا في طور لاحق من التحليل. غير أن ما هو بالغ الأهمية بالنسبة إلينا أن نلاحظ كيف أن تحول الليبيدو إلى حصر قد تم إسقاطه على الموضوع الرئيسي لرهابه، أي على الحصان. لقد كانت الأحصنة هي أكثر الحيوانات الكبيرة استئثاراً باهتمام هانز، وكانت لعبة الحصان لعبته المفضّلة مع رفاقه الصغار. وقد اشتبهتُ ـ وهذا ما أكده لي والد هانز حين استقصيت عن الأمر منه ـ في أن الأب كان أول من قام للابن بدور «الحصان»، وهذا ما أتاح لشخص فريتزل أن ينوب مناب شخص الأب عند وقوع حادثة غموندن. وقد كان من المحتم، بعدما انقلب الكبت هذا المقلب، أن يستبدّ بهانز الخوف من الأحصنة بعدما كان، فيما سبق، يجد متعة جلّى في الأحصنة.

لقد أسلفنا القول إنه بفضل تدخل والد هانز تمّ الوصول إلى ذلك الكشف الهام المتصل بفاعلية السبب المباشر المولِّد للمرض. فقد استمر هانز مستغرقاً في اهتماماته «اللومفية»، وعلينا الآن تتبُّعه في هذا الطريق. وهنا نعلم أن هانز كان من عادته فيما مضى أن يلحّ ليصاحب أمه إلى المرحاض، وأنه حينما نابت صديقته برتا مناب أمه عنده جدّد معها هذا التكتيك إلى أن انكشف الأمر فحُظِّر عليه فعلُ ذلك. وإن الرغبة التي يستشعرها المرء وهو يراقب شخصاً محبوباً يقضي حاجته الطبيعية لهي، مرة أخرى، عبارة عن «تصالب في الدوافع الغريزية»، وقد كنا لاحظنا مثالاً على هذا التصالب لدى هانز. وفي النهاية تهيأ الأب لمواجهة رمزية «اللومف» أيضاً وانتبه لما هنالك من تشابه بين عربة محمَّلة تحميلاً ثقيلاً وبين جسم محمَّل بالبراز، وكذلك بين الطريقة التي تخرج بها عربة من بوابة وبين الطريقة التي يخرج بها البراز من البدن، إلخ.

غير أن موقف هانز من التحليل كان قد تبدل تبدلاً جوهرياً بالمقارنة مع الأطوار السابقة. ففي السابق كان في مستطاع الأب أن يعْلِمه سلفاً بما سيلي، بينما كان على هانز أن يمضي في إثره خبباً طبقاً للتعليمات الأبوية. أما الآن فإن



هانز هو الذي يمضي إلى الأمام بخطى واثقة، بينما يلقى الأب عناء في متابعته. فقد ابتدع هانز، بدون وساطة أحد، تخييلاً جديداً: فالقفّال أو السنكري هو من فكّ المغطس الذي كان هانز في داخله وضربه في بطنه بمثقبه الكبير. وابتداء من هذه اللحظة صارت المادة التي تبزغ تتجاوز من كل صوب فهمنا المباشر. ولن نستطيع إلا في طور لاحق أن نفهم أنها عبارة عن تخييل إنجاب حرّفه الحصر. فالمغطس الكبير، الذي كان هانز يجلس داخله في الماء، هو جسم الأم، و«المثقب» BOHRER، الذي يتعرف فيه الأب من البداية قضيباً كبيراً، ما جاء ذكره إلا لارتباطه بـ «الإنجاب» GEBOREN. والتأويل الذي سنجدنا مضطرين إلى أن نعطيه لهذا التخييل سيبدو بطبيعة الحال غريباً للغاية: «بقضيبك الكبير ثقبتني = استولدتني ووضعتني في بطن أمي. لكن التخييل أفلت لحظتئذ من التأويل، فما أفاد هانز إلا كنقطة انطلاق لمواصلة الإفصاح عما ينبغي الإفصاح عنه.

إن هانز خائف من أن تحمِّمه أمه في المغطس الكبير، وقد كان هذا الحصر من جديد حصراً مزيجاً. فجزء منه لا يزال يستعصي على فهمنا، بينما جزؤه الآخر يمكن تفسيره دفعة واحدة بالارتباط مع حمام أخته الصغيرة. فقد أقرّ هانز بأنه تمنّى لو أن أمه، وهي تحمِّم الطفلة الصغيرة، تدعها تسقط في الماء بحيث تموت. وكان خوف هانز في أثناء تحميمه، وبحكم رغبته الشريرة تلك، خوفاً من الثأر، خوفاً من أن تكون عقوبته إغراقه بدوره. وقد تخلى هانز الآن عن موضوعة «اللومف» وانتقل حالاً إلى موضوعة أخته الصغيرة. لكن من المفترض بنا أن نرهص بما يعنيه هذا التجاور بين الموضوعتين: فآنا الصغيرة هي نفسها «لومف»، والأطفال جميعاً «لومفات» ويولدون كـ «لومفات». وبوسعنا الآن أن نفهم عليه: فجميع عربات نقل الأثاث، وجميع الأومنيباصات، وجميع عربات الشحن، ما هي إلا عربات «لقالق» ولا تثير اهتمام هانز إلا كتمثيلات رمزية للحبل. وما كان يستطيع، حينما كان حصان ثقيل أو محمَّل تحميلاً ثقيلاً يقع، أن يرى في ذلك سوى عملية إنجاب أو «مجيء إلى أسفل» NIEDERKOMMEN[٢٩]. وعلى

٢٩ ـ انظر الهامش ٦٧ في الفصل السابق.



هذا لم يكن الحصان الذي يقع هو الأب الذي يموت فحسب، بل كذلك الأم التي تلد.

هنا تحديداً يجابهنا هانز بمفاجأة لم نكن مستعدين لها إطلاقاً. فقد كان لاحظ جيداً حمل أمه الذي انتهى، كما هو متوقع، بميلاد أخته الصغيرة، وذلك عندما كان في الثالثة والنصف من العمر. وقد تمكن هانز من أن يعيد في ذهنه، بعد الولادة على الأقل، بناء حقيقة ما حدث، بدون أن يكاشف أحداً بذلك ـ هذا صحيح ـ بل ربما بدون أن يكون قادراً على التعبير عنه. وكل ما أمكن الانتباه له آنئذ أن هانز اتخذ، بعد الولادة، موقفاً مفرطاً في تشككه تجاه كل ما من شأنه أن يشير إلى وجود اللقلق. **أما أن هانز ـ بالتعارض التام مع أقواله الرسمية ـ كان يعرف في لاشعوره من أين جاءت الطفلة وأين كانت قبل ذلك**، فهذا ما أثبته التحليل على نحو لا يرقى إليه الشك، وربما كان أثبت نقاطه وأشدَّها امتناعاً على النقد.

إن الدليل القاطع على ذلك يقدِّمه لنا التخييل الذي تشبث به هانز بأشد العناء وزيَّنه بكل تلك التفاصيل الثرية، والذي أكّد بموجبه أن آنا كانت معهم في غموندن في الصيف الذي سبق ميلادها، ووصف كيف سافرت إلى هناك معهم، وكم فعلت آنئذ من أشياء ما كانت تستطيع أن تفعلها حتى بعد عام من ولادتها. والصفاقة التي روى بها هانز هذا التخييل، والأكاذيب العجيبة الكثيرة التي مزجها به والتي لم تكن بحال قابلة للتصديق، كل ذلك كان بهدف الانتقام من أبيه الذي أضمر له الضغينة على خداعه إياه بخرافة اللقلق. كان الأمر تماماً وكأنه يقصد أن يقول: «لئن اعتقدت حقاً أنني غبيّ إلى الحدّ الذي أصدِّق معه أن اللقلق هو الذي أتى بآنا، ففي مستطاعي والحال هذه أن أطالبك بأن تحمل اختلاقاتي على محمل الحقيقة». وإنما بالارتباط الواضح مع هذا الفعل الانتقامي للباحث الصغير ضد أبيه جاء تخييل الأحصنة التي يعاكسها هانز ويضربها. ويتألف هذا التخييل بدوره من عنصرين مكوِّنين: فالأساس الذي قام عليه، من جهة أولى، هو معاكسة هانز الفعلية لأبيه قبل ذلك مباشرة، وفيه تصوير، من الجهة الثانية، لتلك الرغبات السادية المبهمة المتجهة ضد أمه والتي سبق له أن عبّر



عنها في تخييليه اللذين أتى فيهما أموراً محظورة، وإن لم نفهمهما في أول الأمر. بل إن هانز أقرّ عن وعي برغبته في أن يضرب أمه.

لن تواجهنا من الآن فصاعداً ألغاز كثيرة. فهناك تخييل مبهم عن فوات القطار، يبدو أنه كان مقدمة للفكرة اللاحقة التي ستساور هانز: أن يترك أباه وديعة لدى جدته في لاينز، إذ يأتي ذكر في هذا التخييل لرحلة إلى لاينز وتظهر فيه الجدة. وفي تخييل آخر يعطي صبي صغير ٥٠,٠٠٠ فلوران للسائق كيما يسمح له بالسفر في عربة القطار، ويكاد هذا التخييل يبدو وكأنه خطة لشراء الأم من الأب الذي كانت قوته تكمن بالفعل، وإلى حدّ ما، في ثرائه. وفي تلك اللحظة اعترف هانز، بصراحة لم يجرؤ قط على إبدائها سابقاً، بالرغبة في التخلص من أبيه وبعلّة هذه الرغبة: لأن أباه يعكّر عليه صفو خلوته بأمه. وليس لنا أن ندهش إذا رأينا الرغبات نفسها تعاود ظهورها تكراراً في أثناء التحليل: فالرتابة لا تتأتى إلا من التأويلات التي تُؤوَّل بها. أما بالنسبة إلى هانز فهي ليست مجرد تكرارات، وإنما خطى وتقدم تدريجي في الطريق الذي يقود من التلميح الوجل إلى الرؤية الواضحة، الواعية بملء معنى الكلمة، والخالية من كل تحريف.

وما سيأتي بعد ذلك لن يكون إلا توكيداً من جانب هانز للنتائج التحليلية التي توصلنا إليها بفضل تأويلاتنا. فمن خلال فعل له، بدون لبس، دلالة العرض، وإن يكن قد موّهه قليلاً على الخادمة ولكن ليس إطلاقاً على أبيه، أبان هانز عن الكيفية التي يتصور بها عملية الولادة. ولكن لو أمعنّا النظر في هذا الفعل/العَرَض لوجدنا أن هانز يفصح فيه عن أكثر من ذلك، فيلمح إلى شيء لن يرد له ذكر بعد ذلك في التحليل. فقد أدخل في ثقب مستدير في جسم دمية من المطاط مدية صغيرة كانت لأمه، ثم استخرجها من بين ساقي الدمية بإحداثه مزقاً بينهما. وبذلك تكون الإيضاحات التي قدَّمها والدا هانز له إثر ذلك مباشرة، والتي أفاداه بموجبها أن الأطفال ينمون في الواقع داخل جسم أمهاتهم ثم يُدفعون إلى الخارج مثل **اللومف**، قد جاءت متأخرة عن أوانها: فلم يكن في وسعها أن تفيد هانز شيئاً جديداً. وثمة فعل/عرَض آخر، كان عارضاً في ظاهره، حدث بعد ذلك بقليل، انطوى على اعتراف بأن هانز رغب في موت والده؛ إذ فيما كان



أبوه يحدِّثه عن رغبة الموت تلك، ترك هانز حصاناً صغيراً كان يلعب به يسقط، أي رماه أرضاً. وقد أكد هانز أيضاً، بكثير مما كان يتفوه به، صحة الفرض الذي مؤداه أن العربات المحمَّلة تحميلاً ثقيلاً تمثِّل في نظره حبل أمه، وأن سقوط الحصان يمثِّل الولادة. لكن أروع تأكيد لكل ما تقدَّم، أعني البرهان على أن الأطفال كانوا في نظره **لومفات**، يقدِّمه لنا ابتداعه لاسم «لودي» وإطلاقه إياه عل طفله الأثير[٣٠]. غير أن هذه الواقعة لم تبلغ علمنا إلا متأخرة، إذ اتضح لنا أن هانز كان يلعب منذ زمن بعيد بهذا «الطفل ـ المقانق»[٣١].

لقد درسنا من قبل تخييلي هانز الأخيرين اللذن بهما اكتمل شفاؤه. أولهما، وهو تخييل السنكري الذي زوَّده بـ «فرفورة» جديدة وأكبر كما حدس أبوه، لم يكن مجرد تكرار للتخييل السابق الذي موضوعه السنكري والمغطس. وثانيهما، وهو التخييل الذي أقرّ فيه هانز برغبته في تزوُّج أمه وفي إنجاب عدد كبير من الأطفال منها، ليس كل شأنه أن يستنفد مضمون عقد هانز اللاشعورية التي طفت إلى السطح لدى مرآه الحصان يقع فولَّدت الحصر: بل صحَّح أيضاً ما لم يكن مقبولاً على الإطلاق في منظومة الأفكار تلك، إذ بدلاً من أن يقتل هانز أباه جرَّده من قدرته على الأذى بأن منحه ترقية الزواج من الجدة. وبهذا التخييل انتهى المرض والتحليل على حدّ سواء نهاية موائمة.

* * *

في مسار تحليل حالة بعينها يتعذر الوصول إلى انطباع واضح من شأنه أن يشفّ عن بنية العصاب وتطوره. فذلك يتطلب مجهوداً تركيبياً لا بدّ من بذله

٣٠ ـ انظر أعلاه ص ٢٣٨. «م».

٣١ ـ ثمة مجموعة من الرسوم للرسام البارع ت. ث هايني(*)، في عدد من مجلة SIMPLICISSIMUS، تمثل قصة ابن طفل لبائع لحومات وقع في آلة صنع المقانق، وتحوَّل بدوره إلى قطعة صغيرة من المقانق. وبهذه الصورة بكاه والده وتلقى بركة الكنيسة وصعد إلى السماء. وقد تبدو فكرة الفنان هذه للوهلة الأولى خارقة للمألوف وغير مفهومة، غير أن حكاية لودي في تحليل هانز تتيح لنا أن نرجع تلك الفكرة إلى مصدرها الطفلي.

(*) توماس ثيودور هايني: رسام وكاريكاتوري وكاتب ألماني (١٨٦٧ ـ ١٩٤٨). من كتاباته: **حكايا جنيات**. «م».



لاحقاً. وإن حاولنا القيام بمثل هذا التركيب لرهاب صغيرنا هانز، فسنجعل نقطة انطلاقنا وصف جِبِلَّته ورغباته الجنسية المهيمنة وتجاربه المعاشة التي سبقت ميلاد أخته الصغيرة، وذلك كله كنا قدمناه في الصفحات السابقة من هذا التقرير.

لقد أدخل مقدم أخته على حياة هانز عناصر جديدة شتى لم تدع له منذئذ أن يذوق طعماً للراحة. فأولاً، درجة معينة من الحرمان: في البداية انفصال مؤقت عن أمه، وفيما بعد نقصان دائم في مقدار ما كانت تبذله له من العناية والاهتمام اللذين بات متوجباً عليه أن يعتاد على تشاطرهما مع أخته. وثانياً، إحياء للملذات التي نعم بها حين كان يتلقى العناية وهو طفل صغير، وقد حدث هذا الإحياء بدالّة كل ما كان يراه مما تعمله أمه لأخته الصغيرة. وكانت نتيجة هذين التأثيرين ازدياد شدة حاجاته الإيروسية التي باتت في الوقت نفسه لا تحظى بإشباع كافٍ. وقد اعتاض هانز عن الخسارة التي سبَّبها له مقدم أخته بتخيُّله أن له هو نفسه أطفالاً. وقد وجدت حاجته إلى المحبة، ما دام مقيماً في غموندن ـ في زيارته الثانية لها ـ حيث كان في استطاعته فعلاً أن يلعب مع هؤلاء الأطفال، وجدت منصرفاً كافياً لها. لكنه لما رجع إلى فيينا صار من جديد وحيداً، فارتدّ بكل مطالبه نحو أمه، ولم يكن أمامه مناص من أن يعاني من حرمان جديد، إذ نُفي من غرفة والديه عند بلوغه الرابعة والنصف من العمر. وقابليته للإثارة الإيروسية عبَّرت عندئذ عن نفسها ـ وقد اشتدّت ـ في تخييلات استحضر بها في وحدته رفاقه في اللعب في الصيف المنصرم، وفي إشباعات إيروسية ذاتية منتظمة عن طريق التهييج الاستمنائي لأعضائه التناسلية.

لكن ميلاد أخته، ثالثاً، قد حفز هانز على بذل مجهود فكري ما كان له، من جهة أولى، أن يتأدى به إلى نتيجة مثمرة، وكان من المحتم من الجهة الثانية أن يجره إلى صراعات عاطفية. والمعضلة الكبيرة التي انطرحت عليه عندئذ هي التالية: **من أين يجيء الأطفال؟** وربما كانت هذه هي المعضلة الأولى التي يستنفر حلَّها قوى الطفل العقلية، والتي لا يعدو لغز أبي الهول لمدينة طيبة أن يكون في أغلب الظن صيغة محرَّفة منها. وقد نبذ هانز التفسير الذي قُدِّم إليه من أن اللقلق هو الذي أتى بآنا. وبالفعل، كان قد لاحظ أن أمه انتفخ بطنها في أثناء الشهور



التي سبقت ولادة الطفلة الصغيرة، وأنها رقدت بعد ذلك في الفراش، وراحت تئنّ في أثناء الولادة، ثم عادت نحيفة كما كانت لما تركت الفراش. وعليه، فقد استنتج أن آنا كانت في داخل جسم أمها ثم خرجت منه كلومف. وكان في مقدور هانز أن يتصور عملية الإنجاب على أنها عملية لاذّة بمجرد أن يربطها بأحاسيسه اللاذّة الأولى عند التغوط، ومن ثم كان لديه دافع مزدوج ليرغب في أن يكون له هو الآخر أطفال: أولاً للذة إنجابهم، وثانياً للاعتناء بهم (وهذا بمقتضى نوع من اللذة «الثأرية»). ولكن لم يكن في هذا كله شيء يمكن أن يزج بهانز في شكوك أو صراعات.

بيد أن ثمة شيئاً آخر بعد ما كان يمكن إلا أن يبلبل هانز. فالأب لا بدّ أن يكون قد لعب دوراً ما في ولادة آنا الصغيرة ما دام يصرِّح أن هانز وآنا هما طفلاه. ولكن ليس الأب هو الذي ولدهما، وإنما بكل تأكيد الأم، وهذا الأب كان يضايق هانز في علاقته بأمه. ففي وجوده لا يستطيع هانز أن ينام مع أمه، وحين ترغب هذه الأخيرة في أخذ هانز إلى فراشها يطفق الأب يصيح. وقد ثبت لهانز بالتجربة كيف أن كل شيء يسير على ما يرام في غياب والده، ومن ثم كانت رغبته في أن يموت والده رغبة مبررة تماماً. وعندئذ تعززت عدائية هانز. فقد كان أبوه روى له بالفعل أكذوبة اللقلق، ومن ثم جعل من المستحيل عليه أن يطلب إيضاحات بصدد هذا الموضوع. فهو لم يمنع فقط هانز من النوم في الفراش مع أمه، بل حرمه أيضاً من المعرفة التي كان يتعطّش إليها. وبذلك يكون قد وضع هانز من الناحيتين كلتيهما في وضع مجحف، وهذا بالبداهة لهدف منفعته الشخصية.

غير أن هذا الأب، الذي ما كان هانز يستطيع أن يمنع نفسه من أن يكرهه كغريم، كان هو عينه الذي أحبه هانز دائماً والذي يتوجب عليه أن يستمر في حبه؛ فهذا الأب قدوته، وقد كان رفيقه الأول في اللعب، وتعهَّده بالعناية من سنواته الأولى: وهذا ما ولَّد الصراع الوجداني الأول لديه، بدون أن يتمكن من العثور له على حلّ في بادئ الأمر. وبالتوافق مع التطور الذي مرت به طبيعة هانز، كان لا بدّ للحب من أن تكون له في البداية اليد الطولى ومن أن يكبح



الكراهية، بدون أن يجتث جذورها مع ذلك، لأن هذه الكراهية كانت تتلقى بلا انقطاع مدداً جديداً بفعل حب هانز لأمه.

والحال أن الأب ما كان يعرف فقط من أين يأتي الأطفال، بل كان أيضاً يفعل شيئاً ما لكي يأتوا، شيئاً ما كان لهانز أن يرهص به إلا إرهاصاً غائماً. ولا بدّ أن «الفرفورة» كانت لها صلة بهذا الشيء، لأن «فرفورة» هانز كانت تهتاج كلما فكّر هانز بهذه الأمور ـ ولا بدّ أن تكون «فرفورة» كبيرة، أكبر من «فرفورة» هانز. ولئن يكن هانز قد أعار هذه المشاعر الإرهاصية انتباهاً، فلا بدّ أن يكون افترض أن ذلك الشيء هو فعل عنيف تخضع له الأم برغمها. وبالفعل، كانت الحفزات التي يشعر بها تُجيش في نفسه ميلاً إلى تحطيم شيء ما، أو إلى الدخول عنوة إلى مكان مقفل. ولكن على الرغم من أن الأحاسيس التي استشعرها في قضيبه وضعته على هذا النحو على الطريق إلى افتراض وجود المهبل، ما كان في وسعه مع ذلك أن يهتدي إلى حلّ اللغز، إذ لم يكن، بحسب معرفته، ثمة وجود لشيء يشابه ما كانت فرفورته بحاجة إليه، بل على العكس من ذلك تماماً: فاقتناعه بأن لأمه «فرفورة» مماثلة لتلك التي له كان يسدّ عليه الطريق إلى حلّ المعضلة. ومن ثم، إن محاولته حلّ المشكلة التالية: ما الذي ينبغي فعله لماما كيما تنجب أطفالاً؟ غاصت في لاشعوره، وبقيت الحفزتان الفاعلتان، حفزته العدائية تجاه أبيه وحفزته الحبية والسادية معاً تجاه أمه، معطلتين، الأولى بسبب الحب المتعايش مع الكراهية، والثانية بفعل الحيرة التي أوقعته فيها النظريات الجنسية الطفلية.

على هذا النحو وجدتني مضطراً إلى أن أعيد، بالاستناد إلى نتائج التحليل، بناء العقد والرغبات اللاشعورية التي نجم عن كبتها وإحيائها رهاب هانز الصغير. إنني أعرف أني أعزو على هذا النحو إلى طفل في الرابعة أو الخامسة من العمر قدرات عقلية كبيرة، لكنني أسلس قيادي لما تكشَّف لنا مؤخراً، ولا أرى من داعٍ لأن أتقيَّد بالأحكام المسبقة لجهلنا. وربما كان في مستطاعنا أن نستخدم خوفَ هانز من «الضجيج الذي يُحْدَث بالأقدام» لنسدّ بعض ثغرات أخرى في ملفّ أدلتنا. صحيح أن هانز صرَّح أن ذلك يذكره بالزمن الذي كان يلبط فيه بقدميه



في كل اتجاه حينما كان ذووه يرغمونه على قطع لعبه ليذهب ويعمل «لومف»، وهذا ما يقيم صلة بين هذا العنصر من العصاب وبين المشكلة التالية: هل أنجبت ماما أطفالاً لأن ذلك يطيب لها أم لأنها أُكرهت عليه إكراهاً؟ لكن لا يتراءى لي أن ذلك يعلل تعليلاً كاملاً «الضجيج الذي يُحدث بالأقدام». والحق أن والد هانز لم يتمكن من تأييد ظني في أن الطفل راقب اتصالاً جنسياً بين والديه حين كان ينام في غرفتهما، وفي أن ذكرى هذا المشهد عادت على هذا النحو إلى التحرك في نفسه. فلنقنع إذاً بما تيسَّر لنا كشفه.

من العسير أن نحدِّد، في الموقف الذي كان فيه هانز والذي رسمنا لوحته، تحت تأثير أي شيء حدث التغيُّر، فانقلبت الرغبة الليبيدوية عنده إلى حصر. فمن أي جانب بدأ الكبت؟ إننا لن نتمكن في أغلب الظن من البتّ في هذه المسائل قبل أن نجري مقارنة بين هذا التحليل وبين عدة تحاليل مشابهة أخرى. هل كان ما قلب الميزان هو عجز الطفل **العقلي** عن حلّ المعضلة الصعبة، معضلة إنجاب الأطفال، وعن التغلب على الحفزات العدوانية التي يطلقها من عقالها الاقتراب المبهم من الحلّ، أم هو عجزه **البدني** وعدم قدرة بنيته الجبِلِّية على تحمل الإشباع الاستمنائي الممارس بانتظام، أم هو أخيراً مجرد استمرار التهيُّج الجنسي بمثل تلك الدرجة العالية من الشدة؟ لست مستطيعاً غير أن أطرح هذه الأسئلة بدون أن أجيب عنها إلى أن يتاح لخبرة أوسع نطاقاً أن تهبّ لمعونتنا.

إن اعتبارات متصلة بالتسلسل الزمني للأحداث تمنعنا من أن نعلِّق أهمية أكبر مما ينبغي على العلة الظرفية لتمخُّض المرض لدى هانز، إذ كانت علامات الخوف والتوجس قد ظهرت لديه قبل وقت طويل من رؤيته حصان الأومنيباص يقع في الشارع.

على أن العصاب ارتبط ارتباطاً مباشراً بهذه الحادثة العارضة واحتفظ منها بأثر تجلى في رفع الحصان إلى مرتبة «موضوع الحصَر». فالانطباع الذي تلقاه هانز لما رأى الحصان يسقط لم يكن ينطوي بحدّ ذاته على أية «قوة راضّة»، والحادث الذي وقع عليه نظر هانز مصادفة واتفاقاً لم يكتسب فاعليته الإمراضية الكبيرة إلا بفضل ما كان للحصان من قبل من أهمية عند هانز كموضوع للاهتمام والإيثار،



وإلا بنتيجة الارتباط مع ذلك الحادث الآخر الأكثر اتساماً بالسمة الرضِّية الذي كان وقع في غموندن حينما سقط فريتزل وهو يلعب لعبة الحصان، مما فتح طريق التداعي الذي تأدى بهانز بيسر وسهولة من فريتزل إلى الأب. وأرجح الظن أنه حتى هذه الارتباطات كلها ما كانت لتكفي لولا أن الانطباع ذاته تكشَّف أيضاً، بفضل مرونة علاقات التداعي والتباسها، على أنه قمين بأن يوقظ من جديد العقد التي كانت كامنة متربصة في لاشعور هانز، أي عقدة ولادة أمه الحامل. وبدءاً من تلك اللحظة غدا الطريق مفتوحاً أمام عودة المكبوت، وقد تمَّت هذه العودة على النحو التالي: **إن المادة الإمراضية قد أعيد تشكيلها وجرت إزاحتها إلى عقدة الحصان، وحُوِّلت جميع الانفعالات المصاحبة لها على حدّ سواء إلى حصَر.**

والجدير بالملاحظة أن المضمون الفكروي للرهاب على نحو ما تجلى عليه آنئذ كان لا بدّ أن يخضع بعد لسيرورة تحريف وإبدال أخرى قبل أن يتمكن من اجتياز عتبة الشعور. فقد كان أول تعبير لفظي عن الحصَر استخدمه هانز هو: «الحصان سيعضّني»؛ والحال أن هذا التعبير كان منبثقاً عن مشهد آخر وقع في غموندن وكان ذا صلة من جهة أولى بأمنيات هانز العدائية ضد أبيه، وذا تذكرة من الجهة الثانية بالتحذير من الاستمناء. وهنا تجلى مفعول عامل كان له تأثير ارتجاعي في تحويل الانتباه، وربما كان مصدره الوالدين؛ فأنا لست متأكداً من أن التقارير عن هانز كانت تُدوَّن عندئذ بدقة كافية لتتيح لنا أن نقطع هل كان عبَّر عن حصَره على ذلك النحو **قبل** أو فقط **بعد** أن قرَّعته أمه بخصوص استمنائه. والحقّ أني أميل إلى الاعتقاد بأن ذلك كان بعد، وإن تناقض ذلك مع ما جاء في التقرير عن تاريخ المرض. ومهما يكن من أمر، فمن الواضح أن عقدة هانز العدائية تجاه أبيه تحجب باستمرار عقدته الليبيدوية المتعلقة بأمه. كذلك كانت هي أول عقدة جرى كشفها وتصفيتها في التحليل.

ربما كان يمكن لنا في حالات مرَضية أخرى أن نقول أكثر بكثير مما قلناه بصدد بنية العصاب وتطوره وتوسع نطاقه. لكن تاريخ مرض صغيرنا هانز قصير جداً، فما كاد يبدأ حتى حلّ محلّه تاريخ علاجه. وعلى الرغم من أن الرهاب بدا



في أثناء العلاج وكأنه يوالي تطوره ويمتدّ إلى مواضيع جديدة ويفرض شروطاً جديدة، فإن والد هانز، الذي كان يتولى بنفسه معالجة العصاب، كان لديه بطبيعة الحال قدر كافٍ من الرؤية الصحيحة للأشياء ليدرك أن الأمر يتعلق بمحض تظاهر لمادة موجودة من قبل، وليس بمنتجات جديدة يمكن إلقاء التبعة فيها على عاتق العلاج. والحق أنه ليس لنا أن نعوِّل دوماً في حالات أخرى على مثل هذا الفهم الثاقب.

قبل أن أعلن عن اكتمال عرضي للحالة التي نحن بصددها يتعيَّن عليّ بعد أن أتناولها من منظور آخر من شأنه أن يقودنا إلى لبّ الصعوبات التي تعترض سبيل فهمنا للحالات العصابية. فقد رأينا كيف وقع مريضنا الصغير فريسة موجة عارمة من الكبت طالت على وجه التحديد مقوِّماته الجنسية الغالبة[٣٢]. فإذا به يقلع عن الأونانية، ويصدّ بقرف عن كل ما من شأنه أن يذكِّره بالبراز وباختلاس النظر إلى أشخاص آخرين وهم يقضون حاجاتهم الطبيعية. لكن ليست هذه المقوِّمات هي التي ابتعثها السبب المباشر لمرضه (رؤيته الحصان يقع)، وليست هي التي زوّدته بمادة أعراضه، أي مضمون الرهاب.

هذا ما يتيح لنا أن نجري هنا تمييزاً جذرياً. فأرجح الظن أننا سنتوصل إلى تفهم أعمق للحالة المَرَضية بتوجّهنا إلى تلك المقوِّمات الأُخرى التي تستجيب للشرطين الأخيرين اللذين سبق ذكرهما. تلك هي الحاثات التي كان هانز كبحها والتي ما أمكن لها قط، بقدر ما نستطيع أن نرى، أن تفصح عن نفسها بلا كفّ: مشاعر عداء وغيرة تجاه أبيه، حفزات سادية ضد أمه كاستجابة لإرهاصه بواقعة الجماع. ولعل هذه الكبوحات المبكرة شرطت الاستعداد المسبق للعصاب اللاحق. ولم تجد هذه النوازع العدوانية أي مخرج لها لدى هانز؛ وحين شاءت، وقد تعززت بعد فترة من الحرمان والتهيُّج الجنسي المتزايد، أن تشقّ لنفسها طريقاً، نشبت عندئذ تلك المعركة التي نطلق عليها اسم «الرهاب». وفي مجرى هذا الرهاب

٣٢ ـ بل إن والد هانز لاحظ ظهور قدر من الإسماء SUBLIMATION لدى هانز في آن واحد مع ذلك الكبت. فمنذ مستهل تمخُّض حالة القلق عنده، أبدى هانز عن اهتمام متزايد بالموسيقى وطفقت موهبته الموسيقية الموروثة تنمو وتتطور.



تمكن جانب من التمثلات المكبوتة، في شكل محرَّف ومسقط على عقدة أخرى، من أن يشقّ لنفسه طريقاً إلى الشعور بوصفه مضموناً للرهاب. لكن لا مجال للشك في أن هذا النجاح كان مزرياً. فالنصر بقي معقوداً للكبت الذي **اهتبل الفرصة ليبسط سلطانه على مقوِّمات أخرى غير تلك التي كانت برزت إلى الواجهة**. وهذا لا يغيِّر شيئاً، مع ذلك، في واقع أن جوهر مرض هانز كان يتوقف بتمامه على طبيعة المقوِّمات الغريزية التي كان يتعيَّن نبذها.

لقد كان مضمون الرهاب من طبيعة تحتِّم أن ينجم عنه تقييد كبير لحرية الحركة: وذلك كان أيضاً الهدف منه. وعلى هذا، كان الرهاب عبارة عن ردّ فعل قوي على الحفزات المحرِّكة المبهمة الموجَّهة بوجه خاص ضد الأم. وكان الحصان قد مثَّل على الدوام في نظر هانز لذة الحركة (كان يقول وهو يثب في كل اتجاه: «أنا حصان صغير»). لكن بما أن لذة الحركة هذه تتضمن الحفزة إلى الجماع، فقد فرض العصاب على لذة الحركة قيوداً، وهذا ما أوجب أن يوكل إلى الحصان أداء دور رمز الذعر. وقد يبدو لنا على هذا النحو وكأنه لم يبقَ للدوافع الغريزية المكبوتة شيء من دور تقوم به في العصاب غير شرف تزويد الحصَر بالذرائع والتعِّلات لتظاهره في الشعور. لكن مهما يكن باهراً انتصار القوى المناوئة للجنسية في الرهاب، فإن من طبيعة هذا المرض بالذات، وهي كونه عبارة عن تسوية وحلّ توفيقي، أن تجبر المكبوت على ألا يقف عند هذه الحدود. فرهاب الأحصنة هو بالنسبة إلى هانز، في نهاية المطاف، عقبة تحول دون خروجه إلى الشارع ويمكن أن يتخذها ذريعة للبقاء في البيت بجانب أمه الحبيبة. وهكذا بلغت محبته لأمه غاياتها مظفرة؛ فالعاشق الصغير يتشبث، من خلال الرهاب ذاته، بموضوع حبه، وإن يكن قد جرى بطبيعة الحال اتخاذ إجراءات لشلّ قدرته على الأذى. والحق أن الطابع الخاص للإصابة العصابية إنما يتجلى في هذه النتيجة المزدوجة تحديداً.

لقد أفصح ألفريد آدلر مؤخراً، في بحث غني بالأفكار سبق لي الاستشهاد به[٣٣]، عن رأي مؤداه أن الحصر يتولد عن كبح ما يسميه «غريزة العدوان»؛ وقد

٣٣ ـ **غريزة العدوان في الحياة وفي العصاب**، ١٩٠٨، ومن هذا البحث كنت اقتبست آنفاً مصطلح «تصالب الدوافع الغريزية».



عزا إلى هذه الغريزة، بعملية تركيبية واسعة النطاق، الدور الرئيسي في كل ما يحدث للبشر، سواء «أفي الحياة أم في العصاب». وقد يبدو أن النتيجة التي انتهينا إليها من أن الحصر، في حالة الرهاب هذه، قابل للتفسير بكبت تلك النوازع العدوانية (العدائية تجاه الأب والسادية تجاه الأم)، تأتي مصداقاً ساطعاً لوجهة النظر التي أخذ بها آدلر. غير أنني ما استطعت قط مع ذلك أن أتقبل هذا الرأي، وأنا أعتبره تعميماً مضللاً. ولست مستطيعاً حمل نفسي على التسليم بوجود غريزة عدوان قائمة بذاتها إلى جانب غريزة البقاء والغريزة الجنسية المعروفتين من قبل، وعلى قدم المساواة معهما[٣٤]. ويخيَّل إليّ أن آدلر حصر عن خطأ بغريزة خاصة واحدة مرفوعة إلى منزلة الأقنوم ما هو سمة عامة وضرورية للدوافع الغريزية كافة، وعلى وجه التحديد طابعها «الدافعي»، الحفزي، الذي يجوز لنا وصفه بأنه قدرتها على إطلاق الطاقة الحركية. ولو سلَّمنا بوجهة نظر آدلر تلك، فلن يبقى من الدوافع الغريزية الأخرى شيء سوى صلتها بهدف من الأهداف بعد أن تكون «غريزة العدوان» قطعت روابطها بوسائل بلوغ هذا الهدف. وعلى الرغم من كل ما يحيط بنظريتنا في الدوافع الغريزية من تشكك وإبهام، فإني أؤثر التمسك مؤقتاً بتصورنا الراهن، الذي يترك لكل دافع غريزي قدرته الخاصة به على أن يصير عدوانياً، كما أني أميل إلى أن أتعرف في الدافعين الغريزيين اللذين كُبتا لدى هانز مقوِّمين معروفين منذ زمن بعيد من مقوِّمات الليبيدو الجنسي.

- ٣ -

سأشرع الآن بما أرجو أن يكون نقاشاً مقتضباً حول مدى ما يمكن أن يقدِّمه

٣٤ ـ (ملحوظة أضيفت سنة ١٩٢٣): كُتب هذا الكلام في زمن كان يبدو فيه آدلر وكأنه لا يزال يقف على أرض التحليل النفسي، وذلك قبل أن يرفع لواء «الاحتجاج الرجولي» وينكر وجود الكبت. وقد وجدتني منذئذ مضطراً أنا الآخر إلى المصادرة على وجود دافع غريزي إلى العدوان. ولكن هذا الدافع الغريزي عندي هو غيره عند آدلر. وإني لأحبِّذ أن أسمِّيه «الدافع الغريزي إلى التدمير» أو «الدافع الغريزي إلى الموت». (انظر **ما فوق مبدأ اللذة**، وكذلك **الأنا والهذا**). والتعارض بين هذا الدافع الغريزي والدافع الغريزي الليبيدوي يتجلى في قطبية الحب والكره المعروفة. كذلك، إن خلافي مع وجهة نظر آدلر، التي تقلِّل من قيمة خاصية عامة للدوافع الغريزية قاطبة لتعلي من قيمة دافع واحد منها، لم يطرأ عليه تبدُّل.



لنا رهاب الصغير هانز من فائدة عامة ومهمة بخصوص حياة الأطفال وتربيتهم. لكن لا بدّ لي قبل ذلك من الردّ على الاعتراض الذي طال إرجاء الردّ عليه والذي يزعم أن هانز مريض عصبي، «منحط»، ذو وراثة فاسدة، وما هو بطفل عادي يمكن أن يقودنا إلى أطفال غيره. والحقّ، إنه ليحزّ في نفسي منذ زمن طويل أن أفكّر بالطريقة التي سينهال بها جميع المتشيعين لـ «الإنسان العادي» على صغيرنا المسكين هانز بمجرد أن يعلموا أنه من الممكن بالفعل أن نعثر لديه على «عيب» وراثي. فأمه الجميلة كانت وقعت فريسة عصاب ناشئ عن صراع عانت منه وهي فتاة في مقتبل العمر. وقد أمكنني يومئذ أن أسدي إليها بعض العون، وإلى ذلك العهد ترجع بالفعل بداية علاقتي بوالديْ هانز. ولن أجرؤ إلا بحياء ووجل على سوق بعض الحجج لصالح الطفل.

فبادئ ذي بدء لم يكن هانز «طفلاً منحطاً» بالمعنى المقصود من هذه الكلمة، أي طفلاً قضت عليه وراثته بالعصاب. بل على العكس من ذلك: فقد كان من الناحية البدنية قوي البنيان، وكان رفيقاً مرحاً لطيفاً، يقظ الذهن، قادراً على إدخال السرور على الآخرين بالإضافة إلى أبيه. ولا مجال للشك بطبيعة الحال في تبكيره الجنسي، ولكننا نفتقر هنا، كيما نكوّن لأنفسنا حكماً دقيقاً، إلى مادة كافية للمقارنة. فأنا أعرف مثلاً، بموجب استقصاء جماعي أجري في أمريكا، أن اختياراً موضوعانياً ومشاعر حبِّية مبكِّرة إلى هذا الحدّ ليست مما يندر لدى الصبيان، ونحن نلاحظ الشيء نفسه فيما يتصل بطفولة العديدين من الرجال ممن صاروا يعرفون فيما بعد بـ «العظماء». ومن ثم سأميل إلى الاعتقاد بأن التبكير الجنسي ذو صلة ـ قلما تغيب ـ بالتبكير العقلي، وإننا لنلتقيه بالتالي أكثر بكثير مما نتوقع لدى الأطفال الموهوبين حقاً.

وسألاحظ بعد ذلك في صالح هانز (إني أقرّ علناً بتحيُّزي) أنه ليس الطفل الوحيد الذي عانى في وقت أو آخر من طفولته من رهاب. فمثل هذه الأمراض شائعة للغاية كما هو معروف، حتى لدى الأطفال الذين لا تترك تربيتهم الصارمة مجالاً لأخذ مآخذ عليها. والأطفال المشار إليهم يغدون فيما بعد عصابيين بدرجة طفيفة أو قد يبقون أصحاء معافين. والأرهبة التي يعانون منها تُخرس وتُكمَّم من



كثرة الزجر في الحضانة، لأنها مستعصية على العلاج وفي الوقت نفسه مزعجة للغاية بكل تأكيد. وبمرّ الشهور أو السنوات تنحسر وتشفى ظاهرياً، لكن ليس في وسع أحد أن يتنبأ بما يقتضيه مثل هذا «الشفاء» من تشويهات سيكولوجية وبما يستتبعه من تغيرات في الطباع. لكن متى تولينا بالعلاج التحليلي النفسي عصابياً راشداً لم يظهر مرضه، على ما نفترض، إلا في سن النضج، اكتشفنا بصورة مطردة أن عصابه يرتبط بحصر طفلي وأنه في الواقع استمرار له، فلكأن خيطاً متصلاً ولامنقطعاً من النشاط النفسي، كانت نقطة انطلاقه هي صراعات الطفولة تلك، بقي فيما بعد متشابكاً بكل نسيج حياته، وهذا سواء أتشبث العرض الأول لهذه الصراعات بالبقاء أم زال تحت ضغط الظروف. أعتقد إذاً أن صغيرنا هانز لم يمرض مرضاً أشدَّ خطورةً من كثيرين غيره من الأطفال ممن لا يوصمون بأنهم «منحطون»؛ ولكن نظراً إلى أنه أنشئ بمعزل عن التخويف والترهيب، وبأقصى ما يمكن من المراعاة وبأقل ما يمكن من الإكراه، فقد اجترأ حصَره على الظهور بجسارة غير مألوفة لدى الأطفال الآخرين. فالشعور بالخطأ والخوف من العقاب أمران ما كان يعرفهما هانز، وهذان الدافعان يسهمان ولا بدّ لدى غيره من الأطفال في «التخفيف» من الحصَر. ويخيَّل إليّ أننا نشغل أنفسنا أكثر مما ينبغي بالأعراض ونهتم أقل مما ينبغي بالمصادر التي تنشأ عنها. وعندما نربي أطفالاً تكون كل بغيتنا أن يدَعونا في سلام، وألا نضطر إلى مواجهة مشكلات، وبالاختصار، نرمي إلى أن نجعل من طفلنا «طفلاً نموذجياً» بدون أن نتساءل هل هذه الطريقة في التصرف صالحة أو طالحة بالنسبة إلى الطفل. بوسعي إذاً أن أتخيَّل أن إصابة هانز بذلك الرهاب عادت عليه بالنفع لأنها لفتت انتباه والديه إلى الصعاب التي يتحتم على الطفل أن يواجهها حينما يتوجب عليه، في مجرى تربيته ككائن متحضر، أن يتغلب على المقومات الغريزية الفطرية في طبيعته، ولأن الاضطراب الذي عانى منه هانز حمل أباه على أن يهبّ لمعونته. وربما صار الآن لهانز ميزة على الأطفال الآخرين، بمعنى أنه ما عاد يحمل في نفسه بذرة عقد مكبوتة، تلك البذرة التي لا يمكن أبداً أن تخلو من أهمية بالنسبة إلى حياة الطفل اللاحقة، إذ تتسبب بدرجات مختلفة في تشويه الطبع، إن لم



نقل في توليد استعداد لعصاب لاحق. إني ميال إلى الاعتقاد بأن الأمر لهو كذلك، لكني لا أعرف هل سيشاطرني رأيي هذا أشخاص آخرون، بل لا أعرف هل ستؤيد التجرية صحة ما أذهب إليه.

ينبغي الآن أن أطرح السؤال التالي: ما الضرر الذي لحق بهانز من جراء إخراجنا إلى النور تلك العقد التي لا تكون مكبوتة لدى الأطفال فحسب، بل مرهوبة أيضاً من والديهم؟ هل حاول الصبي الصغير القيام بأدنى «اعتداء» على أمه؟ هل استبدل النيات السيئة التي يضمرها تجاه أبيه بأفعال؟ ذلك بالتأكيد ما كان سيخشاه العديد من الأطباء الذين يسيئون فهم طبيعة التحليل النفسي ويتصورون أننا نشدّ من أزر الدوافع الغريزية الخبيثة ونعزّزها إذ نجعلها شعورية. إذاً فهؤلاء «الحكماء» يتصرفون بتماسك منطق حين يضرعون إلينا باسم السماء بألا نمسّ الأشياء الخطرة التي تختبئ خلف عصاب من الأعصبة. لكنهم إذ يفعلون ذلك ينسون أنهم أطباء، وتحذيراتهم تشبه إلى حدّ غريب تحذيرات دوغبرّي[٣٥] في مسرحية شكسبير **جعجعة بلا طحن** عندما ينصح الحارس بأن يتحاشى أي احتكاك باللصوص أو الأشرار الذين قد يلتقيهم بغتة: «لأنه كلما قلَّ اتصالك بأمثال هؤلاء الأوباش كان ذلك أفضل لشرفك»[٣٦].

بل على العكس من ذلك: فقد كانت النتائج الوحيدة للتحليل أن هانز أبلّ من مرضه، وما عاد يخاف من الأحصنة، وصارت علاقته بأبيه أدنى إلى الألفة، على نحو ما روى الأب بلهجة لا تخلو من مرح. غير أن ما خسره الأب في مجال الاحترام عاد فكسبه في مجال الثقة. قال هانز: «اعتقدت أنك ما دمت عرفت بخصوص الحصان فلا بدّ أن تعرف هذا أيضاً». والحق أن التحليل لا يلغي **نتائج** الكبت! فالدوافع الغريزية التي قُمعت في حينه تبقى مقموعة. على أن

٣٥ ـ دوغبرّي DOGBERRY: هو وزميله فرجيس نموذج للمأمور البلدي البليد. «م».

٣٦ ـ لا أستطيع أن أكبح هنا سؤالاً حائراً. فمن أين يستمد أخصامي معلوماتهم الموثوقة إلى هذا الحدّ عن الدور الذي تلعبه أو لا تلعبه الدوافع الغريزية الجنسية المكبوتة في إتيولوجيا الأعصبة وعن طبيعة هذا الدور، وذلك ما داموا يسدّون أفواه مرضاهم بمجرد أن يبدأ هؤلاء بالكلام عن عقدهم ومنتجاتها؟ إن مصدر المعرفة الوحيد الذي يبقى متاحاً لهم في هذه الحال هو كتاباتي وكتابات أتباعي.



التحليل يصل إلى ما يصل إليه مِن نجاح بطريقة أخرى: إنه يستبدل الكبت، وهو سيرورة آلية ومشتطة، بعملية تحكم معتدلة وملائمة بالدوافع الغريزية تتمّ بمساعدة أرفع الهيئات النفسية؛ وبكلمة واحدة، **إن التحليل يحِلّ محلّ الكبت الإدانة**. وعلى هذا النحو يأتينا فيما يبدو بالدليل الذي طال البحث عنه على أن للشعور وظيفة بيولوجية وعلى أن مكسباً ذا شأن يتحقق بمجرد دخوله إلى المسرح[٣٧].

لو كنت أنا السيد الأوحد الذي يتحكم بالمادة لكنت اجترأت على تزويد الصبي الصغير أيضاً بالإيضاح الوحيد الذي ضنّ به والداه عليه. فقد كنت سأثبت له صحة إرهاصاته الغريزية بأن أكشف له عن وجود المهبل والجماع، وكنت بذلك سأخفِّف إلى حدّ بعيد من ثقل الرسابة التي بقيت في نفسه بغير حلّ. وكنت سأضع على هذا النحو حداً لسيل أسئلته. وإنني لعلى ثقة بأنه ما كان ليفقد، بنتيجة هذه الإيضاحات، حبَّه لأمه ولا طبيعته الطفلية، وبأنه كان سيفهم هو نفسه أن انشغاله بهذه المسائل المهمة، بله الملحة، لا بدّ في الوقت الحاضر أن يخمد ويتوقف، إلى أن يُقيَّض لرغبته في أن يكبر أن تتحقق. غير أن التجربة التربوية لم تذهب إلى هذا الحدّ.

وأما أنه لا وجود لأي حدّ واضح بين «العصبيين» و«الأسوياء»، من أطفال أو راشدين على السواء، وأما أن «المرض» مفهوم كمِّيّ ذو قيمة عملية فقط، وأما أن الاستعدادات القبْلية وصروف الحياة لا بدّ أن تتضافر كيما يتمّ تخطي العتبة التي

٣٧ ـ (ملحوظة أضيفت سنة ١٩٢٣): أستخدم هنا كلمة «الشعور» بمعنى انصرفت عنه منذئذ، وذلك للإشارة إلى سيرورات التفكير العادية، أي السيرورات التي تمتلك المقدرة على الوصول إلى وعينا. ونحن نعلم كذلك أن مثل هذه السيرورات العقلية يمكن أن تتم أيضاً على مستوى القبشعور، وإننا لنحسن فعلاً فيما لو رأينا إلى «شعوريتها» من وجهة نظر فينومينولوجية خالصة. وبديهي أنه ليس في نيتي أن أنقض بذلك الرأي الذي يتوقع أن الصيرورة «الشعورية» تؤدي هي الأخرى وظيفة بيولوجية ما. انظر **الأنا والهذا**، الفصل الأول، وكذلك نقاش الوظيفة البيولوجية لـ «الشعور» في الصفحات الأخيرة من **تأويل الحلم**(*).

(*) غموض هذا الهامش وصعوبة فهم منطقه يعودان إلى التباس معنى «الشعور» باللغات الأوروبية، وإلى أن مثل هذا الالتباس قابل للاستبعاد باللغة العربية في حال التمييز بين كلا المعنيين اللذين للفظة CCNSCIENE بالعربية: الوعي والشعور. وواضح أن فرويد يشير في هذا الهامش إلى المعنى الآخر الذي كان للفظتي CONSCIENCE وINCONSIENCE باللغات الأوروبية، أي الوعي واللاوعي، قبل أن يفرض التحليل النفسي مصطلح الشعور واللاشعور، ومن ثم القبشعور. «م».



من بعدها يبدأ المرض، وأما أن أفراداً كثيرين ينتقلون باستمرار من جراء ذلك من صنف الأصحّاء إلى صنف العصابيين، بينما يقوم عدد أقل بكثير من المرضى باجتياز الطريق نفسه بالاتجاه المعاكس، فتلك كلها أشياء قيلت مراراً وتكراراً ولقيت من القبول ما يجعلني لا أنفرد برفع لوائها. ومن المحتمل جداً، وهذا أقلّ ما يقال، أن لتربية الطفل تأثيراً قوياً، إن حسناً وإن سيئاً، على ذلك الاستعداد القبْلي الذي تكلّمنا عنه للتو والذي هو واحد من عوامل العصاب؛ ولكن إلامَ ينبغي أن تهدف التربية وفيمَ ينبغي أن تتدخل، فذلك هو ما لا يزال عسيراً أشدَّ العسر الإجابة عنه. وإلى اليوم لم تتخذ التربية لنفسها من هدف غير السيطرة على الدوافع الغريزية أو بالأحرى قمعها، ولم تأتِ النتيجة بحال من الأحوال مُرضية؛ وحيثما قُيِّض لهذه الطريقة أن تحقق نجاحاً لم يكن ذلك إلا لصالح حفنة من الأشخاص المحظوظين ممن لم يجدوا أنفسهم مطالبين بقمع دوافعهم الغريزية. وكذلك لم يستقصِ أحد عن أي السبل ولقاء أي تضحيات تمّ إنجاز هذا القمع للدوافع الغريزية المشاغبة. أما لو أننا استبدلنا هذه المهمة بأخرى، ترمي إلى أن يقتدر الفرد على تمثل الحضارة وعلى أداء دور مفيد اجتماعياً، بدون أن يتطلب منه ذلك إلا أضأل تضحية ممكنة بفاعليته، فعندئذ يمكن للأضواء التي أمدّنا بها التحليل النفسي عن منشأ العقد الإمراضية وعن نواة كل عصاب أن تطمح في أن يرى فيها المربون هداية لهم لا تقدَّر بثمن في المسلك الواجب الأخذ به تجاه الأطفال. فما النتائج العملية التي يمكن أن تترتب على ذلك؟ وإلى أي حدّ يمكن للتجربة أن تبرر وضع هذه النتائج موضع التطبيق ضمن نطاق نظامنا الاجتماعي الراهن؟ إني أدع هذه الأسئلة لحكام آخرين ليدرسوها ويبتّوا فيها.

لا أستطيع أن أطوي صفحة رهاب مريضنا الصغير قبل أن أفصح عن فكرة تسبغ في نظري على هذا التحليل (الذي أفضى إلى الشفاء) قيمة خاصة. فهو لم يفدني، بحصر معنى الكلمة، شيئاً جديداً، شيئاً لم أكن قادراً من قبل أن أحدس به ـ وإن في الغالب في صورة أقلّ تحدداً وأقل مباشرة ـ من خلال تحليل مرضى آخرين ومعالجتهم في سن النضج. لكن بما أن أعصبة هؤلاء المرضى الآخرين كان يمكن في كل حالة أن تُربط بتلك العقد الطفلية عينها التي اكتشفناها خلف



رهاب هانز، فإنني أميل إلى أن أعزو إلى هذا الرهاب الطفلي أهمية نمطية ونموذجية، تماماً كما أن كثرة عدد ظاهرات الكبت التي تشفّ عنها الأعصبة ووفرة مادتها الإمراضية لا تمنعاننا من أن نشتقّها من عدد محدود للغاية من السيرورات التي تفعل فعلها على الدوام في تلك العقد عينها وبكل ما يصاحبها من تمثلات وتصورات.

(٤)

تذييل (١٩٢٢)[1]

منذ بضعة أشهر - في ربيع ١٩٢٢ - حضر إليّ شاب وقدَّم لي نفسه على أنه «هانز الصغير» الذي كان عصابه الطفلي موضوع البحث الذي نشرته عام ١٩٠٩. وقد سرّني جداً أن ألتقيه ثانية، إذ كان بعد زهاء عامين من انتهاء تحليله قد غاب عن ناظري، فما عدت أعرف عن أحواله شيئاً منذ أكثر من عشر سنين. وكان نشر هذا التحليل الأول لطفل قد أثار لغطاً كثيراً واستنكاراً أكثر، وقد تنبأ بعضهم بمستقبل كالح مظلم لذلك الصبي الصغير المسكين الذي انتُهكت براءته وهو غضّ العود فسقط ضحية التحليل النفسي.

لكن ما من شيء من هذه المخاوف قد تحقق. فهانز الصغير بات الآن شاباً جميلاً في التاسعة عشرة من العمر. وقد صرَّح لي بأنه في أتمّ عافية، ولا يشكو من أي ضيق أو من أي كفّ. فهو ما اجتاز طور البلوغ بدون أن ينوبه منه ضير فحسب، بل تحمَّل أيضاً ثابت الجنان محنة من أقسى المحن في حياته العاطفية. فقد وقع الطلاق بين والديه، وارتبط كل منهما بزواج جديد. وهو من ثم يعيش بمفرده، ولكنه على صلة طيبة بكل من والديه، ويؤسفه فقط أن تفكّك الأسرة قد فصله عن أخته الصغرى التي كان شديد التعلق بها.

ومن جملة الأشياء التي أخبرني بها هانز شيء بدا لي يبعث على العجب الشديد. وعليه، لن أجازف بتقديم أي تفسير له. فقد قال لي إنه حين أقبل على قراءة تاريخ مرضه بدا له كل شيء غريباً؛ فهو لم يتعرَّف نفسه فيه، وما استطاع أن يتذكَّر من الأمر شيئاً، وفقط عندما وصل في قراءته إلى الرحلة إلى غموندن

١ - نشر فرويد هذا التذييل في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** عام ١٩٢٢، أي بعد ثلاث عشرة سنة من نشر «**هانز الصغير**». «م».



استيقظ فيه بصيص باهت جداً من الذكرى: فربما صحّ أنه هو الذي يدور عنه الكلام. وهكذا لا يكون التحليل قد صان الحدث من النساية، بل وقع هو نفسه ضحيتها. وهذا ما يحدث أحياناً في أثناء النوم لمن هو متآلف مع التحليل النفسي. فقد يوقظه حلم جميل، فيصمِّم على تحليله حالاً، ثم يستغرق في النوم ثانية وهو راضٍ عن نتيجة مجهوده. ولكن في صباح اليوم التالي يكون الحلم وتحليله قد طوتهما يد النسيان.



التحليل النفسي للعصاب الوسواسي

(رجلُ الجرذان)




مكتبة
الفكر الجديد

تقديم

في عام ١٩٠٩، وبعد سنة من انتهاء العلاج، وبموافقة من المريض، نشر فرويد في **حولية التحليل النفسي وعلم النفس المرضي**، هذه الـ «**ملاحظات عن حالة عصاب وسواسي**» التي ستشتهر في تاريخ حركة التحليل النفسي باسم **رجل الجرذان**.

كان «رجل الجرذان»، الذي له من العمر ثلاثون عاماً، قد اضطر إلى الانقطاع عن كل نشاط في مضمار الحياة العملية على الرغم من نباهته وذكائه وثقافته. فقد كان يعاني من اجترارات ذهنية مرَضية (وساوس) يحاول اتقاءها بإنجاز طقوس معقدة وأفعال قهرية ينقض بعضها بعضاً. وكانت نفسه امتلأت رعباً لما سمع من أحد زملائه الضباط في الجيش تفاصيل طريقة صينية في التعذيب: إناء يعجّ بالجرذان يوضع على إليتي المنكَّل به فتشقّ طريقها إلى داخله بعد أن تفترس إسته. وقد صار هاجسه الأكبر فيما بعد أن ينزل مثل هذا العقاب بصديقته التي يحبها منذ سنوات عديدة وبأبيه المتوفي منذ سنوات عديدة أيضاً. والواقع أن قصة التعذيب بالجرذان أيقظت في نفسه ذكرى عقوبة تلقاها من أبيه في طفولته، وكانت ذا صلة بفعل سيئ أتاه من طبيعة جنسية. وكانت هذه العقوبة، التي ارتبطت بالعنصر السادي من إيروسيته الشرجية، قد أضرمت في نفسه نار حقد لا يخمد له أوار على أبيه. ولكن هذا الحقد بقي مكبوتاً في اللاشعور، وأخلى مكانه على الصعيد الشعوري لحب ستاري عارم. وهذه الازدواجية الوجدانية هي التي وجدت حلاً كاذباً لها في العصاب الوسواسي، وهو العصاب الذي يتميز بالاجترار الذهني، وبالنكوص من الفعل إلى الفكر، وبعزو علاقات سببية إلى العالم الخارجي لا وجود لها إلاّ في ذهن المريض. ومن هنا كان تطيُّر العصابي الوسواسي وإيمانه بالخرافة



واعتقاده بأن أفكاره، التي تدور حول الحب والكره في آن معاً، لها ـ كالسحر ـ قدرة مطلقة.

لقد دام تحليل رجل الجرذان وعلاجه أحد عشر شهراً استردّ المريض في نهايتها عافيته النفسية. ولكن على الرغم من هذا النجاح التام الذي كُلِّل به التحليل، فإن النقاد قد لاحظوا أن تقنية التحليل النفسي لم تكن في حينه (١٩٠٨) قد أدركت مستوى الكمال الذي أدركته فيما بعد. ومن ثم، إن أسئلة كثيرة بقيت في نص فرويد غامضة، أو بلا إجابة، أو لم تطرح أصلاً. وقد أقرّ فرويد نفسه بقصور من هذا القبيل حين قال في هذا النص بالذات إن الحالات المحلَّلة التي تتوج عملياً بالشفاء لا تكون مثمرة بالقدر نفسه من الناحية النظرية.

أما الاسم الحقيقي لـ «رجل الجرذان» فقد بقي مجهولاً وموضع تخمين من قبل دارسي فرويد ومترجميه إلى أن تمكن الباحث الكندي باتريك ماهوني، مؤلف كتاب **فرويد ورجل الجرذان** الصادر عام ١٩٩١، من الكشف عن هويته: فقد كان يدعى إرنست لانزر، ومن مواليد ١٨٧٨، وقد تسجل في كلية الحقوق في فيينا، وتخرج منها دكتوراً في القانون وعمل في عدة مكاتب للمحاماة. وعقب تخرجه عام ١٩٠٧ جُنّد كرقيب في الاحتياط، وشارك في مناورات عسكرية في غاليسيا. وتفاقم حالته الوسواسية، التي أعجزت كل من كان استشارهم من الأطباء، هو ما حمله على اللجوء إلى فرويد الذي تولى تحليله في الفترة ما بين تشرين الأول/ وكانون الأول أوكتوبر ١٩٠٧ وكانون الثاني/ يناير ١٩٠٨، والذي قدّم تقريراً أولياً عن حالته أمام **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي** في خريف عام ١٩٠٧ وشارك في مناقشته فلهلم شتيكل وأوتو رانك وألفريد آدلر، قبل أن يعود فيقدم تقريراً أكثر تفصيلاً، وعلى مدى أربع ساعات، أمام «المؤتمر الأول لعلم النفس الفرويدي» الذي نظمه كارل غوستاف يونغ في سالزبورغ في ٢٧ نيسان/ أبريل ١٩٠٨، قبل أن ينشر تمام التحليل، وبالنص أدناه، وبموافقة من المريض، في **حولية التحليل النفسي وعلم النفس المرضي**.

وقد كنا ترجمنا هذا النص عن الترجمة الفرنسية التي كان قام بها كل من



ماري بونابرت ورودولف لوينشتاين عام ١٩٣٢، والتي أعيد نشرها تباعاً إلى أن أعادت الدار نفسها، المنشورات الجامعية الفرنسية، إصدار ترجمة جديدة بقلم بيير كوتيه وفرانسوا روبير ضمن مجموعة **أعمال فرويد الكاملة**، المجلد التاسع، ١٩٩٨. وقد استعنّا بهذه الترجمة الجديدة كي ندقق ترجمتنا القديمة ونزيدها قرباً، بالقدر الممكن، من النص الفرويدي الأصلي.

ج. ط




مكتبة
الفكر الجديد

ملاحظات حول حالة عصاب وسواسي

تتضمن الصفحات التالية:

١ ـ تقريراً جزئياً عن تاريخ حالة عصاب وسواسي. وهي حالة يمكن أن تعدّ على درجة كافية من الخطورة نظراً إلى طول مدتها، وإلى فداحة الأضرار التي أنزلتها بالشخص المعني، وإلى تقييم المريض ذاته لها. وقد دام علاج هذه الحالة زهاء سنة تقريباً، وأفضى إلى استرداد المريض لشخصيته كاملة وإلى زوال كفوفه.

٢ ـ بضع أفكار مقتضبة حول نشأة الظاهرات الوسواسية النفسية وآلياتها الرهيفة، وسأعرض هذه الأفكار استناداً إلى هذه الحالة، واستناداً كذلك إلى حالات أخرى كنت قد حللتها سابقاً. والغرض من هذه الملاحظات تكميل شرحي الأولي حول هذا الموضوع ـ وكنت نشرتها عام ١٨٩٦[١] ـ ومواصلتها.

إن ما ذكرته يستلزم، على ما يخيَّل إليّ، تبريراً حتى لا يرسخ في ذهن القارئ أنني أعتبر أنا نفسي هذه الطريقة في عرض الأشياء نموذجية ومبرأة من كل نقد. والواقع أنه لزام عليّ أن آخذ بعين الاعتبار العقبات الخارجية، وكذلك الصعاب النابعة من صميم هذا العرض. فقد كان بودِّي لو أنه كان في مستطاعي، ومن حقي، أن أذكر عن هذه الحالة أكثر بكثير مما ذكرت. ولكني لا أستطيع، في الواقع، أن أقدِّم تاريخاً كاملاً للمعالجة، إذ إن ذلك سيقتضي مني أن أخوض في تفاصيل حياة مريضي. غير أن الانتباه الفضولي الذي تتابع به العاصمة[٢] نشاطي المهني يحول بيني وبين تقديم عرض مطابق كل المطابقة للحقيقة. والحال أني بتّ

١ ـ **ملاحظات جديدة حول الأعصبة النفسية الدفاعية**، الأعمال الكاملة، م١.

٢ ـ فيينا. «م».



أميل إلى الاعتقاد أكثر فأكثر بأن التحريفات التي درجت العادة على اللجوء إليها للخروج من هذا المأزق لا تفيد ولا تجدي، علاوة على أنها غير مقبولة. فإن تكن التحريفات هينة غير ذات شأن، فإنها لا تبلغ هدفها، وهو حماية المريض من الفضول المتطفل، وإن تكن أبعد من ذلك مدى استلزمت تضحيات باهظة تحول دون فهم السياق المرتبط، تحديداً، بوقائع الحياة الصغيرة. وهذا الوضع تترتب عليه المفارقة التالية: من الأيسر لنا بكثير أن نفشي علناً وللملأ أسرار المريض الأكثر حميمية، بدون أن يتعرف أحد إلى حقيقة شخصيته، من أن نصف طبائعه الشخصية الأكثر براءة والعادية تماماً، لأن هذه الطبائع معروفة للناس جميعاً ومن شأنها أن تكشف عن هويته.

لئن كان هذا هو مبرري لما أجريته على تاريخ المرض والمعالجة هذا من اقتضاب شديد، فإن لديّ عذراً أعظم وجاهة بعد لكيلا أعرض إلاَّ بعض نتائج متفرقة من المباحث التحليلية النفسية في الأعصبة الوسواسية: فأنا أقرّ وأعترف بأني لم أتمكن إلى الآن من النفاذ إلى البنية البالغة التعقيد لحالة خطيرة من العصاب الوسواسي ومن استجلاء أمرها بوضوح تامّ. ومن جهة أخرى لا أحسب أن في قدرتي أن أجعل القارئ يستشفّ بوضوح كامل، من خلال عرض لحالة من حالات التحليل النفسي، وعبر الطبقات المتراكبة التي تجتازها المعالجة التحليلية، تلك البنية التي يتعرفها التحليل أو يرهص بها. ومقاومات المرضى والكيفيات التي تفصح بها هذه المقاومات عن نفسها هي التي تجعل هذه المهمة شديدة العسر. على أنه لا بدّ لنا من الاعتراف بأن العصاب الوسواسي ليس بحدّ ذاته مما يسهل فهمه ـ فهو أعصى على الفهم بكثير من حالة هستيريا مثلاً. وفي الواقع كان يفترض أن نتوقع أن يكون الأمر على العكس من ذلك. فالوسائل التي يستخدمها العصاب الوسواسي للإفصاح عن أفكاره الخفية الدفينة، أي لغة هذا العصاب، ما هي، بنوع ما، إلا لهجة من لهجات اللغة الهستيرية، بل هي لهجة كان يفترض بنا أن ننفذ إلى سرها بقدر أكبر من اليسر والسهولة، نظراً إلى أنها أوثق صلة من لغة الهستيريا بالأشكال التعبيرية لفكرنا الشعوري. فلغة الوساوس براء، في المقام الأول، من تلك القفزة مما هو نفسي إلى التعصيب البدني ـ

الاستبدال الهستيري[٣] ـ التي يعزّ على ملكة الفهم عندنا أن تستوعب أمرها استيعاباً تاماً.

وإذا كان الواقع لا يؤكد على الدوام توقعاتنا، فقد لا يكون مردّ ذلك إلاّ إلى كون معرفتنا بالعصاب الوسواسي أقل تضلعاً وتعمقاً. فالمرضى المصابون بأشكال خطيرة من العصاب الوسواسي يقبِلون على التحليل أقل بكثير من إقبال مرضى الهستيريا عليه. وهم يخفون حالتهم عمن حولهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولا يفوّضون أمرهم إلى الطبيب إلا متى ما بلغ بهم العصاب طوراً بحيث لو قارنّاه بالسل الرئوي لامتنع المصحّ عن استقبالهم. وأنا أعقد أصلاً هذه المقارنة لأننا نستطيع في حالات العصاب الوسواسي، الطفيفة منها أو الخطيرة على حدّ سواء، إذا ما عالجناها في الوقت المناسب، أن نتوصل، كما هو الشأن في ذلك المرض المعدي المزمن، إلى جملة من نتائج علاجية باهرة.

في هذه الشروط لا يبقى علينا إلاَّ أن نعرض الأشياء على ذلك النحو الناقص والقاصر الذي نعرفها به والذي يحقّ أن نكشف عنه. والمعلومات الجزئية التي نقدمها هنا، والتي استأدانا الوصول إليها جهداً شاقاً مضنياً، ستبدو في أغلب الظن لا تبعث على الرضى، ولكن من الممكن أن يستكملها باحثون آخرون بعملهم؛ وربما أمكن للجهود المشتركة المتضافرة أن تنجز مهمة هي أبهظ من أن يتولاها فرد بمفرده.

٣ ـ الاستبدال: تحول الأعراض النفسية في الهستيريا إلى أعراض بدنية. «م».



(١)

مقتطفات من تاريخ المرض

رجل لا يزال في مقتبل العمر، جامعي التأهيل، حضر إليّ وروى لي أنه يعاني منذ طفولته، وعلى الأخص منذ أربعة أعوام، من وساوس. والقوام الرئيسي لمرضه **هواجس**؛ فهو يخشى أن يقع مكروه لشخصين عزيزين عليه للغاية: أبيه وسيدة نذر لها حباً مبطَّناً بالإجلال والتوقير. وقال فضلاً عن ذلك إنه تراوده **حفزات قهرية**، ومنها مثلاً أن يجتز عنقه بموسى، كما تتشكل لديه نواهٍ تطال توافه الأمور. وقد ضيّع سنوات من عمره وهو يصارع أفكاره، ولذا أمسى متخلفاً في الحياة. والدورات العلاجية الكثيرة التي حاولها ما أفادته واحدة منها بشيء، باستثناء معالجة بالمياه في مصحّ، على مقربة من بلدة س...، وربما كان مردّ ذلك، في ما يعتقد، إلى أنه تعرَّف هناك إلى امرأة، مما أتاح له أن يمارس العلاقات الجنسية بصورة مطردة. أما هنا، أي في فيينا، فلا تسنح له، على ما قال، الفرص لذلك. فنادرة هي صلاته الجنسية، وإن وجدت فعلى فترات غير منتظمة. أما البغايا فمثيرات لاشمئزازه. وبوجه الإجمال، كانت حياته الجنسية فقيرة، ولم يلعب فيها الاستمناء، في سنته السادسة عشرة أو السابعة عشرة، إلا دوراً ضئيلاً لا يذكر. وقدرته الجنسية عادية على حدّ ما قال، وكان أول جماع له وهو في السادسة والعشرين من العمر.

كان الانطباع الذي خلّفه عندي المريض أنه رجل ذكي، صافي الذهن. وقد سألته عن الأسباب التي تجعله يضع في مكانة الصدارة معطيات تتصل بحياته الجنسية، فأجاب أن ذلك ما يعرفه عن نظرياتي. وهو على كل حال لم يطالع شيئاً من كتاباتي، ولكنه فيما كان يتصفح مؤخراً واحداً من كتبي وجد تفسيراً



لترابطات غريبة بين الألفاظ[1] ذكَّرته بقوة بـ «شطحاته» الفكرية الخاصة، مما جعله يعقد العزم على تفويض أمر نفسه لي.

(أ)

بداية العلاج

في اليوم التالي قبِل بأن يتقيَّد بالشرط الوحيد الذي يقتضيه العلاج: وهو أن يقول كل ما يرد إلى خاطره، حتى ولو كان ذلك مؤلماً له، وحتى لو بدت له خاطرته **عديمة الأهمية، لامعقولة، وغير ذات صلة بالموضوع**. وقد تركتُ له أن يختار بنفسه الموضوع الذي يرغب في أن يبدأ به، فاستهلّ الكلام على النحو الآتي[2]:

قال إن له صديقاً يكنّ له تقديراً عالياً، وإليه يتوجه كلما تسلطت عليه حفزة إجرامية، ويسأله إن كان يحتقره ويعدّه مجرماً. وكان صديقه يشدّ في هذه الحال من أزره مطمئناً إياه إلى أنه رجل لا غبار عليه، وإلى أنه اعتاد منذ طفولته في أرجح الظن أن ينظر إلى حياته من هذا المنظار. وكان لشخص آخر مثل هذا النفوذ عليه في ماضي حياته. هذا الشخص كان طالباً له من العمر تسعة عشر عاماً، فيما لم يكن هو نفسه قد تخطى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة. ويبدو أن هذا الطالب كان يكنّ له حباً، وقد أزكى عند مريضنا حسَّه بقيمة ذاته إلى حدّ تصور معه أنه عبقري من العباقرة. وقد صار هذا التلميذ فيما بعد معلِّماً له، فغيَّر على حين فجأة من سلوكه، وراح يعامله معاملته لغبي. وفطن مريضنا في نهاية الأمر إلى أن ذلك الرجل مشغوف بإحدى شقيقاته، ولم يعقد صلته به إلا ليجد منفذاً إلى أسرته. وكانت تلك أول صدمة كبيرة في حياته.

١ ـ **علم نفس أمراض الحياة اليومية**، ١٩٠٤.

٢ ـ جرى تحرير ذلك نقلاً عن ملاحظات كنت دوَّنتها مساءً عقب الجلسة، وهو يقترب بقدر الإمكان من كلمات المريض نفسها. وإني لأحذِّر المحللين النفسيين بالمناسبة من تدوين ما يقوله المرضى في أثناء جلسة المعالجة، إذ إن تشتت انتباه الطبيب يلحق بالمرضى من الأذى قدراً أكبر مما يمكن أن يبرره فرط الدقة في عرض ملابسات الحالة(*).

(*) لم تكن آلة التسجيل المتطورة قد اخترعت بعد في زمن فرويد. «م».



واستطرد يقول بلا تمهيد:

(ب)

الجنسية الطفلية

«بدأت حياتي الجنسية في وقت مبكر للغاية. وإني لأذكر مشهداً من سنتي الرابعة أو الخامسة (ذكرياتي ابتداء من سنتي السادسة كاملة) بزغ في ذهني على أجلى نحو بعد سنوات من ذلك. كانت عندنا مربية شابة رائعة الجمال، تدعى الآنسة بيتر[٣]، كانت ذات مساء متمددة على أريكة، متخففة اللباس، مستغرقة في القراءة. فاستأذنتها في أن أندس تحت تنورتها. فسمحت لي بذلك، بشرط الا أخبر أحداً بالأمر. كانت لا تكاد ترتدي شيئاً، فلمست أعضاءها التناسلية وبطنها التي بدت لي غريبة مدهشة. ومنذئذ استبدّ بي فضول عارم ومعذَّب إلي رؤية الجسم الأنثوي. ولا أزال أذكر ما كان يستبدّ بي من جزع ونفاد صبر شديدين وأنا في الحمام أنتظر أن تأتي المربية، وقد تعرت، لتدخل إلى الماء (كان لا يزال يؤذن لي عهدئذ بالذهاب إلى الحمام مع أخواتي ومربيتي). وذكرياتي أشدّ وضوحاً ابتداء من عامي السادس. كان لدينا في ذلك الزمن مربية أخرى، وكانت هي الأخرى شابة وجميلة، وكانت لها في إليتيها بثور كان من عادتها أن تعصرها مساء. كنت أترقب هذه اللحظة لأشبع فضولي. وكذلك كان الأمر في الحمام، وإن تكن الآنسة لينا أكثر تحفظاً من الأولى.

٣ ـ إن د. ألفريد أدلر، الذي كان يوماً من المحللين النفسيين(*)، نبّه ذات مرة، في ندوة خاصة، إلى الأهمية البالغة التي ينبغي أن تُعزى إلى التصريحات الأولى التي يدلي بها المرضى. وهاكم دليلاً على ذلك. فالعبارات الاستهلالية التي نطق بها مريضنا تبرز التأثير الذي كان للرجال عليه، أي تسلّط الضوء على الدور الذي لعبه في حياته الاختيار الموضوعاني الجنسي المثلي، وتشفّ بعد ذلك عن موضوعة أخرى لن تلبث فيما بعد أن تعاود بروزها بقوة: الصراع وتعارض المصالح بين المرأة والرجل. وينبغي أن نربط بهذا السياق كونه قد سمّى تلك المربية الجميلة الأولى باسم أسرتها الذي شاءت المصادفة أن يكون اسماً مذكراً. والحال أن من عادة الأوساط البورجوازية في فيينا تسمية المربية باسمها الشخصي، وبهذا الاسم بالأحرى يكون مثولها في الذاكرة.

(*) في الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٠٩ كانت العبارة هنا كما يلي:«زميلي د. ألفريد آدلر». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



(وجواباً عن سؤال طرحته عليه: «كلا، بالإجمال ما كنت أنام في غرفتها، بل كان من عادتي أن أنام في غرفة والديّ»). واستذكر مشهداً: «كان لي من العمر آنذاك سبع سنوات ولا بدّ[٤]. وكنا جالسين كلنا معاً: المربية، والطاهية، وخادمة أخرى، وأنا، وأخي الذي يصغرني بعام ونصف عام. كانت النساء الصبايا يتبادلن أطراف الحديث، وفجأة سمعت الآنسة لينا تقول: «مع الصغير يمكن عمل ذلك، لكن بول (أنا) شديد الخرق، ومن المؤكد أنه سيفشل في العملية». لم أدرك بوضوح ما كانت تعنيه بذلك، لكني استشعرت مهانة وذلة، وطفقت أبكي. حاولت لينا أن تؤاسيني وروت لي أن خادمة عملت ذلك مع صبي صغير عُهد به إليها، فزُجّ بها في السجن لعدة شهور. ولا أظنّ أنها فعلت معي أشياء محظورة، لكني كنت أتمادى في الحرية معها. فحين كنت أذهب إلى فراشها، كنت أكشف عنها وألامسها، وكانت تدعني أفعل ذلك بلا اعتراض. لم تكن على قدر كبير من الذكاء، وكانت حاجتها الجنسية شديدة الإلحاح على نحو لا يخفى عن العيان. كانت في الثالثة والعشرين من العمر، وكان لها طفل، وقد تزوجها فيما بعد أبوه، بحيث باتت اليوم (فراو هوفرات)[٥]. وكثيراً ما ألتقيها إلى الآن في الطريق.

«منذ عامي السادس صرت أعاني من الانتصاب. وأعلم أني أتيت ذات يوم إلى أمي أشكو لها الأمر. وأعلم أيضاً أن ذلك تطلب مني أن أتغلب على بعض الوساوس، إذ كنت أرهص بعلاقة ذلك الانتصاب بتخيلاتي الفكرية وفضولي. وقد استبدّت بي، في ذلك العهد أيضاً، ولبعض الزمن، فكرة مرَضية مؤداها أن **والديّ يعرفان أفكاري**. وتفسيراً لذلك افترضت **أني لا بدّ أن أكون أفصحت عن أفكاري بدون أن أسمع نفسي وأنا أنطق بها**. وأعتقد أنه هنا بالذات كانت بداية مرضي. كان هناك أشخاص، خادمات، يعجبنني كثيراً، وكنت أرغب رغبة مضطرمة في رؤيتهن عاريات. لكن إذ كانت تخامرني هذه الرغبات، **كان**

٤ ـ سلّم فيما بعد باحتمال أن يكون هذا المشهد قد جرى متأخراً عن ذلك بعام أو عامين.

٥ ـ Frau Hofrat: لقب يطلق على زوجات المحامين والقضاة والمستشارين القضائيين في النمسا، وهو يشبه بالعربية قولنا: «الحرم المصون». «م».



يساورني أيضاً إحساس بغرابة مقلقة[٦]، كما لو أنه سيقع شيء إذا ما فكرت بذلك، وكما لو أنه عليّ أن أفعل كل ما بوسعي لأتلافاه.

(على سبيل المثال، وجواباً عن سؤالي، ذكر لي خوفه من **أن يموت أبوه**): «منذ نعومة أظفاري، وعلى مدى سنوات طويلة، كانت تشغل ذهني أفكار عن موت أبي فتسبِّب لي اكتئاباً شديداً».

بهذه المناسبة علمت، على دهش مني، أن أباه، وإن يكن موضوع وساوسه الراهنة، قد توفي منذ عدة سنوات.

إن الظاهرات التي وصفها لنا مريضنا في الجلسة الأولى، والتي يرجع زمنها إلى سنته السادسة أو السابعة، لم تكن كما يعتقد بداية مرضه فحسب، بل هي مرضه بالذات. فهي عبارة عن عصاب وسواسي كامل لا يفتقر إلى أي عنصر أساسي، وهي في الوقت نفسه النموذج الأول لمعاناته اللاحقة، وبنوع ما كيان عضوي ابتدائي لا نستطيع بغير دراسته أن نفهم التنظيم المعقد للمرض الراهن. فنحن نرى ذلك الطفل واقعاً تحت سلطان مقوِّم محدد من المقوِّمات الغريزية الجنسية، هو التلصصية Voyeurisme التي عبَّرت عنها مراراً عدة، وبقوة جامحة، رغبتُه في أن يرى اللائي يعجبنه من النساء عاريات. هذه الرغبة تناظر الفكرة الوسواسية اللاحقة. ولئن لم تكن هذه الرغبة قد اتسمت بعد بطابع وسواسي، فمردّ ذلك إلى أن أنا الطفل لم يكن قد دخل بعد في تناقض تام مع هذه الرغبة، ولم يكن قد استشعرها بعد على أنها شيء غريب عن نفسه. على أنه تشكلت منذ ذلك الحين في جانب ما من نفسه معارضة لهذه الرغبة، إذ إن انشحاناً وجدانياً مؤلماً كان يرافق باطراد ظهورها[٧]. ومن الواضح أن نفس ذلك الشهواني الصغير كانت تنطوي على صراع؛ فإلى جانب تلك الرغبة الاستحواذية كان هناك أيضاً خوف استحواذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بها: فكلما فكر فيها، تسلط عليه هاجس الخوف من وقوع شيء مروع. وقد اتشح هذا

٦ ـ بالألمانية Unheimlich: كلمة لا مقابل لها في اللغات الأخرى، يترجمها الفرنسيون بـ Inquiétante Etrangeté والإنكليز بـ Uncanny. ولفرويد مقال هام بهذا العنوان كتبه عام ١٩١٩. «م».

٧ ـ أحرص هنا على التذكير بأنه جرت محاولات لتفسير التصورات الوسواسية بدون اعتبار للانشحان الوجداني.



الشيء المروع، منذ ذلك العهد، بتلك السمة النمطية من اللاتعيُّن التي لن يكون ثمة مناص، مذاك فصاعداً، من أن تتشح بها تظاهرات العصاب جميعها. على أنه لا يعسر علينا أن نكتشف ما كان يختبئ خلف هذا اللاتعيُّن وعدم التحديد لدى الطفل. ذلك أننا لو توصلنا إلى معرفة مثال واحد محدد مما يعبر عنه العصاب الوسواسي بعموميات مبهمة، فلنا أن نكون على ثقة من أن هذا المثال يمثل الفكرة الأولية والحقيقية التي كان هذا التعميم يرمي إلى حجبها. وعلى هذا نستطيع أن نعيد بناء معنى الهاجس الاستحواذي على النحو التالي: «إذا راودتني الرغبة في رؤية امرأة عارية، فمن المحتم عندئذ أن يموت أبي». فالانشحان الوجداني المؤلم يأخذ بصورة واضحة طابع ما هو غريب غرابة تبعث على القلق Unheimlich، وتتولد عنه منذ ذلك الحين حفزات إلى فعل شيء ما لتفادي الكارثة، حفزات هي عينها التي ستفرض نفسها من خلال التدابير الحمائية التي سترى النور لدى المريض لاحقاً.

هكذا نجدنا أمام حاثة إيروسية وبادرة تمرد عليها؛ أمام رغبة (غير استحواذية بعد) وهاجس تخوفي معارض لها (له منذ ذلك الحين طابع استحواذي)؛ أمام انشحان وجداني مؤلم ونزوع إلى إجراءات دفاعية. وتلك هي اللائحة الكاملة لعناصر العصاب. بل ثمة ما هو أكثر من ذلك: نوع من **تشكيل هذائي** ذي مضمون غريب مؤداه أن والديه يعرفان أفكاره، لأنه كان يفصح عنها كما قال بدون أن يسمع نفسه وهو ينطق بها. ولن نجانب الصواب لو افترضنا أن هذا التفسير الذي صدرت محاولته عن طفل ينطوي على إرهاص غائم بتلك السيرورات النفسية الغريبة التي نسميها لاشعورية، والتي لا يسعنا أن نستغني عنها في التعليل العلمي لواقع الأشياء الغامض هذا. «إني أنطق بأفكاري بدون أن أسمع نفسي»: هذا يبدو أشبه بإسقاط على الخارج لفرضيتنا القائلة إن لدى الإنسان أفكاراً لا يعلم عنها شيئاً، أو قل أشبه بإدراك من داخل النفس للمكبوت.

الأمر واضح: إن ذلك العصاب الطفلي الأولي كان يتضمن سلفاً معضلته ولامعقوليته الظاهرية، مثل أي عصاب معقَّد لدى الراشد. فما معنى فكرة الطفل



التي تدور حول أن أباه لا بدّ أن يموت إذا ما راودته تلك الرغبة الجنسية الشبقة؟ أهي مجرد لغو وخلف، أم أن ثمة سبيلاً إلى فهم هذه الفكرة باعتبارها نتيجة محتمة لسيرورات ومفترضات مسبقة؟

إذا طبّقنا على هذا العصاب الطفلي المعارف التي اكتسبناها من حالات أخرى، فلا مناص لنا من أن نفترض أنه وقعت للطفل في هذه الحالة أيضاً، وقبل بلوغه عامه السادس، خبرات رضّية، نزاعات وكبوتات غاصت في النساية، لكنها خلّفت وراءها، على سبيل الرسابة، مضمون الهاجس التخوفي الاستحواذي. وسوف يتبيَّن لنا فيما بعد إلى أي حدّ تتوفر لنا المقدرة على استرجاع تلك الخبرات المنسية أو على إعادة بنائها بدرجة ما من اليقين. وبودِّنا، بانتظار ذلك، أن نؤكد على أهمية الواقعة التالية التي لم تكن في أرجح الظن بنت المصادفة: وهي أن نساية مريضنا الطفلية بلغت حدَّها الأعلى في عامه السادس.

إنني أعرف عدة حالات من العصاب الوسواسي المزمن بدأت هي الأخرى، في سنّ مبكرة، بمثل تلك الرغبات الشهوانية، المصحوبة بهواجس مقلقة وبنزوع إلى تدابير دفاعية. فهذه بداية نمطية تماماً، وإن لم يكن ذلك هو النمط الوحيد الممكن. وثمة كلمة أخرى أودّ إضافتها بخصوص تجارب المريض الجنسية المبكرة، قبل أن أنتقل إلى عرض مضمون الجلسة الثانية. فليس لنا أن نماري في أنها كانت على جانب كبير من الوفرة والفعالية. وكذلك كانت الحال في سائر حالات العصاب الوسواسي التي تسنى لي أن أحللها. وهي جميعها تتسمَّ، خلافاً لواقع الحال في الهستيريا، بسمة مميزة: النشاط الجنسي المبكر. والحق أن العصاب الوسواسي يشفّ، بأوضح مما تشفّ به الهستيريا، عن أن العوامل التي تتمخض عن عصاب نفسي المنشأ لا تكمن في الحياة الجنسية الحالية للمريض، بل في حياته الجنسية الطفلية. فالحياة الجنسية الحالية للمصابين بالعصاب الوسواسي قد تبدو سوية كل السواء لعين الملاحظ السطحي، بل كثيراً ما تكون العوامل الإمراضية وضروب الشذوذ التي تكشف عنها أقل شأناً بكثير مما نجده عند مريضنا.



(ج)

الهاجس الاستحواذي الكبير

«أعتقد أنني سأبدأ اليوم بأن أروي لك الحادثة التي حملتني على المجيء لاستشارتك. كان ذلك في شهر آب/ أغسطس، في أثناء المناورات في س... كنت في حال شديدة السوء قبل هذه المناورات، وكنت أتقلب على نار ضروب شتى من الوساوس، ولكنها ما لبثت أن هدأت مع بداية المناورات. كنت أشعر بميل خاص إلى أن أثبِت للضباط المحترفين أن الضباط الاحتياطيين قادرون لا على أن يتعلموا فقط، بل كذلك على أن يبرهنوا على قوة تحملهم بدنياً. وفي ذات يوم انطلقنا بمسيرة قصيرة من س... وفي أثناء الاستراحة أضعت نظارتي؛ ومع أنه كان في مستطاعي أن أعثر عليها بسهولة، فقد آثرت ألا أتسبب في تأخير تحركنا، ومن ثم صرفت النظر عن الأمر وأبرقت إلى اختصاصيّ النظارات الذي كنت أتعامل معه في فيينا طالباً إليه أن يبعث إليّ بنظارة أخرى مع عودة البريد. وفي أثناء تلك الاستراحة جلست بين ضابطين، كان أحدهما نقيباً وذا اسم تشيكي، وسوف يصير له شأن بالنسبة إليّ. كنت أخشاه إلى حدّ ما، لأنه كان من الواضح أنه **يحب القسوة**. أنا لا أزعم أنه كان شريراً، لكنه كان قد صرح تكراراً، في أثناء تناولنا وجبات الطعام، أنه من أنصار العقوبات البدنية، مما اضطرني إلى مناقضته بقوة. والحال أنه دار بيننا، في أثناء تلك الاستراحة، حديث روى خلاله النقيب المشار إليه أنه قرأ مرة وصفاً لنوع مروِّع حقاً من التعذيب يمارسونه في الشرق...».

هنا توقف المريض ونهض وسألني أن أعفيه من وصف التفاصيل. فطمأنته إلى أنني أنا نفسي لا أستسيغ القسوة على الإطلاق، وإلى أنني بالتأكيد لا أرغب في تعذيبه، ولكنني لا أملك أن أعفيه من شيء ليس في متناولي. فلكأنه يطلب إليّ أن أهديه نجمين مذنبين[٨]. ذلك أن التغلب على المقاومات شرط للعلاج لا يحقّ لنا بحال التملص منه (كنت عرضت له مفهوم «المقاومة» في مستهل الجلسة،

٨ ـ أعفى وأهدى لهما بالألمانية لفظ واحد Schenken. «م».

حينما أخبرني بأنه لا بدّ له من أن يتغلب على أشياء كثيرة لكي يطلعني على الحادثة المشار إليها). ومضيت أقول له إني سأفعل كل ما في بوسعي لأسهِّل عليه سرده للحادثة، وإني سأبذل قصارى جهدي لأحزر ما يلمِح إليه. أكان قصده أن يتكلم عن الخوزقة؟ - كلا، ليس هذا، فالمحكوم عليه يشدّ وثاقه (كان شديد الغموض في الإبانة عن أفكاره حتى عزّ عليّ أن أخمِّن للحال الوضعية التي يشدّ بها وثاق المنكَّل به)، ويُقلب على إليتيه وعاء وضعت فيه جرذان، فلا تعتم - هنا نهض من جديد وقد بدت عليه كل علائم الرعب والمقاومة - أن **تغوص مخوزِقةً**... فاضطررت أن أقول متمِّماً: «في إسته».

كان وجهه ينمّ، كلما تطرق في حديثه إلى نقطة مهمة، عن تعبير معقد وغريب، لا يسعني أن أؤوله إلاّ على أنه **هلع من لذة مجهولة من قبله**. ومضى يقول بصعوبة بالغة: «في تلك اللحظة ومضت في ذهني فكرة هزتني هزاً عنيفاً، **فكرة أن ذلك يقع لشخص عزيز عليّ**»[٩]. وجواباً عن سؤال مباشر أجابني بأنه ليس هو في أغلب الظن منفِّذ التعذيب، وأن التعذيب كان يتمّ بطريقة لاشخصية. وسرعان ما أدركت، بعد أن خضخَته قليلاً، أن تلك الفكرة كانت تتجه إلى السيدة التي يجلّها.

توقف عن سرده ليؤكد لي كم تقع هاتان الفكرتان من نفسه موقع النفور، وكم يستشعرهما غريبتين عن شخصه، وليفيدني أن كل ما يلي يتوالى في ذهنه بسرعة خارقة. فإلى جانب الفكرة، كان هناك أيضاً «الجزاء»، أي الإجراء الدفاعي الذي لم يكن أمامه مناص من تحمُّله ليحول دون مثل ذلك التخييل أن يتحقق. فحين تكلم النقيب عن ذلك التعذيب المروع وبزغت تينك الفكرتان في ذهنه، استطاع أن ينجح أيضاً في التخلص منهما بصيغته المعتادة: «ولكن!» (مصحوبة بإشارة شجب من يده)، وبالعبارة التي يردّدها بينه وبين نفسه: «دعك، ما هذا الذي تتخيّله؟».

هذه التثنية (الفكرتان) أثارت عجبي، كما لا بد أنها استعصت على فهم

٩ - قال: «فكرة»، إذ إن التعبير الأقوى، «الرغبة» أو «الخوف»، قد احتجزته الرقابة كما هو واضح للعيان. ولا يسعني لسوء الحظ أن أقدِّم صورة دقيقة عن الإبهام وعدم التحديد المميِّزين لطريقة سرده بجملتها.



القارئ. فنحن لم نسمع حتى الآن إلاّ عن فكرة واحدة، تلك التي تتصل بالسيدة التي تعاني من التعذيب بالجرذان. وعندئذ لم يجد بداً من أن يعترف بأن فكرة أخرى ومضت في ذهنه في وقت واحد مع الأولى، فكرة أن التعذيب يطال أباه. ونظراً إلى أن أباه قد مضى زمن طويل على وفاته، وبما أن هذا الهاجس كان بالتالي أبعد عن المعقولية من الآخر، فقد حاول أن يرجئ الاعتراف به لفترة أخرى من الوقت.

في مساء اليوم التالي سلّمه النقيب المشار إليه طرداً بريدياً يُسلَّم مقابل الدفع، وقال له: «لقد سدد الملازم أ[١٠] المبلغ عنك، فعليك أن تردَّه إليه». وكان في الطرد النظارة التي أوصى عليها برقياً. وفي تلك اللحظة ومضت في ذهنه فكرة «جزاء»: **ينبغي ألا أردَّ المال وإلا فإن «ذلك» سيقع** (أي أن التعذيب بالجرذان سيصير أمراً واقعاً بالنسبة إلى أبيه وإلى السيدة). وعندئذ بزغ في ذهنه، بمقتضى ردّ فعل نمطي كان مألوفاً لديه، أمر أو ضرب من القسَم لمكافحة الجزاء: «**عليك أن تسدد للملازم أ الكورونات ٣,٨٠ ...**». **وقد تمتم بهذه الكلمات بصوت يكاد لا يكون مسموعاً.**

بعد ذلك بيومين انتهت المناورات، وقد أمضى مريضنا ذينك اليومين يجاهد ليعيد إلى الملازم ذلك المبلغ الزهيد، ولكن محاولاته هذه كانت تصطدم أكثر فأكثر بصعاب **موضوعية** في الظاهر. فقد حاول أول الأمر سداد المبلغ بوساطة ضابط كان في طريقه إلى مكتب البريد. لكن حين أعاد إليه هذا الأخير المال لدى رجوعه قائلاً إنه لم يلتقِ هناك الملازم أ، داخله سرور كبير. ذلك أن هذه الطريقة في الوفاء بقسمه ما كانت لترضيه، نظراً إلى أنها لا تتفق مع فحوى القسم: عليك أن تسدد للملازم أ المال. وأخيراً التقى مريضنا بالملازم أ، غير أن هذا الأخير رفض أخذ المبلغ، مصرحاً أنه لم يدفع عنه شيئاً وأنه لا علاقة له بالبريد وأن الملازم **ب** هو المكلف به. وقد أسقط في يد مريضنا لعدم قدرته على الوفاء بقسمه، نظراً إلى أن البند الأول كان مغلوطاً. وراح ذهنه يتفتق عندئذ عن

١٠ ـ اكاد الأسماء أن تكون هنا عديمة الأهمية(*).

(*) سمّاه فرويد في نص آخر له باسم دافيد. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



أغرب الخطط، ومنها أنه سيذهب مع الضابطين (أ) و(ب) إلى مكتب البريد، وهناك سيدفع ـ لمستخدمة البريد ـ الكورونات ٨٠,٣ كيما تسلِّمها إلى ب، وعندئذ سيسدد هو، أي مريضنا، طبقاً لفحوى القسم، الكورونات ٨٠,٣ إلى أ.

لن يدهشني أن يقف القارئ عاجزاً عن متابعة ما عرضته عليه. فالقصة المفصَّلة التي رواها لي المريض عن الأحداث السابقة لذينك اليومين وعن ردود فعله على هذه الأحداث الخارجية كانت مليئة بالتناقضات الداخلية وتبدو في غاية الالتباس. وإنما بعد أن سرد القصة للمرة الثالثة أفلحتُ في أن ألفت نظره إلى ما تنطوي عليه من نقاط مبهمة كثيرة، وفي أن أكشف له عما تحفل به من نسايات كاذبة ومن ضروب إزاحة ونقل، وسأغضّ النظر هنا عن التفاصيل ـ فنحن سنطَّلع على ما هو أساسي فيها عما قليل ـ وأودّ فقط أن أذكر أن المريض صار في نهاية تلك الجلسة الثانية في حال من الذهول والتخليط. وقد دعاني مراراً «سيدي النقيب»، وربما كان ذلك لأنني لفتُّ نظره في مستهلّ الجلسة إلى أنني لست قاسياً مثل النقيب م، وإلى أنه ليس في نيتي أن أعذِّبه في غير طائل.

في أثناء تلك الجلسة علمت، فضلاً عن ذلك، أنه منذ ابتداء وساوسه، وبصدد جميع هواجسه السابقة المتعلقة بالمصائب التي يمكن أن تقع لأشخاص أعزاء عليه، كان يتصور أن العذابات ستطالهم لا في هذه الدنيا فحسب، بل كذلك في الأبدية، في الآخرة. وكان حتى عامه الرابع عشر أو الخامس عشر مؤمناً صادقاً في تديُّنه. ومنذئذ تطور حتى صار اليوم من الملاحدة. وقد وجد حلاً لهذا التناقض[11] عن طريق الاستدلال التالي: «ماذا تعرف عن الحياة في الآخرة؟ ماذا يعرف عنها الآخرون؟ وبما أنه من المستحيل معرفة شيء عنها، وبما أنك لا تجازف بشيء، إذاً فافعل». وكان هذا الرجل، الذي هو في العادة على جانب كبير من الذكاء، يعتقد أن هذا الاستدلال لا غبار عليه، وكان يستخدم على هذا النحو لايقينية العقل البشري فيما يتصل بهذه المشكلة لصالح أفكاره الدينية الورعة التي هجرها لاحقاً.

١١ ـ أي التناقض بين إلحاده، وبالتالي إنكاره لوجود الآخرة، وبين وساوسه التي تصوِّر له أن العذاب سيطال أعزاءه في الحياة الأبدية أيضاً. «م».



أكمل المريض في أثناء الجلسة الثالثة قصته البليغة الدلالة عن محاولته الوفاء بقسمه القهري: ففي ذلك المساء انعقد اجتماع الضباط الأخير قبل نهاية المناورات. وكان عليه هو أن يردّ على النخْب الذي شربه الحضور تكريماً لأولئك «السادة الاحتياطيين». فتكلم وأحسن الكلام، ولكن كما لو أنه يتكلم في نومه، إذ كان قسمه لا يزال يعذِّبه في قرارة نفسه. وقضى ليلة رهيبة، كانت الحجج والحجج المضادة تتصارع في نفسه، وكانت الحجة الرئيسية بطبيعة الحال أن البند الأول في قسمه، وهو أن الملازم أ دفع عنه المبلّغ، لم يكن يطابق الواقع. وقد عزَّى مريضنا نفسه بالقول بينه وبين نفسه إن كل شيء لم ينتهِ بعد، وذلك ما دام الملازم أ سيرافقه في الغد على الحصان في شطر من الطريق إلى محطة **ي**[١٢]. ومن ثم سيكون أمامه متسع من الوقت ليسأله معروفاً. ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا وترك أ يتابع طريقه في اتجاه آخر. غير أنه كلّف وصيفه بأن يذهب ويخبر أ بأنه ينوي زيارته بعد ظهر ذلك اليوم. ووصل مريضنا إلى المحطة في الساعة ٩,٣٠، وأودع أمتعته فيها، ثم قام بجولة للتبضع في البلدة الصغيرة، عاقداً العزم على زيارة أ بعد ذلك. وكانت القرية التي يقيم فيها هذا الأخير تقع على مسافة زهاء ساعة بالعربة من بلدة **ي**. وكانت الرحلة بالسكة الحديدية إلى البلدة ز التي يقع فيها مكتب البريد المشار إليه تستغرق ثلاث ساعات. وهكذا تهيأ له أنه يستطيع، متى ما أنجز خطته المعقدة، أن يعود في الوقت المناسب إلى **ي** ليستقل منها القطار المسائي إلى فيينا. وكانت الأفكار التي يناقض بعضها بعضاً في ذهن مريضنا هي من جهة أولى: «ما أنا إلا جبان، فواضح للعيان أني أريد أن أتحاشى إزعاج طلب ذلك المعروف من أ، وبالتالي نظره إليّ على أني مجنون، ولهذا السبب أرغب في الوفاء بقسمي»، ومن الجهة الأخرى: «إنه لمن الجبن على العكس أن أفي بهذا القسم، لأنني لا أرغب في فعل ذلك إلاّ لأتخلص من وساوسي». وروى لي أنه في كل مرة كانت تتعادل في ميزان محاكماته كفتا حجتين متناقضتين، كان من عادته أن يسلس قياده لأحداث عارضة، وكأنما لمشيئة إلهية. ولهذا السبب ردّ بالإيجاب حين سأله حمّال في المحطة: «أمقصودك

١٢ ـ هي في الأصل P، ولكننا لم نترجمها إلى ب تحاشياً للخلط مع الملازم ب. «م».



قطار الساعة العاشرة، يا سيدي الملازم؟». وعلى هذا، فقد سافر في الساعة العاشرة، بعد أن اعتبر نفسه على هذا النحو أنه أمام أمر واقع[١٣]ما ارتاح له كثيراً. واستحصل بعد ذلك، لدى أحد مستخدمي عربة المطعم، على تذكرة للغداء على مائدة الاستضافة[١٤]. وعند أول وقفة للقطار خطر له أنه لا يزال أمامه متسع من الوقت لينزل، ولينتظر القطار القادم من الاتجاه المعاكس، وليذهب إلى ي، وليركب عربة إلى الموضع الذي ينزل فيه الملازم أ، وليرحل معه على مدى الساعات الثلاث إلى المكان الذي يوجد فيه مكتب البريد، إلخ. وما أمسكه عن ذلك كله سوى أنه كان حجز لنفسه مقعداً للغداء في عربة المطعم. غير أنه لم يغسل يده من مشروعه، بل أرجأ تنفيذه إلى وقفة القطار التالية. ثم راح يرجئه مرة بعد أخرى من محطة إلى أخرى، إلى أن وصل إلى محطة بدا له أنه من المستحيل أن ينزل فيها نظراً إلى وجود أقارب له في تلك البلدة. وعلى هذا صمم على متابعة سفره إلى فيينا ليلتقي صديقه هناك وليشرح له الموقف وليعود بقطار الليل إلى ي إن ارتأى صديقه ذلك. ولما أعربت له عن شكي في أن تكون ثمة إمكانية مادية لتنفيذ ذلك، أكّد لي أنه كانت ستتاح له ما بين وصول قطاره إلى فيينا وقيام القطار الآخر منها مدة نصف ساعة. ولما بلغ إلى فيينا لم يلتقِ صديقه في المطعم الذي كان يتوقع أن يجده فيه، ولم يصل إلى شقة هذا الأخير إلا في الساعة الحادية عشرة ليلاً، فشرح له وضعه في الليلة نفسها. وقد ذهل الصديق إذ وجد مريضي لا يزال يشكّ في أن الأمر ليس أكثر من مجرد وساوس، وطمأنه بحيث تسنى له أن يقضي ليلة هادئة، وفي صباح اليوم التالي ذهب معه لإرسال الكورونات الـ ٣,٨٠ إلى مكتب البريد الذي كان وصل إليه الطرد المحتوي على النظارة.

لقد أتاح لي هذا التفصيل الأخير أن أكشف ما في قصته من تحريفات. فما دام أرسل المبلغ، بعدما ردّه صديقه إلى رشده، لا إلى الملازم أ، ولا إلى الملازم

١٣ ـ بالفرنسية في النص: UN FAIT ACCOMPLI. «م».

١٤ ـ بالفرنسية أيضاً في النص: Table D' Hote. ومائدة الاستضافة هي تعبير دارج في المطاعم والفنادق النمساوية يشار به إلى موائد الطعام المشتركة ذات الوجبات والأسعار المحددة التي يدفع فيها كل زبون فاتورته على حدة. «م».



ب، وإنما إلى مكتب البريد بالذات، فمعنى ذلك أنه كان يعرف، بل لا بدّ أنه كان يعرف حتى قبل رحيله إلى فيينا أن الكورونات الـ ٣،٨٠ لا يدين بها لأحد آخر سوى لمستخدمة البريد. وبالفعل، اتضح أن مريضي كان يعرف ذلك قبل أن يخطره النقيب م بضرورة التسديد، وقبل القسم، لأنه يذكر الآن أنه كان اجتمع، قبل لقائه بالنقيب القاسي بعدة ساعات، بنقيب آخر تولى إطلاعه على حقيقة الوضع. فقد روى له هذا الضابط، حين سمع اسمه، أنه كان في مكتب البريد منذ بعض الوقت، وأن السيدة الشابة التي تعمل فيه سألته إن كان يعرف الملازم هـ (أي مريضنا) الذي وصل برسمه طرد يُسلَّم مقابل الدفع. وما كان النقيب يعرفه، لكن المستخدمة قالت إنها تثق بذلك الملازم المجهول، وإنها ستدفع عنه المبلغ. وعلى هذا النحو تسلّم مريضنا النظارة التي كان أوصى عليها. وقد أخطأ النقيب القاسي حين طلب إلى مريضنا لما سلّمه الطرد أن يسدِّد الكورونات الـ٣,٨٠ إلى الملازم أ. ولا بدّ أن مريضنا فطن إلى هذا الخطأ، ولكنه أقسم مع ذلك قسمه، بانياً إياه على هذا الخطأ، وهو القسم الذي صار مصدر عذاب له. وقد أخفى عن نفسه وعني، في سرده للقصة، وجود ذلك النقيب الآخر ووجود تلك المستخدمة الواثقة به في مكتب البريد. بيد أنني أقرّ بأن هذا التصحيح ما كان من شأنه إلاّ أن يجعل سلوكه أشد إمعاناً في اللامعقولية وأعصى على الفهم مما كان يبدو عليه من قبل.

بعد أن غادر المريض صديقه وآب إلى أسرته، استبدّت به شكوكه من جديد. ذلك أن حجج صديقه ما كانت تختلف عن تلك التي يردِّدها بينه وبين نفسه، وما كان له أن يقع ضحية أي وهم بهذا الخصوص. فطمأنينته المؤقتة لم يكن لها من مردّ آخر سوى التأثير الشخصي لذلك الصديق عليه. وقد كان قرار مريضنا بالذهاب لاستشارة طبيب يندرج ببراعة في إطار «هذيانه»، وذلك على النحو التالي: فقد كان في نيته أن يطلب من الطبيب شهادة فحواها أنه كان من الضروري له كيما يبرأ أن يتصرف حيال أ على النحو الذي صوّره له خياله، وكان وطيد الأول بأن أ سيقتنع بكل تأكيد بفضل هذه الشهادة فيقبل منه الكورونات الـ ٣,٨٠. والمصادفة التي أوقعت بين يديه واحداً من كتبي هي التي



وجّهت اختياره نحوي. ولكنه ما عاد عندي إلى الكلام عن تلك الشهادة. فهو لم يطلب مني إلاَّ طلباً معقولاً للغاية، وهو أن أخلِّصه من وساوسه. وبعد ذلك بعدة شهور، ولما بلغت مقاومته ذروتها، استشعر في نفسه إغراء يدعوه للذهاب إلى بلدة ي، ليلاقي الملازم أ، وليمثِّل معه مهزلة ردّ المال إليه.

(د)

مدخل إلى فهم العلاج

أرجو القارئ ألا يأمل أن يعلم حالاً ما يمكن لي أن أقوله بصدد هذا الوسواس الشديد الإمعان في اللامعقولية (وسواس التعذيب بالجرذان). فالتقنية التحليلية النفسية الصحيحة تفرض على الطبيب أن يلجم فضوله وأن يدع المريض يختار بحرية الموضوعات التي يتعاقب واحدها بعد الآخر في أثناء التحليل. وعلى هذا فقد استقبلت مريضي في الجلسة الرابعة طارحاً عليه هذا السؤال: «في أي موضوع ستواصل اليوم الكلام؟».

أجاب: «لقد عقدت العزم على إخبارك بما أعتقد أنه مهم وبما يعذبني من البدء». وطفق يروي لي جميع تفاصيل مرض أبيه الذي قضى، قبل تسعة أعوام، بانتفاخ الرئة. وقد سأل مريضي يوماً الطبيب، وهو يحسب أن الأمر عند أبيه مجرد نوبة عابرة، متى يمكن اعتبار أن كل خطر قد زال. فأجابه الطبيب: «مساء بعد الغد». وما خطر له ببال أن أباه يمكن أن يموت قبل هذا الميعاد. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف من مساء ذلك اليوم رقد لساعة من الزمن، وحينما استيقظ في الواحدة ليلاً أنبأه صديق طبيب أن أباه قد توفي. ولام مريضنا نفسه على أنه لم يحضر وفاة والده، وقد اشتدت هذه المآخذ الذاتية حين أبلغته الممرضة أن أباه تلفظ باسمه في الأيام القليلة الماضية، وقد سألها حينما دنت من سريره وهو يحتضر: «أأنت بول؟». ويعتقد مريضنا أنه لاحظ أن أمه وشقيقاته على استعداد لأن ينحين على أنفسهن بمثل ما أنحى به من لائمة على نفسه؛ ولكنهن ما تكلمن عن ذلك قط. على أن التأنيبات التي كان ينهال بها على نفسه لم



تكن في بادئ الأمر مؤلمة، لأن المريض لم يستوعب موت أبيه. وكثيراً ما كان يتفق له، إذا ما سمع نكتة جيدة، أن يقول لنفسه: «هذه سأحكيها لأبي». ثم إن مخيِّلته كانت تدرج الأب في جميع أخاييله أيضاً بحيث كان يتوقع في كثير من الأحيان، كلما دلف إلى حجرة، أن يلقاه فيها، وإذا ما سمع الباب يطرق يقول في نفسه: «هوذا أبي قد حضر». ومع أنه لم ينسَ قط أن أباه قد توفي، فإن توقعه لظهوره الشبحي لم يكن يبعث فيه أي رعب، بل كان، على العكس من ذلك، يتوق بقوة إلى هذا الظهور. وإنما بعد مرور ثمانية عشر شهراً استيقظت فيه ذكرى إهماله وتقصيره، فراحت تسيمه خسفاً وعذاباً، حتى داخله الاعتقاد بأنه مجرم. وكانت المناسبة التي أطلقت هذه التبكيتات من عقالها وفاة زوجة عم له وزيارة تعزية قام بها إلى بيتها. وابتداء من ذلك اليوم بات يشمل بشطحاته الخيالية عالم الآخرة. فكانت النتيجة المباشرة لهذه الأزمة كفاً خطيراً لقدرته على العمل(١٥).
وقد روى لي أن كلمات صديقه المعزية، هذا الصديق الذي كان يفنِّد دوماً تبكياته دامغاً إياها بالشطط والغلو، هي وحدها التي كانت تشدّ من أزره وتمكِّنه من المضيّ في الحياة. وقد انتهزت هذه السانحة لأقدم له فكرة أولية عن العلاج التحليلي النفسي. فحينما يكون هناك اختلاف بين مضمون فكرة من الأفكار وبين شحنتها الوجدانية، أي بين شدة التبكيت وبين الظرف الذي تسبَّب به، يقول غير أهل الاختصاص إن الانفعال الوجداني أقوى بكثير من سببه، وبالتالي مبالغ فيه، وإن الاستدلال الذي يستند إليه باطل، كأن يعتقد الشخص نفسه، كما في مثال مريضنا، مجرماً. أما الطبيب فيقول على العكس: كلا، إن الانفعال الوجداني مبرر، والإحساس بالذنب في محله، لكنه ينتمي إلى مضمون آخر، هو منه مجهول (**لاشعوري**)، والبحث عنه هو المطلوب. والمضمون المعروف للفكرة

---

١٥ ـ إن وصفاً أكثر تفصيلاً لهذه الواقعة أتاح لي أن أفهم على نحو أفضل تأثيرها على مريضنا. فقد هتف عمه، زوج المتوفاة، منتحباً: «غيري من الرجال يبيحون لأنفسهم متعاً شتى، أما أنا فلم أعش إلا من أجل هذه المرأة!». وقد افترض مريضنا أن عمَّه يلمِّح إلى أبيه، فانتابته الشكوك بصدد الوفاء الزوجي عند هذا الأخير. وعلى الرغم من أن عمَّه نفى نفياً قاطعاً هذا التأويل لأقواله، فقد بقي أثرها فيه مستمراً.

لم يحتل مكان المضمون المجهول إلا بفضل ترابط زائف. ولكن بما أننا لم نتعود أن نستشعر في أنفسنا انفعالات وجدانية قوية بدون مضمون فكروي، فإننا نتخذ من مضمون آخر بديلاً عنه يكون مطابقاً له بقدر أو بآخر، مثلنا في ذلك مثل الشرطة التي إذا ما عجزت عن اعتقال جانٍ ارتكب جريمة قتل توقف آخر بدلاً منه. والترابط الزائف هو وحده الذي يفسِّر عجز العملية المنطقية عن مواجهة الفكرة الاستحواذية. وأنهيت كلامي بالقول إن هذه النظرة الجديدة إلى الأمور قد تثير للوهلة الأولى ألغازاً كبرى: وبالفعل، كيف يمكن للمريض أن يسلِّم بصحة تأنيبه لذاته باعتباره مجرماً بحقّ أبيه، وهو الذي يعلم ولا بدّ أنه لم يرتكب جرماً بحقِّه؟

في الجلسة التالية أبدى اهتماماً أكبر بكل ما شرحته له، بيد أنه أباح لنفسه، على حدّ قوله، أن يكاشفني ببعض شكوكه: فكيف يمكن أن يكون لمثل ذلك التفسير، الذي يرى أن التبكيت والإحساس بالذنب لهما ما يبررهما، تأثير علاجي؟ فأجبته أن ليس التفسير بحدّ ذاته هو الذي يكون له هذا التـأثير، وإنما الاهتداء إلى المضمون المجهول الذي به يرتبط التبكيت. فقال: «أجل، على هذه النقطة تحديداً كان ينصب سؤالي». فشرحت له باقتضاب **الفوارق السيكولوجية بين الشعور واللاشعور**، والبلى والاهتراء الذي يتعرض له كل ما هو شعوري، بينما يبقى اللاشعوري غير قابل نسبياً للتغيير، ممثِّلاً له على ذلك بالقطع الأثرية الموجودة في مكتبي[١٦]. فقد جاءت هذه القطع من قبور وأضرحة، وانطمارها هو ما حفظها من البلى. وبومباي لم تتحول إلى أنقاض إلاَّ اليوم فقط، بعد نبشها وإخراجها من تحت الأطمار. فسألني المريض: «هل يمكن التنبؤ بيقين بما سيكون عليه سلوك المرء حيال الأفكار التي يتمّ اكتشافها؟ فقد يفلح المرء في التغلب على تبكيته، بينما قد لا يفلح امرؤ ثانٍ في ذلك». فقلت له: «كلا، فمن طبيعة الأشياء أن يتمّ التغلب على الانفعال الوجداني في أثناء العملية التحليلية ذاتها. فخلافاً لما يحدث بالنسبة إلى بومباي، التي تُبذل الجهود لصونها والمحافظة عليها، يتطلع

١٦ ـ كان فرويد مولعاً بالعاديات، وكان ركن بتمامه من مكتبته تشغله منحوتات وتماثيل صغيرة قديمة، بما فيها بعض التماثيل الفرعونية. «م».



المرء إلى التخلص بأي ثمن من مثل تلك الأفكار المؤلمة». فأردف يقول: «قلت في نفسي إن التبكيت لا يمكن أن يرى النور إلاَّ في حال انتهاك المرء للمبادئ الأخلاقية الأكثر اتِّساماً بالطابع الشخصي، وليس للقوانين الخارجية». فوافقته على ذلك، لافتاً نظره إلى أن من لا ينتهك سوى هذه القوانين الخارجية وحدها يعدّ نفسه في كثير من الأحيان بطلاً. قال: «إذاً فظاهرة كهذه غير ممكنة إلا إذا وجد من الأصل **انشطار في الشخصية**. وإني لأتساءل عما إذا كنت سأستعيد وحدة شخصيتي. فإن تأتَّى لي ذلك، فإني متيقِّن من أنني سأنجز أشياء باهرة كثيرة، وربما أكثر مما ينجزه غيري من الناس». فصارحته باتفاقي التام معه في تصوره عن انشطار الشخصية، مؤكداً له أنه ما عليه غير أن يدمج معاً هذين الزوجين: التعارض الجديد بين الشخصية الأخلاقية والشرّ والتعارض السابق بين اللاشعور والشعور. فالشخصية الأخلاقية هي الشعور، أما الشر فينا فهو اللاشعور[١٧]. قال عندئذ: «إني أذكر، وإن كنت أعدّ نفسي رجلاً أخلاقياً، أنني ارتكبت بكل تأكيد، **في طفولتي**، أشياء صادرة عن تلك الذات الأخرى». فقلت له إنه بقوله هذا قد كشف، في رأيي، عن الخاصية الرئيسية للاشعور، أي عن صلته **بما هو طفلي**. فاللاشعور جزء من شخصيتنا، انفصل عنها في الطفولة، ولم يتبع تطورها اللاحق، وصار من ثم **مكبوتاً**: فاللاشعوري هو الطفلي فينا. وفسائل[١٨] هذا اللاشعور المكبوت هي العناصر التي منها تتغذى الأفكار اللاإرادية التي تشكل مرضه. وقلت لمريضي إن عليه الآن أن يكتشف خاصية أخرى للاشعور فأجابني: «إنني لا أجد شيئاً آخر، لكنني أتساءل عما إذا كان بالإمكان شفاء اضطرابات مضى عليها مثل هذا الزمن المديد، وماذا يمكن على الأخص عمله في مواجهة فكرتي تلك عن الآخرة التي لا سبيل إلى دحضها بالمنطق؟». فما ماريت في خطورة حالته، ولا في خطورة تصوراته المَرَضية، غير أن شبابه نقطة في صالحه، وكذلك أيضاً استقامة شخصيته، كما قلت له.

١٧ ـ هذا كله لا يصح إلا بصورة تقريبية، ولكنه يكفي لمدخل تمهيدي.

١٨ـ الفسائل: بالفرنسية Rejetons وبالألمانية Abkommling. ومن الممكن ترجمتها أيضاً بالمشتقّات. «م».



وأضفت إلى ذلك عبارة أعربت له فيها عن حسن تقديري لشخصه، فاغتبط بذلك على نحو منظور.

استهل الجلسة التالية بإخباري عن واقعة جرت له في طفولته: فكما سبق له القول، كان يخشى منذ أن كان في السابعة من العمر أن يحزر والداه أفكاره، وقد لازمه هذا الخوف طوال حياته. وفي الثانية عشرة أحب بنتاً صغيرة، هي شقيقة رفيق له (رداً على سؤالي أجاب: «ليس حباً شهوانياً، فما كنت أرغب في أن أراها عارية، إذ كانت صغيرة جداً»). ولكنها لم تظهر له من الودّ بالقدر الذي كان يرجو. فخطرت له عندئذ هذه الفكرة: وهي أنها ستكون أكثر حباً له إن نزلت به كارثة؛ وفرضت فكرة أخرى نفسها عليه، وهي أن وفاة والده يمكن أن تكون هي تلك الكارثة. وقد دفع عنه للحال وبقوة هذه الفكرة. وهو يأبى على كل حال أن يسلِّم باحتمال أن تكون بمثابة «أمنية». فالأمر لا يعدو أن يكون، في نظره، «ترابط أفكار»[١٩]. فقلت معترضاً: «إذا لم تكن أمنية، فلماذا دفعت عنك هذه الفكرة بمثل تلك القوة؟». فأجاب: «فقط بسبب مضمون هذه الفكرة، أي احتمال أن يموت أبي». فلفتُّ نظره إلى أنه يعالج هذه المسألة كما لو كانت جريمة قدح في الذات الملكية، تلك الجريمة التي يُعاقب عليها سواء من قال: «إن الإمبراطور حمار»، وسواء من أفصح عن فكرته على نحو أكثر تمويهاً بقوله: «من يقل إن الإمبراطور كذا..، فسأريه». وأضفت بأنه من الممكن بسهولة على كل حال إدراج مضمون فكرته في سياق ينفي عنها طابعها المنفر، مثال ذلك: «إذا مات أبي، فسأنتحر على قبره». كان لكلامي هذا وقع الصدمة، بشكل ظاهر، على مريضي؛ غير أنه لم يتخلَّ عن معارضته، مما اضطرني إلى قطع النقاش بقولي إنها لم تكن المرة الأولى التي تخطر له فيها في هذه الحال فكرة موت أبيه، فلا بدّ أن تكون ذات أصل أقدم، وسيتعيَّن علينا يوماً أن نفتِّش عنه. عندئذ روى لي المريض أن فكرة مشابهة ومضت في ذهنه كالبرق مرة ثانية قبل موت أبيه بستة أشهر. وكان عهدئذ قد تدلَّه في حبِّ السيدة التي سبقت الإشارة إليها[٢٠]،

١٩ ـ ليس العصابي الوسواسي هو وحده الذي يقنع بمثل هذه التخفيفات اللفظية.

٢٠ ـ كان ذلك قبل عشر سنوات.



ولكن ما كان في مستطاعه أن يفكر بالزواج لأسباب مالية. وكانت الفكرة التي خطرت في ذهنه هي التالية: **لو مات أبي فلربما اغتنيت بما يكفي لأتزوجها.** ودفعاً عنه لهذه الفكرة ذهب إلى حدّ التمني بألا يترك له أبوه أي ميراث، بحيث لا يكون ثمة شيء يعوِّض عن مثل هذه الخسارة الفادحة بالنسبة إليه. ومرة ثالثة خطرت له مثل تلك الفكرة، ولكن في صورة مخففة جداً هذه المرة، وذلك عشية وفاة والده: «إنني على وشك أن أفقد أعزَّ من لديّ في الوجود». وللحال بزغت فكرة أخرى معترضة: «كلا، ثمة شخص آخر سيكون فقدانه أشدَّ إيلاماً بعد لي»[٢١]. ولقد أدهشه أيما إدهاش أن تراوده أفكار كهذه، لأنه متيقِّن تماماً من أن وفاة أبيه ما كان يمكن بحال من الأحوال أن تكون موضوع تمنِّيه، إذ كانت فقط موضوع خوفه.

بعد هذه الكلمات التي نطق بها باحتداد، ارتأيت أنه من المفيد أن أعرض له بعض مفاهيم نظرية جديدة. فبحسب هذه المفاهيم، فإن خوفاً كذلك يناظر رغبة قديمة، وهي الآن مكبوتة؛ ومن ثم إن احتجاجاته تلك ينبغي أن تحملنا على افتراض وجود نزعات مضادة تماماً لما يقول. وهذا يتمشى أيضاً مع واقع أن اللاشعور هو النقيض المعاكس للشعور. بدا على مريضنا انفعال شديد، ولكنه بقي على ريبة شديدة أيضاً، وأبدى دهشة من أن تكون رغبة كتلك قد ساورته، علماً بأن أباه كان أعزّ شخص عليه في الوجود. وهو لا يشكّ هنيهة في أنه كان على استعداد للتنازل عن كل سعادة في هذه الحياة لو أمكن له بذلك أن ينقذ حياة أبيه. فاعترضت عليه بالقول إن هذا الحب البالغ الشدة هو بالتحديد شرط لكبت الكره. فقد كان سهلاً عليه حيال من لا يحفل لهم من الأشخاص أن يكنّ لهم، جنباً إلى جنب، مشاعر من حب معتدل ومن كره معتدل هو الآخر. فلو كان على سبيل المثال موظفاً، لكان أمكن له أن يصف رئيسه في الوظيفة بأنه إنسان لطيف، ولكنه في الوقت نفسه خسيس كرجل قانون ولا إنساني كقاضٍ. على هذا المنوال يتكلم بروتوس عن قيصر في مسرحية شكسبير: «كان قيصر

٢١ ـ الإشارة هنا واضحة إلى التعارض بين الشخصين الأثيرين: الأب و«السيدة».

٢٢ ـ **يوليوس قيصر**، الفصل الثالث، المشهد الثاني. «م».



يحبني، وإني لأبكيه، كان محظوظاً، وإني لبذلك مغتبط، كان مقداماً، وإني لبه معجب، لكنه كان طموحاً فقتلته!»[٢٢]. إن كلمات بروتوس هذه تبدو لنا على كل حال غريبة، إذ ما كنا لنتصور حباً أعمق من حب بروتوس لقيصر. ولكن لنعد إلى مريضنا؛ فقد ذكرت له أنه لو كان بإزاء إنسان وثيق الصلة به، زوجته على سبيل المثال، لكان نزع إلى توحيد عواطفه ولكان ضرب صفحاً، شأنه في ذلك كشأن كل كائن من البشر، عن النقائص التي يمكن أن توري نار كراهيته لها، ولكان تعامى عن عيوبها. والحال أن هذا الحب البالغ القوة هو بالتحديد الذي لا يسمح للكره (المسمى كذلك كاريكاتورياً) بأن يبقى شعورياً، على الرغم من أنه لا بدّ أن يكون له مصدر ما. غير أن معرفة أصل هذا الكره تبقى معضلة، وأقوال المريض لا تشير إلا إلى الفترة التي تملَّكه الخوف فيها من أن يحدس والده بأفكاره. ومن جهة أخرى، يمكننا أيضاً أن نتساءل لماذا لم يفلح ذلك الحب العارم في إطفاء جذوة الكره، كما هي الحال في العادة متى ما تواجهت حاثتان متضادتان. لا مفرّ لنا من التسليم إذاً بأن الكره كان يرتبط بسبب يجعله غير قابل للتدمير، كما كان حبه الكبير لهذا الأب نفسه يحول، من الناحية الأخرى، دون أن تغدو تلك الكراهية شعورية. ومن ثم لم يبقَ من ملاذ لهذه الكراهية غير الإقامة في اللاشعور، ومنه كانت تومض بين الحين والآخر كعارض البرق.

وافق المريض على أن ذلك كله يبدو معقولاً إلى حدّ كبير، ولكن هذا لا يعني على الإطلاق أنه كان مقتنعاً به[٢٣]. وقد سألني كيف أمكن لفكرة كتلك أن تكون متناوبة. فقد بزغت مرة وهو في الثانية عشرة من العمر، ومرة ثانية وهو في العشرين، ومرة أخرى بعد سنتين من ذلك، ثم اختفت فما ظهرت قط بعدئذ. وما كان في وسعه أن يسلِّم بأن العدائية كانت تخمد في تلك الفواصل الزمنية،

٢٣ ـ لا نهدف البتة من مثل هذه المناقشات إلى انتزاع اقتناع المريض. بل الغرض من هذه المناقشات أن نسوق العقد المكبوتة إلى الشعور، وأن نستثير سجالاً بصددها على أرضية النشاط النفسي الشعوري، وأن نسهِّل بزوغ مادة جديدة خارج اللاشعور. أما الاقتناع فلا يكتسبه المريض إلا بعد أن يعاود بنفسه الشغل بهذه المادة. وما دام الاقتناع يتأرجح بين بين، فلا بدّ لنا من التسليم بأن المادة لم تستنفد بعد.



علماً بأنه ما كان يستشعر أثناءها بتبكيتات. قلت: «حينما يطرح المرء سؤالاً كهذا، فهذا معناه أن الجواب جاهز لديه. وحسبنا عندئذ أن نحثَّه على المضيِّ في الكلام». فمضى المريض يقول، دونما صلة في الظاهر بما تقدم قوله: «كنا أنا وأبي على خير حال من الصداقة، وفيما خلا بعض المجالات النادرة التي من عادة الأب والابن أن يفترقا فيها (إلامَ يلمِّح بذلك؟)، كانت الصلة بيننا حميمة أكثر مما هي عليه مع أعزّ صديق لي حالياً. والحال أن السيدة المتقدم ذكرها، تلك التي آثرتها بالفكر على أبي، كنت أحبها حباً جماً، ولكن لم تراودني حيالها قط تلك الرغبات الشهوانية التي كانت تستحوذ عليّ في طفولتي. وبوجه الإجمال، كانت ميولي الشهوانية في الطفولة أقوى بكثير منها في طور البلوغ». هنا نبَّهته إلى أنه قدَّم الآن الجواب المنتظر، وإلى أنه عثر في الوقت نفسه على الخاصية المهمة الثالثة للاشعور. فالمصدر الذي كان يغذي كراهيته لأبيه والذي جعلها غير قابلة للتغيير كان، كما هو واضح، من قبيل **الرغبات الشهوانية**، ولا بدّ أن يكون استشعر أن أباه **عائق** أمام إشباع هذه الرغبات. ومثل هذا النزاع بين الشهوانية والحب البنوي نمطي تماماً. وفترات الخمود التي أشار إليها حدثت لديه لأن شهوانيته طرأ عليها، من جراء تفتُّحها المبكر، وهن بعيد المدى. وإنما يوم بزغت لديه من جديد ميول حبِّية شديدة عاودت تلك العدائية ظهورها بحكم تشابه الموقف. ولقد حملته على أن يقرّ بأني لست أنا من وجَّهه إلى طريق الطفولة أو إلى طريق الجنسية، إذ إنه طرقهما من تلقاء نفسه. ومضى المريض يسائلني: «لماذا لم يقرر بينه وبين نفسه بكل بساطة، في تلك الفترة التي تدلَّه فيها في حب السيدة، أن تلك العقبة التي يمثِّلها أبوه في سبيل حبه هذا لا يمكن بحال أن تُوازن مع حبه له؟». فأجبت أنه يكاد يكون من المستحيل قتل إنسان **في غيابه**[٢٤]. وما كان له أن يتخذ قراراً كهذا الذي يتكلم عنه إلاَّ إذا كانت رغبته المستهجنة في التخلص من أبيه العائق له قد ظهرت لديه لأول مرة يومئذ. والحال أنها كانت رغبة **كبتت منذ عهد بعيد**، رغبة ما استطاع أن يواجهها إلا كما واجهها في طفولته، ومن ثم بقيت في مأمن من التدمير. هذه الرغبة (في

٢٤ ـ باللاتينية في النص: In Absentia. «م».



التخلص من الأب العائق له) لا بدّ أن تكون رأت النور في زمن كان الموقف فيه مختلفاً: فإما أنه كان لا يحب أباه عهدئذ أكثر من الشخص المشتهى من قبله حسياً، وإما أنه لم يكن قادراً بعد على اتخاذ قرار قاطع، أي في طفولته الأولى، قبل أن يبلغ السادسة من العمر وقبل ذلك الزمن الذي صارت فيه ذكرياته تؤلف منظومة متصلة. ومنذئذ لا بدّ أن تكون الحال قد بقيت على ما هي عليه. ـ وعند هذا الحدّ قفلت بصورة مؤقتة باب المناقشة.

في الجلسة التالية، وهي السابعة، عاد المريض يطرق الموضوع نفسه. فهو لا يستطيع أن يصدِّق أنه تمنى شيئاً من ذلك القبيل لأبيه. وإنه ليذكر قصة لسودرمان Sudermann[٢٥] تركت فيه انطباعاً عميقاً وكانت تحكي عن فتاة تمنت الموت لشقيقتها المريضة كيما تتمكن من الاقتران من زوج هذه الأخت[٢٦]. وقد انتحرت فيما بعد لأنها ما كانت تستحق أن تحيا بعد مثل تلك الخساسة. وقال إنه يفهم ذلك تماماً، وإنه يعتقد أنه من العدل أن تقوده أفكاره إلى حتفه، فهو لا يستأهل مصيراً أفضل[٢٧]. فلفتُّ نظره إلى أن من الوقائع المعروفة لدينا جيداً أن العذابات توفِّر للمرضى نوعاً من الترضية، ومن ثم نراهم جميعاً يحاربون جزئياً شفاءهم. وحثثته على ألا يغيب عن باله أن معالجة كالتي نحن بصددها تقترن على الدوام **بمقاومات**، وهذا ما لن أتوقف عن تذكيره به.

طفق المريض عندئذ يكلمني عن فعل إجرامي، فعل ما تعرَّف نفسه فيه، ولكنه يذكر عن علم أكيد أنه ارتكبه. واستشهد بقولة لنيتشه: «**فعلت ذلك**»، **قالت ذاكرتي. «لا يمكن أن أكون فعلت ذلك»، قالت عزة نفسي التي لا تلين لها**

---

٢٥ ـ هرمان سودرمان: كاتب ألماني (١٨٥٧ ـ ١٩٢٨). له مسرحيات وروايات ذات نزعة طبيعية. «م».

٢٦ ـ الإحالة هنا إلى قصته **أمنية** التي تقول فيها بطلتها عن أختها: «أما أن أمنيتي لم تكن من القوة بحيث تتسبب في موتها، فذلك أمر واضح بالنسبة إليّ. ومع ذلك فإن تلك الأمنية هي وحدها في نظري ونظر ضميري التي قتلتها». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٢٧ ـ يتناقض هذا الإحساس بالذنب تناقضاً صارخاً مع إنكاره السابق لواقع أن يكون تمنى الموت لأبيه. وهذا نمط شائع من ردود الفعل على المكبوت متى ما تمّ تعرُّفه. فالإنكار يعقبه للحال إثبات، وإن يكن في البداية غير مباشر.

٢٨ ـ **فيما وراء الخير والشر**، ف٤، الفقرة ٦٨.



قناة. **«وفي نهاية المطاف... سلَّمت ذاكرتي بالهزيمة»**[٢٨].«والحال أن ذاكرتي لم تسلم بالهزيمة بصدد هذه النقطة». قلت: «ذلك على وجه التحديد لأنك تستمد من تكبيتاتك، على سبيل معاقبة الذات، نوعاً من اللذة». فاستطرد يقول: «كثيراً ما دار بيني وبين أخي الأصغر مني عراك ونحن أطفال (أنا الآن أحبه كثيراً على كل حال، ولكني أتحمل في سبيله هموماً كبيرة، فهو يريد أن يعقد زواجاً هو في رأيي حماقة؛ بل كنت انتويت أن أذهب لأراه ولأقتل تلك المرأة حتى لا يتمكن من الاقتران منها). لكن فيما عدا ذلك كنا نحب بعضنا بعضاً كثيراً، وما كان واحدنا يفترق عن الآخر. على أنني كنت أغار منه غيرة واضحة، لأنه كان أقوى مني وأجمل مني، وبالتالي أحظى مني بالإيثار». قلت: «لقد سبق لك بالفعل أن حكيت لي عن مشهد غيرة يتصل بالآنسة لينا». قال: «بعد حادثة من هذا القبيل (كنت بالتأكيد دون الثامنة من العمر، لأنني ما كنت أذهب بعد إلى المدرسة التي ما دخلتها إلا في سنتي الثامنة) فعلت ما يلي: كان لدينا بندقيتان من بنادق الأطفال، من النوع العادي. فحشوت بندقيتي بسيخها وطلبت إليه أن ينظر في ماسورتها ليرى إن كان فيها شيء، فلما راح ينظر فيها ضغطت على الزناد. جاءت الإصابة في جبهته، ولكنه لم يتأذَّ، لكن كان في نيتي أن أؤذيه أذى شديداً. ثم وجدتني بعد ذلك وقد خرجت عن طوري، فارتميت أرضاً، ورحت أتساءل كيف أمكن لي أن أفعل شيئاً كذاك. لكني فعلته». انتهزت السانحة لأحامي عن رأيي: «ما دمت قد احتفظت بذكرى فعل غريب عنك إلى هذا الحدّ، فلستَ مستطيعاً أن تنفي احتمال حدوث شيء مشابه، في زمن أبكر، حيال أبيك، بدون أن تكون احتفظت بذكراه». فقال لي عندئذ إنه يذكر أنه راودته حفزات انتقامية أيضاً حيال السيدة التي يكنّ لها مع ذلك حباً يصل إلى حدود العبادة والتي رسم لشخصيتها صورة تنطق بحماسته لها. قال: «لعلها لا تحب في سهولة، لكنها تحتفظ بتمام حبها لمن ستكون له يوماً. إنها لا تحبني، أنا. والحال أنني ما إن أدركت ذلك حتى طفقت أتخيَّل أنني سأصيب يوماً ثراء عظيماً، وسأتزوج من امرأة أخرى، وسأزوها بصحبة زوجتي لأجرح مشاعرها. ولما وصلت إلى هذه النقطة، نضب معين خيالي، لأنني لم أجد بداً من الاعتراف



بيني وبين نفسي بأن المرأة الأخرى، زوجتي، لا تعني لي شيئاً على الإطلاق. وعندئذ اختلطت أفكاري، وأدركت في النهاية أن زوجتي لا بدّ أن تموت، وهكذا تبيَّنت مرة أخرى في تخييلي، كما في محاولة الاعتداء على أخي، تلك السمة التي تثير تقززي إلى أقصى حدّ، أعني **الجبن**»[٢٩]. ولفتّ نظره، في تتمة المحادثة، إلى أنه يتحتّم عليه ألا يعدّ نفسه مسؤولاً عن هذه السمات في طبعه؛ فجميع هذه الحفزات المستهجنة هي من أصل طفلي، ومناظِرة لفسائل باقية في لاشعوره من شخصيته الطفلية. والطفل لا يمكن أن يُحمَّل، كما يعلم ولا بدّ، مسؤولية أخلاقية. والإنسان المسؤول أخلاقياً لا يتكون بدءاً من جملة استعداداته الطفلية إلا عبر سيرورة نموّ وتطور[٣٠]. لكن مريضي ظل يشكّ في أن يكون هذا هو أصل جميع حفزاته الشريرة، فوعدته بإثبات ذلك في مجرى العلاج.

قال المريض بعد ذلك إن مرضه تفاقم تفاقماً خطيراً بعد وفاة والده. فأكدت له أنه محقٌّ في ما يقول، بمعنى أنني أسلِّم بأن حزنه على موت أبيه هو المصدر الرئيسي لشدة مرضه. فقد وجد هذا الحزن في المرض تعبيره الباتولوجي، إن جاز القول. وعلى حين أن الحزن الذي يعقب وفاة إنسان عزيز يستكمل مساره في العادة في سنة أو سنتين، فإن الحداد الباتولوجي كحداده هو يدوم إلى غير ما نهاية.

هنا ينتهي ذلك الجزء من تاريخ المرض القابل لأن يُعرَض بالتفصيل وبمنطق متتابع. ويطابق هذا العرض إجمالاً مسار العلاج بكلِّيته، هذا العلاج الذي امتد أحد عشر شهراً ونيفاً.

(هـ)

بعض التصورات الوسواسية وتفسيرها

إن التصورات الوسواسية تبدو، كما هو معروف، إما عديمة الحافز، وإما

٢٩ ـ ستتوضح هذه النقطة فيما بعد.

٣٠ ـ لم أورد هذه الحجج إلا لأثبت لنفسي مرة أخرى عدم نجعها. ولست مستطيعاً أن أتصور كيف يؤكد معالجون نفسيون آخرون أنهم يتصدون بنجاح للأعصبة بمثل هذه الأسلحة.



لامعقولة، مثلها مثل فحوى أحلامنا الليلية. والمهمة الأولى التي تلقي بها على عاتقنا هي أن نوجد لها معنى ومكاناً في نفسية الفرد، كيما نجعلها قابلة للفهم، بل معقولة. وحسناً نفعل إذا لم ندع، في محاولتنا ترجمة هذه التصورات، استغلاقها الظاهري على الفهم يشوِّش علينا مهمتنا: فأكثر التصورات الوسواسية إمعاناً في الإغراب واللامعقولية تبقى قابلة للحلّ والتفسير إذا تعمَّقنا فيها كما ينبغي. وإننا لنهتدي إلى الحل المنشود متى ما وضعنا التصور الوسواسي على محك خبرات حياة المريض، أي إذا تقصينا متى كان ظهوره الأول، وفي أي ظروف وشروط يعاود ظهوره في العادة. وعلى هذا، من الأيسر نسبياً الاهتداء إلى الحل متى ما كان المطلوب العثور على معنى تصورات وسواسية لم يقيَّض لها، كما هي الحال في الغالب، أن تظفر بوجود دائم. وإذا ما اتضحت لنا العلاقة بين هذه التصورات وبين خبرات المريض الحياتية، أمكن لنا في سهولة أن نقتنع بأن جميع المعضلات الملغزة والمثيرة للاهتمام المرتبطة بهذا التكوين المرَضي تغدو ميسوراً فهمها: دلالة التصور الوسواسي، آلية تكوينه، وقوى الدوافع الغريزية النفسية المناظرة له والتي عنها كان صدوره.

أبدأ بمثال بالغ الشفافية: **الدافع القهري إلى الانتحار**، وهو كثير التواتر لدى مريضنا ويكاد تحليله أن يتمّ من تلقاء نفسه. فغياب صديقته، التي سافرت لتعتني بجدتها بعد أن اشتدّ عليها المرض، أضاع عليه ثلاثة أسابيع من الدراسة. قال لي: «خطرت لي، وأنا غارق في المذاكرة على نص عويص للغاية، الفكرة التالية: قد يكون معقولاً أن تتلقى أمراً بأداء امتحانك في أقرب دورة. لكن ماذا أنت فاعل لو صدر إليك من ذات نفسك أمر بأن تقطع عنقك بالموسى؟ وفطنت حالاً إلى أن هذا الأمر قد صدر إليَّ فعلاً، فهرعت إلى الخزانة لأتناول الموسى، لكن ما عتمت أن دارت لي هذه الفكرة: كلا، ليس الأمر بهذه البساطة، بل ينبغي عليك[٣١] أن تذهب وتقتل المرأة العجوز. ومن رعبي سقطت أرضاً».

إن العلاقة التي تربط هذه الفكرة الوسواسية بخبرات المريض الحياتية كامنة في

٣١ ـ أضيف من عندي: أولاً.



بداية القصة التي سردها. فقد كانت سيدة قلبه غائبة، فيما كان هو منكباً بجماع نفسه على تحضير امتحاناته كيما يقرِّب ما أمكنٍ موعد قرانهما. واستبدّ به، وهو غارق في المذاكرة، الحنين إلى الغائبة، وطفق يفكر بأسباب هذا الغياب. وعندئذ حدث في نفسه ما كان يمكن أن يكون لدى شخص سويّ محض بادرة حنق على جدة السيدة، وكان من الممكن في هذه الحال أن تجد بادرة الحنق هذه ترجمتها كما يلي: «لماذا تحتَّم أن تمرض العجوز على وجه التحديد في الوقت الذي اشتدّ فيه توقي إلى رؤية صديقتي؟». وينبغي أن نفترض أن شيئاً من هذا القبيل، ولكنه أكثر شدة بكثير، قد حدث لدى مريضنا؛ فقد اجتاحته سورة حنق لاشعورية كان يمكن ترجمتها، مع ما اقترن بها من حنين وشوق، إلى عبارة كهذه: «أواه! بودِّي لو أذهب وأقتل تلك العجوز التي حرمتني من صديقتي». وكان سيلي هذه العبارة أمر يأمره: «اقتل نفسك عقاباً لك على مثل هذه الرغبات الهمجية». وهذه السيرورة هي التي تبدت برمتها في شعور مريضنا الموسوس، مقرونة بأعنف الانفعالات الوجدانية، وإنما **بترتيب معكوس**: الأمر بالمعاقبة أولاً، ثم يأتي في النهاية ذكر الرغبة الآثمة. ولا أعتقد أن محاولة التفسير هذه يمكن أن تبدو متعسفة، أو أنها تنطوي على قدر كبير من عناصر افتراضية مشكوك فيها.

ومن حفزاته القهرية الأخرى حفزة لم يكن تفسيرها ميسوراً بالقدر نفسه، نظراً إلى أن روابطها بحياة المريض الوجدانية أفلحت في الاستتار وراء تداعٍ من التداعيات السطحية، وهو أمر ينفر منه أشد النفور فكرنا الشعوري. كانت حفزة قهرية إلى انتحار لامباشر، إن جاز القول، وقد دامت فترة من الزمن. فذات يوم، وفي أثناء إجازة اصطيافية له، خطرت له فكرة مؤداها أنه بدين[٣٢] أكثر مما ينبغي وأنه يتحتّم عليه أن ينحف. فطفق منذئذ ينهض عن المائدة قبل التحلية، ويندفع في الطريق في قيظ شهر آب/ أغسطس بلا قبعة، ويتسلق الجبال جرياً ليتوقف من ثم وقد بلَّله العرق. وبزغت فكرة الانتحار ذات مرة بلا تنكّر خلف هوس النحافة هذا؛ ففيما كان يقف ذات يوم على جرف شديد الانحدار تلقى من داخل نفسه

٣٢ ـ بدين بالألمانية: Dick. ومعرفة ذلك ضرورية لفهم التداعي الكامن وراء الحفزة القهرية الانتحارية كما سيتبيَّن لنا من النص. «م».



أمراً بأن يقفز إلى أسفل، مما كان سيكون فيه موته المحقق. ولم يهتدِ المريض إلى فكّ لغز هذا الحافز القهري البعيد عن العقل إلا حين خطر بباله ذات يوم أن صديقته كانت تنزل في ذلك الوقت في المصيف نفسه، وإنما بصحبة ابن عم إنكليزي لها كان يغازلها وكان مريضنا يغار منه غيرة شديدة. كان ابن العم هذا يدعى ريشارد، وكان الجميع يلقبونه باسم ديك Dick، بحسب العادة الدارجة في إنكلترا. وإنما «ديك» هذا هو من كان يريد أن يقتل. وفي الواقع كان حنقه وغيرته أشدَّ بكثير مما كان يقرّ به بينه وبين نفسه، ولهذا فرض على نفسه، عقاباً لذاته، كل عذاب التنحيف وإنقاص الوزن. ومهما بدت هذه الحفزة القهرية مختلفة عن سابقتها، أي الأمر المباشر بالانتحار، فإن سمة مهمة تجمع بينهما: نشوؤهما كليهما كاستجابة لحنق بالغ العنف لا يقع في متناول الشعور، وينصب على الشخص الذي يعكّر صفو الحب(٣٣).

بيد أن وساوس أخرى تكشف لنا، وإن تكن هي الأخرى ذات صلة بصديقة المريض، عن آليات مختلفة وأصل غريزي مختلف. ففي أثناء إقامة تلك السيدة في الريف اختلق لنفسه، علاوة على هوس النحافة، سلسلة بكاملها من حفزات قهرية تتصل بها، ولو بصفة جزئية، اتصالاً مباشراً. ففيما كان ذات يوم يتنزه معها في القارب، هبت ريح قوية، فاضطر إلى أن يرغمها على لبس برنسه، لأنه كان تشكل في ذهنه الأمر التالي: **لا ينبغي أن يقع لها شيء**(٣٤). كان ذلك من قبيل **الحفزة القهرية إلى الحماية**، وكان من أمثلته الأخرى أنه فيما كان يوماً بصحبتها في أثناء عاصفة رعدية، تفتّق ذهنه عن حفزة قهرية إلى أن يعدّ إلى

٣٣ ـ إن استخدام الأسماء والكلمات لابتداع روابط بين الخواطر اللاشعورية (من حفزات وتخييلات) من جهة أولى، وبين الأعراض من الجهة الثانية، يكون في العصاب الوسواسي أقلَّ تواتراً وأقلَّ غلظة مما في الهستيريا. ومع ذلك، وفيما يتصل باسم ريتشارد، أذكر هنا مثالاً آخر من حالة تولَّيت تحليلها منذ زمن. فالمريض الأخير راح يضرب أخماساً بأسداس على منوال الموسوسين ـ بعد مشاحنة وقعت بينه وبين أخيه ـ ليهتدي إلى وسيلة يتخلص بها من ثروته، معلناً أنه ما عاد يرغب في أن تكون له أية صلة بالمال، إلخ. والحال أن أخاه كان يدعى ريشار (ريشار RICHARD بالفرنسية تعني: عظيم الثراء. «م»).

٣٤ ـ مما يمكن أن يقع اللوم فيه عليه: هذا ما ينبغي أن نضيفه.



أربعين أو إلى خمسين بين البرقة والرعدة بدون أن يدري لذلك سبباً. وفي يوم رحيل سيدة قلبه، ارتطمت قدم مريضنا بحجر في الطريق. فلم يجد بداً من أن يرفعه من الطريق، إذ فكّر بأن عربة صديقته ستمرّ عما قليل بهذا الموضع، وقد يقع لها حادث من جراء هذا الحجر. لكنه ما عتم بعد بضع لحظات أن قال لنفسه إن ذلك سخف، ولم يجد بداً من أن يرجع على عقبيه ليعيد الحجر إلى مكانه في وسط الطريق. وبعد رحيل سيدة قلبه، تسلط عليه **حافز قهري إلى الفهم**، إلى حدٍّ صار لا يطيقه حتى ذووه. فقد راح يبذل قصاراه ليفهم بدقة معنى كل مقطع مما يقال له، وكأنما كنز ثمين سيضيع عليه إن فاته هذا المعنى. وكان يسأل باطراد: «ما هذا الذي نطقتَ به؟». وحين كانت العبارة عينها تُردَّد على مسامعه، كان يدعي أنه سمع في المرة الأولى شيئاً مختلفاً، ويقيم على غير رضى.

كانت جميع تظاهرات مرضه هذه ترتبط بحادث معين كان يتحكم عهدئذ بعلاقته بالسيدة الحبيبة. وقد وقع هذا الحادث في فيينا، قبل سفره إلى الريف، فيما كان يستأذنها بالرحيل. فلقد فسّر عبارة تلفّظت بها على أنها محاولة للتبرؤ منه أمام الحاضرين من الأصحاب، فتألم لذلك أشد الألم. ثم سنحت لهما الفرصة بعد ذلك في الريف ليتفاهما حول هذه المسألة، فاستطاعت أن تثبت له أن تلك العبارة، التي أساء هو تأويلها إلى أبعد حدّ، إنما كانت ترمي إلى حمايته من أن يصير موضع سخرية. وشعر بعد هذه المكاشفة أنه في غاية السعادة من جديد. وأوضح إشارة إلى هذا الحادث متضمَّنة في حافزه القهري إلى الفهم، ذلك الحافز الذي انبنى وكأنما قال في نفسه: «إذا كنت تريد، بعد هذه التجربة، أن تتفادى عذاباً لا داعي له، فعليك من الآن فصاعداً ألا تسيء أبداً فهم معنى الكلمات التي تطرق مسمعك». غير أن قراره هذا كان ينطوي، علاوة على تعميم للحادث المشار إليه، على عملية إزاحة ونقل، ربما بسبب غياب السيدة المعبودة، من شخص هذه المرأة التي تنزل من نفسه أعلى منزلة إلى جميع الأشخاص الأدنى منها. ومن جهة أخرى، ما كان لهذا الوسواس أن ينشأ فقط عن الرضى الذي استشعره بعدما شرحت له



السيدة واقع الأمر. فلا بدّ أنه يعبِّر عن شيء آخر بعد، لأنه كان ينتهي دوماً بوقوع مريضنا في شك مكرب بخصوص صحة ما يُكرَّر على مسامعه.

إن الحفزات القهرية الأخرى التي ابتعثها في مريضنا رحيل صديقته هي التي تضعنا على الطريق إلى ذلك العنصر المنشود الآخر. **فالحفزة القهرية إلى حماية صديقته** لا يمكن أن تعني شيئاً آخر سوى استجابة ـ ندم، تكفير ـ لحاثة معاكسة، وبالتالي عدائية، كانت موجهة ضدها قبل إيضاحها له حقيقة الأمر. **والحفزة القهرية إلى العدّ** في أثناء العاصفة يمكن تأويلها، بالاستعانة بالمادة التي أمدَّنا بها المريض، على أنها إجراء دفاعي ضد هواجس خطر الموت. ونحن نعلم من تحليل الوساوس التي تناولناها في أول الأمر أن النوازع العدائية عند مريضنا عنيفة للغاية، وأشبه بسورات حنق جنونية؛ ونحن نجد من جهة أخرى أن هذا الحنق استمر يسهم في تكوين وساوسه حتى بعد تصالحه مع السيدة. أما حفزته القهرية إلى الشك في ما يسمعه فتعبِّر عن شكه المتواصل في أن يكون أحسن فهم صديقته حين شرحت له حقيقة الأمر. ومن ثم فهو يشكّ في أن يكوُن بالإمكان اعتبار كلماتها دليلاً على حبِّها له. والشك، في حافزه القهري إلى الفهم، يعني أنه يشكّ في حب صديقته. فلدى هذا العاشق يحتدم الصراع بين الحب والكره اللذين يساورانه إزاء الشخص عينه، ويفصح هذا الصراع عن نفسه في صورة تشخيصية من خلال فعل قهري بليغ الدلالة في رمزيته: فهو يرفع الحجر من طريق صديقته، ثم يمحو علامة الحب هذه بإعادته الحجر إلى مكانه كيما ترتطم به العربة وتتأذى صديقته. وسنجانب الصواب فيما لو حسبنا أن الجزء الثاني من هذا الفعل القهري عند مريضنا قد أوحى به إليه حسّه النقدي في صراعه ضد أفعاله المَرَضية؛ وهذه هي أصلاً الدلالة التي يودّ المريض أن يعطيه إياها. والحق أن هذا الجزء من الفعل يشفّ، بالنظر إلى أن المريض أدّاه قهرياً، عن انتمائه هو الآخر إلى النشاط المَرَضي وإن كان متحدداً بدافع مناقض لذاك الذي كان وراء الجزء الأول من الفعل القهري.

إن أفعالاً قهرية كهذه، تؤدى على مرحلتين وتكون فيها المرحلة الثانية بمثابة نفي للأولى، هي من الظاهرات المميِّزة للعصاب الوسواسي. ومن نافل القول أن



الفكر الشعوري للمريض يخطئ في فهم معنى هذه الحفزات القهرية ويعزو إليها دوافع ثانوية، أي يعمد إلى عقلنتها(٣٥). أما دلالتها الحقيقية فتكمن في كونها تعبِّر عن الصراع بين نزعتين متعاكستين ومتساويتين في الشدة تقريباً؛ وهذا التعارض هو على الدوام، بحسب خبرتي، تعارض الحب والكره. إن هذه الأفعال القهرية ذات المرحلتين تتسم بأهمية نظرية خاصة، لأنها تتيح لنا أن نتعرف إلى نمط جديد في تشكيل الأعراض. فبدلاً من الوصول، كما الحال في الهستيريا اطراداً، إلى تسوية يمكن معها للضدين كليهما أن يعبِّرا عن نفسيهما (إصابة عصفورين بحجر واحد كما يقال)(٣٦)، يتاح للنزعتين المتعاكستين هنا أن تترجما عن نفسيهما الواحدة تلو الأخرى منفردة، بدون أن يعني ذلك بطبيعة الحال الامتناع عن كل محاولة لإقامة رابطة منطقية بين الاثنتين، رابطة تكون مجافية في كثير من الأحيان لكل منطق(٣٧).

إن الصراع بين الحب والكره قد تجلى لدى مريضنا في علائم أخرى أيضاً. فيوم عاوده ورعه ابتدع صلوات راحت تطول شيئاً فشيئاً حتى صارت تستغرق

٣٥ ـ انظر جونز(*): **العقلنة في الحياة اليومية، في مجلة علم النفس اللاسويّ**، ١٩٠٨.

(*) إرنست جونز: طبيب نفسي بريطاني (١٨٧٩ ـ ١٩٥٨). أدخل التحليل النفسي إلى بريطانيا. كتب سيرة حياة فرويد في ثلاثة مجلدات. من مؤلفاته: **هملت وأوديب**. «م».

٣٦ ـ انظر فرويد: **التخييلات الهستيرية وعلاقاتها بالجنسية الثنائية**، الأعمال الكاملة، م٧.

٣٧ ـ روى لي مرة مصاب آخر بالعصاب الوسواسي أنه فيما كان يتنزه في حديقة شونبرون (حيّ أرستوقراطي في فيينا يقع فيه قصر آل هابسبورغ. «م») ارتطمت قدمه بغصن شجرة فرمى به بين الشجيرات التي تحفّ بالطريق. وفي طريق أوبته انتابته مخاوف من أن يتسبَّب الغصن في وضعه الجديد بحادث لمتنزه آخر قد يمرّ بالطريق نفسه. فقفز من الحافلة الكهربائية التي كانت آيبة به، وهرع إلى الحديقة، وبحث عن ذلك الموضع، وأعاد الغصن إلى موضعه الأول. وهذا مع أن أي شخص آخر غير المريض كان سيفطن بكل تأكيد إلى أن الغصن أشدّ خطورة في موضعه الأول على الأرض منه بين الشجيرات. والفعل الثاني، أي الفعل الذي جعله يضع الغصن من جديد في وسط الطريق والذي نفَّذه بصورة قهرية، قد تجمَّل، في مواجهة فكره الشعوري، بدوافع غيرية تنتمي إلى الفعل الأول، أي الفعل الذي حمله على إلقاء الغصن بين الشجيرات.

٣٨ ـ بلعام بن بعور: نبي من بلاد ما بين النهرين أرسله بالاق بن صفور، ملك المؤابيين، كما تذكر التوراة، ليلعن العبرانيين، ففعل العكس وباركهم قائلاً: «كيف ألعن من لم يلعنه الله، وكيف أشتم من لم يشتمه الرب؟». «م».



ساعة ونصف ساعة، إذ كانت تندس بين عباراته الورعة، على العكس من بلعام[٣٨]، خواطر تقلبها إلى نقيضها. فقد كان يضرع مثلاً، قائلاً: «يحفظها الله»، فإذا بالشرير يحمله على استباق دعائه بكلمة «لا»[٣٩]. وقد خطر له يوماً أن يتلو مسبات ولعنات، على أمل أن يندسّ بينها هذه المرة أيضاً ما ينقضها. وبذلك تكون نيته الأصلية، التي كبتتها الصلاة، قد خرجت إلى العلن. وقد بلغ الضيق بمريضنا أنه هجر الصلوات واستبدلها بصيغ مقتضبة مؤلفة من حروف ومقاطع هي التي كان يستهلّ بها شتى صلواته. وكان ينطق بهذه الصيغ بمنتهى السرعة كيلا يمكن لشيء أن يندسّ بينها.

روى لي المريض يوماً حلماً يمثِّل الصراع نفسه بعد تحويله إلى الطبيب: فقد رأى في منامه أن أمي ماتت، فأراد أن يأتي ليقدِّم لي تعازيه، لكنه خشي أن تنتابه، في هذه المناسبة، سورة من الضحك الوقح، على نحو ما حدث معه تكراراً في مناسبات مماثلة. ومن ثم آثر أن يترك لي بطاقته وقد كتب عليها حرفي التعزية: **ت.ع**، لكن هذين الحرفين انقلبا، فيما كان يخطّهما، إلى حرفي تهنئة: **ت. هـ**[٤٠](*).

كانت الطبيعة المتناقضة لمشاعره إزاء تلك السيدة أوضح من أن تفلت بتمامها من الإدراك الشعوري. بيد أننا نستطيع أن نستنتج من الطابع القهري لهذه المشاعر أنه كان من المستحيل على مريضنا أن يتبيَّن مدى شدة حاثاته السلبية ضدها. فقد كانت تلك السيدة ردَّت أول طلب للزواج تقدَّم به منها مريضنا قبل عشر سنوات. ومنذئذ تناوبت فترات كان يعتقد أثناءها أنه يحبها حباً مضطرماً، وفترات كان يفقد فيها، حتى في شعوره، اكتراثه بها. وكان كلما توجَّب عليه في أثناء العلاج أن يخطو خطوة تقرّبه من هدف رغباته، تظاهرت لديه المقاومة أولاً في صورة شعور بأنه لا يحبها ذلك الحب الجم في الواقع، وإن كان هذا

٣٩ ـ قارن مع الآلية المشابهة للخواطر التدنيسية اللاإرادية لدى بعض المؤمنين.

٤٠ ـ يفسّر لنا هذا الحلم تلك الضحكة القهرية، الكثيرة التواتر والشديدة الإلغاز في الظاهر، التي تنتاب بعض الأشخاص في المآتم.

(*) «ت.ع» و«ت.هـ»: اختصار لكلمتي «مع تعازيّ»، «مع تهانيّ». «م».



الشعور لا يعتم أن يتلاشى سريعاً. وفيما كان يقف ذات يوم قرب فراشها، وقد طرحتها فيه شدة المرض، خطرت له، وهو أشدّ ما يكون انشغالَ بالٍ عليها، هذه الفكرة: لو أنها تبقى راقدة هكذا أبداً! وقد أوَّل هذه الأمنية ببراعة بقوله إنه رغب في أن تبقى مريضة أبداً، لا لشيء إلا لكي يتخلص من قلقه الذي لا يطاق من احتمال إصابتها بانتكاسة[٤١]! وكان في بعض الأحيان يشغل مخيِّلته بأحلام يقظة أقرَّ هو نفسه بأنها كانت عبارة عن «تخييلات ثأرية» أورثته خجلاً. فقد استغرق مرة، وقد حسب أنها تعلِّق أهمية كبيرة على المركز الاجتماعي لأحد خطاب يدها، في الحلم التالي من أحلام اليقظة: لقد تزوجتْ من موظف عالي المقام، ودخل هو نفسه إلى السلك الوظيفي عينه وتقدم فيه بخطى أسرع بكثير، بحيث أن ذلك الموظف صار مرؤوسه. وذات يوم ارتكب هذا الرجل فعلة من فعال عدم الأمانة، فارتمت زوجته عند قدمي مريضنا وتضرعت إليه أن ينقذ زوجها، فوعدها بذلك، لكنه كاشفها بأنه ما دخل الوظيفة إلا حباً بها وتوقعاً منه لاحتمال من هذا القبيل. أما وقد أنقذ زوجها، الآن، فقد أتمّ رسالته، ولسوف يقدم استقالته.

وفي تخييلات أخرى، كان يسدي إليها فيها أجلَّ الخدمات بدون أن تعلم أنه هو صانعها، ما كان يتعرف سوى حبه ولا يفطن إلى أن أريحيته هذه في أصلها وفي الهدف الذي ترمي إليه إنما تستجيب، على منوال أريحية الكونت دي مونت كريستو[٤٢] لدى ديماس، لظمأ إلى الثأر والانتقام مطلوب كبته. بيد أنه أقرّ مع ذلك بأنه تستبدّ به في بعض الأحيان حفزات سافرة إلى إيذاء السيدة المحبوبة. بيد أن حفزاته هذه ما كانت تظهر في الأغلب إلا في غياب هذه السيدة، وتختفي من ثم في حضورها.

٤١ ـ كان ثمة دافع آخر يسهم أيضاً في تشكيل هذا الوسواس: رغبته في أن يراها بلا دفاع أمام رغائبه.

٤٢ ـ بطل رواية ألكسندر ديماس الأب (١٨٤٦) التي تحمل كعنوان الاسم نفسه. والكونت دي مونت كريستو مثال نمطي لـ «أمير الانتقام». «م».



(و)

العلة الظرفية للمرض

روى مريضنا ذات يوم، عَرَضاً، حادثة تسنى لي أن أتعرف فيها فوراً العلة الظرفية لمرضه، أو على الأقل العلة الظرفية الحديثة العهد لنوبة المرض الأخيرة التي تفجرت قبل ستة أشهر والتي لا تزال مستمرة إلى اليوم. كان المريض نفسه لا يشتبه البتة في أنه حكى لي عن أمر له دلالته المهمة. وما كان يستطيع أن يتذكر أنه علّق أهمية ما على تلك الحادثة وإن لم يكن قد نسيها قط. وسلوكه يتطلب أن نأخذه بعين الاعتبار من زاوية نظرية.

إن القاعدة في الهستيريا أن تؤول العوامل الظرفية الحديثة المسبِّبة للمرض إلى النساية، مثلها مثل التجارب المعاشة الطفلية الأولى التي بمعونتها تقلب تلك العوامل طاقتها الوجدانية إلى أعراض. ومع ذلك، وحيثما يكون النسيان الكامل مستحيلاً، يكون مآل الظروف الرضِّية الحديثة المسبّبة للمرض إلى النساية، أو هي تتجرَّد على كل حال من أهم عناصرها المكوِّنة. وإننا لنرى في نساية كهذه الدليل على حدوث كبت. ولكن الأمر بالإجمال مختلف في العصاب الوسواسي. فالمصادر الطفلية للعصاب يمكن أن تكون قد طالتها النساية، وإن بصورة غير كاملة في كثير من الأحيان؛ وبالمقابل، إن العوامل الظرفية الحديثة المسبِّبة للمرض تبقى محفوظة في الذاكرة. ويكون الكبت، في هذه الحالات، قد لجأ إلى آلية مختلفة، هي في الواقع أكثر بساطة: فبدلاً من أن يدفع بالرضة إلى لجّة النسيان، يجرِّدها من شحنتها الوجدانية بحيث لا يبقى منها في الذاكرة الشعورية سوى مضمون تمثيلي حيادي، وفي الظاهر عديم الأهمية. والفارق بين هذين الشكلين من أشكال الكبت يكمن في السيرورة النفسية الخبيئة خلف الظاهرات والتي في مستطاعنا إعادة بنائها. أما نتائج هاتين السيرورتين فتكاد أن تكون واحدة على الدوام، بالنظر إلى أن المريض لا تحضره إلا فيما ندر ذكرى المضمون التمثيلي الحيادي، وبالنظر إلى أن هذا المضمون لا يلعب أي دور في نشاطه النفسي الشعوري. وكيما نميِّز



بين هذين النوعين من الكبت لا يسعنا في الوقت الراهن أن نعتمد إلا على ما يقوله لنا المريض نفسه: فهو يشعر في إحدى الحالتين[٤٣] بأنه كان دوماً على معرفة ببعض الأحداث، على حين أنه في الحالة الثانية قد نسيها منذ زمن بعيد[٤٤].

لذا كثيراً ما نرى المرضى بالعصاب الوسواسي، الذين يكابدون من تبكيتات والذين ربطوا انفعالاتهم الوجدانية بذرائع كاذبة، يكاشفون الطبيب في الوقت نفسه بالأسباب الحقيقية لتبكيتاتهم، حتى بدون أن يشتبهوا في أن هذه التبكيتات قد انفصلت عن أسبابها تلك. بل إنهم يذكرون له بدهشة، أو حتى بتباهٍ، في معرض روايتهم للأحداث التي كانت الأسباب الحقيقية لتبكيتاتهم: «هذا ما لا يمسّ فيَّ وتراً». وذلك ما حدث في أول حالة عصاب وسواسي أتاحت لي، قبل عدة سنوات، أن أفهم هذا المرض. كان المريض المذكور موظفاً شديد الوسوسة، وهو عينه الذي تكلمت عن فعله القهري المتصل بغصن الشجرة في حديقة شونبرون؛ وقد استرعى انتباهي من حيث أنه كان يسدد على الدوام أتعابي بأوراق مالية نظيفة وجديدة (لم يكن ثمة وجود بعد عصرئذ في النمسا لعملة فضية). وذات مرة قلت له إن المرء يستطيع أن يتعرف موظَّف الدولة من الأوراق النقدية الجديدة التي يتسلَّمها من خزانة الدولة، فأجابني بأن تلك الأوراق ليست جديدة بحال، وأنه يكويها في البيت، إذ إن ضميره لا يبيح له أن يعطي أيّاً من كان أوراقاً نقدية وسخة، هي مباءة لأخطر أنواع الجراثيم، وقد تسبِّب الضرر

٤٣ ـ أي حالة العصاب الوسواسي، والثانية هي الهستيريا. «م».

٤٤ ـ لا بدّ لنا من التسليم بأن المعرفة لدى المصابين بالعصاب الوسواسي على نوعين، وأنه يستوي أن نقول «إن المريض «يعرف» رضاته أو أن ندعي أنه لا «يعرفها». فهو يعرفها، بمعنى أنه ما نسيها، لكنه لا يعرفها، إذ إنه لا يدرك أهميتها ودلالتها. وكذلك الحال في أغلب الأحيان في الحياة العادية. فالخدم، الذين كانوا يقومون على خدمة شوبنهاور(*) في النزل الذي كان يتردد عليه، كانوا «يعرفونه» بمعنى ما، في زمن لم يكن فيه قد اشتهر بعد في فرانكفورت ولا في غيرها، ولكنهم ما كانوا «يعرفونه» بالمعنى الذي نقصده اليوم حينما نتحدث عن «معرفة» شوبنهاور».

(*) آرثر شوبنهاور: من كبار فلاسفة ألمانيا (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠). متشائم المنزع. من مؤلفاته: **العالم كإرادة وكتصوُّر**. «م».



لكل من يمسّها. كنت أحدس بإبهام منذ ذلك الزمن بالصلات بين الأعصبة والحياة الجنسية، وعليه فقد اجترأت على سؤال مريضي في مناسبة أخرى عن هذا الموضوع، فقال في شيء من الاستخفاف: «أواه! كل شيء منتظم من هذه الناحية، فأنا لا أحكم على نفسي بالحرمان. فكثيرة هي الأسر البورجوازية التي ألعب لديها دور العمّ المسنّ الطيب، وأغتنم فرصة ذلك لأدعو بين الحين والآخر صبية من صبايا البيت للخروج معي في نزهة في الريف. وعندئذ أتدبر الأمر بحيث يفوتنا القطار الأخير، فنضطر إلى قضاء الليلة في الريف. وعندئذ أحجز غرفتين في الفندق، فأنا من أهل السخاء. لكن عندما تتمدد الفتاة في فراشها، آتي إليها وأجلد لها عميرة». فقلت: «لكن ألا تخشى أن تؤذيها وأنت تعبث بعضوها بيدك القذرة؟». فاستحوذ عليه الغضب وقال: «أؤذيها؟ كيف يمكن لذلك أن يؤذيها؟ إن ذلك لم يسبِّب الأذى بعد لأي منهن، وجميعهن استمتعن بما فعلته لهن! إن الكثيرات منهن قد تزوَّجن الآن، ولم يلحقهن من جراء ذلك أي أذى!». وقد وقعت ملاحظتي من نفسه موقعاً بالغ السوء، ولم يرجع إليّ قط. وما استطعت أن أفسِّر التفارق بين وسوسة ضميره بخصوص الأوراق النقدية وبين استهتاره في استغلال الفتيات اللائي يُعهَد بهنّ إليه إلا بعملية **إزاحة ونقل** للشعور بالتبكيت. ولقد كان الغرض من هذه الإزاحة واضحاً للغاية: فلو ترك تبكيته حيث كان ينبغي أن يكون، لكان توجب عليه أن يقلع عن إشباع جنسي كانت تدفعه إليه في أرجح الظن محدِّدات طفلية قوية. وهكذا كان يحصل عن طريق الإزاحة على **مكسب من المرض** كبير.

ينبغي لي الآن أن أصف تفصيلياً العلة الظرفية لتمخُّض العصاب لدى المريض الذي نحن بصدده. كانت والدته قد أنشئت لدى أقارب بعيدين، في أسرة غنية من كبار الصناعيين. وكان أبوه، على إثر زواجه من أمه، قد عمل في مصانع تلك الأسرة، بحيث أنه ما أصاب ما أصابه من ثراء عريض إلا بفضل زواجه. وقد علم مريضنا، من الممازحات التي يتبادلها الزوجان، اللذان كانا يعيشان في تفاهم تام، أن أباه كان، قبل أن يتعرف إلى أمه بزمن وجيز، قد تودد إلى فتاة جميلة وإنما فقيرة ومن أسرة متواضعة. تلك كانت المقدمة. وبعد وفاة والد

مريضنا، قالت له أمه يوماً إنها تكلمت مع ذويها الأغنياء في شأن مستقبله وإن واحداً من أبناء عمومتها أبدى استعداده لأن يزوِّجه واحدة من بناته حالما ينتهي من دراسته؛ وكان من شأن علاقات العمل مع هذه الأسرة الغنية أن تفتح آفاقاً باهرة لمستقبله المهني. وقد أضرمت هذه الخطة العائلية صراعاً فيه: أيبقى على وفائه لصديقته الفقيرة أم يقتفي خطى أبيه ويقترن من الفتاة الجميلة الكريمة المحترمة والثرية التي اختارتها له أسرته؟ وهذا الصراع، الذي كان في الواقع صراعاً بين حبه وبين إرادة أبيه المستمرة في التأثير عليه، هو ما وجد حلاً له بأن وقع مريضاً، أو بتعبير أكثر دقة، تملَّص بالمرض من مهمة إيجاد حلٍّ لهذا الصراع على صعيد الواقع[٤٥].

إن الدليل على صحة هذا التصور يكمن في أن النتيجة الرئيسية لعصابه كانت عجزاً عنيداً عن العمل أتاح لمريضنا أن يرجئ لعدة سنوات استكمال دراسته. غير أن ما نجم عن العصاب إنما كان يكمن أصلاً في نيته: فالنتيجة الظاهرية للمرض هي في الواقع علَّته، أي الدافع إلى الوقوع في المرض.

بديهي أن تعليلي لم يحظَ في بادئ الأمر بقبول المريض. قال إنه لا يستطيع التسليم بمثل ذلك التأثير لمشروع الزواج الذي صممته له أسرته والذي لم يلقَ منه أدنى اهتمام في حينه. غير أنه لم يجد مناصاً في أثناء العلاج من أن يقتنع، بكيفية فريدة في نوعها، بصحة افتراضي. فقد عاش من جديد، بفضل تخييل تحويلي، ما كان نسيه من ماضيه أو ما لم يدر له في بال إلا لاشعورياً، كما لو أنه واقع راهن. فقد اتضح من فترة غامضة وعويصة من العلاج أنه حَسِب فتاة التقاها يوماً على درج منزلي ابنتي. فوقعت في نفسه موقع الإعجاب، وتخيَّل أنني إذا كنت أبديت نحوه ما أبديته من لطف بالغ وصبر خارق للمألوف فإنما ذلك لأنني وددت لو أنه يتزوجها، ورفع من ثم إلى المستوى الذي يناسبه ثروة أسرتي وعراقتها. لكن حبه العصبيّ على التدمير لسيدة قلبه كان يصطرع في نفسه ضد هذا الإغراء. وبعد أن وجَّه إليَّ شتائم مقذعة، وتغلّب على العديد من أعتى

---

٤٥ ـ مما تجدر ملاحظته أن لواذه بالمرض أتاح له إمكانيّته تماهيه مع أبيه. وهذا التماهي هو الذي مكّن انفعالاته الوجدانية من النكوص إلى متخلفات الطفولة.



المقاومات، ما أمكنه أن يتملص من التأثير المقْنع للتشابه الكامل بين التحويل المتخيَّل والواقع السالف. وسأسوق هنا حلماً من الأحلام التي رآها في هذه الفترة من العلاج لأوضح الكيفية التي كانت عواطفه تفصح بها عن نفسها: رأى ابنتي أمامه، **ولكن كان ثمة قطعتان من الروث مكان عينيها**. وترجمة هذا الحلم لن تكون صعبة على كل من له دراية بلغة الأحلام: **فهو يتزوج ابنتي، لا لسواد عينيها، وإنما لمالها**.

(ز)

العقدة الأبوية وتصفية وسواس الجرذان

كان ثمة خيط يربط بين العلة الظرفية للعصاب الذي أصيب به مريضنا في سنوات رشده وبين طفولته. فقد وجد نفسه في موقف كان مرَّ بمثله أبوه، فيما يعلم أو فيما يفترض، قبل زواجه، ومن ثم كان في مقدوره أن يتماهى وهذا الأخير. وكان الأب المتوفى يتدخل بكيفية أخرى بعد في المرض الراهن لمريضنا. فصراعه المَرَضي كان بالفعل، وفي جوهره، صراعاً بين استمرارية الإرادة الأبوية وبين عواطفه الحبِّية. وإذا أخذنا بعين الاعتبار التصريحات التي أدلى بها المريض في أثناء الجلسات العلاجية الأولى، تحتَّم علينا أن نفترض أن ذلك الصراع كان قديماً للغاية، ولا بدّ أنه نشأ منذ عهد طفولة المريض.

كان والد مريضنا، بحسب كل المعلومات، رجلاً ممتازاً. وكان قبل زواجه ضابط صفّ، وقد احتفظ، من مخلفات تلك الحقبة من حياته، بصراحة عسكرية وبإيثار للتعابير النابية. وعلاوة على الفضائل التي تُنسب في العادة إلى الأموات جميعاً، كان يتميَّز بروح الدعابة الودية وبسماحة عطوف حيال أقرانه؛ ولئن اتفق له أحياناً أن غلب عليه النزق والعنف فما كان ذلك يتنافى بكل تأكيد مع طبعه بجملته؛ بل كان على العكس تتمة لازمة له. وكانت سورات نزقه العنيفة تحمله على إنزال أقسى العقوبات بأولاده حين كانوا، وهم صغار، يتمادون في «الشقاوة». ولما شبّ الأولاد عن الطوق تميَّز عن سواه من الآباء بأنه بدلاً من أن يحاول أن يفرض عليهم سلطة ذات هالة قدسية راح يطلعهم على ما عاناه في



حياته من إخفاقات صغيرة وما وقع فيه من أخطاء، وذلك في صراحة مستطابة. ومن المحقق أن مريضنا لا يبالغ حين يقول إنه وأباه كانا أفضل صديقين في الوجود، خلا ما يتصل بنقطة محددة (انظر ص٣٢٠). وهذه النقطة اليتيمة هي التي كانت السبب في أن مريضنا تسلطت عليه في طفولته، بشدة مجاوزة الحدّ وغير مألوفة، فكرة موت أبيه (انظر ص ٣٠٣). ولهذا السبب أيضاً كانت مثل تلك الخواطر تتبدى في مضمون وساوسه الطفلية، ولهذا أمكن له أيضاً أن يتمنى موت ذلك الأب كيما تتحرك مشاعر الشفقة في نفس فتاة صغيرة بعينها، فتزداد حباً له (انظر ص ٣١٧).

لا مرية في أن الأب والابن فصل بينهما في مضمار الشهوانية شيء، وفي أن الأب وقف عائقاً في وجه الابن إلى النمو المبكر. فبعد عدة سنوات من وفاة الأب، وحين عرف الابن لأول مرة الإشباع الجنسي عن طريق الجماع، بزغت في ذهنه هذه الفكرة: «إن هذا لعظيم! وإن المرء ليقتل أباه من أجل ذلك!». كان ذلك صدى وتفسيراً في آن معاً لوساوسه الطفلية. ثم إن الأب، قبيل وفاته بقليل، كان وقف موقف المعارضة من المنزع العاطفي الذي سيلعب دوراً مهيمناً في حياة مريضنا لاحقاً. فقد فطن الأب إلى أن ابنه ينشد عشرة تلك السيدة، فنصحه بألا يتورط معها أكثر مما ينبغي، وقال له إنه يرتكب بذلك حماقة لن تجلب عليه غير السخرية.

إلى هذه المعطيات التي لا مماراة فيها، انضافت وقائع تتصل بالنشاط الاستمنائي عند مريضنا. ويوجد، في موضوع الاستمناء، تناقض بين آراء الأطباء وآراء المرضى لم ينل حتى الآن حظه من الدراسة. فالمرضى يجمع رأيهم كلهم على القول إن الأونانية[٤٦]، التي يقصدون بها الاستمناء في طور البلوغ، هي الأصل والمصدر الأول لأدوائهم كافة. أما الأطباء فلا يعرفون إجمالاً ما ينبغي أن يروه من رأي في هذه المسألة؛ لكنهم يميلون، استناداً إلى علمهم بأن معظم الأشخاص الأسوياء قد مارسوا الاستمناء لفترة ما في طور البلوغ، إلى الحكم

٤٦ ـ الأونانية: الاستمناء. نسبة إلى أونان الذي ذكرت التوراة أنه كان يمارس الجماع المبتور مع زوجة أخيه التي اقترن بها بعد وفاته، وذلك تحاشياً لاختلاط النسل. وكانت زوجته تستمني. «م»



على تفاسير المرضى في هذا الخصوص بأنها تغالي، في أكثر الحالات، مغالاة مسرفة. على أنني أميل هنا أيضاً إلى إعطاء الحق للمرضى لا للأطباء. فالمرضى يرهصون هنا بواقعة أساسية يجازف الأطباء بأن يعموا عنها. صحيح أن الأمور لا تجري على النحو الذي يتصوره المرضى: فاستمناء البلوغ، الذي يكاد يكون ظاهرة عامة، لا يمكن أن يُحمَّل تبعة الاضطرابات العصابية كافة. دعوى المرضى لا بدّ لها إذاً من تأويل. فأونانية البلوغ ليست في الواقع شيئاً آخر سوى طبعة جديدة من الأونانية الطفلية التي ضُرب عنها حتى الآن صفح، فلم تؤخذ بعين الاعتبار، والتي تبلغ في الإجمال أوجها بين السنة الثالثة والسنة الخامسة. والحال أن هذه الأونانية الطفلية هي في الواقع أجلى تعبير عن جبلَّة الطفل الجنسية التي نسعى، نحن أيضاً، إلى أن نرى فيها إتيولوجيا[٤٧] الأعصبة اللاحقة. ومن ثم، يتعيَّن علينا أن نقول إن المعصوبين يلقون التبعة، في تلك الصورة المتنكرة، على جنسيتهم الطفلية الذاتية، وهم في ذلك محقّون تماماً. وبالمقابل، تغدو مشكلة الأونانية مستغلقة على كل حلّ إذا نظرنا إلى الاستمناء على أنه واقعة سريرية قائمة بذاتها، وغفلنا عن أنه يفيد في تصريف النوازع الجنسية الأكثر تنوعاً وما تغذِّيه من أخاييل. ومضرة الاستمناء ليست مستقلة بذاتها، أي متحددة بطبيعته الخاصة، إلا إلى حدّ ضئيل. فهذه المضرة راجعة، في جزئها الأكبر، إلى الفاعلية الإمراضية للحياة الجنسية. وإن يكن أشخاص لا يحصى لهم عدّ يتحملون الأونانية، أي مقداراً من هذا النشاط، بدون أن يتأذوا، فمعنى ذلك أن الجبلَّة الجنسية ومسار نمو الحياة الجنسية عندهم مكّناهم من ممارسة الوظيفة الجنسية ضمن الشروط الأخلاقية والاجتماعية التي تفرضها الحضارة[٤٨]. وبالمقابل، يكون المرض هو الكيفية التي يستجيب بها أشخاص آخرون لجِبِلَّة جنسية غير مؤاتية أو لاضطراب في مسار نمو جنسيتهم، أي أن هؤلاء الأشخاص لا يستطيعون أن ينجزوا، بلا كفوف أو تشكيلات بديلة، كبح مقوماتهم الجنسية وإسماءها.

---

٤٧ ـ الإتيولوجيا: علم الأسباب بعامة، ومبحث أسباب المرض بخاصة. «م».

٤٨ ـ انظر **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**، لايبزغ وفيينا، ١٩٠٥.



والحال أن سلوك مريضنا إزاء الاستمناء كان يتسم بسمة بالغة الخصوصية: فهو لم يعرف استمناء البلوغ، ومن ثم كان له أن يتوقع، بحسب بعض التصورات، أن يبقى بمنجى من كل إصابة عصابية. غير أن حفزة الاستمناء ظهرت لديه بالمقابل في سنته الحادية والعشرين، **بعيد وفاة أبيه بقليل**. وكان بعد كل إشباع استمنائي يشعر بخزي شديد. وسرعان ما عزف عنه عزوفاً تاماً. ومنذئذ لم تعاود الأونانية ظهورها لديه إلا في مناسبات نادرة وفريدة. قال: «كانت لحظات خاصة من حياتي أو مقاطع بديعة الجمال من مطالعاتي هي التي تحفزني على الاستمناء. ومن قبيل ذلك، مثلاً، حينما سمعت عصر يوم جميل من أيام الصيف الصوت الأخاذ لبوق ظل ينفخ فيه الحوذي إلى أن أوقفه عن ذلك شرطي لمخالفته التعليمات التي تحظّر النفخ في الأبواق في قلب المدينة. ومرة أخرى حينما كنت أطالع في كتاب **الحقيقة والوهم**[٤٩] كيف أن غوته، وكان في حينه شاباً، قد تحرر ببادرة محبة من لعنة كانت امرأة غيور قد استنزلتها على أول امرأة من بعدها يقبِّل شفتيها[٥٠]. فقد كان غوته ارتدع لأمد طويل من الزمن تطيُّراً من تلك اللعنة، ولكنه في تلك اللحظة حطَّم قيوده وقبَّل حبيبته من كل قلبه».

لقد عجب مريضي لاضطراره إلى الاستمناء على وجه التحديد في تلك الأويقات الرائعة الجمال والباعثة على النشوة. فلفتُّ نظره إلى السمة المشتركة بين ذينك المثالين: التحظير والتصرف بعكس المنهي عنه.

ويندرج في هذا السياق نفسه مسلكه الغريب يوم كان يستعد للامتحان: فقد كان يحلو له وقتئذ أن يتخيَّل أن أباه لا يزال حياً ويمكن أن يؤوب بين لحظة وأخرى. وقد تدبَّر أمره حينئذ ليذاكر ليلاً. وبين منتصف الليل والواحدة صباحاً كان يتوقف، ويفتح الباب الخارجي، وكأنما أبوه يقف عنده، ثمّ يدلف ويتأمل قضيبه في مرآة مدخل الدار. ولن نستطيع لهذه المناورات الغريبة فهماً ما لم

٤٩ ـ السيرة الذاتية لغوته. «م».

٥٠ ـ يروي غوته (١٧٢٩ ـ ١٨٣٢) في كتابه **الحقيقة والوهم** أنه كان يتلقى دروساً في الرقص لدى فرنسي وقعت ابنتاه في حبّه. وقد هددته إحدى الأختين مدفوعة بغيرتها بقولها: «بئساً وبئساً، دوماً وأبداً، لتلك التي ستقبّل من بعدي هاتين الشفتين». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



نفترض أنه كان يتصرف حينئذ وكأنه يتوقع زيارة أبيه له في ساعة خروج الأشباح. وكان مريضنا في أثناء حياة أبيه طالباً كسولاً بالإجمال، وهذا ما كان يحزن والده. أما الآن فبوسع الأب أن يرضى عن ابنه إذا ما عاد في إهاب شبح ووجده منكباً على المذاكرة. بيد أن أباه ما كان بكل تأكيد ليغتبط لو عاين أفعاله الأخرى: لهذا كان مريضنا يثور عليه ويتمرد. على هذا النحو كان المريض يعبِّر بفعل قهري غير مفهوم عن وجهيْ عاطفته تجاه أبيه، تماماً مثلما عبَّر فيما بعد، بفعله القهري المتصل بالحجر المرمي في الطريق، عن ازدواج عاطفته حيال صديقته الحبيبة.

استناداً إلى هذه المعطيات، وإلى معلومات أخرى مماثلة، اجترأت على مكاشفته بفرض افترضته، ومؤداه أنه لا بدّ أن يكون ارتكب في نحو السنة السادسة من عمره فعلة سيئة من طبيعة جنسية تتصل بالاستمناء وعوقب عليها معاقبة صارمة من قبل أبيه. وهذه العقوبة، التي وضعت حداً للاستمناء، خلَّفت فيه وراءها، بحسب افتراضي، حقداً لا يمكن محوه على أبيه، وكرست الأب إلى الأبد في دور معكِّر صفو حياة الابن الجنسية ومعيقها (انظر افتراضاتي المشابهة في واحدة من الجلسات الأولى، ص٣٠٢). وعلى دهش عظيم مني أخبرني المريض عندئذ أن حادثة من هذا القبيل تعود إلى طفولته المبكرة سردتها عليه أمه، في مناسبات عدة، وأنه إن كانت لم تنسها، فهذا بالتأكيد لأن وقائع غريبة ترتبط بها. على أنه هو نفسه لا يحتفظ من ذكراها بأي أثر. فحين كان لا يزال طفلاً صغيراً (كان من الممكن تحديد سنِّه بصورة أدقّ بالنظر إلى تطابق الحادثة زمنياً مع مرض أخت أكبر منه سنّاً وموتها[٥١])، ارتكب فعلة سيئة معيَّنة عاقبه عليها أبوه بضربه. وعندئذ انتابت الصغير سورة حنق مخيفة وراح يشتم أباه فيما راح هذا يكيل له الضربات.

ولكن بما أنه كان يجهل بعد ألفاظ الشتائم، فقد راح ينهال على أبيه بأسماء

---

٥١ ـ ستفيد الأم، كما سيتَّضح من النصّ لاحقاً، أنه كان يومئذ بين الثالثة والرابعة من العمر. «م».

٥٢ ـ هذان الحدان لا يستنفدان كل الاحتمالات. فالأب لم يخطر له ببال المآل الأكثر شيوعاً لمثل تلك الانفعالات المبكرة: العصاب.



جميع ما يعرفه من أشياء، مثل: «أنت يا لمبة! أنت يا فوطة! أنت يا صحن!» إلخ. وقد فوجئ الأب بتفجُّر هذا الغضب العاصف وأمسك عن ضربه وقال: «هذا الصغير سيغدو إما رجلاً عظيماً وإما مجرماً خطيراً!»[٥٢]. ومريضنا مقتنع بأن هذه الحادثة خلّفت فيه، كما في أبيه، أثراً دائماً. فأبوه ما عاد قط إلى ضربه. أما هو فقد حمَّل هذه الحادثة تبعة ما طرأ على طبعه من تغيُّر: فخوفاً من عنف حنقه إذا ما تفجَّر صار جباناً. ثم إن خوفه من الضربات كان طول حياته يصل إلى حدّ الرعب، وكان إذا ما وقع نظره على واحد من إخوته أو أخواته يُضرب يختبئ وقد امتلأت نفسه رعباً واستنكاراً.

أكدت أمه، لما عاد إلى استعلامها من جديد، صحة القصة، وأضافت أنه كان

٥٣ ـ كثيراً ما تواجهنا في جلسات التحليل النفسي أحداث من هذا القبيل تعود إلى الطفولة الأولى، أي إلى السنّ التي يبلغ فيها النشاط الجنسي الطفلي، فيما يبدو، ذروته وينتهي غالباً نهاية مأساوية من جراء مصادفة عاثرة أو قصاص. وتظهر هذه الأحداث في الأحلام ظهوراً شبحياً، وكثيراً ما تبلغ حداً من الوضوح يُخيَّل معه للمرء وكأنه مستطيع أن يلمسها لمس اليد، لكنها على الرغم من ذلك تفلت من أي استجلاء نهائي. وإذا لم نتصرف ببراعة واحتراز فقد يعزّ علينا أن نصل إلى قرار نبتّ بموجبه فيما إذا كان المشهد المشار إليه قد حدث في الواقع فعلاً. وإذا أردنا الاهتداء إلى طريق التأويل، فلا بدّ أن نأخذ في اعتبارنا أن مخيِّلة المريض اللاشعورية قد تنطوي على أكثر من صيغة واحدة لمثل تلك المشاهد، وأحياناً على صيغ شديدة التباين. وكيما نتحاشى الخطأ في تقييم الواقع، ينبغي أن نضع نصب أعيننا أن «ذكريات الطفولة» عند الناس لا تتثبت إلا في سن متأخرة (في زمن البلوغ في الغالب)، وأنها تخضع عندئذ لعملية إعادة صياغة معقدة، مثلها في ذلك مثل عملية صياغة الشعوب لأساطيرها عن ماضيها الأول. ونستطيع أن نتبين بوضوح أن المراهق يسعى إلى أن **يمحو**، في تخييلاته عن طفولته، **ذكرى نشاطه الإيروسي الذاتي**. وهو يتوصل إلى ذلك برفعه إلى مستوى الحب الموضوعاني الآثار المتخلفة عن الإيروسية الذاتية، تماماً كما يفعل المؤرخ في الواقع حينما يحاول أن يرى إلى الماضي على ضوء الحاضر. ومن هنا كانت تلك التخييلات تزخر بعدد كبير من محاولات الاعتداء والإغواء الجنسي المتخيَّلة، بينما يكون الواقع قد اقتصر على نشاط إيروسي ذاتي حضَّت عليه المداعبات أو العقوبات. ثم إننا نفطن، ناهيك عن ذلك، إلى أن أولئك الذين ينسجون تخييلات عن طفولتهم يعمدون إلى **تجنيس ذكرياتهم**، أي يربطون أحداثاً عادية بنشاطهم الجنسي ويسحبون عليها اهتمامهم الجنسي، وإن تتبعوا في فعلهم هذا في أرجح الظن آثار ترابطات ذات وجود واقعي. وكل من يتذكر **تحليل رهاب لدى صبي صغير في الخامسة** (أي هانز الصغير. «م».). كما رويته سيدرك أنني لا أقصد بملاحظاتي الآنفة أن أنتقص من شأن الجنسية الطفلية وأن أختزلها إلى مجرد الاهتمام الجنسي في سن البلوغ. وإنما أودّ فقط أن أقدِّم بعض إرشادات تقنية لفهم تلك التخييلات التي الغرض منها تزييف صورة ذلك النشاط الجنسي الطفلي.



آنئذ في الثالثة أو الرابعة من العمر وأنه استأهل تلك العقوبة لأنه عضّ أحدهم. وما كانت الأم تذكر شيئاً آخر؛ ولكنها تعتقد أنه من المحتمل أن يكون الطفل عضّ مربيته. وما كانت رواية الأم للقصة تشير إلى أي طابع جنسي للحادث(٥٣).

وما دمت قد ناقشت في حاشية في أسفل الصفحة قيمة هذا المشهد الطفلي، فسأكتفي بأن ألفت النظر هنا إلى أن ظهور ذكرى ذلك المشهد الطفلي قد زعزع

نادراً ما يسعفنا الحظّ فنجد أنفسنا، كما في حالة مريضنا، في موقف نستطيع فيه أن نتحقق على نحو لا يرقى إليه الشك، بفضل شهادة راشد، من صحة الوقائع التي بالاستناد إليها نُسجت التخييلات عن الطفولة. بيد أن شهادة والدة مريضنا تترك الباب مشرعاً مع ذلك أمام احتمالات شتى. فربما كان نشاط الرقابة عندها هي ذاتها هو ما جعلها تغفل تحديد الطبيعة الجنسية للفعلة السيئة التي ارتكبها طفلها، تلك الرقابة التي تنزع إلى أن تحذف لدى جميع الآباء والأمهات العنصر الجنسي من ماضي أطفالهم. لكن من المحتمل أيضاً أن يكون الطفل قد وُبِّخ من قبل مربِّيته أو أمِّه على سوء سلوك عادي متجرد من الطابع الجنسي، فكان ردّ فعله على هذا التوبيخ عنيفاً، مما استوجب العقاب من جانب الأب. وفي هذا النوع من التخييلات تُحِلّ المخيِّلةُ في العادة محلَّ المربية أو الخادم شخصيةَ الأم الأكثر تميُّزاً. ومهما يكن من أمر، فإن التعمق في تحليل أحلام مريضنا ذات الصلة بتلك الأحداث أتاح لنا أن نكتشف أجلى العلائم على وجود نوع من الإبداع الخيالي لديه يتَّسم بطابع ملحمي بطولي، وترتبط فيه الرغبات الجنسية تجاه أمه وأخته، وكذلك الوفاة المبكرة لهذه الأخيرة، بالعقوبة التي كان الأب أنزلها بالبطل الصغير. ولئن لم أوفَّق إلى أن أفكّ خيطاً خيطاً كل هذا الكساء المنسوج من التخييلات فإن نجاح العلاج هو تحديداً ما حال دون ذلك. فقد أبلّ المريض، ولم يكن أمامه مناص من أن يتصدى للمشكلات العديدة التي كانت تواجهه بها الحياة، وهي مشكلات بقيت معلقة أمداً من الزمن أطول مما ينبغي، ولم يكن حلّها يتنافى ومواصلة العلاج. أرجو القارئ إذاً ألا يؤاخذني على هذه الثغرة في التحليل. فالاستقصاء العلمي عن طريق التحليل النفسي لا يزال إلى اليوم نتاجاً فرعياً للجهود العلاجية: ولهذا كثيراً ما يأتي المردود العلمي ثراً على وجه التحديد في الحالات التي لم يكلَّل علاجها بالنجاح.

إن قوام الحياة الجنسية الطفلية نشاط إيروسي ذاتي للمقومات الجنسية الجزئية الغالبة، وآثار من حبّ موضوعاني، وتكوين لتلك العقدة التي قد يحقّ لنا أن نسميها **العقدة النووية للأعصبة**. وتضمّ هذه العقدة انفعالات الحب والكره الأولى نحو الوالدين، والإخوة والأخوات، وفي الغالب بعد أن تستيقظ فضولية الطفل عقب ميلاد أخ أو أخت له. وإن تكن التخييلات التي يكوِّنها الأفراد عن طفولتهم هي بالإجمال واحدة ومتماثلة، بصرف النظر عن دور الحياة الواقعية فيها، فهذه واقعة قابلة للتفسير بأحادية نمط النزعات المتضمَّنة في تلك العقدة وبالثبات الذي تظهر به لاحقاً المؤثرات المعدِّلة. والسمة الرئيسية **لعقدة الطفولة النووية** هي أن الأب يضطلع فيها بدور الخصم في الميدان الجنسي، وبدور المعيق للنشاط الجنسي الإيروسي الذاتي. وفي الغالبية العظمى من الحالات يسهم الواقع نفسه بقسط موفور في قيام هذا الموقف الوجداني.



مريضي الذي كان يأبى إلى ذلك الحين أن يصدِّق أنه كانت ساورته مشاعر حنق إزاء أبيه، وهي مشاعر تكونت في «مرحلة ما قبل تاريخية» من حياته ثم ما لبثت أن غدت كامنة. والحق أنني كنت توقعت مفعولاً أكبر بعد، إذ إن تلك الحادثة رويت له مراراً وتكراراً حتى من قبل أبيه بحيث بات من المتعذر الشك في واقعيتها. والحال أن مريضي راح، متسلحاً بتلك القدرة على تزييف المنطق التي نجدنا نعجب في كل مرة لوجودها لدى العصابيين الوسواسيين الذين هم في الغالب من ذوي الذكاء المرموق، ينقض القيمة الإقناعية لتلك القصة محتجّاً بأنه هو نفسه لا يتذكر الحادثة. ومن ثم لم يكن ثمة مناص من أن يقتنع، عن طريق التحويل المؤلمة[٥٤]، بأن علاقته بوالده كانت تنطوي حقاً على تلك العواطف اللاشعورية. وهكذا انتهى به الأمر إلى الانهيال بالشتائم النابية والمقذعة، في أحلام يقظته وتداعياته، عليَّ وعلى أسرتي، مع أنه ما كان يشعر تجاهي في شعوره ووعيه إلا بأجلّ الاحترام. وكان سلوكه، حين كان يكاشفني بشتائمه، سلوك إنسان غلبه اليأس والقنوط. كان يقول: «كيف يمكن لك، سيدي الأستاذ، أن تتحمل توجيه مثل هذه الإهانات إليك من جانب شخص حقير مثلي؟ الأجدر بك أن تطردني خارجاً، فأنا لا أستأهل أفضل من ذلك». كان، وهو ينطق بهذه العبارات، ينهض عن الأريكة ويركض بين أرجاء الغرفة. وقد فسّر هذا السلوك أول الأمر بأن ضميره لا يحتمل أن يتلفظ لسانه بمثل تلك الأشياء الفظيعة، بينما هو مستلقٍ بكل راحة على الأريكة. غير أنه سرعان ما اهتدى هو نفسه إلى تفسير أقرب إلى الحقيقة: فهو يبتعد عني خوفاً من أن أضربه. وحين كان في بعض المرات يخبرني بخواطره المهينة الجارحة وهو ممدَّد على الأريكة، كان يتصرف كما لو أنه يحاول، وقد استحوذ عليه رعب عظيم، أن يحمي نفسه من قصاص رهيب: فكان يخفي رأسه بين يديه، ويغطي وجهه بذراعيه، ثم ينهض فجأة مولياً الأدبار، وقد قبض الألم قسمات وجهه، إلخ. كان يتذكر كم

٥٤ ـ التحويل: إسقاط المريض قيد التحليل لمشاعره الحبّية على شخص الطبيب الذي يحلّله، وذلك هو التحويل الإيجابي؛ وعكسه: كما في حالة رجل الجرذان هذه، التحويل السلبي، أي إسقاط المريض على الطبيب مشاعره العدائية. «م».



كان أبوه عنيفاً حتى إنه كان لا يعرف أحياناً عند أي حدّ يقف في غضبه. وفي مدرسة التحويل المؤلمة هذه تولد لدى المريض رويداً رويداً الاقتناع الذي ما كان ليلاقي أي صعوبة في فرض نفسه على أي شخص آخر لا صلة له بتلك الأحداث: الاقتناع بوجود لاشعوري لكراهيته لأبيه. وعلى إثر ذلك انفتح الطريق أمام تصفية وسواس الجرذان. وبذلك غدت متاحة لنا جملة من الوقائع والمعطيات الواقعية، كان امتنع إلى ذلك الحين عن الإتيان بذكرها، فمكّنتنا في أثناء العلاج بالذات من إعادة بناء ترابط الأحداث.

سأحاول قدر المستطاع، في روايتي لهذه الأحداث، أن ألتزم جانب الإيجاز والاقتضاب. كان اللغز الأول بطبيعة الحال هو لغز الإثارة والاستجابات المَرَضية البالغة العنف التي ابتعثها لدى مريضنا الأمران اللذان أبلغهما به النقيب التشيكي: حين دعاه أولاً إلى تسديد المال للملازم أ، وحين سرد عليه ثانياً قصة الجرذان. لم يكن أمامي مناص من الافتراض بأن المسألة مسألة «حساسية عُقدِيَّة»[٥٥]، وأن تلك العبارات قد مسّت مساً عنيفاً نقاطاً مسرفة الحساسية في لاشعوره. وكذلك كان واقع الحال: إذ كان مريضنا، في كل مرة يُطلب فيها إلى الخدمة العسكرية، يتماهى لاشعورياً مع أبيه الذي كان أمضى هو نفسه عدة سنوات من حياته في العسكرية، والذي كان من عادته أن يروي الكثير من وقائع تلك الفترة من حياته. والحال أن المصادفة، التي يمكن أن تسهم في تكوين عرض من الأعراض مثلما يمكن أن تسهم مفردات الجملة في تكوين النكتة، شاءت أن يجمع عنصر له قسطه من الأهمية بين مغامرة صغيرة لأبيه وبين كلمات النقيب. فقد كان أبوه خسر ذات مرة في الميسر مبلغاً صغيراً من المال كان موضوعاً في عهدته باعتباره ضابط صف (سالكاً على هذا النحو سلوك «جرذ لعب الورق»[٥٦]). وكان سيواجه متاعب خطيرة لولا أن أحد رفاقه سلَّفه المبلغ. وبعدما ترك الأب المهنة العسكرية وصار رجلاً ثرياً، فتَّش عن ذلك الرفيق الشهم، فما عثر له على أثر. ولم يكن مريضنا واثقاً حتى من أن أباه وُفِّق إلى

٥٥ ـ عُقدِيَّة نسبة إلى العقدة. والحساسية العقدية مفهوم كان قد صاغه يونغ في كتاب له عام ١٩٠٦ بعنوان: **دراسات عن التداعيات برسم التشخيص**. «م».

٥٦ ـ بالألمانية spielratte، وهو تعبير يطلقه العامة على المقامر المدمن. «م».



ردّ المبلغ: فذكرى خطيئة الشباب هذه التي تورط فيها والده كانت منغِّصة له، لأن لاشعوره كان يطفح بالانتقادات العدائية حيال طباع أبيه. وقد دوَّت كلمات النقيب: «عليك أن تردّ إلى الملازم أ الكورونات الـ ٣,٨٠» في أذني الابن وكأنها تلميح إلى الدين الذي لم يسدده الأب.

ومن ناحية أخرى، إن مبادرة المستخدمة الشابة في البريد في ز من تلقاء نفسها إلى سداد المبلغ المطلوب دفعه مقابل تسليم الطرد، كائلة في الوقت نفسه بعض المديح لشخص مريضنا[٥٧]، عزّزت تماهيه مع أبيه في مجال آخر. فقد استكمل حينذاك روايته للأمور بأن حكى لي أن الابنة الجميلة لصاحب المنزل الذي يقع على مقربة من مكتب البريد قد أبدت نحوه تودداً حاراً، بحيث أنه عقد النية على العودة إلى هناك بعد نهاية المناورات ليجرِّب حظه معها. والحال أن مستخدمة البريد صارت عندئذ منافسة وغريمة لابنة صاحبة النزل: ومن ثم صار في وسعه أن يتساءل، مثله مثل أبيه في القصة التي تأدت به إلى الزواج، لأي من الفتاتين يبذل عاطفته بعد انتهاء الخدمة العسكرية. وهنا ندرك فوراً أن تردده الغريب بين أن يسافر إلى فيينا أو أن يرجع إلى الموضع الذي يقع فيه مكتب البريد، والإغواء المتواصل الذي ساوره في أثناء سفره بأن يعود أدراجه إلى ز (انظر ص ٣١١)، ما كانا خاليين من المعنى إلى الحدّ الذي تبدَّيا لنا به في أول الأمر. فبالنسبة إلى فكره الشعوري كان الانجذاب إلى ز، حيث يقع مكتب البريد، تعلله حاجته إلى الوفاء بقسمه بالاستعانة بالملازم أ. أما في الحقيقة فإن مستخدمة البريد كانت هي موضوع رغبته في العودة إلى ز. وقد ناب الملازم في تصوره مناب هذه المستخدمة الشابة، لأنه كان يقيم في المكان نفسه ولأنه كان مكلفاً في الوقت عينه بالبريد العسكري. وحين علم المريض أن الملازم ب، لا الملازم أ، هو الذي كان مكلفاً في ذلك اليوم بالبريد، أدخل ذلك الملازم أيضاً في شطحاته، وصار من ثم في استطاعته أن يكرر تردده بين الفتاتين بإحلاله محلهما الضابطين

٥٧ ـ لا ننسَ أنه علم بذلك قبل أن يدعوه النقيب (عن سوء فهم) إلى تسديد المبلغ إلى الملازم أ. وهذه النقطة لا غنى عنها لفهم ما سيلي. وقد ألقى كبحها بمريضنا في حالة من الخلط الشديد حالت لفترة ما بيني وبين إدراك معنى الأمر في جملته.



في أفكاره شبه الهذائية[٥٨].

وحتى نفهم على نحو أفضل ما كان لقصة الجرذان التي رواها النقيب من وقع عليه، يجدر بنا أن نتتبع عن كثب مسار التحليل. فقد طفقت كمية وفيرة للغاية من معطيات التداعي تخرج إلى النور، ولكن بدون أن يغدو التشكيل الوسواسي أكثر شفافية ووضوحاً في البداية. وكان تصور المعاقبة بالجرذان قد استثار عدداً من حاثات المريض ونبَّه جملة من ذكرياته، ولهذا السبب اكتسبت الجرذان، في الفترة المنصرمة ما بين سرد النقيب للقصة وطلبه إليه تسديد المبلغ، عدداً من الدلالات الرمزية التي انضافت إليها لاحقاً، وبصورة متواصلة، دلالات جديدة. وروايتي للأمر لا يمكن إلا أن تأتي ناقصة جداً. فعقوبة الجرذان أيقظت في المقام الأول الإيروسية الشرجية التي لعبت في طفولة المريض دوراً كبيراً ووجدت على مدى سنوات عديدة ما يغذيها في معاناته من ديدان معوية. وهكذا اكتسبت الجرذان دلالة «المال»[٥٩]، وهي علاقة تجلت من خلال ربطه عن طريق التداعي بين «الجرذان» و«النقود»[٦٠]. وكان قد ابتدع لنفسه في حالته الوسواسية شبه الهذائية قاعدة للتعامل النقدي تقوم، بكل ما في الكلمة من معنى، على أساس الجرذان؛ ومن ذلك مثلاً أنني حين حددت له، رداً على سؤاله، مقدار ما أتقاضاه من أتعاب عن الجلسة الواحدة، أجرى حسابه على النحو التالي (وهو ما لم أعلمه إلا بعد انقضاء ستة أشهر): «كذا من الفلورانات ـ كذا من الجرذان». وإلى هذه

٥٨ ـ (ملحوظة أضيفت سنة ١٩٢٣) ـ كما أن المريض لم يدخر وسعاً في تشويش قصة المبلغ الواجب دفعه مقابل تسليم الطرد، كذلك ربما لم أفلح أنا أيضاً في إيضاح عرضي لها على أتمّ نحو. ولهذا رسم السيد والسيدة ستراشي (مترجما فرويد إلى الإنكليزية. «م») خريطة صغيرة حاولا عن طريقها أن يجعلا الموقف بعد انتهاء المناورات أكثر قابلية للفهم.

وقد لاحظ مترجميَّ بحقّ أن سلوك المريض يبقى مستغلقاً على الفهم ما لم يَجْرِ النصُّ بعبارة واضحة على أن الملازم أ كان أقام من قبل في بلدة ز التي يوجد فيها مكتب البريد، وأنه كان يتولى هناك خدمة البريد العسكري، ولكنه أوكل هذه المهمة في الأيام الأخيرة من المناورات إلى الملازم ب، بعدما صدر أمر بنقله إلى موقع آخر. ولم يكن النقيب «القاسي» يعلم شيئاً بعد عن هذا التبديل، ومن هنا كان خطؤه حين طلب إلى مريضنا أن يسدد المبلغ إلى الملازم أ.

٥٩ ـ انظر فرويد: **الطبع والإيروسية الشرجية**، الأعمال الكاملة، م ٧.

٦٠ ـ الجرذ بالألمانية RATTE، والدفعة النقدية RATE. «م».



اللغة نُقلت رويداً رويداً كل عقدة المال عند مريضنا، تلك العقدة التي كان مدارها على ميراث أبيه، أي أن جميع التمثلات المتصلة بالمال تلبست طابعاً وسواسياً وخضعت لسلطان لاشعوره عن طريق التداعي اللفظي: دفعات نقدية ـ جرذان (RATEN RATTEN). وهذه الدلالة النقدية للجرذان تعززت، فضلاً عن ذلك، حينما طلب إليه النقيب تسديد الدين، وذلك بالاستناد إلى مجانسة أخرى: SPIELRATTE (جرذ ورق اللعب)، وهي المجانسة التي رجعت بذاكرته إلى الأب الذي خسر في الميسر مبلغاً لم يكن من ماله.

من ناحية أخرى، إن مريضنا الذي كان يعرف أن الجرذ ناقل لعدوى الأمراض السارية، أمكن له أيضاً أن يستخدمه رمزاً **لعدوى الزهري**، التي هي مثار لرعب مبرَّر في الجيش. وكانت تختفي وراء هذا الرمز شكوك مريضنا بصدد سلوك أبيه في أثناء الفترة العسكرية من حياته. وبما أن حامل العدوى الزهرية هو، من جهة أخرى، القضيب بعينه، فقد صار الجرذ هو العضو التناسلي المذكر، وهذه رمزية كانت تتحدد بسبب آخر أيضاً. فالقضيب، وعلى الأخص قضيب الطفل، يمكن بسهولة مقارنته بدودة، وكانت الجرذان في قصة النقيب تقرقر في الإست مثلما كانت تفعل ديدان البطن الكبيرة لدى مريضنا في طفولته. هكذا كانت الدلالة القضيبية للجرذان تستند هي الأخرى إلى الإيروسية الشرجية. والجرذ، ناهيك عن ذلك، حيوان قذر، يتغذى بالمخرجات البرازية ويعيش في المجارير(٦١). ومن نافل القول أن نذكر مدى الاتساع الذي أمكن لـ«هذاء الجرذان» أن يبلغه بفضل هذه الدلالة الجديدة. فمثلاً كان يمكن لعبارة «كذا من الجرذان ـ كذا من الفلورانات» أن تكون سمة مميِّزة لمهنة نسائية معيَّنة كانت بغيضة إليه أشدَّ البغض(٦٢). وبالمقابل، لم يكن أمراً عديم الدلالة أن تكون نتيجة إحلال قضيب محل الجرذ في قصة النقيب استحضار موقف مجامعة عن **طريق**

٦١ ـ من شاء المماراة في شطحات الخيال العصابي هذه فما عليه إلا أن يتذكر الخيالات المشابهة لدى الفنانين، وعلى سبيل المثال «**الشيطنات الإيروسية**» بريشة لو بواتفان(*).

(*) أوجين لو بواتفان: رسام فرنسي (١٨٠٦ ـ ١٨٧٠). صوّر حياة الصيادين. مجموعته **الشيطنات الإيروسية** تتضمن رسوماً فالوسية وهزلية معاً، ومنها رسم لجرذ له شكل قضيب. «م».

٦٢ ـ يقصد مهنة البغاء. «م».



الشرج[٦٣]، وهو من أبغض المواقف إلى نفسه في حال ربطه بأبيه وبالسيدة المحبوبة. وهذا الموقف، الذي عاود ظهوره في الوسواس، كان يعيد إلى الذهن على نحو لا لبس فيه بعض الشتائم الشائعة لدى السلافيين الجنوبيين، والتي يمكن العثور على نصها الحرفي في دورية ANTHROPOPHYTEIA التي يصدرها ف. س. كراوس KRAUSS[٦٤]. وجميع هذه المعطيات، وغيرها أيضاً، وجدت مكاناً لها في سياق النقاش حول العلاقة بين الجرذان والخاطرة العارضة التي تداعت إلى ذهنه للتغطية: HEIRATEN[٦٥].

أما أن قصة التعذيب بالجرذان أيقظت لدى مريضنا جميع نوازعه التي كبتت في زمن مبكر إلى القسوة الأنانية والشهوانية، فهذا ما يثبته وصفه للتعذيب وسيماء وجهه لحظة سرد القصة عليّ. ولكن على الرغم من غنى هذه المعطيات بقيت دلالة الوسواس غائمة إلى أن ظهرت في متداعياته **آنسة الجرذان** في مسرحية **إيولف الصغير** لإبسن[٦٦]، مما أتاح لي أن أستنتج على نحو لا مطعن فيه أن الجرذان كانت تعني، في العديد من مراحل هذائه الوسواسي، **الأطفال** أيضاً[٦٧]. فلما بحثت عن أصل هذه الدلالة الجديدة، وجدتني أصطدم للحال بأقدم الجذور وأهمها إطلاقاً. ففيما كان يزور ذات يوم قبر والده لمح حيواناً كبيراً يمرق فوقه منسلاًّ، فحسبه جرذاً[٦٨]. وقد خُيِّل إليه أن الحيوان خرج من قبر أبيه فعلاً بعدما فرغ من التهام جثته. وكان العضّ والقضم

٦٣ ـ باللاتينية في النص: PER ANUM. «م».

٦٤ ـ فريدريش سالومون كراوس: إثنوغرافي كرواتي (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨). جمع في الدورية المشار إليها الفولكلور الإيروسي والجنسي. «م».

٦٥ ـ أي: يتزوج. وموضع التداعي هنا هو المقطع الثاني في هذه الكلمة: RATEN. «م».

٦٦ ـ هنريك إبسن: كبير مسرحيي النرويج (١٨٢٨ ـ ١٩٠٦). «م».

٦٧ ـ إن شخصية «آنسة الجرذان» بقلم إبسن مشتقة بكل تأكيد من قصة هاملن(*) الخرافية عن عازف المزمار الذي بدأ باجتذاب الجرذان إلى الماء، ثم استدرج بالوسيلة نفسها أطفال المدينة الذين ما كانوا يعودون إليها قط. وإيولف الصغير أيضاً يرمي بنفسه في الماء، وقد سحرته «آنسة الجرذان» RATTENMAMSEL. وبوجه الإجمال، لا يتبدى الجرذ في الأساطير حيواناً مقرفاً بقدر ما يتبدى حيواناً مشؤوماً يبعث على القلق؛ حيواناً جهنمياً، إن جاز لنا القول، يرمز إلى نفوس الموتى.

(*) هاملن: مدينة ألمانية اشتهرت في الفولكلور بحكاية **عازف المزمار** المنسوب إليها.«م».

٦٨ ـ كان ولا شك ابن عرس وهو من الحيوانات التي توجد بكثرة في المقبرة المركزية بفيينا.



بأسنان مديَّبة قد ارتبطا منذ زمن بعيد في ذهنه بصورة الجرذان(٦٩).

ولكن الجرذان لا يمكن أن تعضّ وأن تكون شرهة وقذرة بدون أن يطالها عقاب. فالناس تطاردها وتقتلها بقسوة وبلا رحمة، كما تأتَّى له أن يلاحظ مراراً في رعب. بل كثيراً ما أخذته الشفقة على هذه الحيوانات المسكينة. والحال أنه كان هو نفسه حيواناً صغيراً مقرفاً وقذراً، وحين كانت تستبدّ به سورة حنق كان يعرف كيف يعضّ، فيلقى من جراء ذلك عقوبة رهيبة (انظر ص ٣٤٠). كان في مقدوره في الحقيقة أن يتعرف في الجرذ «صورته الشخصية على طبيعتها»(٧٠). وقد رماه القدر، إن جاز القول، من خلال قصة النقيب، بكلمة **كانت عقدته بها حساسة**، فما توانى عن الاستجابة لها بفكرته الاستحواذية.

لقد كانت الجرذان إذاً، بحسب خبرته المبكرة والخطيرة النتائج، أطفالاً، وعندئذ روى لي واقعة كان أبقاها لأمد طويل من الزمن في منأى عن هذا السياق كله، ولكنها تقدِّم إيضاحاً كاملاً لما كان يبديه من اهتمام بالأطفال. فالسيدة التي كان يهيم بحبِّها منذ سنوات عديدة، والتي ما استطاع أن يحزم أمره على الاقتران بها، كان مقضياً عليها بالعقم وعدم الإنجاب من جراء عملية جراحية نسائية تمّ فيها استئصال مبيضيها كليهما. بل كان ذلك واحداً من الأسباب الرئيسية لتردده، هو الذي كان يحبّ الأطفال حباً جماً.

عندئذ فحسب تسنى لي أن أفهم السيرورة الغامضة لتشكيل الوسواس. فبمعونة النظريات الجنسية الطفلية، وبمعونة الرمزية التي أزاح النقاب عنها تأويل

٦٩ ـ يقول مفيستو في **فاوست**، القسم الأول:

لكن لإبطال سحر هذه العتبة

لا بدّ لي من سنّ جرذٍ

عضة أخرى من السنّ وينتهي الأمر(*).

(*) في مسرحية **فاوست** لغوته كانت نجمة خماسية مرسومة رسماً سيئاً عند عتبة مكتب فاوست تحبس الشيطان وتمنعه من الحركة فأمر مفيستو، «سيد الجرذان والفئران»، الجرذ بأن يحرره. «م».

٧٠ ـ حانة أورباخ(*).

(*) في حانة أورباخ، في مسرحية **فاوست**، يتحدث السكارى عن «رجل ضخم البطن أصلع الرأس يرى في الجرذ المنفوخ صورته الشخصية على طبيعتها». «م».



الأحلام، أمكنت ترجمة كل شيء إلى أفكار واضحة المعنى والدلالة. فحينما روى النقيب، في أثناء الاستراحة في عصر ذلك اليوم الذي أضاع فيه مريضي نظارته، قصة التعذيب بالجرذان، لم يسترعِ انتباه هذا الأخير في بادئ الأمر سوى طابع القسوة والشبق في الموقف المصوَّر. ولكن سرعان ما تمّ الارتباط مع ذلك المشهد من طفولته الذي كان هو نفسه قد مارس فيه العضّ. ثم إن النقيب، الذي كان ينافح عن عقوبات مشابهة لتلك التي كابد منها المريض، أخذ عند هذا الأخير مكان الأب وجلب على نفسه قدراً من العداوة التي تأججت جذوتها من جديد والتي كانت تفجرت في ماضٍ بعيد رداً على قسوة الأب. والفكرة التي ومضت في ذهنه عندئذ من أن شيئاً من هذا القبيل يمكن أن يقع لشخص يعزّه يمكن أن تترجم إلى أمنية من قبيل: «إنما أنت الذي ينبغي أن يُفعل بك ذلك»؛ وهي أمنية كانت تتجه، من خلال شخص النقيب، إلى والد المريض أيضاً. وحينما سلَّمه النقيب الطرد بعد ذلك بيوم ونصف يوم[٧١] وذكّره بوجوب تسديد الكورونات الـ٣,٨٠ إلى الملازم أ، كان مريضنا يدرك بالفعل أن هذا «الرئيس القاسي» على خطأ من أمره، وأنه هو لا يدين بذلك المبلغ من المال إلا لمستخدمة البريد. وكان من الممكن عندئذ أن يجد في نفسه إغراء بأن يردّ عليه بجواب تهكمي من قبيل: «تصور أني سأدفع!» أو «أتراهن إن كنت سأدفع هذا المبلغ!»[٧٢]. وما كان لمثل هذا الجواب أن تنطق به شفتاه. لكن بما أن العقدة الأبوية وذكرى المشهد الطفلي المشار إليه كانتا استيقظتا فيه، فقد ارتسم في ذهنه جواب من هذا القبيل: «أجل، سأردّ المبلغ إلى أ حينما ينجب أبي أو حبيبتي أطفالاً» أو: «من المؤكد أني سأردّ إليه المبلغ مثلما هو مؤكد أن أبي وسيدة قلبي سينجبان أطفالاً».

٧١ ـ لا في مساء ذلك اليوم نفسه، كما ذكر في أول الأمر. وإنه لمن رابع المستحيلات أن تكون النظارة الأنفية الموصى عليها قد وصلت مساء اليوم نفسه. وقد اختزل هذا الفاصل الزمني في ذاكرته، لأنه في أثنائه تحديداً تكونت لديه الارتباطات الفكروية الحاسمة، ولأنه كان يكبت واقعة لقائه بالضابط الذي أخبره بالبادرة اللطيفة من جانب مستخدمة البريد، وهو اللقاء الذي تمّ في أثناء ذلك الفاصل الزمني أيضاً.

٧٢ ـ الترجمة هنا غير حرفية تماماً، لأن الجوابين المفترضين مصاغان باللهجة العامية الفييناوية. «م».



وكان ذلك بمثابة وعد ساحر مرتبط بشرط غير معقول وغير قابل للتحقيق[٧٣].

غير أن الجريمة قد ارتكبت الآن: فقد أهان أعزّ شخصين لديه، أبيه وحبيبته، وهو أمر مستوجب للعقوبة، والعقوبة لن تكون إلا قَسَماً يستحيل الوفاء به وموجباً لطاعة أمر رئيسه الذي لا مبرر له: **عليك الآن فعلاً أن تردّ المبلغ إلى أ.** وقد كبت من خلال هذه الطاعة القسرية ما كان يعرفه معرفة غير متاحة لغيره، وهو أن الأمر الذي أصدره النقيب يستند إلى معطيات مغلوطة: «نعم، عليك أن تردّ ذلك المبلغ إلى أ، كما يطلب ذلك بديل الأب. فالأب لا يمكن أن يخطئ». وبما أن صاحب الجلالة لا يمكن له هو أيضاً أن يخطئ، فإنه إذا ما خاطب أحدهم بلقب ليس له، فإن هذا الشخص سيحمل هذا اللقب مذّاك فصاعداً.

إن هذه السيرورة كلها لم يصل منها إلى وعي المريض إلا تصور مبهم عنها. لكن تمرده على أمر النقيب، وانقلاب هذا التمرد إلى ضده، كانا بدورهما ماثلين في وعيه (أولاً فكرة أنه يجب ألا يسدد المبلغ وإلا فإن ذلك ـ أي قصاص الجرذان ـ سيقع، وثانياً تحول هذه الفكرة إلى قَسَم بالاتجاه المعاكس، كعقاب على تمرده).

لنستعد في أذهاننا مرة أخرى الظروف التي تشكلت فيها الفكرة الوسواسية الكبرى. كان المريض واقعاً تحت ضغط الاغتلام نتيجة لفترة طويلة من الاستنكاف والتعفف، ومن جراء التودد الذي كانت تبديه النساء تجاهه كضابط شاب. ثم إنه حين ذهب للمشاركة في المناورات كان في حالة من عدم المبالاة حيال سيدة قلبه. وكان توتر الليبيدو هذا عنده يهيّئه لاستئناف صراعه القديم ضد السلطة الأبوية، فاجترأ على التفكير بتدبر إشباع جنسي له عن طريق نساء أُخَر. وراحت شكوكه في ما يتصل بذكرى والده وتحفظاته حول قيمة حبيبته تتعزز. وفي سياق هذا الجو النفسي أسلس قياده لسائق إهانتهما كليهما، ولكنه على الأثر عاقب نفسه. وقد كان بذلك يكرر نموذجاً أولياً قديماً. وحينما تردد طويلاً

٧٣ ـ اللامعقولية تعني أيضاً، في لغة الوساوس كما في لغة الأحلام، السخرية والتهكم. انظر: **تأويل الحلم**، الطبعة السابعة، ص ٢٩٥.



بعد المناورات، فما استطاع أن يقرر هل يتعيَّن عليه أن يتابع طريقه إلى فيينا أو يتوقف ليفي بقسمه، فإنما كان يعبِّر عن ذينك الصراعين اللذين كانا يعتملان في نفسه منذ زمن بعيد في صورة صراع واحد، هو الصراع بين طاعته لأبيه ووفائه لسيدة قلبه[٧٤].

أودّ أن أضيف كلمة بعد بصدد تأويل مضمون العقاب: «... وإلا فإن عقوبة الجرذان ستوقع عليهما كليهما». فهذا التأويل يرتكز إلى النظريتين الطفليتين عن الجنسية اللتين عرضت لهما في غير هذا المكان[٧٥]. أولاهما تقول إن الأطفال يخرجون من الشرج؛ وثانيتهما ـ وهي نتيجة منطقية للأولى ـ تقول إن الرجال يمكنهم كالنساء أن ينجبوا أطفالاً. وبموجب القواعد التقنية لتأويل الأحلام، فإن واقعة الخروج من الشرج يمكن التعبير عنها بنقيضها: الدخول في الشرج (كما في التعذيب بالجرذان)، والعكس بالعكس.

ليس لنا أن نتوقع حلولاً أبسط من هذه لوساوس بمثل تلك الخطورة، ولا كذلك حلولاً بطرق أخرى. ومع الحلّ الذي توصَّلنا إليه، تلاشى عند المريض هذاء الجرذان.

٧٤ ـ ربما كان من المفيد أن نؤكد مرة أخرى على أن طاعة أبيه تتطابق مع عزوفه عن سيدة قلبه. فلو توقف وردّ المال إلى أ لكان بذلك كفّر إزاء أبيه وتخلى في الوقت نفسه عن حبيبته منجذباً بجاذب آخر. وقد انعقد إزار النصر في هذا الصراع لسيدة قلبه، وبالتأكيد ساعدها على ذلك تفسير سويّ من جانب المريض.

٧٥ ـ انظر فرويد: **حول النظريات الجنسية الطفلية**، ظهر أولاً في مجلة **حماية الأمهات**، السنة ٩، ١٩٠٨، ثم أعيد طبعه في القسم الثاني من **مجموعة من بعض المقالات المقتضبة في الأعصبة**، المجلد ٧ من الأعمال الكاملة (انظر ترجمتنا لهذا المقال في: **الحياة الجنسية، المؤلفات شبه الكاملة، ج٤**).



(٢)

مساهمة في النظرية

(أ)

بعض الخصائص العامة للتشكيلات الوسواسية[١]

إن التعريف الذي قدمته سنة ١٨٩٦ عن الوساوس، والذي قلت بموجبه إنها «تبكيتات محرَّفة، تعاود ظهورها خارج نطاق الكبت، ويكون مرجعها على الدوام إلى فعل جنسي أتاه الفرد في طفولته بلذة»[٢]، هذا التعريف يبدو لي اليوم قابلاً للطعن فيه من وجهة نظر الشكل، وإن كان مركّباً من عناصر لا غبار عليها. فقد كان ينزع نزوعاً أقوى مما ينبغي إلى التوحيد، وقد اتخذ نموذجاً له العملية نفسها التي يمارسها العصابيون الوسواسيون حينما يخلطون، بما يميِّزهم من ميل إلى كل ما هو مبهم وغير مؤكد، أشدَّ التشكيلات النفسية تبايناً ويجمعونها تحت يافطة «الوسواس»[٣]. والواقع أنه قد يكون من الأصح أن نتكلم عن **تفكير قهري**

---

١ ـ إن عدداً من النقاط المعالجة هنا وفي الفقرات التالية قد سبق بيانها في الكتابات المتصلة بالعصاب الوسواسي، كما نستطيع أن نتبيَّن ذلك في الدراسة المهمة والمتبحرة التي نشرها لوفنفلد(*) عن هذا العصاب بعنوان: **الظاهرات النفسية الوسواسية** (١٩٠٤).

(*) ليوبولد لوفنفلد: طبيب نفسي نمساوي (١٨٥٧ ـ ١٩٢٣). من مؤلفاته: **آرائي حول دور الجنس في نشوء الأعصبة**. «م».

٢ ـ **ملاحظات جديدة حول الأعصبة النفسية الدفاعية**، الأعمال الكاملة، م١.

٣ ـ هذا الخطأ في التعريف قد جرى تصحيحه إلى حدّ ما في المقال الآنف الذكر عينه. فقد كتبت فيه أقول: «إن الذكريات المعاودة انبعاثها والتأنيبات الناجمة عنها لا تبدى أبداً مع ذلك على حالها هذه في الشعور. فما يغدو شعورياً في صورة وسواس وانفعال وجداني قهري، وما يحتل مكان الذكريات الإمراضية في الحياة الشعورية، هي التشكيلات التسووية المؤلَّفة من التمثلات الكابتة والتمثلات المكبوتة». يجدر بنا إذاً أن نشدد بوجه خاص في التعريف الآنف الذكر على كلمة «محرَّفة».



وأن نبرز الواقعة التالية، وهي أن التشكيلات القهرية يمكن أن تكون لها دلالة الأفعال النفسية الأشد تنوعاً: أمنيات، إغراءات، حفزات، تفكرات، شكوك، أوامر ونواهٍ. ويميل المرضى إجمالاً إلى طمس الحدود الفاصلة بين هذه الأفعال وإلى تجريد مضمونها من شحنته الوجدانية وتقديمه في شكل «وساوس». ويعطي مريضنا مثالاً على ذلك في واحدة من الجلسات الأولى (ص ٣١٧) حينما وصف أمنية بعينها بأنها مجرد «ترابط في الأفكار».

ينبغي أيضاً أن نقرّ بأن فينومينولوجيا التفكير الوسواسي بالذات لم تحظَ حتى الآن بالتقييم والدراسة الكافيين. ففي أثناء النضال الدفاعي الثانوي الذي يخوض المريض غماره ضد «الوساوس» التي شقَّت طريقها إلى شعوره تتشكَّل ظاهرات جديرة بتسمية خاصة. ولعل القارئ يذكر، مثلاً، سلسلة الأفكار التي شغلت بال مريضنا في أثناء رحلة الإياب من المناورات. فهي لم تكن مجرد اعتبارات منطقية خالصة اعترضت الأفكار الوسواسية وناهضتها، وإنما كانت بصورة ما مزيجاً هجيناً من كلا نوعي التفكير: إذ اندمجت بالأفكار الدفاعية بعض مقدِّمات الوسواس القهري الذي كان عليها أن تقاومه، ومَوْضَعت نفسها (بواسطة المنطق) على صعيد التفكير المرَضي. وأعتقد أن ظاهرات كهذه تستأهل اسم **الهذاءات**[٤]. وسأقدِّم هنا مثالاً ـ أرجو القارئ أن يدرجه في المكان المرام من تاريخ حالة مريضنا ـ من شأنه توضيح هذا التمييز. فحين تعاطى المريض لفترة من الزمن، في أثناء انكبابه على الدراسة، تلك الغرابات السلوكية التي أسلفنا وصفها: المذاكرة إلى ساعة متأخرة من الليل، وفتح الباب الخارجي أمام روح والده، ثم تملِّيه بعد ذلك أعضاءه التناسلية في المرآة (ص ٣٣٩)، كان يحاول إسماع نفسه صوت العقل بمساءلته نفسه عما كان يمكن أن يقول أبوه عن هذا كله لو كان لا يزال حياً حقاً. لكن هذه الحجة لم تؤتِ مفعولها ما دامت متلبسة عنده ذلك الشكل المنطقي؛ ولم يقلع المريض عن سلوكه الغريب إلا بعد أن أعطى الفكرة نفسها شكل تهديد ذي طابع «هذائي»: فلو أنه عاد مرة أخرى إلى مثل تلك الحماقة، فسيقع مكروه لأبيه في الآخرة.

---

٤ ـ باللاتينية في النص: DELIRAS. «م».



إن قيمة التمييز، الذي له بكل تأكيد ما يبرره، بين النضال الدفاعي الأولي والنضال الدفاعي الثانوي، تتضاءل على نحو غير متوقع متى ما علمنا أن **المرضى يجهلون منطوق وساوسهم**. وقد يبدو هذا ضرباً من المفارقة، ولكنه مفهوم. ذلك أنه في أثناء عملية التحليل النفسي تزداد، بالفعل، لا شجاعة المريض فحسب، بل كذلك شجاعة مرضه إن جاز القول، فإذا به يأذن لنفسه بتظاهرات أوضح وتعابير أصرح. وإذا ما تركنا لغة المجاز هذه، أمكن لنا أن نقول إن ما يحدث هو في أغلب الظن ما يلي: إن المريض، الذي كان أشاح إلى ذلك الحين برعب عن تظاهراته المرَضية، يعيرها الآن انتباهاً ويطفق بتعرفها بوضوح أكبر وعلى نحو أكثر تفصيلاً[٥].

أضف إلى هذا أنه توجد طريقتان خاصتان للوصول إلى معرفة أدقّ وأوضح بالتشكيلات القهرية. فنحن نتبيَّن، أولاً، أن الأحلام يمكن أن تنطق بالنص الصحيح لأمر قهري، مع أن هذا الأمر لم يتمّ تبليغه في اليوم السابق للحلم إلا بصورة محرفة وبتراء، كما لو في برقية شوَّهها الإيجاز. ويتجلى نص الوساوس في الأحلام في صورة **عبارات منطوقة**، خلافاً للقاعدة التي تنصّ على أن العبارات المنطوقة في الحلم تأتي مباشرة من عبارات نُطق بها في النهار[٦]. ونصل ثانياً، **إذا ما تتبعنا تحليلياً تاريخ حالة المرض**، إلى الاقتناع بأنه إذا ما تتابعت عدة وساوس الواحد تلو الآخر فإنها تكون، حتى وإن لم تكن متطابقة في فحواها، مؤلِّفة لوسواس واحد في الواقع. ذلك أن الوسواس إذا ما تمّ دفعه بنجاح في مرة أولى، عاد أدراجه في مرة ثانية متنكراً، بحيث لا يمكن التعرُّف إليه، وربما أفلح، بفضل تنكُّره تحديداً، في مواجهة النضال الدفاعي بنجع أكبر. بيد أن الشكل الأولي يبقى هو الشكل الحقيقي، وغالباً ما يفصح لنا عن دلالته بدون أي قناع. ومتى ما أفلحنا بعد لأي في إيضاح دلالة وسواس مستغلق على الفهم، يخبرنا المريض في الغالب أن فكرة أو أمنية أو غواية، من قبيل تلك التي توصلنا إلى إعادة

٥ ـ يغالي بعض المرضى مغالاة مسرفة في عدم الانتباه، فلا يكاشفون المحلل النفسي بمضمون وساوسهم، بل يعجزون حتى عن وصف فعل قهري بعينه بالرغم من أنهم أدّوه مرات لا تحصى.

٦ ـ **تأويل الحلم**، الطبعة السابعة، ص ٢٨٣.



بنائها، قد ظهرت لديه فعلاً في يوم من الأيام، قبل ظهور الوسواس، ولكنها لم تستمر في البقاء. ومن سوء الحظ أننا لو أردنا تقديم أمثلة من تاريخ حالة مريضنا لتطلَّب منا عرضها إسهاباً مفرط الطول.

إن الفكرة التي نسمِّيها رسمياً بـ«الفكرة الوسواسية» تحتوي على هذا النحو، في تحريفها عن الفحوى الأصلية، آثاراً من النضال الدفاعي الأولي. والحال أن التحريف هو تحديداً ما يجعل الوسواس قابلاً للحياة، إذ يقف الفكر الشعوري من جراء ذلك عاجزاً عن فهمه، تماماً كما أن مضمون الحلم الذي هو بدوره نتاج لتسوية ولتحريف يبقى مستغلقاً فهمه على الفكر في حالة اليقظة.

إن عجز الفكر الشعوري هذا عن الفهم يتجلى لا في الأفكار الوسواسية ذاتها فحسب، بل كذلك في منتجات النضال الدفاعي الثانوي، وعلى سبيل المثال في الصيغ الدفاعية. وبوسعي أن أسوق على ذلك مثالين جيدين. فقد كانت الصيغة الدفاعية التي يستخدمها مريضنا هي كلمة «ولكن» ABER[7] التي كان ينطق بها بسرعة مصحوبة بإشارة شجب واستنكار. ثم أخبرني ذات يوم أن هذه الصيغة تحوَّرت في الآونة الأخيرة؛ فهو ما عاد يقول «ولكن» ABER، وإنما «ولاكن» ABWEHR. ولما سألته عن سبب هذا التبدل أجاب بأن الحرف ل بدون ألف المدّ ما عاد يوفِّر له ذلك الشعور بالأمان ضدّ تدخُّل شيء ما غريب ومضادّ، ولهذا قرَّ قراره على أن ينطق به مع ألف المدّ. على أنه سرعان ما اتضح أن هذا التفسير ـ وهو في الأصل أسلوب مألوف في العصاب الوسواسي ـ غير دقيق، وأقصى ما يمكن أن يبلغ إليه هو التبرير المعقلن. أما في الواقع فإن كلمة ABER كانت مجانسة لكلمة ABWEHR[8]، وهي كلمة دخلت في قاموسه بنتيجة مناقشاتنا النظرية حول التحليل النفسي. وهكذا يكون قد استغلَّ العلاج استغلالاً غير مشروع و«هذائياً»، تعزيزاً لصيغة دفاعية.

وفي مرة أخرى تكلم عن الكلمة السحرية الرئيسية التي نحتها من الأحرف

٧ ـ انظر أعلاه ص ٣٠٧. «م».

٨ ـ أي «الدفاع». وبديهي أن الترجمة الحرفية كانت هنا مستحيلة. «م».



الأولى لجميع صلواته الأكثر نجعاً ليدفع عن نفسه الإغواء والتجربة، وذلك بعد أن أضاف إليها لفظ AMEN[9] كذيل تنتهي به. ولا أستطيع أن أورد هنا هذه الكلمة بعينها لأسباب ستتضح حالاً. وبالفعل، حين ساورني مريضي بها لاحظت أنها بمثابة تصحيف لاسم سيدته المعبودة. وكان اسمها يشتمل على حرف س، وقد وضعه قبل AMEN مباشرة. وعلى هذا النحو جعل اسم حبيبته يلاصق، إن جاز لنا القول، سائله المنوي[10]؛ وبعبارة أخرى، لقد كان يستمني وهو يتمثلها في ذهنه. ولم يفطن المريض نفسه إلى هذه العلاقة التي كانت ظاهرة جداً للعيان مع ذلك؛ فدفاعاته تركت المكبوت يخدعها. وهذا في الأصل مثال جيد على القاعدة التي تنصّ على أن **الشيء الذي يتحتم كبته يتوصل، مع الزمن، وبصورة مطردة، إلى النفاذ إلى داخل ما يكبته.**

حين نقول إن الوساوس تتعرض لتحريف مشابه لذاك الذي تتعرض له أفكار الحلم قبل أن تصبح هي المضمون الظاهر للحلم، فإن اهتمامنا لا يمكن أن ينصبّ إلا على تقنية هذا التحريف. وما كان لشيء من حيث المبدأ أن يمنعنا من عرض مختلف الكيفيات التي يتمّ بها هذا التحريف كما تكشف لنا عنها أمثلة الوساوس التي تأتّى لنا أن نفهمها وننجز ترجمتها. لكن لا يسعني في إطار هذا النص أن أعطي عن ذلك أكثر من بضع عينات. إن وساوس مريضنا لم تكن كلها مبنية بمثل تلك الطريقة المعقدة والصعبة على الفهم التي بنى بها وسواسه الأكبر عن الجرذان. ففي بعض الوساوس كانت التقنية المستخدمة بسيطة للغاية، لا تتعدى التحريف عن طريق الحذف أو الإضمار، وهذا أسلوب تحسن النكتة استخدامه، ولكن الغرض منه في الحالة التي نحن بصددها كان توفير وسيلة دفاعية ضد فهم واقع الأشياء.

لقد كانت واحدة من أقدم أفكار مريضنا الاستحواذية وأكثرها إيثاراً عنده (وهذا الوسواس كان بمثابة تحذير وإنذار) هي التالية: **إذا تزوجت من السيدة فسيقع لأبي مكروه** (في الآخرة). فإذا أدرجنا الآن الحلقات الوسيطة المحذوفة

---

٩ ـ أي «آمين». «م».

١٠ ـ السائل المنوي بالألمانية SAMEN. «م».



التي كشف لنا عنها التحليل، كان مؤدى هذه الفكرة كما يلي: لو كان أبي حياً لثار غضبه على مشروعي للزواج من هذه السيدة مثلما كان ثار غضبه في الماضي في مشهد طفولتي، بحيث كان حنقي سيتفجر من جديد ضده، فأتمنى له الأذى، وما كان ثمة مناص من أن ينزل به هذا الأذى بالنظر إلى كلية قدرة رغباتي[11].

وهاكم حالة أخرى من الحذف الإضماري، لها بدورها قيمة التحذير أو التحظير الزهدي. فقد كان للمريض ابنة أخت صغيرة لطيفة يحبّها حباً جماً. وذات يوم خطرت له هذه الفكرة: «**إذا أبحت لنفسك جماعاً، فسيقع مكروه لإيلا** (ستموت) ». ولنضف هنا ما حُذف: «في كل جماع، وحتى مع امرأة غريبة، لن يكون أمامك مناص من التفكير بأن العلاقات الجنسية في حياتك الزوجية لن تعطيك أبداً طفلاً (عقم حبيبته): وستأسف لذلك أسفاً شديداً حتى إنك ستحسد أختك على صغيرتها إيلا. ومشاعر الحسد هذه ستتسبب في موت الطفلة»[12].

إن طريقة الحذف الإضماري تبدو في العصاب الوسواسي نمطية. وقد التقيتها في وساوس مرضى آخرين. وكان منها بوجه خاص حالة شكّ شفافة للغاية لدى سيدة تعاني أصلاً من أفعال قهرية، وكانت مثيرة أيضاً للاهتمام بحكم انطوائها على قدر من التشابه مع بنية وسواس الجرذان. ففيما كانت السيدة المذكورة

١١ ـ لنا عودة إلى كلية القدرة هذه (انظر أدناه ص ٣٦٤).

١٢ ـ بودّي أن أمثّل على استخدام الأسلوب الإضماري في النكتة ببعض الأمثلة المقتبسة من كتابي: **النكتة وصلاتها باللاشعور**، لايبزغ وفيينا، منشورات ب: دونيكه، ١٩٠٥، والمعاد نشره في المجلد ٦ من الأعمال الكاملة: «كان في فيينا كاتب هجّاء محبّ للتطاول، وكانت لوذعياته القارصة قد عرّضته غير مرة للأذى البدني من قبل ضحاياه. وعلى إثر فعلة قبيحة صدرت عن أحد خصومه المعتادين علّق شخص ثالث قائلاً: «لو سمع بها س(*) لتلقى صفعة أخرى». واللغو الظاهر في هذه العبارة يزول متى استكملناها بما يلي: «فسوف يكتب عندئذ عن خصمه مقالاً شديد الإقذاع، بحيث أنه... إلخ». وهذه النكتة الإضمارية تنطوي في مضمونها أيضاً على جوانب من الشبه مع المثال الأول الذي أوردناه عن وساوس المريض.

(*) هو الكاتب الهجّاء الفييناوي المشهور كارل كراوس (١٨٧٤ ـ ١٩٣٦). «م».



تتجول مع زوجها في نزهة في نورمبورغ[١٣]، اصطحبته إلى مخزن كانت تريد أن تتبضع منه حوائج شتى لطفلتها ومن بينها مشط. وقد استغرق انتقاء هذه الحوائج وقتاً أطول مما ينبغي، على حدّ تقدير الزوج، فقال إنه يريد أن يذهب ويشتري قطعاً نقدية لمحها وهما في الطريق لدى بائع للعاديات، وبعد أن ينتهي من شرائها سيعود ليصطحب زوجته من المخزن. غير أن الزوجة ارتأت بدورها أن زوجها تغيَّب فترة أطول مما ينبغي. وحينما سألته لدى عودته أين ذهب، فأكد لها من جديد أنه كان في محل العاديات، انتابها في اللحظة عينها شك مؤلم، إذ تساءلت بينها وبين نفسها عما إذا لم يكن المشط الذي ابتاعته تواً لطفلتها موجوداً في حوزتها منذ زمن طويل. وبديهي أنها عجزت عن كشف دلالة هذا الارتباط. والواقع أن الشك خضع هنا لعملية إزاحة ونقل، ومن ثم إننا نستطيع أن نعيد بناء الفكرة كاملة على النحو التالي: «لو صحّ أنك ما كنت إلا عند بائع العاديات، ولو كان عليّ أن أصدِّق ذلك، ففي وسعي أيضاً في هذه الحال أن أصدِّق أنني كنت أمتلك منذ سنوات وسنوات هذا المشط الذي اشتريته للتو». وهذا ضرب من التهكم الساخر يشابه الخاطرة التي اعتملت في ذهن مريضنا: «أجل، بقدر ما هو صحيح أن أبي والسيدة سينجبان أطفالاً، فمن المؤكد أيضاً أنني سأردّ المال إلى أ». وكان الشك لدى السيدة التي تكلمنا عنها مرتبطاً بغيرة لاشعورية صوَّرت لها أن زوجها انتهز سانحة غيابه عنها ليقوم بزيارة غرامية.

لن أقوم هنا بدراسة سيكولوجية للتفكير الوسواسي، ولكن دراسة كهذه من شأنها أن تمدّنا بنتائج ثمينة للغاية. وقد تكون فائدتها في مجال توضيح معارفنا عن طبيعة الشعور واللاشعور أكبر من فائدة دراسة الهستيريا وظاهرات التنويم المغنطيسي. وإنه لمما يرتجى لو أن الفلاسفة وعلماء النفس، الذين يشيدون عن طريق ما يتناهى إلى مسامعهم من أقاويل، أو استناداً إلى تعاريف اصطلاحية محضة، نظريات أريبة براقة عن اللاشعور، يبدؤون بدراسة ظاهرات التفكير الوسواسي لينتهوا منها إلى ملاحظات ذات قوة إقناعية. بل إننا لنكاد نطالبهم بذلك وجوباً لولا أن هذه المهمة أعوص بكثير من طرائقهم المألوفة في العمل.

١٣ ـ نورمبورغ: مدينة ألمانية تقع في مقاطعة بافاريا. «م».



وعليه، سأكتفي هنا بأن أذكر أن الظاهرات النفسية اللاشعورية في العصاب الوسواسي تقتحم أحياناً مجال الشعور في صورتها الأكثر صفاء والأقل تحريفاً، وأن أي مرحلة من مراحل سيرورة التفكير اللاشعوري يمكن أن تكون منطلقاً لهذا الاقتحام لمضمار الشعور. وإلى هذا نستطيع أن نتبيَّن أن الوساوس غالباً ما تتكشف، لحظة ذلك الاقتحام، عن أنها تشكيلات قديمة العهد. وذلك هو السبب في تلك الظاهرة العجيبة التي تقع تحت ملاحظتنا حين نحاول، بمعونة المعصوب الوسواسي، أن نهتدي إلى تاريخ الظهور الأول لوسواس من الوساوس؛ فالمريض يجد نفسه مضطراً على الدوام في هذه الحال إلى الرجوع بأصل هذا الوسواس إلى عهد أبعد فأبعد طرداً مع تقدم التحليل، محاولاً في كل مرة أن يعثر له على علل ظرفية جديدة.

(ب)

بعض الخصائص السيكولوجية للمرضى الوسواسيين:

موقفهم من الواقع والطيرة والموت

يتعيَّن عليَّ أن أعالج هنا بعض الخصائص السيكولوجية للمرضى الوسواسيين؛ ولئن بدت هذه الخصائص غير مهمة بحدّ ذاتها، فإن معرفتها ستفتح لنا الطريق إلى مفاهيم أكثر أهمية. وأنا أعلم أن هذه الخصائص ـ وهي شديدة البروز لدى مريضي ـ لا ترجع إلى الفرد في ذاته، وإنما إلى مرضه؛ ومن ثم إننا نلتقيها، على نحو نمطي تماماً، لدى مرضى وسواسيين آخرين.

كان مريضنا على درجة عالية من الإيمان بالطيرة، وهذا على الرغم من أنه كان متعلماً، مثقفاً، وثاقب الذكاء، وعلى الرغم أيضاً من أنه كان يؤكد بين الحين والآخر أنه لا يعتقد بكل ذلك الهراء. وهكذا كان يتميَّز، بتطيُّره وعدم تطيُّره معاً، تميُّزاً جلياً عن المتطيِّرين من الجَهَلة الذين لا يمكن أن يتزعزع اعتقادهم. وكان يبدو عليه أنه مدرك أن تطيُّره يرجع إلى تفكيره الوسواسي، وإن كان يستسلم بجماع نفسه أحياناً للإيمان بهذه الأباطيل. وإننا سنقتدر بسهولة



أكبر على فهم مثل هذا الموقف المتردد والمتناقض فيما لو أخذنا بوجهة نظر معيَّنة في محاولتنا إيجاد تفسير له. إنني لم أتردد في الافتراض بأن مريضنا كان لديه ـ فيما يتصل بهذه الأمور ـ رأيان مختلفان ومتضادان، لا رأي واحد لما يتحدَّد بعد. وكان يتأرجح ين هذين الرأيين، وكان تأرجحه هذا مرتبطاً على نحو لا لبس فيه بموقفه الآني من اضطراباته الوسواسية بصفة عامة. فما إن يبلغ إلى السيطرة على وسواس من وساوسه حتى يهزأ بقدر كبير من الفهم من قابليته الساذجة للتصديق، ولا يعود شيء بقادر على زعزعته. ولكن ما إن يستحوذ عليه من جديد وسواس قهري لم تتمّ تصفيته بعد ـ أو يصطدم، والأمر سيان، بمقاومة ـ حتى تقع له أغرب الأمور، وكأنما لتساند إيمانه بالأباطيل.

على أن تطيُّره كان على كل حال تطيُّر إنسان مثقف، وكان يضرب عرض الحائط بالخرافات السوقية من قبيل الخوف من يوم الجمعة أو الرقم ١٣، إلخ. لكنه كان يؤمن بالفأل، وبأحلام النبوءة، ويلتقي على الدوام بالأشخاص أنفسهم الذين كانوا خطروا بباله قبل هنيهة دونما سبب، ويتلقى رسائل من أشخاص استحضرهم في ذاكرته بصورة مفاجئة بعد فترة طويلة من النسيان. على أنه كان على قدر كافٍ من الاستقامة أو من الأمانة لآرائه الشخصية كيلا ينسى الحالات التي لم تتمخض فيها أشد إرهاصاته ونُذُره إلحاحاً عن أي شيء على الإطلاق. ومن قبيل ذلك مثلاً أنه حينما كان مرة في طريقه إلى المصيف حدَّثه قلبه حديث اليقين بأنه لن يعود أبداً إلى فيينا حياً. وقد أقرَّ أيضاً بأن القسم الأكبر من نُذُره وفؤوله تتصل بأشياء لا أهمية خاصة لها بالنسبة إلى شخصه، وأنه حينما يلتقي مثلاً بشخص من معارفه خطر بباله قبل هنيهة من الزمن بعد أن كان غاب عن ذاكرته سنوات طوالاً، فإنه لم يكن يحدث شيء بينه وبين هذا الشخص الذي التقاه في مثل تلك الظروف العجيبة. وما كان في مستطاعه بطبيعة الحال أن ينكر أيضاً أن جميع الأحداث المهمة في حياته حدثت بدون أن يصحبها نذير مسبق: ومن ذلك مثلاً أن أباه مات على غير انتظار منه. لكن جميع هذه الحجج ما كانت تغيِّر شيئاً في ازدواجية معتقداته، ولا تكشف إلا عن الطابع الوسواسي لتطيُّره، هذا الطابع الذي كان يمكن استنتاجه على كل حال من التزامن بين تأرجحه في معتقداته وبين تذبذب المقاومة لديه.



وبطبيعة الحال لم أكن في وضع يمكنني من جلاء أمر جميع القصص العجائبية المتصلة بماضي مريضي من وجهة نظر عقلانية، لكني استطعت، فيما يتعلق بتلك التي وقعت في أثناء العلاج، أن أثبت له أنه كانت له هو نفسه على الدوام يد في ابتداع تلك المعجزات، وأن أبيِّن له الوسائل التي كان يستخدمها لهذا الغرض. فقد كان يعتمد في ذلك على الرؤية والقراءة اللامباشرتين، وعلى النسيان، وعلى الأخص على مطالعات الذاكرة، وفي النهاية راح يساعدني هو نفسه على كشف سرّ هذه الشعبذات التي بفضلها كان يحقق معجزاته. وقد حضرته ذات يوم ذكرى على جانب من الأهمية بالنظر إلى أنها كشفت عن الجذر الطفلي لإيمانه بواقعية نذره ونبوءاته، وذلك عندما تذكَّر أن أمه كانت تقول كلما اقتضى الأمر تحديد تاريخ أو ميعاد: «في هذا اليوم أو ذاك لن أستطيع، لأنني سأكون طريحة الفراش». وبالفعل، كانت تلزم الفراش في اليوم الموعود!

كانت تساوره حاجة بلا أدنى شك إلى أن يجد في هذا النوع من الأحداث نقاط استناد لإيمانه بالطيرة؛ ولهذا كان يعير انتباهاً كبيراً للمصادفات الكثيرة التي لا تفسير لها والتي تعجّ بها الحياة اليومية، وكان بنشاطه اللاشعوري يساعد المصادفة حيثما تكون غير كافية. وقد وجدتُ نظير هذه الحاجة لدى العديد من المرضى الوسواسيين، وإني لأفترض وجودها لدى غالبيتهم. وقد تهيَّأ لي أن هذه الحاجة قابلة للتفسير بالخصائص السيكولوجية للعصاب الوسواسي. وكما تقدم بي بيان ذلك (ص ٣٣٢)، فإن الكبت في هذا المرض لا يتمّ عن طريق النساية، بل عن طريق تقطيع العلاقات السببية نتيجة لانسحاب الشحنة الوجدانية. وتحتفظ هذه العلاقات المكبوتة بنوع من القوة بإدراك نفسي داخلي المنشأ[١٤]، بحيث أن المريض يقحم العلاقات المكبوتة على الواقع الخارجي عن طريق الإسقاط، فتنتصب هناك شاهداً على ما جرى استبعاده من الحياة النفسية.

ثمة حاجة نفسية مشتركة أخرى بين المرضى الوسواسيين تمتّ بصلة قربى إلى الحاجة التي تكلمنا عنها تواً، ومن شأنها فيما لو تابعنا دراستها أن تمضي بنا بعيداً

١٤ ـ **علم نفس أمراض الحياة اليومية**، منشورات س. كراغر، برلين ١٩٠٤، المجلد ٤ من الأعمال الكاملة.



في تقصي الدوافع الغريزية، وهي الحاجة إلى **اللايقين** في الحياة أو الحاجة إلى الشك. فاستحداث «اللايقين» هو واحد من الأساليب التي يصطنعها العصاب ليسحب المريض من **الواقع** وليعزله عن العالم الخارجي، وهذا في الحقيقة نزوع مشترك بين الاضطرابات العصابية النفسية كافة. ومن الواضح إلى أقصى حدّ هنا أيضاً أن هؤلاء المرضى يسعون إلى تحاشي اليقين وإلى البقاء أسرى الشك. ويجد هذا النزوع لدى بعضهم تعبيراً حياً في نفورهم من الساعات لأنها تتكلف بضبط الوقت بدقة؛ وبفضل أحاييلهم اللاشعورية يهتدون إلى طريقة لإبطال فاعلية جميع هذه الأدوات المبدِّدة للشك. وكان مريضنا يدلِّل على براعة خاصة في تفادي الاطلاع على كل ما من شأنه أن يحمله على إبرام قرار في صراعاته. وهكذا كان يجهل من شؤون حبيبته حتى تلك التي تتصل منها مباشرة بزواجه، فكان يقول إنه لا يعرف من أجرى لها العملية، وهل جرى استئصال مبيض واحد أو المبيضين كليهما في هذه العملية. وقد كان عليَّ أن أقسره على تذكُّر ما نسيه وعلى الاستعلام عما يجهله.

إن إيثار المرضى الوسواسيين المسبق للشك واللايقين يغدو لديهم دافعاً إلى توجيه أفكارهم نحو موضوعات يحيط بها عدم اليقين بالنسبة إلى البشر كافة، موضوعات يتحتم أن تبقى معارفنا وأحكامنا فيما يتصل بها أسيرة الشك وجوباً. وتدور هذه الموضوعات في المقام الأول حول الأبوة، وأجل الحياة، والحياة بعد الموت، والذاكرة التي نضع في العادة ثقتنا فيها بدون أن يكون لدينا أدنى ضمانة لأمانتها(١٥).

١٥ ـ يقول ليختنبرغ LICHTENBERG(*): «هل القمر مأهول أم لا؟ إن عالم الفلك لا يعرف ذلك إلا بدرجة من اليقين تعادل تقريباً يقين معرفته بمن كان أبوه. ولكنه يعرف بدرجة أعلى بكثير من اليقين من هي أمّه». ولقد قطعت الحضارة شوطاً كبيراً على طريق التقدم حين قرّ قرار الإنسانية على الأخذ بشهادة الاستنتاج المنطقي، إلى جانب شهادة الحواس، وعلى الانتقال من النظام الأمومي إلى النظام الأبويّ. وثمة تماثيل صغيرة من زمن ما قبل التاريخ، تمثل شكلاً إنسانياً صغيراً جالساً فوق رأس شكل إنساني أكبر، ترمز إلى السلالة الأبوية. والإلهة أثينا التي لا أمَّ لها خرجت من دماغ جوبيتر. وإلى اليوم أيضاً لا يزال الشاهد الذي يشهد على شيء ما في المحكمة يقال له بلغتنا ZEUGE، وهو اسم مستمد من القسط الذي يعود إلى الرجل في مسألة الإنجاب، وكذلك كان الشاهد يُمثَّل قديماً في الكتابة الهيروغليفية بالعضو التناسلي المذكر.

(*) جورج ليختنبرغ: كاتب وفيلسوف وفيزيائي ألماني (١٧٤٢ ـ ١٧٩٩). اشتهر بكتابه **جوامع الكلم**. «م».



يستخدم العصابي الوسواسي على نطاق واسع عدم يقين ذاكرته في تشكيل أعراضه. وسوف نرى عما قليل ما الدور الذي تلعبه في فكر هؤلاء المرضى مسألة طول العمر والحياة في الآخرة. لكن قبل أن أتابع عرضي أودّ أن أناقش بعد سمة خاصة من سمات الإيمان بالطيرة لدى مريضنا، وهي سمة لا بدّ أن تكون أدهشت أكثر من قارئ واحد حيث سبقت لي الإشارة إليها (ص ٣٦٠).

أقصد هنا **كلية القدرة** التي كان يعزوها إلى أفكاره ومشاعره والأماني الخيِّرة أو الشريرة التي يمكن أن يتمنّاها. وقد نميل هنا بكل تأكيد إلى القول بأن الأمر هو مجرد هذاء، وأن هذا الهذاء يتخطى حدود العصاب الوسواسي. لكنني التقيت هذا الاقتناع عينه لدى مريض وسواسي آخر، شفي منذ عهد بعيد وهو الآن يمارس نشاطاً سوياً؛ والواقع أن العصابيين الوسواسيين يسلكون جميعهم سلوك من يشارك في هذا الاقتناع. ولهذا يتعيَّن علينا أن نحاول استجلاء سر هذه المبالغة في تقييم الذات. ولنسلِّم للحال، بدون لفّ أو دوران، بأن هذا الاعتقاد ينطوي على قدر لا يستهان به من هذاء العظمة[١٦] الطفلي، ولنسائل مريضنا لنعرف ما الأساس الذي ينهض عليه اقتناعه هذا. وقد أجابنا مشيراً إلى واقعتين في حياته. فعندما دخل للمرة الثانية إلى مصحة التداوي بالمياه، حيث أصاب مرضه تحسناً للمرة الأولى واليتيمة في حياته، طلب أن ينزل في الغرفة عينها التي كانت يسَّرت له، بفضل موقعها، العلاقة التي أقامها مع إحدى الممرضات. فجاءه الجواب بأن هذه الغرفة مشغولة من قبل أستاذ طاعن في السن. فكان ردّ فعله على هذا النبأ، الذي قلَّص إلى حدّ كبير حظوظه في نجع العلاج، بهذه الكلمات غير الودية: «آه، فليمت بالسكتة!». وبعد أسبوعين من ذلك استيقظ ليلاً، وقد بلبلته فكرة جثة، وفي الصباح علم أن الأستاذ المسنّ قد قضى بالفعل بسكتة دماغية، وأن جثته حملت إلى غرفته في الوقت نفسه تقريباً الذي أفاق فيه مريضنا من نومه مضطرباً. أما الواقعة الثانية فذات صلة بآنسة متقدمة في السن، تعيش منفردة، ويساورها توق عظيم إلى أن تُحَبّ، وكانت قد أبدت نحوه تودداً كثيراً، بل سألته ذات مرة مباشرة عما إذا لم يكن يشعر نحوها بعاطفة ما.

١٦ ـ أي الميغالومانيا، وقد ترجمها بعضهم بالنُفاج، وآخرون بالعُظام. «م».



فأجابها جواباً مراوغاً؛ ولم تمضِ بضعة أيام على ذلك حتى علم أن الآنسة المشار إليها ألقت بنفسها من النافذة. وعندئذ انهال على ذاته بالتأنيب وقال لنفسه إنه كان في استطاعته أن ينقذها من الموت لو منحها حبَّه. وعلى هذا النحو توطد اقتناعه بكلية قدرة حبه وكرهه. وبدون أن ننكر كلية قدرة الحب نريد مع ذلك أن نشير إلى أن الواقعتين كلتيهما انتهتا بالموت، وسوف نأخذ بالتفسير الذي يفرض نفسه هنا، وهو أن مريضنا، مثله في ذلك مثل غيره من العصابيين الوسواسيين، مرغم على المغالاة في تأثير مشاعره العدائية على العالم الخارجي، لأن جانباً كبيراً من المفعول النفسي الداخلي لهذه المشاعر عينها يفلت من معرفته الواعية. فحبه ـ أو بالأحرى كرهه ـ هو حقاً كلي القدرة: فهاتان العاطفتان هما بالتحديد اللتان تنتجان الوساوس التي لا يدرك أصلها والتي يحاول بلا جدوى أن يذود شرَّها عنه[١٧].

كان لمريضنا موقف بالغ الخصوصية من الموت. فقد كان يشارك بحرارة في كل مأتم، ويشترك بكل ورع في الجنازات، حتى صار لقبه بين أفراد أسرته «غراب البين»[١٨]. وكان في خياله لا يتوقف عن قتل الناس كيما يتمكن من الإعراب عن تعاطفه الصادق مع أهل الفقيد. وكانت وفاة أخت أكبر سناً منه، وكان له آنئذ من العمر ثلاث سنوات أو أربع، تلعب دوراً كبيراً في أخاييله، وقد تكشفت هذه الوفاة عن أنها وثيقة الصلة بالسيئات الطفلية الطفيفة التي اقترفها في ذلك العمر. ونحن نعلم أيضاً كم شغل موت أبيه أفكاره في سن مبكرة، بل بوسعنا أن نعدّ مرضه استجابة لتمنيه القهري لهذا الموت قبل خمسة عشر عاماً. ولم يكن هذا الامتداد العجيب لمخاوفه الوسواسية إلى «العالم الآخر» إلا تعويضاً عن تمنيه موت أبيه. وقد كان ظهور هذه الحالة لديه على إثر انبعاث حزنه على موت أبيه بعد عام ونصف عام من وفاته، وكان الغرض من هذه الحالة إنكار

---

١٧ ـ (ملحوظة أضيفت سنة ١٩٢٣) ـ لقد اتضح منذئذ أن كلية قدرة الأفكار، أو بتعبير أدق كلية قدرة الأمنيات، تؤلف جزءاً جوهرياً من النفسية البدائية. انظر **الطوطم والتابو**، فيينا، منشورات هيغو هلّر وشركاه، ١٩١٢ ـ ١٩١٣، المجلد التاسع من الأعمال الكاملة.

١٨ ـ حرفياً بالألمانية: طائر الجيَف. «م».



واقعة هذا الموت وكأنه لم يكن؛ وهذا ما كان حاوله بالفعل من قبل في أخاييل شتى له. وقد تعلَّمنا أن نترجم في عدة مواضع (انظر ص ٣٥٤، ٣٥٧) قوله: «الآخرة» بعبارة: «لو كان أبي لا يزال حياً».

على أن سلوك مرضى وسواسيين آخرين يكاد لا يختلف عن سلوك مريضنا، حتى وإن لم يضعهم القدر في مواجهة الموت في مثل تلك السن المبكرة. فهم دائماً مشغولون بطول عمر أشخاص آخرين وباحتمالات موتهم؛ ولا يكون لنزعاتهم التطيُّرية في بادئ الأمر من مضمون آخر غير هذا المضمون، وقد لا يكون لها أيضاً من مصدر آخر غير هذا المصدر. فأول ما يحتاجون إليه هو احتمال الموت ليهتدوا إلى حلّ لصراعاتهم. وإحدى السمات الرئيسية في طباعهم هي العجز عن اتخاذ قرار، وعلى الأخص في أمور الحب؛ لذا نراهم يحاولون إرجاء كل قرار؛ وهم بترددهم في اختيار الأشخاص أو التدابير الواجب اتخاذها يحاكون المحكمة الإمبراطورية الألمانية القديمة التي كانت دعاويها تنتهي إجمالاً، قبل إصدار الحكم، بموت الطرفين المتقاضيين. هكذا يترصد العصابيون الوسواسيون، كلما واجههم صراع حيوي، موت شخص يهمّهم أمره، وفي العادة شخص يقع من أنفسهم موقع الحب، سواء أكان واحداً من والديهم، أم غريماً من غرمائهم، أم موضوعاً من مواضيعهم الحبِّية التي لا يزالون يترددون في الاختيار بينها. وبدراستنا لعقدة الموت في حالات العصاب الوسواسي نطرق مشكلة الحياة الغريزية للمرضى الوسواسيين، وهي المشكلة التي ستحظى الآن باهتمامنا.

(جـ)

الحياة الغريزية وأصل الوسواس والشك

إذا أردنا أن نتعرف القوى النفسية التي أدى تصادمها إلى تشكيل هذا العصاب الوسواسي، فعلينا أن نرجع القهقرى إلى ما كنا عرفناه عند مريضنا عن أسباب مرضه في سن رشده وفي طفولته. فقد تفجر المرض عنده حين واجه، وهو في العشرين من العمر، إغراء الزواج من فتاة هي غير التي كان يحبّها منذ



وقت طويل؛ وقد تملص من وجوب حسم هذا الصراع بإرجائه إلى زمن لاحق كل ما كان يتوجب عليه فعله تمهيداً لحلّ الصراع؛ والعصاب هو الذي أمدّه بوسائل هذا التهرب. ومن الممكن إرجاع تردده ما بين صديقته والفتاة الأخرى إلى الصراع بين تأثير أبيه وحبه للسيدة، وبالتالي إلى صراع في الاختيار بين أبيه وبين الموضوع الجنسي، وهو صراع كان قائماً من الأساس في طفولته الأولى بحسب ما يستبان من ذكرياته ووساوسه. ومن الواضح، فضلاً عن ذلك، أن نفسه كانت مسرحاً للصراع، على امتداد حياته، بين الحب والكره، سواء أبالنسبة إلى صديقته أم بالنسبة إلى أبيه. وتقف تخييلاته الانتقامية وأفعاله القهرية، كوسواس الحرص على الفهم أو قصة الحجر المرمي في الطريق، شاهداً على هذا الصراع الذي كان إلى حدّ ما مفهوماً وطبيعياً بالنظر إلى أن صديقته هيَّأت بعض الدوافع لمشاعره العدائية برفضها الأول في بادئ الأمر، ثم بفتورها بعد ذلك. لكن هذا التناقض في عواطفه كان يحكم أيضاً علاقته بأبيه، كما تبيَّن لنا من ترجمة وساوسه، ولا بدّ أن أباه هيَّأ له هو الآخر دوافع للعدائية في طفولته، كما تسنى لنا أن نتحقق من ذلك بيقين شبه قاطع. وكانت مشاعره نحو صديقته ـ وهي مزيج من المحبة والكراهية ـ تندرج إلى حدّ كبير في سياق معرفته الشعورية. وأقصى ما أمكن له أن يخطئ فيه هو تقديره لدرجة مشاعره السلبية وتعبيرها. وبالمقابل، إن عدائيته تجاه أبيه، وقد كانت فيما سلف بالغة الشدة، أفلتت منذ زمن بعيد من إدراكه وما أمكن ردُّها إلى الوعي إلا عبر مقاومات بالغة العنف. وهذا الكبت للكراهية الطفلية نحو أبيه هو في تقديرنا السيرورة التي دفعت بجميع الصراعات اللاحقة في حياته نحو العصاب.

إن الصراعات العاطفية التي عددناها الواحد تلو الآخر عند مريضنا لم تكن مع ذلك مستقلة بعضها عن بعض، بل كانت ملتحمة في أزواج. فكرهه لصديقته كان يرتبط بتعلقه بأبيه، والعكس بالعكس. لكن التيارين الصراعيين، اللذين يبقيان قائمين بعد هذا التبسيط، وأعني بهما التضاد بين الأب والصديقة والتناقض بين الحب والكره في كل حالة من الحالات، لا ارتباط بينهما على الإطلاق، لا من حيث المضمون ولا من حيث التكوين. فأول هذين الصراعين



يناظر التأرجح الطبيعي بين الرجل والمرأة، من حيث هما موضوعان للحب، ذلك التأرجح الذي يُزجّ بالطفل فيه بتوجيه السؤال المعهود إليه: «من تحب أكثر، البابا أو الماما؟»[١٩]، وهو التأرجح الذي يلازمه فيما بعد على مدى حياته، على الرغم من كل الفوارق الفردية في درجة شدة الحساسيات وفي درجة تثبيت الأهداف الجنسية النهائية. غير أن هذا التضاد سرعان ما يفقد في الحالات السوية طابعه التناقضي الصارخ كاختيار إلزامي لا مناص منه بين طرف أو آخر: إذ يتخلّق هامش لإشباع المطالب اللامتعادلة لكلا الطرفين، وهذا على الرغم من أن تدني قيمة أفراد أحد الجنسين يقترن على الدوام لدى الإنسان السوي بتقدير موازٍ أعلى لأفراد الجنس الآخر.

أما الصراع الثاني، ونعني به الصراع بين الحب والكره، فأعظم إثارة لدهشتنا. ونحن نعلم أن الحالة الحبِّية تأخذ طريقها إلى الإدراك في بادئ الأمر في صورة كره في كثير من الأحيان، إذ إن الحب الذي يُضنّ عليه بالإشباع ينقلب بسهولة وبصورة جزئية إلى كره. ويعلمنا الشعراء أن هاتين العاطفتين المتناقضتين يمكن لهما، في الأطوار المشبوبة من الحالة الحبِّية، أن تتعايشا معاً فترة من الزمن كما لو في مبارزة بين متنافسَيْن. أما التعايش المزمن بين الحب والكره حيال شخص واحد، وبدرجة متماثلة من الشدة في كلتا العاطفتين، فهذا خليق حقاً بأن يثير دهشتنا. فقد كان لنا أن نتوقع أن يتغلب الحب المشبوب على الكراهية منذ زمن بعيد، أو أن تتمكن هذه الكراهية المضطرمة من ابتلاعه وملاشاته. والواقع أن مثل هذا التعايش بين عواطف متناقضة غير ممكن إلا في ظل شروط سيكولوجية خاصة، وبمؤازرة الحالة اللاشعورية.

١٩ ـ انظر النقاش بصدد هذه النقطة في واحدة من الجلسات الأولى. (ملحوظة أضيفت سنة ١٩٢٣) ـ نحت بلولر BLEULER(*) في وقت لاحق مصطلحاً مناسباً للتعبير عن هذه الوضعية العاطفية هو «الازدواجية الوجدانية» AMBIVALENCE. انظر تتمة هذه التأملات في مقالي: **الاستعداد المسبق للعصاب الوسواسي**، ١٩١٣.

(*) يوجين بلولر: طبيب نفساني سويسري (١٨٥٧ ـ ١٩٣٩). أدخل إلى المعجم النفسي مصطلحي الفصام والتوحُّد الانطوائي. التقى فرويد عام ١٩٠٤ وشارك في تأسيس **الجمعية التحليلية النفسية الدولية**. من مؤلفاته: **الخبل المبكر، التاريخ الطبيعي للنفس**. «م».



فالحب لا يكون قد تمكن من إخماد شعلة الكراهية، بل يكون قد أفلح فقط في دفعها نحو اللاشعور، حيث أمكن لها، وقد باتت في مأمن من التدمير على يد الشعور، أن تستمرّ في البقاء، بل حتى أن تنمو. وفي العادة تتعاظم شدة الحب الشعوري تعاظماً شديداً في هذه الشروط، على سبيل ردّ الفعل، ليكون أهلاً للاضطلاع بالمهمة الملقاة باستمرار على عاتقه: ألا هي الإبقاء على نقيضه أسير الكبت. ويبدو أن شرط قيام هذه «الوضعية» الغريبة للغاية في الحياة الحبِّية هو انفصال الضدين في زمن مبكر للغاية، وتحديداً في الطور «ما قبل التاريخي» من الطفولة، واقتران هذا الانفصال بكبت إحدى العاطفتين، وفي الغالب الكراهية.

لو ألقينا نظرة شاملة على عدد من تحاليل المرضى الوسواسيين، لما وجدنا بداً من الافتراض أن السلوك المحكوم بالحب والكره معاً، كسلوك مريضنا، هو واحدة من أكثر الخاصيات تواتراً ومن أشدّها بروزاً، وربما لهذا السبب بالذات من أعظمها أهمية، للعصاب الوسواسي. ولكن مهما يكن كبيراً الإغراء الذي يساورنا بإرجاع مشكلة «اختيار العصاب» إلى الحياة الغريزية، فإن لدينا بالمقابل قدراً كافياً من الأسباب للإفلات من هذا الإغراء، لأنه في مستطاعنا أن نقول لأنفسنا إننا نكتشف في أساس الأعصبة جميعاً الدوافع الغريزية المكبوتة عينها. وهكذا، إن الكراهية، التي يبقيها الحب حبيسة اللاشعور، تلعب أيضاً دوراً كبيراً في توليد الإصابة بالهستيريا والبارانويا. وما نعرفه عن طبيعة الحب أقل من أن يسمح لنا بأن نصدر من الآن حكماً أكيداً، ولا سيما أن علاقة العامل **السلبي** بالمقوِّم السادي من الليبيدو في الحب لا تزال مبهمة كل الإبهام[٢٠]. ولهذا لا نعزو إلا قيمة معرفية مؤقتة إلى الفرضية التي نقول بموجبها إن المقوّمات السادية

٢٠ ـ يقول ألقيبيادس عن سقراط في **المأدبة**: «... كثيراً ما تمنيت لو أني لا أعود أراه بين الأحياء. ومع ذلك إنني أعرف أنه لو حدث ذلك فإن تعاستي ستكون أعظم بكثير، لأنني عديم الحيلة، مشلول الإرادة إزاءه إلى حدّ لا يتصور» (ترجمة ر. كاسنر)[*] ـ

(*) رودولف كاسنر: كاتب ومترجم نمساوي (١٨٧٣ ـ ١٩٥٩). من مؤلفاته: **الموت والقناع**، **المملكة الداخلية**، **الميلانخوليا**. «م».



للحبّ، في الحالات المشار إليها من الكراهية اللاشعورية، كانت قد نمت، لأسباب تتعلق بالجِبِلَّة، نمواً فائق القوة، مما أوجب بالتالي لجمها وكبحها على نحو مجاوز الحد تبكيراً وشدةً. وبوسعنا أن نستنتج من ذلك أن الظاهرات العصابية تتحدد في مثل هذه الحال، من جهة أولى، بالمحبة الشعورية التي تتعزز ملء التعزيز على سبيل ردّ الفعل، ومن الجهة الثانية، بالسادية التي تبقى فاعلة في صورة كراهية في اللاشعور.

لكن كائناً ما كان التفسير الذي نعطيه لتلك «الوضعية» العجيبة الجامعة بين الحب والكره، فإن وجودها يرقى فوق كل شك بالاستناد إلى الملاحظات التي أجريناها على مرضانا؛ ثم إنه يغدو ميسوراً علينا أن نفهم ظاهرات العصاب الوسواسي الشديدة الإلغاز متى ما أرجعناها إلى هذا العامل وحده. فلئن نهض حب مشبوب في وجه كراهية تكاد لا تقلّ عنه قوة، فإن النتيجة المباشرة لوضع كهذا لا بدّ أن تكون شللاً جزئياً للإرادة، وعجزاً عن الخلوص إلى قرار في جميع الأعمال التي يفترض بالحبّ أن يكون الدافع الفعال إليها. لكن هذا «اللاتقرير» لا يبقى مقتصراً لأمد طويل من الزمن على فئة بعينها من الأفعال. إذ ما هي، أولاً، الأفعال التي تصدر عن عاشق ولا تكون ذات صلة بعشقه؟ وثانياً، لأن السلوك الجنسي للإنسان ينطوي على **قوة تعيينية** تتقولب بموجبها بقية أفعاله وأعماله. وثالثاً وأخيراً، لأن من الخصائص السيكولوجية للعصاب الوسواسي أن يستخدم على نطاق واسع آلية الإزاحة والنقل. وهكذا يمتدّ شلل القدرة على التقرير رويداً رويداً إلى كل نشاط الإنسان.

على هذا الأساس ينهض سلطان **الشك والوسواس** كما يتجلى لنا في الحياة النفسية للمرضى الوسواسيين. فالشك يناظر الإدراك الداخلي لعجز المريض عن التقرير كلما عقد النية على فعل أمر من الأمور، من جراء كفِّ الكراهية للحبّ. فالشك هو في الواقع شكٌ في الحب، هذا الحب الذي يفترض فيه أن يكون من وجهة النظر الذاتية الشيء الأكثر يقينية؛ ثم ينسحب الشك على كل شيء آخر، وينتقل بالأفضلية إلى أتفه التفاصيل[٢١]. ومن

٢١ ـ انظر «التمثيل بشيء تافه» كأسلوب من أساليب التنكيت في فرويد: **النكتة وصلاتها باللاشعور**، الطبعة الرابعة، ص ٦٥.



يشكّ في حبه حقَّ له أن يشكّ، بل تحتَّم عليه أن يشكّ في كل شيء آخر هو دون الحب قيمة[٢٢].

إن هذا الشك عينه هو الذي يفضي، في التدابير الدفاعية، إلى عدم اليقين وإلى التكرار المتواصل الذي يرمي إلى الخلاص من عدم اليقين هذا؛ وهذا الشك هو الذي يتوصل أخيراً إلى أن يجعل هذه الأفعال الدفاعية نفسها غير قابلة للتنفيذ، مثلها في ذلك مثل قرار الحب المكفوف من الأصل. وقد كنت وجدتني مضطراً في بداية تحرياتي إلى افتراض وجود أصل آخر أكثر عمومية لعدم اليقين لدى المرضى الوسواسيين، أصل يبدو أقرب إلى المعيار العادي. فلئن ضايقني أحدهم وأنا أكتب رسالة، مثلاً، فإنني أشعر على الأثر بعدم يقين مبرر بصدد ما كتبته وأنا تحت تأثير هذه المضايقة، وأضطر من ثم إلى معاودة قراءة الرسالة ليطمئن قلبي. وهكذا ارتأيت يومئذ أن عدم اليقين عند المرضى الوسواسيين، في أثناء تلاوتهم صلواتهم مثلاً، ناشئ عن اندساس متواصل لأخاييل لاشعورية فيها، مما يضايقهم ويربكهم. وكان هذا الافتراض صحيحاً، وهو قابل للتوفيق في يسر مع رأينا السابق. ولكن إن صحّ أن عدم اليقين من تنفيذ إجراء دفاعي يرجع إلى البلبلة التي أحدثتها الأخاييل اللاشعورية، فإن هذه الأخاييل تشتمل على وجه التحديد على الحفزة المضادة التي كانت الصلاة ترمي أصلاً إلى استبعادها. ولقد اتضح هذا بجلاء كبير في أحد الأيام لدى مريضنا، إذ إن البلبلة لم تبقَ لاشعورية، بل شفَّت عن نفسها بمنتهى الوضوح. فعلى حين كانت بغيته أن يصلي ويقول: «**حفظها الله**»، بزغت على حين غرة في لاشعوره كلمة «لا..» مستبقةً دعاءه، وفطن إلى أن ذلك بداية لاستنزال لعنة عليها (ص ٣٣٠). ولو أن

٢٢ ـ أبيات الحب الموجهة من هاملت إلى أوفيليا:

فلتشكّي في أن تكون النجوم من لهب
لتشكّي في أن الشمس تدور
لتشكّي في أن الحقيقة هي الحقيقة
لكن لا تشكّي أبداً في حبّي!

هاملت، الفصل ٢ ـ المشهد ٢.



كلمة «لا» هذه بقيت خرساء، لكان المريض وجد نفسه في حالة من عدم اليقين، ولكانت صلاته امتدت إلى ما لا نهاية؛ لكنه أمسك في الواقع عن الصلاة لما غدت تلك الـ«لا» لاشعورية بالنسبة إليه. على أنه قبل أن يتوقف عنها جرَّب، كغيره من المرضى الوسواسيين، طرائق شتى للحؤول دون اندساس الفكرة المضادة في صلواته: ومن ذلك أنه راح يختصر هذه الصلوات أو ينطق بها بمنتهى السرعة. ويحاول آخرون أن «يعزلوا» بعناية أفعالهم الدفاعية عن كل ما عداها. لكن ما من طريقة من هذه الطرائق تجدي فتيلاً في نهاية المطاف؛ فما إن تفلح حفزة الحب في تحقيق أدنى نجاح عن طريق إزاحتها إلى فعل تافه، حتى تتبعها الحفزة العدائية للحال وتمحو كل ما فعلته.

حينما يكتشف المريض الوسواسي عدم يقين ذاكرته ـ نقطة الضعف في بنيتنا النفسية ـ يصير في متاحه، بفضل عدم اليقين هذا، أن يسحب شكَّه على كل شيء، حتى على الأفعال التي سبق له إنجازها والتي لم تكن لها إلى ذلك الحين أية صلة بعقدة الحب ـ الكره، وبالاختصار، على ماضيه برمته. وإني لأذكِّر هنا بمثال المرأة التي كانت ابتاعت لتوها مشطاً لابنتها الصغيرة، والتي بعد أن ارتابت في وفاء زوجها راحت تتساءل عما إذا لم يكن هذا المشط في حوزتها منذ زمن طويل. ألم تكن هذه المرأة تقول: «إذا كنت أستطيع أن أشكّ في حبِّك (ولم يكن ذلك إلا إسقاطاً لشكِّها في حبِّها هي نفسها لزوجها)، فبوسعي أيضاً أن أشكّ في ذلك، بل بوسعي أن أشكّ في كل شيء». وعلى هذا النحو تكون قد كشفت لنا عن المعنى الخبيء للشك العصابي.

أما الوسواس بالمقابل فيحاول التعويض عن الشك وتصحيح حالات الكفّ التي لا تطاق والتي ينتصب الشك شاهداً عليها. وإذا ما أفلح المريض أخيراً، بمعونة الإزاحة والنقل، في أن يحزم أمره ويبرم واحداً من مقاصده المكفوفة، تحتَّم عليه أن يضعه موضع تنفيذ. صحيح أن قراره هذا ليس هو مقصده الأصلي، لكن الطاقة التي تكون تراكمت في هذا الأخير لن تفوِّت فرصة تصريف نفسها في فعل بديل. وهي تفصح عن نفسها بالتالي في أوامر ونواهٍ، وذلك تبعاً لكون حفزة الحب أو حفزة الكره هي التي شقّت الطريق إلى التصريف. وإن لم يوضع

الأمر الوسواسي موضع التنفيذ بلغ التوتر حداً لا يطاق واستشعره المريض في صورة قلق بالغ الشدة. ولكن الطريق المفضية إلى هذا الفعل البديل، حتى حين تتم الإزاحة صوب تفصيل تافه، تكون موضع تنازع مرير، فيتعذر في غالب الأحيان أن يرى الفعل البديل النور إلا في صورة إجراء دفاعي وثيق الارتباط بالحفزة التي كانت هي المطلوب تفاديها دفاعياً.

أضف إلى ذلك أن الأفعال التمهيدية يمكن، عن طريق ضرب من **النكوص**، أن تحلّ محلّ القرارات النهائية، فينوب الفكر مناب العمل، وبدلاً من الفعل البديل تبزغ بقوة قهرية خاطرة من الخواطر على سبيل التمهيد للفعل. وتبعاً لدرجة هذا النكوص من الفعل إلى الفكر، يتخذ العصاب الوسواسي طابع التفكير القهري (الوسواس) أو طابع الفعل القهري بحصر معنى الكلمة. غير أن الأفعال القهرية الحقيقية لا تغدو ممكنة إلا بفضل ضرب من المصالحة في إطارها بين حفزتين متضادتين في صورة تشكيل توفيقي. وكلما طال أمد العصاب اقتربت الأفعال القهرية أكثر فأكثر من الأفعال الجنسية الطفلية من النوع الاستمنائي. وبهذه الصورة يتمّ إنجاز أفعال حبِّية حتى في هذا النوع من العصاب، ولكن فقط بمعونة نكوص جديد، أي ليس عن طريق أفعال متجهة نحو شخص بعينه كموضوع للحب أو للكره، وإنما عن طريق أفعال إيروسية ذاتية كما في الطفولة.

إن الشكل الأول من أشكال هذا النكوص، أي النكوص من الفعل إلى الفكر، ييسِّره عامل آخر له دوره في تمخُّض العصاب. فتاريخ المرضى الوسواسيين يكشف بصورة شبه قياسية عن بزوغٍ مبكر وكبتٍ سابق لأوانه للدافع الغريزي الجنسي إلى النظر والاستطلاع، وهو الدافع الذي كان له دوره الأكيد، لدى مريضنا أيضاً، في توجيه شطر من نشاطه الجنسي الطفلي[٢٣].

لقد أسلفنا الإشارة إلى أهمية المقوِّم السادي في تكوين العصاب الوسواسي. وحيثما تكن الدوافع إلى الاستطلاع الجنسي راجحة الكفة في جِبِلَّة المريض

٢٣ ـ أرجح الظن أن القدرات العقلية الرفيعة عند المرضى الوسواسيين مرتبطة بهذه الواقعة.



الوسواسي، يغدُ الاجترار الذهني العَرَض الرئيسي للعصاب. بل إن عملية التفكير بالذات تتجنس: فاللذة الجنسية، التي ترتبط في العادة بمضمون التفكير، تنصبّ الآن على عملية التفكير ذاتها، والرضا الذي يخامر المريض ببلوغه إلى نتيجة معرفية محددة يستشعره في الواقع ضرباً من الإشباع الجنسي. وهذه العلاقة بين **الدافع إلى المعرفة** وبين العمليات التفكيرية تؤهل بصفة خاصة هذا الدافع، في جميع أشكال العصاب الوسواسي التي يلعب فيها دوراً، لأن يجتذب الطاقة، التي تجاهد عبثاً للتعبير عن نفسها في العمل، إلى الفكر الذي يتيح ضرباً آخر من الإشباع اللذِّي. هكذا، وبفضل **الدافع إلى المعرفة**، تستمر أفعال تفكيرية تمهيدية في الحلول محلّ العمل البديل. فالعمل المرجأ سرعان ما ينوب منابه استغراق المريض في التفكير وتلكؤه فيه، بحيث أن العملية رمتها تُنقل، مع حفاظها على جميع خصائصها، إلى أرض جديدة، على منوال الأمريكان الذين ينقلون أحياناً بيتاً برمته دفعة واحدة من مكان إلى آخر.

سأجترئ الآن، بالاستناد إلى الاعتبارات السابقة، على تحديد العامل السيكولوجي ـ وقد طال البحث عنه ـ الذي يضفي على منتجات العصاب الوسواسي طابعها «القهري». فالعمليات التفكيرية تغدو قهرية متى ما أُنجزت ـ نتيجة لكبح واقع على الجزء الحركي من الجهاز النفسي (بحكم الصراع بين حفزتين متضادتين) ـ بإنفاق في الطاقة مرصود في العادة كماً وكيفاً للعمل وحده، أي متى ما أنتجت أفكاراً **وظيفتها أن تحلّ نكوصياً محلَّ الأفعال**. ولا أحد يماري، في ما أعتقد، في صحة الفرضية التي تقول إن الفعل الفكري لا يتطلب في العادة، ولأسباب اقتصادية، سوى عمليات إزاحة ونقل طفيفة للطاقة (وربما على مستوى أعلى)، بخلاف الفعل العملي الذي يكون الغرض منه التصريف وتعديل العالم الخارجي.

إن ما يفلح، في صورة فكرة وسواسية، في شقّ طريقه إلى الوعي بقوة مسرفة، يغدو في حاجة إلى الحماية من جهود الفكر الواعي الرامية إلى تفكيكه وتفتيته. وقد رأينا من قبل أن هذه الحماية تتوفر بفضل التحريف الذي يخضع له الوسواس قبل أن يتأتّى له أن يصير شعورياً. بيد أن هذه ليست هي الوسيلة الوحيدة

المستخدمة. ففي العادة، وعلاوة على ذلك، تُسلخ كل فكرة من الأفكار الوسواسية عن سياق الموقف الأصلي الذي كان سيمكن فيه، على الرغم من التحريف، فهمها في يسر وسهولة. وبهذا القصد يندسّ، من جهة أولى، **فاصل زمني** بين الموقف الإمراضي والفكرة الوسواسية المتولدة عنه، وهذا ما يضلل الفكر الشعوري في بحثه عن السببية؛ ومن جهة ثانية، يُفصل مضمون الفكرة الوسواسية عن علاقتها وأسيقتها الخاصة عن طريق **التعميم**.

إن «وسواس الفهم» عند مريضنا يقدِّم لنا مثالاً على هذه العمليات (ص ٣٢٧). وهاكم مثالاً آخر أفضل بعد: فقد حرَّمت إحدى المريضات عل نفسها أن تتزين بأية حلية، على الرغم من أن العلة الظرفية لهذا التحريم كانت حلية بعينها حسدت أمها عليها وكانت تأمل أن ترثها يوماً. وأخيراً، إن من عادة الفكرة الوسواسية أن تستخدم، لتحمي نفسها من المجهود الذي يبذله الفكر الشعوري لتفكيكها وتفتيتها، ألفاظاً مبهمة أو ملتبسة المعنى (هذا إذا شئنا أن نميِّز هذا الأسلوب عن آلية التحريف بمعناه العام الحقيقي). فهذه الألفاظ تتمكن، بعد أن يساء فهمها من قبل المريض، من الاندماج في «الهذاءات»، ومن ثم إن كل ما سيشتق من الوسواس أو كل ما سينوب منابه لاحقاً سيرتبط بهذا المنطوق اللفظي المساء فهمه، وليس بالفحوى الحقيقية للنص. على أنه في مستطاعنا مع ذلك أن نلحظ أن «الهذاءات» تسعى جاهدة إلى عقد روابط جديدة على الدوام مع مضمون الوسواس وألفاظه التي ما لاقت قبولاً في الفكر الشعوري.

بودِّي أن أعود مرة ثانية إلى الحياة الغريزية للعصاب الوسواسي، لأبدي بشأنها ملاحظة أخرى بعد. فقد كان مريضنا، بالإضافة إلى سائر سماته الأخرى، «**شماماً**»، فكان في مستطاعه في طفولته، مثل الكلب كما قال، أن يتعرف أي إنسان من رائحته؛ وحينما شبّ عن الطوق بقيت الأحاسيس الشمِّية تحتفظ بالنسبة إليه بأهمية تزيد مما هي عليه لدى غيره من الناس[٢٤]. وقد وجدتُ شبيه

٢٤ ـ سأضيف أنه كانت لديه في طفولته ميول كوبروفيلية(*) قوية. وهذا جدير بأن يُربط بإيروسيته الشرجية المشار إليها آنفاً (ص ٣٤٦).

* الشغف بالبراز. «م».



هذه الوقائع لدى عصابيين آخرين، من الوسواسيين والهستيريين على حدّ سواء، وانتهيت إلى أن آخذ في اعتباري ما يكون للذة الشمية، الخامدة منذ الطفولة، من دور في تكوين العصاب[٢٥]. وبوجه الإجمال، يجوز لنا أن نتساءل عما إذا لم يكن ضمور حاسة الشمّ لدى الإنسان، بنتيجة أخذه بالوضعية المنتصبة، وما ترتّب على ذلك من كبت عضوي للشهوانية الشمّية، يلعب دوراً كبيراً في قابلية الإنسان للإصابة بالأعصبة. وعلى هذا النحو قد يتأتى لنا أن نفهم لماذا تحتّم على الجنسية تحديداً، طرداً مع ارتقاء حضارة الإنسان، أن تتحمل تكاليف الكبت. ذلك أنا نعلم بالفعل منذ زمن بعيد مدى الارتباط الوثيق، في التنظيم الحيواني، بين الغريزة الجنسية ووظيفة حاسة الشم.

ختاماً، بودّي أن أعرب عن الأمل في أن يكون في بحثي هذا، على قصوره من كل النواحي، ما يحفز باحثين آخرين على الإقبال على دراسة العصاب الوسواسي، وعلى تسليط مزيد من الضوء، من خلال التبحُّر في هذه الدراسة، على مكوِّناته. وعندي أن العلامات الفارقة، التي تميِّز هذا العصاب عن الهستيريا، ينبغي البحث عنها، لا في الحياة الغريزية، وإنما في الكيفيات السيكولوجية. ولا يسعني طيَّ صفحة مريضي قبل أن أتكلم عما تركه فيَّ من انطباع بأنه كان منشطراً إلى ثلاث شخصيات: شخصية لاشعورية، وشخصيتين قبشعوريتين، وبين هذه الشخصيات الثلاث كان يتأرجح شعوره. فقد كان لاشعوره ينطوي على نوازع وحاثات كُبتت في وقت مبكر من عمره، ويمكن لنا أن نصفها بأنها هوسية وشريرة. وقد كان مريضنا، في أحواله العادية، طيِّباً، محباً للحياة، ذكياً، متَّزناً، مرهفاً ومستنيراً؛ لكنه كان، في تنظيمه النفسي الثالث، ميالاً إلى التطيُّر والتنسُّك، بحيث كان يمكن أن يكون له رأيان في الموضوع الواحد وتصوران مختلفان للحياة. وكانت شخصيته القبشعورية هذه تشتمل على نحو غالب على تشكيلات ارتجاعية مضادة لرغباته المكبوتة، وكان من السهل أن نتوقع، فيما لو طال أمد مرضه أكثر، أن تبتلع شخصيته الأخيرة هذه شخصيته السويَّة. وتتاح لي الآن الفرصة لمعالجة سيدة تشكو من أفعال وسواسية قهرية خطيرة، وقد انشطرت

٢٥ ـ في بعض أشكال التميمية FETICHISME، على سبيل المثال.



شخصيتها على النحو نفسه إلى شخصية حليمة ومرحة وأخرى شديدة الاكتئاب وزاهدة. وهذه السيدة تبؤِّئ شخصيتها الأولى مكانة الصدارة باعتبارها أناها الرسمي، بينما هي راسفة في الواقع تحت سلطان شخصيتها الثانية. وهذان التنظيمان يشقّان كلاهما منفذاً إلى شعورها، ولكن خلف شخصيتها الزهدية يكمن لاشعورها المجهول من قبلها جهلاً مطبقاً، وهو مكوَّن من أقدم نوازعها ورغباتها التي كُبتت منذ زمن بعيد.

ملحوظة (أضيفت سنة ١٩٢٣):

إن المريض، الذي ردَّ إليه التحليل الذي سردت تفاصيله في الصفحات السابقة عافيته النفسية، قتل في الحرب الكبرى، ككثرة غيره من الشبان الممتازين ممن كان يمكن أن تُعقد عليهم آمال عراض[٢٦].

---

٢٦ ـ جرى تجنيده في آب/ أغسطس ١٩١٤، وأسره الروس في ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر، ومات بعد أربعة أيام. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.




مكتبة
الفكر الجديد

عصاب شيطاني من القرن السابع عشر




مكتبة
الفكر الجديد

تقديم

لعل هذا النص، الذي نشره فرويد عام ١٩٢٣ تحت عنوان: **عصاب شيطاني من القرن السابع عشر**، هو من أطرف ما كتبه قط مؤسس التحليل النفسي. فهو يدرس، على ضوء علم نفس اللاشعور، حالة رسام عصابي من القرن السابع عشر، لم يكن مصاباً بمسّ شيطاني فحسب، بل عقد أيضاً مع إبليس عهدين، واحدهما بالدم الأحمر والثاني بالحبر الأسود.

لماذا يبيع الإنسان نفسه للشيطان؟ ومن هو الشيطان؟ وماذا يمثل؟

بديهي أن التحليل النفسي لا ينكر وجود أمير الشرّ، لكنه بدلاً من أن يبحث عن سره في الميتولوجيا أو في العالم الخارجي كما كان يفعل العصر الوسيط، يفتش عنه وعن ماهيته ورموزه ووظيفته في الحياة الداخلية للإنسان.

وقد كنا نشرنا ترجمة هذا النص تحت عنوان **إبليس في التحليل النفسي** نقلاً عن الترجمة الفرنسية التي كان قامت بها ماري بونابرت وإ. ماري عام ١٩٢٧ والتي أعادت منشورات غاليمار إصدار طبعة منقحة منها عام ١٩٧٣ تحت عنوان **دراسات في التحليل النفسي التطبيقي**. وقد أدخلنا بدورنا على ترجمتنا ما رأيناه ضرورياً من التعديلات بالإحالة إلى الترجمة الفرنسية الجديدة المنشورة في المجلد السادس عشر من **أعمال فرويد الكاملة** والصادرة عن المنشورات الجامعية الفرنسية عام ١٩٩١، بقلم كل من بيير كوتيه ورينيه لينه.

ج. ط



عصاب شيطاني من القرن السابع عشر[1]

رأينا، في دراستنا لأعصبة[2] الطفولة، أننا نستطيع أن نكتشف فيها بالعين المجردة الكثير من الأشياء التي لو مرَّ الزمن عليها لبات اكتشافها بحاجة إلى طول تحرٍّ وتقصٍّ. وبوسعنا أن نتوقع الوصول إلى ملاحظة مماثلة بصدد الأمراض العصابية في القرون الماضية، بشرط أن يتوفر لدينا الاستعداد لتعرّفها تحت أسماء مغايرة لأعصبتنا الراهنة. ولا تأخذنا الدهشة إذا ما وجدنا أعصبة تلك الأزمنة النائية تتلبس مظهراً يدخل ضمن نطاق علم الإبليسيات، بينما أعصبة عصرنا الحاضر، الذي لا يزال يخطو خطواته الأولى في مضمار علم النفس، تتبدى، وقد تنكرت في إهاب أمراض عضوية، أقرب في المظهر إلى الهجاس السوداوي HYPOCONDRIE. وقد اكتشف عدد من الباحثين كما هو معلوم، وعلى رأسهم شاركو، تظاهرات الهستيريا في تصاوير المسّ الشيطاني والانجذاب[3] التي أورثنا إياها الفن[4]؛ والحق أنه ما كان ليعسر اكتشاف

١ ـ ظهر هذا النص لأول مرة في مجلة **إيماغو**، م٩/١٩٢٣، الكراسة ١: «**علم النفس الديني**».

٢ ـ الأعصبة جمع عصاب Névrose: اضطراب وظيفي، نفسي المنشأ في الجهاز العصبي، وهو في التحليل النفسي ظاهرة صراعية فيها معارضة لدافع غريزي أساسي. «م».

٣ ـ الانجذاب EXTASE: مرض عصبي يتميز بالشطح العقلي وثبات البصر وجمود الجسم وفقدان الحساسية. «م».

٤ ـ الإحالة هنا إلى كتاب جان مارتن شاركو(*) وبول ريشر(**): **الإبليسيات في الفن**، ١٨٨٧. الترجمة الفرنسية الجديدة.

(*) جان مارتن شاركو: طبيب فرنسي مشهور بأبحاثه في الأمراض العصبية(١٨٢٥ ـ ١٨٩٣). درس عليه فرويد لفترة وجيزة من الزمن في مستشفى السالبتريير في باريس. «م».

(**) بول ريشر: طبيب أعصاب ومؤرخ ورسام ونحات فرنسي (١٨٤٩ ـ ١٩٣٣). له دراسات عن الهستيريا والصرع والشلل الهستيري. «م».



مضمون العصاب في تاريخ هذه الأمراض فيما لو وجد عصرئذ من يعيرها المزيد من الانتباه.

لقد كانت النظرية الإبليسية الشائعة في تلك الأزمنة المظلمة أقرب إلى الصحة والصواب من جميع التأويلات البدنية التي رأت النور في حقبة العلوم المسماة بـ«الدقيقة». فضروب المسّ تناظر أعصبتنا التي عمدنا إلى تفسيرها بالاستعانة من جديد بالقوى النفسية. فالأبالسة في نظرنا، نحن، رغبات شريرة، مستهجنة، تنبع من دوافع مكبوحة، مكبوتة. وكل ما هنالك أننا نتحاشى إسقاط هذه الخلائق النفسية في العالم الخارجي على نحو ما كان يفعل العصر الوسيط؛ بل ندعها تولد في حياة المرضى الداخلية حيث مكان إقامتها.



- ١ -

قصة الرسام كرستوف هايتزمن

إنني أدين لمبادرة حميدة من جانب الدكتور ر. باير - ثورن THURN -[٥]، المستشار في المحكمة العليا ومدير مكتبة الاستئمانات الإمبراطورية والملكية سابقاً في فيينا، بما أتاحه لي من فرصة للاطلاع على قصة عصاب من تلك الأعصبة الإبليسية في القرن السابع عشر. فقد اكتشف باير - ثورن في المكتبة المذكورة مخطوطة آتية من مزار ماريازل[٦]، وتسرد بالتفصيل قصة الخلاص العجائبي، بنعمة القديسة مريم العذراء، من حلف معقود مع الشيطان. وقد أيقظت اهتمامه بها علاقة هذا الموضوع بأسطورة فاوست[٧]، مما حثَّه على التبحر في دراسة هذا الموضوع وتوضيحه. لكنه حين اكتشف أن الشخص الذي تصف المخطوطة خلاصه كان يشكو من نوبات تشنجية ومن رؤى، توجَّه إليّ ليحصل على رأي طبي في المسألة. وقد اتفقنا على أن ينشر كل واحد منا بحثه على حدة وبصورة مستقلة. وإني لأعرب له عن شكري لإيحائه لي بفكرة هذا البحث، والمساعدة

٥ - رودولف باير- ثورن: مدير مكتبة الاستئمانات والمشرف على متحف غوته في فيينا (١٨٦٧ - ١٩٣٢). وقد نشر بنفسه مقالاً في الموضوع بعنوان: **فاوست في ماريازل**. «م».

٦ - ماريازل: مدينة نمسوية ومحجّ. «م».

٧ - الدكتور فاوست: بطل قصة شعبية ألمانية من القرن السادس عشر، وهو عالم خاب أمله بعلمه فعقد مع الشيطان ميثاقاً باع له بموجبه روحه مقابل حياة ثانية مدارها كلها على اللذات الحسّية. وهذه القصة، التي تعددت صيغها، مستوحاة أصلاً من حياة دكتور معاصر للمصلح الديني البروتستانتي لوثر كان يمارس السحر ويدَّعي أنه قادر على إتيان معجزات مشابهة لتلك التي تعزى إلى المسيح. وكان لوثر وأنصاره يكنّون له بغضاً ويؤكدون أنه مسكون بالشيطان. وقد استوحى العديد من الكتاب قصته. ومنهم غوته في مسرحيته **فاوست**، وكذلك في اللغة العربية توفيق الحكيم في **عهد الشيطان**. «م».



التي قدّمها لي مراراً في دراسة المخطوطة.

إن قصة هذا المريض الإبليسية تقدم لنا بالفعل كنزاً ثميناً ينمّ عن وجوده بملء الشفافية، دونما حاجة إلى التمعن في التأويل، مثلما يهدي عِرق المنجم الظاهر للعين إلى المعدن الصرف الخالص الذي لا سبيل إلى استخلاصه إلا بشقّ الأنفس من الفلز الخليط الذي يتطلب صهراً.

تنقسم المخطوطة، التي أمامي منها نسخة طبق الأصل، إلى قسمين مختلفين تماماً: رواية إخبارية محررة باللاتينية بقلم الكاتب أو الناسخ الراهب، ونبذة من يوميات المريض مكتوبة بالألمانية. ويشتمل القسم الأول على مقدمة وعلى قصة الشفاء العجائبي؛ أما القسم الثاني فإن لم يكن قد حظي بأهمية بالنسبة إلى رجال الكنيسة، فإن ذلك لا يزيده إلا نفاسة بالنسبة إلينا نحن. فإسهامه كبير في تعزيز حكمنا الذي لا يزال يتسم بالتردد بصدد هذه الحالة المرَضية. ومن حقّ أولئك الرهبان علينا أن نشكرهم على حفظهم تلك الوثيقة، مع أنه ما كان من الممكن أن تخدم مآربهم، هذا إن لم نقل إنها تناقضها.

قبل المضيّ قدماً إلى الأمام في دراسة الكراسة الصغيرة المخطوطة والمعنونة باسم TROPHAEUM MARIANO - CELLENSE[٨]، يجدر بي أن أنقل للقراء شطراً من مضمونها أقتبسه من المقدمة.

في ٥ أيلول/ سبتمبر اقتيد الرسام البافاري كرستوف هايتزمن، وهو يحمل رسالة توصية من خوري بلدة بوتنبرون (جنوب النمسا)، إلى ماريازل، القرية منها[٩]. وكان قد أقام عدة أشهر في بوتنبرون، يزاول فيها فنه، وفيها أصابته في ٢٩ آب/ أغسطس، وهو في داخل الكنيسة، تشنجات رهيبة. ولما تجددت هذه التشنجات في الأيام التالية فحصَه الـ PRAEFECTUS DOMINICI

٨ ـ باللاتينية في النص: تذكار ماريازل. «م».

٩ ـ لم ترد أية إشارة في أي موضع إلى عمر الرسام. وبوسعنا الافتراض، بحسب السياق، أنه كان رجلاً بين الثلاثين والأربعين من العمر، وفي أرجح الظن أقرب إلى الحدّ الأدنى. وقد توفي، كما سنرى، سنة ١٧٠٠.

١٠ ـ باللاتينية في النص: الوكيل الرباني أو المدبر الرسولي لبلدة بوتنبرون. «م».



POTTEN BRUNNENSIS[١٠]، وسأله عما يعذِّبه وإن كان تورط في علاقة محرَّمة مع إبليس[١١]. وللحال اعترف بأنه كان قبل تسع سنوات، في زمن وهنت فيه مقدرته الفنية وخاف أن تضيق به سبل العيش، قد استسلم لإغراء الشيطان ـ الذي كان قد سعى تسع مرات إلى إيقاعه في التجربة ـ وتعهد له خطِّياً بأن يسلس له قياد جسمه وروحه لدى انقضاء الميقات. وكان أجل ذلك قد اقترب: الرابع والعشرون من الشهر الجاري آنئذ[١٢]. وعضّ الشقيُّ أصابع الندم وداخله الاعتقاد بأن نعمة والدة الله، عذراء ماريازل، هي وحدها التي تستطيع إنقاذه بإرغامها إبليس على أن تعيد إليه العهد الذي خطّه بدمه. ولهذا أباح كاتب التوصية لنفسه أن يوجِّه رسالته إلى رهبان ماريازل من الآباء الصالحين ليشملوا بعطفهم وحسن التفافهم «هذا الرجل البائس الذي ليس له من معين»[١٣].

«ذلك ما كتبه خوري بوتنبرون، ليوبولدوس براون، في الأول من أيلول/ سبتمبر ١٦٧٧. وبوسعي الآن أن أتابع تحليل المخطوطة. وهي تتألف من الأقسام الثلاثة التالية:

١ ـ من عنوان ملَّون يمثِّل مشهد عقد العهد ومشهد الخلاص في مزار ماريازل؛ وعلى الصفحة التالية توجد ثمانية رسوم، ملونة أيضاً، لظهورات للشيطان مع نُبَذٍ مقتضبة باللغة الألمانية. وما هذه الصور بأصلية، وإنما نسخ ـ نسخ أمينة على نحو ما هو معلن رسمياً ـ عن الرسوم الأصلية بريشة كر. هايتزمن.

٢ ـ من المتن الذي يضم التذكار TROPHAEUM ويروي باللاتينية قصة الخلاص العجائبي، وهو من وضع ناسخ مترهب يوقع نهاية الرواية بـ P.A.E، ويضيف إلى هذه الأحرف أربعة أبيات من الشعر يضمنّها سيرة حياته. وتتألف

١١ ـ ننوه هنا على عجل باحتمال أن تكون هذه الأسئلة قد «أوحت» للمريض بفكرة توهم حلفه مع الشيطان.

١٢ ـ باللاتينية في النص: QUORUM ET FINIS 24 MENSIS HUJUS FUTURUS APPROPINQUAT.

١٣ ـ باللاتينية في النص: MISERUM HUNC HOMINEM OMNI AUXILIO DESTITUTUM.



الخاتمة من شهادة من الأب كيليان رئيس دير سان ـ لامبير، بتاريخ ١٢ أيلول/ سبتمبر ١٧٢٩، يؤكد فيها، بخط مختلف عن خط الناسخ، دقة التوافق بين المخطوطة والصور وبين النسخة الأصلية المحفوظة في الأرشيف. ولا يرد ذكر للسنة التي ألِّف فيها **التذكار**. ولنا الخيار بين التسليم بأنه وضع في السنة نفسها التي أعطى فيها الأب كيليان شهادته، أي في سنة ١٧٢٩، وبين إرجاع زمن عمل الناسخ إلى ما بين ١٧١٤ و١٧٢٩ على اعتبار أن آخر تاريخ يرد ذكره في النص هو ١٧١٤. أما الأعجوبة التي أريد بذلك الكتاب صونها من النسيان فقد حدثت سنة ١٦٧٧، أي قبل مدة تتراوح ما بين ٣٧ و٥٢ سنة.

٣ ـ من يوميات الرسام المحررة بالألمانية، والتي تمتد من لحظة انعتاقه وتحرره في المزار إلى ١٣ كانون الثاني/يناير من السنة التالية (١٦٧٨). وقد أدرجت في نص التذكار قبيل خاتمته بقليل.

تتألف مادة **التذكار** بحصر المعنى من رسالة التوصية الآنفة الذكر بقلم ليوبولد براون، خوري بوتنبرون، بتاريخ ١ أيلول/ سبتمبر ١٦٧٧، ومن رواية الأب فرانسيسكوس رئيس دير ماريازل وسان ـ لامبير، التي يسرد فيها قصة الشفاء العجائبي بتاريخ ١٢ أيلول/ سبتمبر ١٦٧٧ـ أي بعد الرسالة الأولى ببضعة أيام. وقد كتب المحرر أو الناسخ P.A.E مدخلاً دمج فيه بنوع ما الوثيقتين كلتيهما؛ ثم أضاف إليه بعض فقرات للربط غير ذات أهمية، وفي الخاتمة رواية لمغامرات الرسام اللاحقة، استناداً إلى معلومات جمعت سنة ١٧١٤[١٤].

هكذا تكون وقائع حياة الرسام قد رويت ثلاث مرات في **التذكار**:

١ ـ في رسالة التقديم بقلم خوري بوتنبرون.

٢ ـ في التقرير الرسمي للأب فرانسيسكوس.

٣ ـ في المدخل الذي كتبه المنشئ.

ومن مقارنة هذه المصادر الثلاثة تبرز بعض الاختلافات التي لن يكون من غير المجدي تحرِّيها وتتبُّعها.

---

١٤ ـ يمكن أن نعتبر ذلك بمثابة توكيد بأن **التذكار** أيضاً قد حُرِّر سنة ١٧١٤.



أستطيع الآن أن أتابع قصة الرسام. فبعد طول توبة وتكفير وصلاة في ماريازل، وبتاريخ ٨ أيلول/ سبتمبر، وهو عيد ميلاد العذراء، وعند منتصف الليل، استردّ من الشيطان، الذي ظهر في المزار المقدس في صورة تنّين مجنَّح، العهد المحرر بالدم. وسوف نعلم لاحقاً، على دهشة عظيمة منا، أن قصة الرسام كر.هايتزمن تشتمل على عهدين مع الشيطان: عهد كتب بالحبر الأسود، وآخر حرر بالدم. وفي مشهد التعزيم الآنف الذكر لا يرد ذكر، كما يستبان ذلك على كل حال من صورة العنوان، إلا للعهد المكتوب بأحرف من دم، أي للعهد الأخير في ترتيب التحرير.

هنا يمكن أن يساورنا، بصدد المصداقية التي ينبغي أن نقرّ بها للرواة الورعاء، شكّ ينبِّهنا إلى ضرورة عدم تبديد مجهودنا في مسألة هي من نتاج أباطيل المعتقدات الرهبانية. فمما ترويه المخطوطة أن عدداً من رجال الإكليروس، المذكورين بأسمائهم، قدَّموا مساعدتهم طول الوقت للمعزَّم عليه، وأنهم كانوا حاضرين أيضاً عند ظهور الشيطان في المزار. ولو زعمت رواية المخطوطة أنهم شاهدوا هم أيضاً التنين الشيطاني حين ناول الرسام الصكّ المكتوب بالأحمر (SCHEDAM SIBI PORRIGENTEM CONSPEXSSET) لكنا وجدنا أنفسنا أمام عدد من الفرضيات غير المستحبة، وقد يكون أقلها إحراجاً فرضية هلوسة جماعية. غير أن نص الشهادة التي حررها الأب فرانسيسكوس بالذات يضع حداً لهذا الشك. إذ لم يرد فيها ذكر البتة لكون الرهبان المساعدين قد رأوا هم أيضاً الشيطان، بل نصَّت ببساطة واستقامة على أن الرسام انتزع نفسه على حين بغتة من بين أيدي الرهبان الذين كانوا يمسكون به ليهرع نحو ركن المزار حيث رأى الشبح ثم عاد بعد ذلك والصك بيده[١٥].

كانت المعجزة كبيرة، وانتصار والدة الله القديسة على الشيطان لا ريب فيه، لكن الشفاء لم يكن للأسف دائماً. ولنؤكد مرة أخرى على نزاهة الرهبان إذ لم

١٥ ـ باللاتينية في النص: —IPSUMQUE DAEMOMEM AD ARAM SAC. CELLAE PER FENESTRELLAM IN CORNU EPISTOLAE SCHEDAM SIBI PORRIGENTEM CONSPEXISSET EO ADVOLANS E RELIGIOSORUM, MANIBUS, QUE EUM TENEBANT, IPSAM SCHEDAM AD MANUM OBTINUIT.



يخفوا هذه الواقعة عن الأنظار. فقد غادر الرسام ماريازل بعيد ذلك، وهو في أحسن حال، وقصد فيينا حيث أقام لدى شقيقة له متزوجة. وهناك انتابته، في ١١ تشرين الأول/ أوكتوبر، نوبات جديدة، وأكثرها خطير، وقد أوردت اليوميات خبرها حتى يوم ١٣ كانون الثاني/يناير. كانت عبارة عن رؤى، وعن غيبوبات كان المريض يحسّ أثناءها ويعاين شتى الأشياء، وعن حالات تشنجية ترافقها إحساسات مؤلمة للغاية، ومرة شلل في الساقين، وهكذا دواليك. لكن ليس الشيطان من كان يعوده هذه المرة، وإنما أشخاص قديسون كالمسيح والعذراء القديسة بنفسها. والعجيب في الأمر أن أوجاعه الناجمة عن هذه الرؤى القدسية وعن العقوبات التي كانت تنزلها به ما كانت تقلّ عن تلك التي كان يعانيها سابقاً تحت وطأة علاقاته بالشيطان. بل إنه يضع في يومياته هذه الأحداث الجديدة في باب ظهورات الشيطان، وقد تشكى من تجليات الروح الشرير[١٦] حين عاد في أيار/ مايو١٦٧٨ إلى ماريازل.

وكانت الذريعة التي تقدم بها إلى الرهبان لتعليل عودته أنه لا يزال عليه أن يطالب الشيطان بصك عهد آخر كان قد كتبه بالحبر[١٧]. وفي هذه المرة أيضاً استجيب التماسه بشفاعة العذراء القديسة والآباء الورعين. لكن الرواية تلزم الصمت بصدد الكيفية التي حدث بها ذلك. وهي لا تذكر سوى كلمات قلائل: QUA IUXTA VOTUM REDDITA[١٨]. من جديد صلّى، واستجابة لصلاته أعيد إليه الصكّ. ولما شعر عندئذ أنه قد تحرر تماماً، انتسب إلى رهبانية إخوة الرأفة.

وينبغي أن نقرّ من جديد بأن الطابع المغرض والمصرَّح به لعمل الناسخ لم يحمله مع ذلك على الحيدان عن جادة الصدق الذي من حقنا أن نطالب به أي راوٍ لقصة مريض. فهو لا يخفي النتائج التي تمخّض عنها تحقيق أجري، بعد وفاة

---

١٦ ـ باللاتينية في النص: MALIGNI SPIRITUS MANIFESTATIONES.

١٧ ـ هذا الصك، الذي حرر كما هو مذكور في شهر أيلول/ سبتمبر ١٦٨٨، كان بالتالي، بعد تسعة أشهر ونصف شهر، أي في أيار/ مايو١٦٧٨، قد تجاوز منذ زمن تاريخ استحقاقه.

١٨ ـ باللاتينية في النص: «فأعيد إليه حسب طلبه».



الرسام، لدى سلطات دير إخوة الِرأفة سنة ١٧١٤. فالأب الموقر رئيس الدير يروي أن الأخ كريزوستوموس[١٩] تعرض عدة مرات أخرى لهجمات إبليس الذي كان يريد أن يجره إلى عقد عهد جديد، ولكن هذا فقط «عندما كان يفرط قليلاً في شرب الخمر». على أنه أمكن على الدوام، بفضل نعمة الله، ردّ الشيطان على أعقابه. وقد توفي الأخ كريزوستوموس بعد ذلك «بوداعة وملؤه العزاء» بحمّى الدق، في العام ١٧٠٠، في دير الرهبانية، في نوشتات على نهر مولدوفا.

١٩ ـ أي فم الذهب.«م».



ـ ٢ ـ

علة العهد مع الشيطان

إذا نظرنا إلى قصة هذا العهد الشيطاني على أنها قصة مرض عصابي، فإن مشكلة تعليل العهد ـ وهي مشكلة ذات صلة وثيقة أصلاً بمشكلة الظرف الذي تسبَّب بالمرض ـ ستكون أول ما يستأثر باهتمامنا. فلماذا يهب الإنسان نفسه للشيطان؟ صحيح أن الدكتور فاوست يسأل بازدراء: «ما بوسعك أن تعطيه، وأنت نفسك شيطان مسكين؟»، لكنه لم يكن على حق: فالشيطان يملك أن يعطي، مقابل نفس خالدة، كل صنوف الأشياء التي يثمِّنها بنو البشر عالي التثمين: الثروة، الأمان في خضم الخطر، السلطان على الناس وعلى قوى الطبيعة، بل حتى الفنون السحرية، ولكن أولاً، وقبل كل شيء المتعة، التمتع بجميلات النساء[٢٠]. فماذا يمكن أن تكون، والحالة هذه، بالنسبة إلى كرستوف هايتزمن علة عهده؟

ليس أي رغبة من هذه الرغبات الطبيعية تماماً، مهما بدا ذلك باعثاً على العجب. وتلافياً لكل حيرة وتردد، حسبنا أن ندقق النظر في التعليقات المقتضبة التي يرفق بها الرسام ظهورات الشيطان التي صوّرها. هاكم، على سبيل المثال، ما جاء في التعليق على الرؤيا الثالثة:

«للمرة الثالثة ظهر لي خلال عام ونصف في هذا المظهر الفظيع، وفي يده

٢٠ ـ انظر في **فاوست**، الفصل الأول (مشهد المكتب):

أودّ الالتزام هنا بخدمتك

وبطاعتك بلا كلل ولا ملل؛

ويوم نلتقي ثانية في العالم الآخر

عليك أن تعاملني بالمثل.



كتاب ليس فيه إلا شعوذة وسحر أسود...».

لكننا نعلم من التعليق المرافق لظهور لاحق أن الشيطان قرّع الرسام تقريعاً شديداً لأنه «أحرق الكتاب الذي كان قد أعلن عنه»، وتوَّعده بأن يقطع أوصاله ويمزقه إرباً إرباً إذا لم يستطع تأمينه له من جديد.

وفي الظهور الرابع يريه صرة نقود صفراء كبيرة وقطعة كبيرة من النقد الذهبي، ويعده بأن يهبه منها قدر ما يشاء؛ «لكنني لم أقبل بذلك البتة!»؛ ومن حق الرسام، بالفعل، أن يتباهى بذلك.

وفي مرة أخرى يسأله أن يلهو ويتسلى. ويعلِّق الرسام على ذلك بقوله: «هذا بالفعل ما حدث بناء على طلبه، لكنني لم أستمر قط أكثر من ثلاثة أيام، وللحال بعد ذلك عدت إلى الاستنكاف».

إن يكن إذاً قد رفض الخوارق السحرية والمال والملذات عندما عرضها عليه الشيطان، وأبى بالتالي أن يدرجها في شروط العقد، فإن المرء لتساوره في هذه الحال الحاجة إلى معرفة ما كان الرسام ينتظره حقاً من الشيطان حين نذر نفسه له. وعلى كل، لا بدّ أن يكون هناك سبب ما وراء طلب الدخول في اتصال مع الشيطان.

يقدِّم لنا **التذكار** في الواقع بصدد هذه النقطة معلومة موثوقة. إذ لما استبدت بالرسام سوداوية المزاج، كان قد أمسى عاجزاً أو عازفاً عن العمل، وقد ركبته الهموم بصدد تدبير أمر معاشه، مما يعني أنه كان مصاباً بثبوط سوداوي مع كفّ INHIBITION عن العمل وخشية (لها ما يبررها) على قوت يومه. إذاً فالقصة التي بين أيدينا قصة مريض فعلاً، ونحن نعلم في الوقت نفسه ما كان سبب هذا المرض الذي سمّاه الرسام نفسه، وبصريح العبارة، بالسويداء: «**لذا كان ينبغي أن أتسلى وأطرد السويداء**». والمصدر الأول من مصادرنا الثلاثة، أي رسالة التوصية بقلم الخوري، لا تأتي إلا بذكر حالة الثبوط (DUM ARTIS SUAE PROGRESSUM EMOLUMENTUMQUE SECUTURUM PUSILLANIMIS PERPENDERET)[٢١]. لكن المصدر الثاني، أي

٢١ ـ باللاتينية في النص: «ناظراً إلى تقدم فنه وقيمته بثبوط همة». «م».



تقرير الأب فرانسيسكوس، يتمكن من أن يسمي لنا نقطة انطلاق هذا الثبوط أو الاكتئاب، إذ يقول بهذا الصدد: (ACCEPTA ALIQUA PUSILLANIMITATE EX MORTE PARENTIS)[٢٢]. كذلك جاء في مقدمة الناسخ بالألفاظ نفسها ولكن مقلوبة: «EX MORTE PARENTIS ACCEPTA ALIQUA PUSILLANIMITATE». إذاً فقد توفي والده، ولهذا وقع فريسة السويداء؛ وعندئذ ظهر له الشيطان، وسأله عن سر اضطرابه وحزنه الشديدين، ووعده بأن «يساعده بكل الوسائل ويسعفه»[٢٣].

نحن إذاً أمام شخص يبيع نفسه للشيطان بغية الخلاص من اكتئاب نفسي. وهذه في الحق ذريعة ممتازة! وهي مفهومة تماماً بالنسبة إلى أي شخص يقدر على وضع نفسه موضع إنسان يعاني من آلام مثل تلك الحالة ويعرف، فضلاً عن ذلك، مدى ضآلة قدرة فن الطب على تسكين هذا الداء. ومع ذلك، ليس لأحد من قرائنا أن يحزر ما العبارات التي صيغ بها العهد المعقود مع الشيطان (أو بالأحرى العهدان الاثنان، وأولهما كُتب بالحبر، وثانيهما حُرِّر بالدم بعد زهاء نصف عام، وكلاهما محفوظ، كما هو مذكور، في مذخر ماريازل، ومنسوخ في **التذكار**).

إن هذين العقدين ليبعثان على العجب الشديد من زاويتين اثنتين. فهما أولاً لا ينصّان على أي التزام من جانب الشيطان مقابل رهن الخلاص الأبدي لديه، كما أن الرسام وحده هو الملزم ثانياً بتلبية طلب الشيطان. وإنه لشيء بعيد عن المنطق، بل ضرب من العبث، أن يقامر ذلك الرجل بروحه لا لينال شيئاً من الشيطان، بل ليؤدي له شيئاً. وأغرب من هذا أيضاً الالتزام الواقع على عاتق الرسام.

فالعقد الأول، المكتوب بالحبر، ينصّ على ما يلي:

أنا الموقع هنا، كريستوف هايتزمن، أنذر نفسي لهذا السيد وكأنني ابنه من صلبه لمدة تسع سنوات. العام ١٦٦٩.

---

٢٢ ـ باللاتينية في النص: «وقد اعتراه ثبوط الهمة هذا غداة وفاة والده». «م».

٢٣ ـ انظر صورة العنوان الأولى والتفسير المواكب لها: الشيطان ممثلاً في هيئة «بورجوازي محترم».



وينص العقد الثاني؛ المكتوب بالدم:

سنة ١٦٦٩

كرستوف هايتزمن، أعهد نفسي كتابة إلى هذا الشيطان، واعداً أن أكون ابنه من صلبه، وبأن أكون بعد تسع سنوات ملكاً له جسداً وروحاً.

بيد أن عجبنا يزول كله متى ما أعدنا ترتيب نص العهد بحيث ينقلب ما يبدو فيه وكأنه مطلب للشيطان إلى تعهد من جانبه بالأحرى، ويمثل بالتالي ما يطلبه الرسام منه. وعندئذ يأخذ هذا العهد الملغز معنى مباشراً ويغدو قابلاً للتأويل على النحو التالي:

يتعهد الشيطان للرسام، لسنوات تسع، بأن يقوم له مقام والده المتوفى. فإذا ما انقضى هذا الأجل، وقع الرسام جسماً وروحاً تحت سلطانه، بحسب الصيغة الدارج استعمالها في هذا النوع من الصفقات. وعليه، إن مسار أفكار الرسام، التي كانت حافزه إلى فعلته، يتحدد كما يلي على ما يبدو: لقد فقد، بوفاة أبيه، كل رغبة في العمل وكل مقدرة عليه؛ فإن وجد بديلاً لهذا الأب، فأمله عندئذ أن يعوِّض عما خسره.

والحال أنه حتى يغدو المرء سوداوياً بعد وفاة أبيه، فلا بدّ أن يكون قد أحبَّه حباً جماً. ولكن من المستغرب في هذه الحال أن تخطر في بال الابن فكرة اتخاذ الشيطان بديلاً عن ذلك الأب المحبوب.



ـ ٣ ـ

الشيطان كبديل عن الأب

إن نكن قد كشفنا للعيان عن طريق هذه الإعادة للتأويل مغزى ذلك العهد مع الشيطان، فهذا ما لن يسلِّم لنا به ـ أخشى ذلك ـ نقدٌ هادئ. فبوسع نقد كهذا أن يواجهنا بالاعتراضين التاليين. فليس من الضروري أولاً اعتبار العهد المكتوب عقداً ينصّ على التزامات الطرفين كليهما. بل هو لا يشتمل بالأحرى إلا على التزام الرسام، على اعتبار أن التزام الشيطان بقي مستبعداً من النص، بوصفه «مضمراً»[٢٤] بنوع ما. والحال أن الرسام يلتزم التزامين: أولاً بأن يعتبر نفسه ابناً للشيطان لمدة تسع سنوات، ثم بأن يكون ملكه جسماً وروحاً بعد مماته. وهذا الاعتراض إذا صحّ يكون قد قوَّض واحداً من الأسس التي بنينا عليها استدلالنا.

أما الاعتراض الثاني فمؤداه أنه لا يجوز إعطاء عبارة «أن أكون ابنه من صلبه» وزناً أكبر مما ينبغي، وأنها قد لا تعدو أن تكون أسلوباً دارجاً في الكلام على نحو ما فهمها السادة الرهبان. وبالفعل، لا يترجم هؤلاء إلى لاتينيتهم البنوة الموعودة في العهدين، بل يكتفون بالقول بأن الرسام نذر نفسه MANCIPAVIT للشيطان، متعهداً بأن يعيش في الخطيئة وأن ينكر الله والثالوث الأقدس. فما الداعي للابتعاد عن هذا التأويل الذي يكاد يكون بدهياً ولا قسر فيه[٢٥]؟ وفي هذه الحال سيكون الأمر في غاية من البساطة: إنسان سوداوي، يفترسه العذاب والضيق المميزان لهذه الحالة الاكتئابية، ينذر نفسه للشيطان ويقرّ له بذلك بأعظم

---

٢٤ ـ بالفرنسية في النص. «م».

٢٥ ـ سنوافق نحن أنفسنا، حين سنبحث في موضوع لمن ومتى حُرِّر ذانك العهدان، على أن نصهما كان ينبغي أن يوضع بألفاظ مألوفة وسهلة الفهم من قبل الجميع. لكن يكفينا حالياً أن يحافظ على التباس في المعنى يمكننا معه إسناد تأويلنا إليه.



سلطان علاجي. وما علينا أن نهتم أكثر من اللازم بكون هذا الاكتئاب ناشئاً عن وفاة الأب؛ فمن الممكن أن تكون له نقطة انطلاق مغايرة تماماً. ومثل هذا الاعتراض متين ومعقول في الظاهر.

ومن جديد يجد التحليل نفسه عرضة للملامة على تعقيده الأشياء الأكثر بساطة حباً منه بالتمحُّك، وعلى رؤيته أسراراً ومعضلات حيث لا وجود لها، وعلى توصُّله إلى ذلك بتضخيمه الأشياء الثانوية الصغيرة، التي لا نعدم نظيراً لها أينما أجلنا الطرف، وبتحميله إياها أوسع الاستنتاجات وأغربها. وعبثاً قد نردّ هنا بأن نبذ التحليل النفسي على هذا النحو لن يكون من نتيجته إلا إلغاء العديد من التشابهات المثيرة للانتباه وتقطيع الكثير من الارتباطات المرهفة، مع أنه كان من الممكن تسليط باهر الضوء عليها. فمناقضونا سيجيبون في هذه الحال بأن هذه التشابهات والارتباطات لا وجود لها بكل بساطة، وأنها مقحمة من قبلنا إقحاماً ببراعة فائضة عن الحاجة.

حسناً! لن أقول تمهيداً للردّ على ذينك الاعتراضين: لنلزم جانب الاستقامة أو جانب الصراحة، فهذا ما يفترض بنا أن نفعله على الدوام دونما مجهود خاص؛ بل سأذهب إلى أبعد من ذلك وأقول: إذا كان ثمة من لا يؤمن سلفاً بقيمة التحليل النفسي، فليس مثال الرسام كر. هايتزمن من القرن السابع عشر هو الذي سيقنعه بها. ولا يدخل أصلاً في نيتي البتة أن أستخدم هذا المثال دليلاً على صلاحة التحليل النفسي؛ بل أفترض بالأحرى أن التحليل النفسي معترف به ومقبول، ثم أستخدمه بعد ذلك لتوضيح سرّ مرض الرسام الشيطاني. وهذا الحق إنما أستمده من نجاح أبحاثنا حول طبيعة الأعصبة بوجه عام. إذ يسعنا التوكيد، بكلِ تواضع، أنه حتى أكثر معاصرينا وزملائنا في المهنة استغلاقَ ذهنٍ قد طفقوا يسلِّمون بأنه لا سبيل البتة، بدون التحليل النفسي، إلى فهم الأمراض العصابية.

«هذه السهام وحدها فتحت طروادة، هي وحدها»: هذا ما يقرّ به أوليس في **فيلوكتيتس** لسوفوكليس[٢٦].

٢٦ ـ فيلوكتيتس: في الميتولوجيا الإغريقية بطل من أبطال حصار طروادة أورثه هيرقلس أسهمه المسمومة التي لا تخطئ هدفها، وعلى قصة حياته كلها بنى سوفوكليس مسرحيته. «م».



فإن صح اعتبار عهد رسامنا مع الشيطان تخييلاً عصابياً، فليس لنا أن نعتذر عن نظرنا إليه من الزاوية التحليلية النفسية. فالقرائن الصغيرة لها أيضاً مغزاها وقيمتها، وعلى الأخص متى ما كان المطلوب تحديد الشروط التي رأى فيها العصاب النور. صحيح أنه من الممكن التهويل أو التهوين من شأنها سواء بسواء، وإنها لمسألة حصافة أن يدرك المرء مدى ما يمكن تعليقه عليها من قيمة. لكن إذا كان ثمة من لا يؤمن بالتحليل النفسي، ولا حتى بالشيطان، فلا نملك إلا أن ندع له مهمة معرفة ما سيفعله بقصة الرسام، سواء أأفلح في تفسيرها بوسائله الخاصة أم لم يجد فيها ما يستأهل توضيحاً.

لنعد إذاً إلى فرضيتنا: إن الشيطان، الذي ينذر الرسام نفسه له، هو في نظره بديل الأب. والشخص الذي يظهر الشيطان في صورته للمرة الأولى يتجاوب وهذه الفرضية: فهو بورجوازي محترم متقدم قليلاً في السن، ذو لحية سمراء، ومعطف أحمر، وقبعة سوداء، يده اليمنى تستند إلى عصا، وإلى جانبه كلب أسود [الصورة ١][٢٧]. وبعد ذلك يظهر الشبح بمظهر مرعب أكثر فأكثر، بل ربما جاز لنا أن نقول: بمظهر أكثر أسطورية؛ فمن عدّته قرون ومخالب نسر وأجنحة خفاش. وفي الأخير يظهر الشيطان في المزار في شكل تنين طائر[٢٨]. ولنا عودة لاحقاً إلى تفصيل محدد آخر من تفاصيل هيئته.

حقاً إنه لمن المستغرب في ظاهر الأمر أن يقع الاختيار على الشيطان بديلاً عن أب

---

٢٧ ـ لدى غوته يخرج الشيطان نفسه من كلب أسود من هذا النوع.

٢٨ ـ هذه الرسوم السبعة التي يحاكي فيها الرسام المجهول الهوية الصور التي كان رسمها كرستوف هايتزمن لظهورات الشيطان تصوّر هذا الأخير في الهيئات التالية:

١ ـ الشيطان في هيئة بورجوازي محترم.

٢ ـ الشيطان وبيده كتاب السحر.

٣ ـ الشيطان بثديين عاريين.

٤ ـ الشيطان وبيده قطعة النقد الذهبية.

٥ ـ الشيطان موصياً بالتلهي والتسلي.

٦ ـ الشيطان بقرنين وذنب.

٧ ـ الشيطان في هيئة تنين طائر. «م».



محبوب؛ بيد أن ما ذلك بغريب إلا للوهلة الأولى فحسب، إذ إننا نعرف وقائع أخرى قمينة بالتخفيف من دهشتنا. فنحن نعلم أولاً أن الله بديل للأب، أو بتعبير أدق أب مبجّل، أو بتعبير آخر أيضاً صورة عن الأب كما كان يُرى ويُحسّ بوجوده في الطفولة، سواء أمن قبل الفرد في طفولته الخاصة، أم من قبل النوع البشري في الأزمنة السالفة بوصفه أبا العشيرة البدائية. وفي زمن لاحق غدا الفرد ينظر إلى أبيه غير هذه النظرة، فبات يراه متضائل الأهمية بنوع ما؛ لكن تلك الصورة الطفلية الأولى لبثت قائمة وانصهرت مع البقايا المتوارثة لذكرى الأب السالف لتؤلف التصور الفردي عن الله. ونعلم أيضاً، من خلال التاريخ الحميم للفرد كما يميط عنه اللثام التحليل، أن العلاقات بذلك الأب كانت، ربما من البداية، تنازعية، أو أنها أضحت كذلك على كل حال في وقت مبكر، بمعنى أنها كانت تشتمل على تيارين وجدانيين متناقضين، أي ليس فقط على عاطفة خضوع وحب، بل كذلك على عاطفة عداء وتحدٍّ. وهذا التنازع عينه يهيمن، بحسب رؤيتنا للأمور، على علاقات البشرية بآلهتها. وإنما بهذا النزاع الذي لا نهاية له بين الحنين إلى الأب، من جهة أولى، وبين الخوف والتحدي البنويين، من الجهة الثانية، أمكن لنا أن نفسر مناحي هامة من الأديان وتطورات حاسمة في مصائرها[٢٩].

بالمقابل، نحن نعلم أن الشيطان الرجيم يُنظر إليه على أنه عدو الله وقريب الصلة للغاية بالطبيعة الإلهية في آن واحد. بيد أن تاريخه ليس معروفاً بمثل العمق الذي نعرف به تاريخ الله، على اعتبار أن الأديان لم تتبنَّ كلها إبليس الشرير، خصم الله؛ ونموذجه في الحياة الفردية يبقى بعيداً عن الأنوار في بادئ الأمر. ولكن الشيء الأكيد أن الآلهة يمكن أن تنقلب إلى أبالسة أشرار إذا ما دحرتها آلهة غيرها. وعندما يُغلب شعب من الشعوب على أمره، فليس يندر أن تستحيل

٢٩ ـ انظر **الطوطم والتابو**. وللمزيد من التفصيل ت. رايك(*): **مشكلات علم النفس الديني**، ١، فيينا ١٩١٩

(*) تيودور رايك: محلل نفسي نمساوي (١٨٨٨ ـ ١٩٦٩). كان من أوائل تلاميذ فرويد الذي تولى مساعدته لاستكمال دراسته. وكانت أطروحته عن الروائي الفرنسي غوستاف فلوبير أول أطروحة تحليلية نفسية في المجال الأدبي. هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية هرباً من النازية. وهناك أنشأ في نيويورك أول معهد علمي للتحليل النفسي. من مؤلفاته: **المازوخية لدى الإنسان المعاصر، القاتل المجهول، الأسطورة والذنب، خلق المرأة، السماع بالأذن الثالثة**. «م».



آلهته الساقطة إلى أبالسة في نظر الشعب الغالب. فقد كان إبليس العقيدة المسيحية، شيطان القرون الوسطى، هو نفسه ملاكاً ساقطاً بحسب الميتولوجيا المسيحية، ومن جوهر واحد والله في الأصل. ولا حاجة بنا إلى رهافة تحليلية كبيرة كيما نحزر أن الله والشيطان كانا متماثلين في الهوية في البداية، شخصية واحدة انشطرت في زمن لاحق إلى وجهين محبوٌّ كلٌّ منهما بصفات متعارضة[٣٠]. وفي الأزمنة البدائية للأديان كان الله ذاته يتَّسم بجميع القسمات المخيفة التي عزيت في زمن لاحق إلى نقيضه.

إن هذه لسيرورة نفسية معروفة لدينا جيداً، إذ ينحلّ التمثُّل المنطوي على تناقض وتنازع إلى ضدين صارخي التباين. لكن هذه التناقضات في طبيعة الله البدائية هي انعكاس للازدواجية التي تهيمن على علاقلات الفرد بأبيه بالذات. فإن يكن الله الرحيم والعادل بديلاً للأب، فما الداعي إلى أن يأخذنا العجب إذا ما تجسَّد الموقف النقيض، موقف الحقد والكره والتمرد، في اختلاق الشيطان؟ وعلى هذا الأساس، يكون الأب هو النموذج البدائي والفردي لله وللشيطان على حدّ سواء. ومن هذا المنطلق لا بدّ أن تكون الأديان حاملة في نفسها لأثر لا يمحى خلَّفه فيها واقع أن الأب الأصلي الأول كان كائناً خبيث الطوِّية إلى غير ما حدّ، أشبه بالشيطان منه بالله.

من المؤكد أنه ليس من السهل اكتشاف أثر التصور الشيطاني للأب في حياة الفرد النفسية. لكن حين يرسم الغلام الصغير وجوهاً مكشِّرة وكاريكاتورية، فقد نفلح في أن نثبت أنه يهزأ فيها من أبيه ؛ وعندما يخاف الصبيان والبنات من اللصوص وقطاع الطرق، فبوسعنا بغير ما صعوبة أن نتعرف في هؤلاء الأخيرين بدائل مشتقة للأب[٣١]. كذلك، إن البهائم التي تظهر في أرهبة الحيوان لدى

---

٣٠ ـ انظر: ت. رايك: **الله الأصلي والله الغريب، في إيماغو**، ٣، ١٩٢٣، في الفصل المعنون: **الله والشيطان**.

٣١ ـ يبدو الأب الذئب في حكاية الجديان السبعة المعروفة وكأنه لص محترف(*).

(*) الجديان السبعة والذئب: قصة شعبية ألمانية تدور حول عنزة أوصت جديانها السبعة، قبل أن تخرج إلى الغابة للبحث لهم عن طعام، بأن يأخذوا حذرهم من الذئب الذي قد يجيئهم متنكراً. ولكن بالرغم من تحذيرها استطاع الذئب أن يغشّهم ففتحوا له الباب فافترسهم سبعتهم. «م».



الطفل هي في أكثر الأحيان بدائل للأب، مثلما كان الحيوان الطوطمي بديله في الأزمنة السالفة. لكن من النادر أن نعاين، بمثل الجلاء الذي نعاين به لدى رسامنا المعصوب من القرن السابع عشر، واقع أن الشيطان هو صورة عن الأب وبديله. ولهذا أعربت عن أملي، في بداية هذا النص، بأن تهدينا قصة مرض شيطاني من هذا النوع إلى عِرق معدن خالص ليس لنا أن نحصل على نظيره من فلزات الترابطات والأعراض العصابية لعصر تالٍ ـ عصر ما عاد يؤمن بباطل المعتقدات ولكنه بات مصاباً بالمقابل بهجاس المرض ـ أقول: ليس لنا أن نحصل على نظيره من هذه الفلزات الخام إلا بمجهود تحليلي شاق(٣٢).

وأغلب الظن أن اقتناعنا هذا سيتعزز أكثر بعد إذا ما تعمَّقنا في تحليل مرض رسامنا. فليس ثمة من شيء خارق للمألوف إذا ما عانى شخص من الأشخاص، على إثر وفاة والده، اكتئاباً سوداوياً وكفاً عن العمل. ونستنتج في هذه الحال أنه كان يكّن لذلك الأب حباً جماً، وسنستذكر كيف تتظاهر سويداء(٣٣) حادة في كثير من الأحيان كتعبير عصابي عن الحداد.

ولن نكون في هذه الحال إلا على صواب، لكن بشرط ألا نستنتج من ذلك أن تلك العلاقات كانت منسوجة من حب خالص. بل على العكس: فالحداد على فقدان الأب سيتحول بسهولة أكبر إلى سويداء إذا ما كانت العلاقات به تتسم بسمة الازدواجية الوجدانية. ونحن، بتشديدنا اللهجة على هذه الازدواجية، نهيّئ أنفسنا لفهم عملية الانتقاص من قدر الأب، كما يفصح عنها عصاب الرسام الشيطاني. ولو كان متاحاً لنا أن نجمع من المعلومات عن شخص كر. هايتزمن بقدر ما نجمع منها

٣٢ ـ لئن لم نفلح إلا فيما ندر في تحاليلنا في اكتشاف الشيطان كبديل للأب، فلعل مردّ ذلك إلى أن هذا الوجه من وجوه ميتولوجيا القرون الوسطى ما عاد منذ زمن يلعب دوره لدى الأشخاص الذين يقصدوننا لتحليلهم.

أما في نظر مسيحي القرون الماضية الورع فإن الإيمان بالشيطان كان واجباً لا يقلّ إلزامية عن الإيمان بالله. فقد كان بحاجة إلى الشيطان كيما يتمكن من مواجهة الله. ولما تناقص الإيمان في زمن لاحق، ولأسباب شتى، أصاب أول ما أصاب شخص الشيطان. ولو امتلكنا الجرأة على تطبيق فكرة الشيطان كبديل عن الأب على تاريخ الحضارة، لاستأهلت منا محاكمات السحَرة في العصر الوسيط أن ننظر إليها نظرة جديدة.



عن مريض من مرضانا الذين نقوم بتحليلهم، لكان أمكن لنا بيسر وسهولة أن نتبحر في تلك الازدواجية، وأن نحمل المريض على أن يتذكر من جديد متى وفي أية مناسبة دعاه الداعي إلى أن يخشى جانب أبيه ويبغضه، ولكان أمكن لنا بوجه خاص أن نكتشف العوامل الطارئة التي انضافت إلى العوامل النمطية لكراهية الأب، هذه العوامل التي تكمن جذورها حتماً في العلاقات الطبيعية بين الأب والابن. ولعلنا كنا سنجد على هذا الأساس تفسيراً نوعياً للكف عن العمل. ومن المحتمل أن يكون الأب في هذه الحال قد عارض رغبة ابنه في أن يصير رساماً؛ ومن ثم، إن العجز الذي انتاب هذا الأخير، غداة وفاة والده، عن مزاولة فنه ليس، من جهة أولى، سوى تظاهر للطاعة المرجأة ـ وهذه ظاهرة معروفة جيداً ـ كما أن هذا العجز الذي سدّ في وجه الابن سبُل تدبُّر معاشه وقوت يومه قد زاد، من الجهة الثانية، من تحسره على الأب بصفته حامياً من هموم الحياة. ثم إن هذا العجز، بوصفه طاعة متأخرة، تعبير عن تبكيت الضمير وقصاص ذاتي بالغ النجع.

بالنظر إلى تعذر إخضاع كر. هايتزمن، المتوفى سنة ١٧٠٠، لمثل هذا التحليل، فلا مناص لنا من الاقتصار على تسليط الضوء على خصوصيات قصة مرضه القمينة بأن تزوِّدنا بتوجيهات بصدد المنطلقات النمطية لموقف سلبي حيال الأب. وهذه الخصوصيات ليست بالكثيرة عدداً، كما أنها ليست ملفتة كثيراً للنظر، ولكنها عظيمة الفائدة.

بادئ ذي بدء دور العدد ٩. فالعهد مع الشيطان معقود لتسع سنوات. ورواية خوري بوتنبرون، الجديرة بالتصديق بلا جدال، تفصح عن ذلك بوضوح: PRO NOVEM ANNIS SYNGRAPHEN SCRIPTAM TRADIDIT[٣٤]. ورسالة التوصية هذه، المؤرخة في ١ أيلول/ سبتمبر ١٦٧٧، تدلنا أيضاً على أن الأجل سينقضي في غضون بضعة أيام: QUORUM ET FINIS ٢٤ MENSIS HUJUS FUTURUS APPROPINQUAT[٣٥]. وعلى هذا

٣٣ ـ السويداء: المالنخوليا أو الماليخوليا كما جاء في الترجمات العربية القديمة. «م».

٣٤ ـ باللاتينية في النص: «وسلَّمه صكّاً مكتوباً، أجَلُه تسع سنوات». «م».

٣٥ ـ باللاتينية في النص: «سينتهي الأجل في ٢٤ من الشهر الجاري». «م».



يكون العهد قد كتب في ٢٤ ايلول/ سبتمبر ١٦٦٨[٣٦]. ويرد ذكر العدد تسعة في هذه الرسالة مرة أخرى أيضاً: NONIES ـ تسع مرات ـ أي أن الرسام قاوم تسع مرات كما يزعم تجارب الشيطان قبل أن يسقط. وهذا التفصيل لن يرد له ذكر في الروايات اللاحقة. وقد جاء أيضاً في شهادة رئيس الدير: POST ANNOS NOVEM[٣٧]. ويردد الناسخ في نبذته: AD NOVEM ANNOS[٣٨]، مما يدل على أن هذا العدد لم يعتبر مما لا يعتدّ به.

إن العدد تسعة مألوف لدينا في التخييلات العصابية. فهو عدد شهور الحبل، وهو يوجِّه انتباهنا على الدوام، حال ظهوره، إلى تخييل متعلق بالحمل. صحيح أن الكلام يدور، بالنسبة إلى رسامنا، عن تسعة أعوام لا عن تسعة شهور؛ وقد يقال أيضاً إن العدد تسعة هو بحدّ ذاته عدد ذو مغزى ودلالة. ولكن ما يدرينا أن العدد تسعة، بوجه عام، لا يدين بقسط كبير من حظوته لدوره في الحمل؟ وليس لتحويل الشهور التسعة إلى سنوات تسع أن يضلّنا عن سواء السبيل. فنحن نعرف من الحلم كيف أن «نشاطنا النفسي اللاشعوري» يتصرف على هواه بالأعداد. فإن صادفنا في حلم من الأحلام العدد خمسة، على سبيل المثال، فلا بدّ أن نرجعه في كل مرة إلى عدد «خمسة» له أهميته في حياة اليقظة؛ فالمقصود في الواقع خمس سنوات كفارق في السن، أو شركة من خمسة أشخاص، لكن هذه الخمسات تتبدى في الحلم في شكل خمس ورقات نقدية أو خمس ثمار. إذاً فالعدد يبقى هو هو، لكن ما يدل عليه هو الذي يتغيَّر تبعاً لحاجات التكثيف والإزاحة في الحلم. وتسع سنوات في الحلم يمكن بسهولة أن تقابل تسعة شهور في الواقع. ويتصرف عمل الحلم بأرقام حياة اليقظة بكيفية أخرى أيضاً، إذ يضرب صفحاً، وبلامبالاة مطلقة، عن الأصفار، ولا يعتبرها أعداداً. وعلى هذا، إن خمسة دولارات في الحلم يمكن أن تمثِّل خمسين أو خمسمئة أو خمسة آلاف دولار في الواقع.

٣٦ ـ سنهتم فيما بعد بالتناقض المتمثِّل في أن العهدين يحملان تاريخاً واحداً هو سنة ١٦٦٩. «م».

٣٧ ـ باللاتينية في النص: «بعد تسع سنوات». «م».

٣٨ ـ باللاتينية في النص: «لتسع سنوات». «م».



وثمة نقطة تفصيلية أخرى في علاقة الرسام بالشيطان تردّنا بدورها إلى الجنسية SEXUALITE. فقد رأى الشيطان لأول مرة، كما أسلفت الإشارة، في صورة بورجوازي محترم. لكن سرعان ما تبدى له الشيطان، في المرة الثانية، عارياً، شائه الشكل، وله ثديا امرأة. وفي كل ظهور من ظهوراته التالية سيكون له زوج أو أكثر من الأثداء. وفي واحد من هذه الظهورات فقط سيحمل الشيطان، علاوة على الأثداء، قضيباً ضخماً له نهاية ثعبانية. وهذا الإلحاح على تمييز الجنس المؤنث بأثداء كبيرة متدلِّية (لا إشارة هناك على الإطلاق إلى الأعضاء التناسلية المؤنثة) قد يبدو متناقضاً تناقضاً صارخاً مع فرضيتنا القائلة بأن الشيطان هو لرسامنا بديل عن الأب. والحق أن مثل هذا التمثيل للشيطان هو بحدّ ذاته غريب ومخالف للمألوف. صحيح أنه حينما يغدو «إبليس» مفهوماً من المفاهيم الدالة على النوع، وأنه حين يظهر بالتالي عدد كبير من الأبالسة، فلا عجب إن وجدنا بعض هذه الأبالسة وقد صُوِّرت في صورة إناث؛ ولكن يخيَّل إليّ أن «إبليس»، بشخصيته البارزة والقوية وبكونه سيد الجحيم وعدو الله، لا يمكن أن يمثَّل إلا بصورة ذكر، بل ذكر أعلى بقرون وذنب وقضيب ثعباني كبير.

بيد أنه باستطاعتنا، بالاستناد إلى تينك القرينتين البسيطتين، أن نحزر ما العامل النمطي الذي يشرط الجانب السلبي من علاقات الرسام بأبيه. فما يصارع ضده إنما هو الموقف المؤنث إزاء هذا الأب، وهو موقف يدرك نقطة أوجه في تخييل إنجاب طفل منه (تسع سنوات). وغالباً ما نلتقي في تحاليلنا هذه المقاومة التي تتخذ أشكالاً مثيرة للاستغراب في حال التحويل TRANSFERT[٣٩] وتنصب في وجهنا عقبات لا يستهان بها. وها هوذا رسامنا، وقد نشط لديه من جديد، تحت تأثير حداده على أبيه الفقيد وحنينه المتعاظم إليه، تخييل الحمل الذي كان قد كبته منذ زمن بعيد، فما عاد أمامه من وسيلة للذود عن نفسه إزاء هجمة هذا التخييل سوى العصاب والانتقاص من قدر الأب.

لكن لماذا يحمل هذا الأب المحطوط إلى دور إبليس السمة الجسمانية المميِّزة

٣٩ ـ التحويل في التحليل النفسي: إسقاط المريض لمشاعره الحبّية أو العدائية على شخص الطبيب. «م».



للمرأة؟ إن هذه السمة تبدو للوهلة الأولى عسيرة التأويل، لكن سرعان ما يحضر أمامنا تفسيران يزاحم واحدهما الآخر، وإن كانا لا يتنافيان. فالموقف المؤنث من الأب ضُرب عليه نطاق من الكبت حالما أدرك الصبي الصغير أن لمنافسته للمرأة على حب الأب شرطاً، وهو التخلي عن عضو ذكورته، أي الخصاء. وعلى هذا يكون نبذ الموقف المؤنث نتيجة رفضه للخصاء، وهو يجد قياساً أقوى تعبير له في التخييل المعاكس: خصاء الأب نفسه وتحويله إلى امرأة. وعلى هذا الأساس يكون ثديا إبليس بمثابة إسقاط لأنوثة الابن على البديل الأبوي. أما التفسير الثاني لهذه الصفة الجسمانية من صفات إبليس فمنطلقه حبي لا عدائي: وبموجبه يكون هذا الشكل قرينة على أن الحب الطفلي للأم قد حُوِّل إلى الأب وعلى أنه ينطوي بالتالي على تثبيت أموي سابق قوي ومسؤول إلى حدّ ما عن العداء إزاء الأب. وما الثديان الناميان إلا علامة إيجابية على جنس الأم، وهذا في زمن لا يعرف فيه الطفل بعد السمة السلبية للمرأة، أي غياب القضيب[٤٠].

إن كان النفور من القبول بفرضية الخصاء قد جعل من المتعذر على رسامنا أن يتحرر من حنينه إلى الأب، فيسير علينا في هذه الحال أن نفهم أن يكون قد قصد صورة الأم طلباً للعون والخلاص. ولهذا يصرح أن والدة الله القديسة الماريازلية هي وحدها القادرة على تخليصه من العهد الذي تعهد به لإبليس، وفي يوم ميلاد العذراء (٨ أيلول/ سبتمبر) يفوز بالفعل بالخلاص. ولن يقيَّض لنا أبداً بطبيعة الحال أن نعرف إن لم يكن اليوم الذي عقد فيه العهد، ٢٤ أيلول/سبتمبر، يوماً له مدلوله المميَّز الخاص هو أيضاً.

ولعل أكثر ما يقابل بالنفور وعدم التصديق من قبل الراشد السوي في افتراضات التحليل النفسي عن حياة الطفل النفسية هو الموقف المؤنث للصبي

٤٠ ـ قارن مع **ذكرى من طفولة ليوناردو دافنشي**[*]، المؤلفات الكاملة، المجلد ٤.

(*) في هذا البحث الذي نشره فرويد عام ١٩١٠ تحتل مكانة الصدارة في التحليل ذكرى حلم رآه دافنشي في طفولته مداره على عقاب وقف على سريره وفتح فاه بذنبه وراح يضربه بين شفتيه في فعل جماع رمزي استنتج منه فرويد جنسية دافنشي المِثلية من خلال علاقته المتوهَّمة مع أمه «ذات الثدي القضيبي». «م».



الصغير من الأب، وتخييل الحمل الذي يترتب عليه. وما صار في مقدورنا أن نتكلم عن هذا الموقف بلا مراعاة وبلا حاجة إلى طلب مسوِّغات له إلا منذ أن نشر رئيس المحكمة العليا في إقليم الساكس، دانييل بول شريبر SCHREBER، قصة مرضه الذهاني وشفائه شبه التام[٤١]. وقد أتاح لنا نشر هذا الكتاب الثمين الاطلاع على ما يلي: فقد ساور السيد رئيس المحكمة العليا، وهو في حوالي الخمسين من العمر، يقين مطلق بأن الله ـ المتَّسم بالسمات السهلة التعرف لوالد الرئيس، الطبيب المحترم الدكتور شريبر ـ قد أبرم قراره بأن يخصيه وبأن يعامله كامرأة وبأن يستولده بشراً جدداً من طينة آل شريبر (وكان هو نفسه بلا أولاد من زواجه). وتحت وطأة الصراع الذي خاض غماره ضد نية الله تلك، التي بدت له ظالمة مجحفة بقدر ما هي «معاكسة لنظام الكون»، سقط مريضاً، وظهرت عليه جميع أعراض البارانويا التي ما لبثت أن خفَّت حدَّتها مع مرّ السنين حتى لم يبقَ منها سوى رسابة طفيفة. وبديهي أن كاتب قصة مرضه ما كان، على نباهته، ليشتبه بأنه يكشف فيها عن عامل نمطي من عوامل نشوء الأمراض النفسية.

هذا النفور من الخصاء أو من الموقف المؤنث سلخه ألفريد آدلر[٤٢] من سياقه العضوي وأرجعه، من خلال علاقات سطحية أو زائفة، إلى إرادة القوة، وصادر على أنه ميل مستقلّ عمَّده باسم «الاحتجاج الذكوري». لكن بما أن العصاب لا يمكن أن ينشأ إلا عن نزاع بين ميلين، فمن المسوَّغ لنا أن نعيد علة «جميع» الأعصبة إلى الاحتجاج الذكوري كما إلى الموقف المؤنث الذي عليه مدار هذا الاحتجاج على حدٍّ سواء. ولا مراء في أن للاحتجاج الذكوري دوراً مطرداً في

---

٤١ ـ د. ب. شريبر(*): **مذكرات مريض عصبي**، لايبزغ ١٩٠٣. قارن مع تحليلي لحالة شريبر: **ملاحظات تحليلية نفسية حول حالة بارانويا موصوفة في سيرة ذاتية.**

(*) دانييل شريبر، رئيس محكمة الاستئناف في مدينة درسدن، أصابته نوبة هلسية بعد فشله في الانتخابات، فأقيل من وظيفته وأودع مصحة للأمراض العقلية. وعن مذكراته كتب فرويد مقالته المشار إليها. «م».

٤٢ ـ ألفرد آدلر: طبيب وعالم نفس نمساوي (١٨٧٠ ـ ١٩٣٧). قاد أحد أكبر انشقاقين عرفتهما حركة التحليل النفسي، ووضع مذهب علم النفس الفردي والطبعي. «م».



تكوين الطبع، وهو دور بالغ الأهمية في بعض الأنماط، كما لا مراء في أن الاحتجاج المشار إليه ينتصب أمامنا، في تحليل المعصوبين من الرجال، في صورة مقاومة عنيدة. والواقع أن التحليل النفسي يقيّم الاحتجاج الذكوري بحقٍّ قيمته بدالّة عقدة الخصاء، ولكن من دون أن يكون في وسعه القول بكلية قدرته أو كلية حضوره في الأعصبة. ومن بين جميع حالات الاحتجاج الذكوري المتظاهر في جملة من ردود الأفعال والسمات الطبعية البيّنة، كانت أبرز الحالات التي استدعت تدخلي حالة عصاب وسواسي أمكن فيها للنزاع غير المحلول بين الموقف المذكر والموقف المؤنث (خوف الخصاء ولذة الخصاء) أن يعبِّر عن نفسه بوضوح وجلاء. زد على ذلك أن المعالَج كانت تنتابه تخييلات مازوخية تتجه جميعها باتجاه الرغبة في القبول بالخصاء؛ ولقد وصل به الأمر، تحت دفع هذه التخييلات، إلى طلب إشباع مادي لها من خلال مواقف شاذة. وكانت حالته في جملتها تقوم ـ شأنها أصلاً شأن نظرية آدلر ـ على أساس من الكبت ونكران التثبيتات الحبِّية العائدة إلى الطفولة الأولى.

لقد وجد الرئيس شريبر سبيله إلى الشفاء حين قرّ عزمه على العزوف عن مقاومة الخصاء وعلى الارتضاء بالدور المؤنث الذي قيّضه الله له. فساوره عندئذ شعور بالهدوء والصفو والطمأنينة، واستطاع أن يطلب وأن يحقِّق بنفسه خروجه من المصحّ العقلي، وأن يحيا حياة سوية، وذلك باستثناء النقطة اليتيمة التالية: وهي تكريسه بضع ساعات من كل يوم لشؤون أنوثته، وقد رسخ لديه الاقتناع بأن التقدم الوئيد لهذه الأخيرة سيدرك لا محالة الهدف الذي عيّنه له الرب.

ـ ٤ ـ

العهدان

تنطوي قصة رسامنا على تفصيل فريد مثير للانتباه، يتمثل في تصريحه بأنه عقد مع إبليس عهدين مختلفين.

وقد نصّ العهد الأول، المكتوب بالحبر الأسود، على ما يلي:

«أنا الموقع أدناه، كر. هـ... أنذر نفسي لهذا السيد وكأنني ابنه من صلبه لمدة تسع سنوات».

أما نص العهد الثاني، المحرَّر بالدم، فكما يلي:

«كر. هـ... أعهد بنفسي كتابةً إلى هذا الشيطان، واعداً بأن أكون ابنه من صلبه وبأن أكون بعد تسع سنوات ملكاً له جسداً وروحاً».

والنسختان الأصليتان لهذين العهدين كانتا موجودتين بطبيعة الحال، لدى تحرير **التذكار**، في محفوظات دير ماريازل؛ وكانتا كلتاهما تحملان تاريخاً واحداً هو سنة ١٦٦٩.

لقد أتيت بذكر هذين العهدين تكراراً، وسوف أوليهما الآن مزيداً من الاهتمام، وإن يكن خطر المبالغة في التدقيق في التفاصيل يبدو هنا كبيراً فعلاً.

إنه لأمر غريب أن ينذر شخص نفسه لإبليس مرتين، وعلى نحو يحلّ معه العهد الثاني محلّ الأول من دون أن ينسخه ويبطل مفعوله. ولعل من أَلِف قصص إبليس واعتادها، لن تأخذه الدهشة التي أخذتنا. ولكني لا أملك، من جانبي، إلا أن أرى في ذلك سمة تتفرد بها الحالة التي هي موضوع بحثنا. ولقد ساورني الشك حين لاحظت أن هذه النقطة هي بالتحديد النقطة التي لا تتفق



حولها الروايات. والحال أن دراسة هذه التناقضات ستقودنا على نحو لامتوقع إلى تفهم أعمق لحالة مريضنا.

إن الأمر، بموجب رسالة التوصية الصادرة عن خوري بوتنبرون، لهو بمنتهى البساطة والوضوح. فهي لا تذكر سوى عهد واحد كتبه الرسام بالدم قبل تسع سنوات وكان يفترض به أن يحين أجله في غضون بضعة أيام، في ٢٤ أيلول/ سبتمبر؛ وعليه، يكون هذا العهد قد حُرِّر في ٢٤ أيلول/ سبتمبر١٦٦٨؛ لكن هذا التاريخ، الذي نستطيع استنتاجه بيقين، لم يرد له، مع الأسف، ذكر صريح.

وبالمقابل، إن الأمر يبدو أشد تعقيداً بموجب شهادة رئيس الدير فرانسيسكوس المؤرخة، كما نعلم، بعد بضعة أيام (١٢ أيلول/ سبتمبر ١٦٧٧). وإننا لنميل إلى التسليم، بناء عليها، بأن الرسام قد أدلى في غضون ذلك بمعلومات أكثر تفصيلاً. فقد جاء في الشهادة المذكورة أن الرسام وقع عهدين، الأول في ١٦٦٨(وذلك كما هو مفروض بالفعل بموجب رسالة التوصية)، وقد حُرِّرَ بالحبر الأسود، والثاني في **السنة التالية ١٦٦٩**[٤٣] وقد حُرِّر بالدم. والعهد الذي أعيد إليه يوم ميلاد العذراء كان العهد الذي كُتب بالدم، أي العهد الثاني المعقود سنة ١٦٦٩. وهذا لا يستبان من شهادة رئيس الدير، إذ كل ما جاء فيها بصدد ذلك هو فقط ما يلي: SCHEDAM REDDERET[٤٤] و SCHEDAM SIBI PORRGENTEM CONSPEXISSET[٤٥]، وكأن الأمر لا يعدو أن يكون أمر صكّ واحد. ولكن ذلك يستبان من تتمة القصة، وكذلك من عنوان **التذكار** الملوَّن الذي تُشاهد فيه بوضوح الكتابة الحمراء على الصكّ الذي يمسك به التنين الشيطاني. وكما تقدَّم بنا القول، سارت الأمور لاحقاً على الوجه التالي: فقد رجع الرسام في أيار/ مايو ١٦٧٨ إلى ماريازل، بعد أن تعرَّض في فيينا لهجمات جديدة من قبل إبليس، وقدّم التماسه الذي طلب فيه أن تعاد إليه، بشفاعة جديدة من العذراء القديسة، الوثيقة الأولى المكتوبة بالحبر. والطريقة التي

٤٣ ـ باللاتينية في النص: SEQUENTI ANNO ١٦٦٩. «م».

٤٤ ـ «أعيد إليه الصك». «م».

٤٥ ـ «فحص بدقة الصك الذي أعيد إليه». «م».



تمّ بها ذلك لم توصف هذه المرة بالتوسع الذي وُصفت به في المرة الأولى. فقد ورد فقط القول QUA IUXTA VOTUM REDDITA(٤٦). وفي موضع آخر يروي الناسخ أن هذا العهد عينه «المدعوك والممزق إلى أربع» رمى به الشيطان إلى الرسام، في ٩ أيار/مايو١٦٧٨، في حوالي الساعة التاسعة مساء.

بيد أن العهدين يحملان كلاهما تاريخاً واحداً: سنة ١٦٦٩. فإما أن هذا الاختلاف لا يعني شيئاً على الإطلاق، وإما أن يحملنا على التفكير على النحو التالي:

إذا اعتبرنا أن بيان رئيس الدير هو الأكمل تفصيلاً، نهضت أمامنا إشكالات شتى. فحين اعترف كر. هـ... لخوري بوتنبرون بأنه فريسة لملاحقات إبليس وأن أجل الاستحقاق بات وشيكاً، ما كان من الممكن أن يذهب به الفكر (في سنة ١٦٧٧) إلا إلى العهد المعقود سنة ١٦٦٨، أي العهد الأول، المحرر بالأسود (وهو العهد الذي لا تشير رسالة التوصية إلى صكّ سواه، وإن نعتته بأنه مكتوب بالدم). والحال أنه لم يعد له من همّ بعد بضعة أيام، في ماريازل، إلا أن يحصل من جديد على الثاني، المكتوب بالدم، والذي لم يحن بعد أجل استحقاقه (١٦٦٩ ـ ١٦٧٧)، من دون أن يبالي باستحقاق أجل الأول. وهذا العهد الأول لا يعود إلى المطالبة به إلا في سنة ١٦٧٨، أي في السنة العاشرة من عقده. ثم ما علة تأريخ العهدين كليهما بسنة واحدة هي سنة ١٦٦٩، مع أن واحدهما معزوّ بعبارة صريحة إلى «السنة التالية»(٤٧)؟

يبدو أن الناسخ شعر بهذه الإشكالات، فحاول تذليلها. ففي مدخله يتقيَّد ببيان رئيس الدير؛ لكنه يعدِّله في نقطة واحدة. فهو يقول إن الرسام عقد في سنة ١٦٦٩ مع الشيطان عهداً كتب بالحبر، وبعد ذلك، DEINDE VERO، بالدم. ويضرب صفحاً عن المعطيات الشكلية للروايتين ـ بموجب هذه المعطيات يستحقّ أجلُ أحد العهدين في سنة ١٦٧٨ ـ كما يغضّ النظر عن الملاحظة التي

---

٤٦ ـ «فأعيد إليه حسب طلبه». «م».

٤٧ ـ باللاتينية في النص: ANNO SUBSEQUENTI. «م».



وردت في شهادة رئيس الدير من أن تاريخ السنة قد تبدل بين توقيع كلا العهدين، كيلا يخالف التاريخ الذي يحمله الصكان اللذان أعادهما إبليس.

في شهادة رئيس الدير، وبعد عبارة: في السنة التالية ١٦٦٩، وردت بين قوسين هذه الفقرة: SUMITUR HIC ALTER ANNUS PRO NONDUM COMPLETO UTI SAEPE IN LOQUENDO FIERI SOLET, NAM EUNDUM ANNUM INDICANT SYNGRAPHAE QUARUM ATRAMENTO SCRIPTA ANTE PRAESENTEM ATTESTATIONEM NONDUM HABITA FUIT[٤٨].

وهذه الفقرة تدليس لا مرية فيه من جانب الناسخ، لأن رئيس الدير، الذي لم يقع بصره إلا على صكّ واحد، لا يستطيع أن يشهد على أنهما يحملان كلاهما تاريخاً واحداً. ويبدو على كل حال أن الغرض من استعمال القوسين هو الإشارة إلى أن ما بينهما إضافة من خارج الشهادة. وهذه الإضافة المتضمنة بين قوسين هي بمثابة محاولة أخرى من جانب الناسخ لتذليل التناقضات المشار إليها. فلا شك في أن هذا الأخير كان يعتقد بأن العهد الأول قد عقد فعلاً في سنة ١٦٦٨، ولكن بما أن السنة كانت قد تقدمت كثيراً (شهر أيلول/ سبتمبر) فلا بدّ أن الرسام قد سبَّق تاريخه بسنة واحدة؛ وهكذا بات للعقدين كليهما تاريخ واحد. وكونه قد أباح لنفسه اللجوء إلى ما درجت العادة على اللجوء إليه في كثير من الأحيان في التقارير الشفهية يجعل كل هذه المحاولة التفسيرية باطلة من الأساس، وهي لا تعدو بالأصل أن تكون ضرباً من التملص السريع.

لست أدري إن كان عرضي هذا قد ترك أثراً في القارئ وحمله على الاهتمام بهذه التفاصيل. ولقد كان يُخيَّل إليَّ أنه من المستحيل إعادة وضع الأمور في نصابها على نحو لا ريب فيه؛ لكنني توصلت، وأنا أدرس هذه القضية الملتبسة، إلى افتراض من شأنه أن يهدينا بصورة طبيعية تماماً إلى الكيفية التي حدثت بها الأمور، حتى وإن تكن الشهادات المكتوبة لا تتفق البتة وإياها.

---

٤٨ ـ باللاتينية في النص: «هذه السنة الأخرى تعتبر غير مكتملة بعد كما درجت العادة على القول، لأن العهدين يشيران إلى سنة واحدة، وإن يكن العهد الذي حُرِّر بالحبر لم يُستردّ قبل هذه الشهادة».



فأنا أعتقد أنه حين قدم الرسام إلى ماريازل للمرة الأولى لم يتكلم إلا عن عهد واحد، حرِّر بالدم بحسب ما كان متبعاً، وكان مفروضاً به أن يستحقّ أجله قريباً، فهو بالتالي قد عُقد في أيلول/ سبتمبر ١٦٦٨، تماماً كما جاء القول في رسالة التوصية الصادرة عن الخوري. وفي ماريازل أبرز أيضاً عهد الدم هذا بوصفه العهد الذي أعاده إليه إبليس بإرغام من الأم القديسة[٤٩]. ونحن نعلم ما حدث بعد ذلك. فسرعان ما غادر الرسام المحجّ وقصد فيينا حيث شعر بالفعل أنه قد فرِّج عنه إلى منتصف تشرين الأول/ أوكتوبر. لكن عندئذ عادوته الآلام والرؤى التي عزاها إلى مساعي الشيطان. وساورته من جديد الحاجة إلى التفريج عن نفسه، ولكنه اصطدم بصعوبة تقديم سبب يعلِّل به عدم فوزه بالخلاص الدائم بعد التعزيم[٥٠] في المزار المقدس. ولعله خشي، وقد انتكس من جديد ولم يشفَ، ألا يلقى استقبالاً حسناً في ماريازل. وتخلصاً من هذه الورطة تخيَّل عهداً ابتدائياً، سابقاً، كتب بالحبر، وذلك كيما يبدو معقولاً أن هذا العهد قد طغى عليه في الأهمية عهد آخر، لاحق، حُرِّر بالدم. ولدى عودته إلى ماريازل استردّ هذا العهد الأول المزعوم. وعندئذ تحرر حقاً من الشيطان، لكنه فعل في الوقت نفسه شيئاً آخر من شأنه أن يلفت انتباهنا إلى خلفية ذلك العصاب.

فالشيء المؤكد أنه كان، قبل هذه الإقامة الثانية في ماريازل، قد أنجز الرسوم؛ فصفحة العنوان، المرسومة على نحو متجانس، تشتمل على تمثيل مشهدي العهد كليهما. ومن الممكن أن يكون الرسام قد عانى حرجاً شديداً في محاولته التوفيق بين تصريحاته الجديدة والسابقة. ولقد كان من سوء حظه أنه ما وسعه أن يتخيَّل إلا عهداً سابقاً لا عهداً لاحقاً. فبذلك ما عاد يملك وسعاً أن يحول دون حصول الإشكال المحرج: استرداده في وقت مبكر أكثر مما ينبغي لأحد العهدين، العهد المكتوب بحروف من دم (في السنة الثامنة)، واسترداده للثاني، المحرر بحروف سود، في وقت متأخر أكثر مما ينبغي (في السنة العاشرة). وثمة قرينة تنمّ عن تحريره على دفعتين؛ فقد أخطأ في تاريخ العهدين وجعل تاريخ العهد الأول في

٤٩ ـ أي مريم العذراء. «م».

٥٠ ـ التعزيم أو الرقية: طرد الروح الشرير. «م».



سنة ١٦٦٩ أيضاً. وهذا الخطأ ينمّ عن صراحة غير مقصودة؛ وهو يتيح لنا أن نحزر أن العهد السابق المزعوم قد جرى تحريره في وقت لاحق. ولم يكن أمام الناسخ مناص، وهو الذي لم يطّلع على الموضوع إلا في سنة ١٧١٤، بل ربما في سنة ١٧٢٩، من أن يبذل قصاراه لمواراة هذه التناقضات بقدر الإمكان، على ما لها من أهمية. وبما أن العهدين اللذين كانا أمامه كانا يحملان كلاهما تاريخ ١٦٦٩، فقد حاول التملص من الورطة عن طريق محاولة التفسير المتهافتة التي أدرجها في شهادة رئيس الدير.

ويسير على القارئ أن يدرك أين وجه الضعف في إعادتنا، المغرية هذه، لبناء مجريات القصة. فذكر العهدين، اللذين واحدهما بالأسود وثانيهما بالدم الأحمر، قد ورد في شهادة رئيس الدير فرانسيسكوس. ومن ثم كان لي أن أختار بين واحد من اثنين: إما الافتراض بأن الناسخ قد أجرى تعديلاً ما في هذه الشهادة، وهذا بالارتباط الوثيق مع مسعاه التدليسي، وإما الاعتراف بأنني لست أهلاً للاهتداء إلى خيط الحقيقة في كل هذه البلبلة[٥١].

٥١ ـ يخيّل إليّ أن الناسخ وجد نفسه محصوراً بين نقطتين ثابتتين. فمن جهة أولى وجد أن رسالة التوصية الصادرة عن الخوري وشهادة رئيس الدير تنصان كلتاهما على أن العهد (على كل حال الأول) قد كتب في سنة ١٦٦٨، ومن الجهة الثانية كان العهدان، المحفوظان في محفوظات الدير، يحملان كلاهما تاريخ ١٦٦٩. وبما أنه كان أمام عينيه عهدان، فقد داخله اعتقاد راسخ بأن ثمة عهدين قد جرى تحريرهما. ولئن لم يرد ذكر في شهادة رئيس الدير، كما أفترض أنا، إلا لعهد واحد، فقد وجد الناسخ نفسه مرغماً على أن يقحم على هذه الشهادة ذكر العهد الثاني، وتملصاً من التناقض افترض أن هذا الأخير قد سُبِّق تاريخه. والتغيير الذي أحدثه في النص يأتي مباشرة بعد الإضافة التي ما كان لأحد سواه أن يدسّها على النص. وهكذا وجد نفسه مكرهاً على أن يجمع، بعبارة SEQUENTI VERO ANNO ١٦٦٩، بين الإضافة التي أضافها على النص وبين التعديل الذي أجراه فيه، لأن الرسام كان قد كتب بصريح العبارة في الشرح المرافق للصورة (والذي لحق به تلف شديد):

بعد سنة واحدة...

تعرض لتهديد شديد...

[الصورة رقم ٢] واضطر...

إلى التوقيع بالدم...

والخطأ الذي ارتكبه الرسام حين أعدَّ العهدين، والذي أرغمني على القيام بهذه المحاولات التفسيرية، لا يبدو لي أقل إثارة للاهتمام من عقديه المكتوبين نفسيهما.



ولا ريب في أن كل هذه المناقشة قد بدت للقارئ منذ وقت غير يسير فائضة عن الحاجة، مثلما بدت له التفاصيل المدروسة واهنة الفائدة. لكن الأمر يتلبَّس أهمية جديدة عندما نتابعه في اتجاه معيَّن.

قلت تواً، بصدد الرسام، إنه تخيَّل، وقد باغته مسار مرضه بما يكره، عهداً سابقاً (العهد المكتوب بالحبر) ليتمكن من تبرير موقفه لدى رهبان ماريازل. والحال أني أكتب برسم قراء لا يؤمنون بإبليس، وإن كانوا يؤمنون بالتحليل النفسي؛ ومن ثم قد ينكرون عليَّ سخافة توجيه مثل هذا اللوم إلى ذلك الرسام المسكين الذي تنعته رسالة التوصية أصلاً بـ «الرجل البائس». فالعهد المكتوب بالدم كان ولا بدّ خيالياً، مثله مثل العهد السابق المزعوم المكتوب بالحبر. وواقع الحال أنه لم يظهر له أي شيطان، وكل العهد مع إبليس لم يكن له من وجود إلا في مخيِّلته. وأنا أوافق على ذلك، وليس لأحد أن ينكر على ذلك المسكين الحق في تكملة استيهامه الأولي بآخر لاحق، متى ما بدا أن الظروف المستجدة تستوجب ذلك.

لكن هنا أيضاً لا بدّ لنا أن نرى إلى أبعد. فالعهدان ليسا بالفعل من استيهامه نظير رؤى الشيطان؛ بل كانا وثيقتين محفوظتين، بحسب توكيد الناسخ، وبحسب شهادة كيليان رئيس الدير لاحقاً، في محفوظات ماريازل، وكان بوسع جميع الناس رؤيتهما ولمسهما. يواجهنا إذاً هنا إحراج. فإما أن نسلّم بأن الرسام اختلق بنفسه في الوقت المرام، وعند احتياجه إليهما، الصكين اللذين أعيدا إليه على ما قيل لنا بشفاعة ربانية، وإما أن نعتبر السادة رهبان ماريازل وسان لامبير غير أهل للتصديق رغم كل التوكيدات الرسمية وشهادات الشهود المختومة بالأختام، إلخ. وإني لأقرّ بأنه ما كان سهلاً عليّ أن أشتبه في الرهبان. صحيح أنني أميل إلى التسليم بأن الناسخ أجرى بعض التزوير في شهادة رئيس الدير الأول حرصاً منه على توافق النصوص، لكن هذه «الصياغة الثانوية» لا تتعدى حدود الفِعال المشابهة للمؤرخين المحدثين والعلمانيين، وقد فُعل على كل حال عن خلوص نية. ولقد استأهل الرهبان في ظروف أخرى حقاً مبرراً في أن نمحضهم ثقتنا. وقد أسلفت القول إنه ما كان ثمة ما يمنعهم من حذف الروايات



المتعلقة بالشفاء غير الكامل وبمواصلة الشيطان تجاربه. كذلك، إن وصف مشهد التعزيم في المزار، الذي كان من الممكن أن نتخوف من الشطط فيه، مرويّ ببساطة واعتدال وبظاهر من الحق. لذا لا يبقى أمامنا إلا أن نوجّه إصبع الاتهام إلى الرسام. فقد كان هذا الأخير يحمل معه ولا بدّ العهد المكتوب بحروف حمراء حين قصد المزار لأداء صلاة التوبة، وقد أبرزه حين قدم للقاء مؤازريه الرهبان عقب اجتماعه بإبليس. وما من ضرورة أصلاً لأن يكون هذا الصكّ هو عينه الذي جرى الاحتفاظ به لاحقاً في المحفوظات؛ وبحسب إعادة بنائنا للقصة فإن هذا الصكّ الأول كان يمكن على العكس أن يكون حاملاً لتاريخ ١٦٦٨ (قبل تسع سنوات من مشهد التعزيم).



- ٥ -

العصاب اللاحق

لكن لقائل أن يقول هنا إن كل ما تقدم لا يعدو في هذه الحال أن يكون ضرباً من الغشّ، لا من العصاب، كما لا يعدو الرسام أن يكون مزوِّراً ومتظاهراً، لا ممسوساً! بيد أن الحدود بين العصاب والتظاهر، كما هو معلوم، عائمة. وأنا لا أجد أي صعوبة أيضاً في التسليم بأن الرسام كتب وحمل ذلك الصكّ، والوثائق التي تلته، وهو في حالة خاصة ينبغي أن نماثل بينها وبين الحالة التي يكون فيها أثناء رؤاه. وبالفعل، ما كان له أن يسلك غير هذا المسلك إذا شاء أن يجعل لتخيُّله العهد مع الشيطان ثم الخلاص منه أساساً من الواقع.

بالمقابل، إن اليوميات التي حرَّرها في فيينا، والتي سلَّمها للرهبان عند نزوله للمرة الثانية في ماريازل، تحمل طابع الصدق والحقيقة. وتتيح لنا هذه الوثيقة أن نلقي نظرة عميقة ونافذة على حافز العصاب، أو بتعبير أدقّ على تثميره واستغلاله.

تمتدّ التعليقات من زمن التعزيم الذي توِّج بالنجاح إلى يوم ١٥ كانون الثاني/ يناير من السنة التالية ١٦٧٨[٥٢]. وحتى الحادي عشر من تشرين الأول/ أكتوبر عاش الرسام بأحسن حال في فيينا، حيث أقام لدى أخت متزوجة، ولكن منذئذ عاودته ثانية حالات مرَضية جديدة، واكبتها رؤى وتشنجات وإغماءات وإحساسات مؤلمة، مما أوجب عودته إلى ماريازل في أيار/ مايو ١٦٧٨.

ينقسم هذا السرد الجديد لتاريخ عذاباته إلى ثلاث مراحل. فقد تجلت له

٥٢ ـ إن جميع الطبعات الألمانية، باستثناء الطبعة الأولى، تحدد خطأ هذا التاريخ بأنه يوم ١٥ بدلاً من يوم ١٣. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



التجربة أولاً في شكل فارس حسن الملبس حاول إقناعه بأن يرمي الصكّ الذي يشهد على قبوله في رهبانية **إخوة الوردية المقدسة**[٥٣]. وإزاء المقاومة التي أبداها عاود الشبح نفسه ظهوره في اليوم التالي، لكن هذه المرة في قاعة رائعة الزخرفة تغصّ بالراقصين من النبلاء وجميلات النساء. وعرض عليه نفس الفارس الذي كان قد حاول تجربته مقترحات ذات صلة بالرسم[٥٤] ووعده بمبلغ كبير من المال. وبعد أن أفلح، بتلاوته الصلوات، في تبديد هذه الرؤيا، تجددت بعد بضعة أيام في شكل أشدّ تأثيراً أيضاً. فقد بعث إليه الفارس هذه المرة بواحدة من أجمل النساء ممن كنّ جالسات إلى مائدة الوليمة، لكي تصطحبه معها إلى معشر الطبقة الراقية، وكان عليه أن يجاهد نفسه حتى يتقي شرَّ إغرائها. لكن الرؤيا التالية كانت أشدَّ وقعاً في النفس أيضاً، وكان المشهد في قاعة أعظم فخامة «ينتصب فيها عرش من الذهب». وكان يصطفّ حول العرش فرسان ينتظرون قدوم ملكهم. واقترب الشخص عينه الذي كان أولاه عنايته في مرات سابقة عديدة ودعاه إلى ارتقاء العرش لأنهم «يريدون أن يتخذوه ملكاً عليهم وأن يجلُّوا قَدْره إلى أبد الآبدين». وبهذا التوسيع لأخيولته ينتهي هذا الطور الأول والعظيم الشفافية من قصة التجربة.

وكان لا بدّ أن يعقب ذلك ردُّ فعل. فإذا بكفة الزهد والورع ترجح. ففي العشرين من تشرين الأول/ أكتوبر ظهرت للرسام هالة عظيمة من النور، وخرج منها صوت زعم أنه صوت المسيح، وحثّه على العزوف عن العالم ونذر نفسه لخدمة الرب في الصحراء لستّ سنوات. وقد عانى على ما هو بادٍ للعيان من هذه الرؤى القدسية أكثر بكثير مما عانى من الرؤى الشيطانية التي سبقتها. ولم يفق من هذه النوبة إلا بعد مرور ساعتين ونصف ساعة. وفي الرؤيا التالية أبدى الشخص القديس، المحاط بهالة النور، قدراً أقلّ من الرفق والحسنى، وتوعد الرسام وهدده لأنه لم يقبل العرض الإلهي، واقتاده إلى الجحيم ليبثّ الخوف في قلبه

٥٣ ـ الوردية المقدسة: في المسيحية صلاة تؤدى لمريم العذراء، وتكرر فيها مئة وخمسين مرة عبارة: السلام عليك يا مريم. «م».

٥٤ ـ لم أتمكن من فهم هذا المقطع.



بمرأى مآل الملعونين. والظاهر أن التهديد لم يجدِ فتيلاً، لأن ظهورات الشخص المتَّشح بالنور، والمفروض فيه أنه هو المسيح، تكررت وتسببت له في غيبوبات وانخطافات تدوم واحدتها عدة ساعات. وفي واحد من أعظم هذه الانخطافات اقتاد الشخص البهي الطلعة الرسام في بادئ الأمر إلى مدينة يتعاطى الناس في شوارعها جميع أفعال الجهالة والضلالة، ثم اقتاده بعد ذلك، وعلى سبيل التضادّ، إلى مرج جميل يحيا فيه النساك حياة ورعة ويتلقون شهادات ملموسة على نعمة الله وعنايته الربانية. وتظهر بعد ذلك، وبدلاً من المسيح، الأم القديسة بنفسها لتحثّ المريض، باسم العون الذي بذلته له آنفاً، على الانصياع لطلب ابنها الحبيب. «ولما لم يبرم أمره كما ينبغي» عاود المسيح ظهوره في اليوم التالي وألحف عليه إلحافاً شديداً، قارناً الوعد بالوعيد. وفي النهاية رضخ، وعزم على هجران العالم، وعلى فعل ما هو منتظر منه. وهذا القرار هو الذي وضع حداً للطور الثاني. ولاحظ الرسام ابتداء من تلك اللحظة أنه لم يعد عرضة للنوبات ولا للرؤى والإغراءات والتجارب.

غير أن هذا القرار لم يكن حازماً جداً على ما يظهر، أو أنه أرجأ تنفيذه أكثر مما ينبغي، إذ فيما كان الرسام يصلي ويتهجّد في كنيسة سان إتيين[٥٥]، في السادس والعشرين من كانون الأول/ديسمبر، وقع نظره على امرأة صبية مشيقة القدّ تسير برفقة نبيل جميل الملبس، فما استطاع أن يردّ عنه فكرة أنه كان بوسعه أن يكون محلَّ هذا النبيل. وكان هذا الخاطر يستوجب العقاب، فإذا به، في مساء اليوم نفسه، وكأن صاعقة قد صعقته: فرأى نفسه محاصراً بألسنة النار وغاب عن الوجود. وبذلت جهود مضنية لإرجاعه إلى الوعي، لكنه ظل يتدحرج فوق أرض الغرفة إلى أن تدفق الدم من أنفه وفمه، وأحسّ بأنه يسبح في العرق والأقذار، وسمع صوتاً ينبئه بأن هذه الحالة قد حلَّت به عقاباً له على أفكاره الباطلة العابثة. وفي وقت لاحق ساطته الأرواح الشريرة بالحبال، وأنذرته بأنه سيلقى يومياً نظير هذا العذاب، إلى أن يقرّ قراره على الانتساب إلى رهبانية نسكية. وقد دامت هذه الأحداث إلى يوم ١٣ كانون الثاني/ يناير، وهو التاريخ

٥٥ ـ أي القديس إصطفانوس. «م».



الذي تقف عنده اليوميات.

واضح للعيان إذاً كيف أن التخييلات الإغرائية لدى رسامنا البائس تتحول أولاً إلى تخييلات زهدية، ثم إلى استيهامات عقابية. ونحن نعرف مقدماً نهاية قصة عذاباته. فقد قصد في شهر أيار/مايو ماريازل حيث اعترف بأنه عقد عهداً سابقاً، محرراً بالحبر الأسود، وأعرب عن اعتقاده بأن هذا العهد هو مصدر العذابات الجديدة التي ينزلها به إبليس. وكان له ما أراد: فقد أعيد إليه العهد وكتب له الشفاء.

وفي أثناء إقامته الثانية هذه في ماريازل رسم الصور التي توجد نسخة منها في **التذكار**، وفعل في الوقت نفسه شيئاً يتمشى ومتطلبات الطور الزهدي من يومياته. فبدلاً من أن يقصد الصحراء ليتنسك، انتسب إلى رهبانية إخوة الرأفة: RELIGIOSUS FACTUS EST[٥٦].

تتيح لنا مطالعة اليوميات أن نفهم جانباً جديداً في كل هذه القصة. فنحن نذكر ولا ريب أن الرسام نذر نفسه خطِّياً للشيطان لأنه شقَّ عليه غداة وفاة والده ـ وقد أخذ منه التبرم كل مأخذ وبات عاجزاً عن العمل ـ أن يتدبر أمر معاشه. والحال أن هذه العوامل، من هبوط واكتئاب وكفّ عن العمل وحداد على الأب، مترابطة بعضها ببعض بكيفية ما، بسيطة أو معقَّدة. ولعل الشيطان ما ظهر له تكراراً وهو محبوّ بالثديين الكبيرين إلا لأنه كان يفترض بإبليس أن يغدو أباه المرضع. بيد أن هذا الأمل لم يتحقق، وظلَّ الفشل في كل شيء حليفه، وما أمكنه أن يعمل كما ينبغي، أو لعل الحظ لم يحالفه ولم يلقَ عملاً يكفيه أوده. ورسالة التوصية الصادرة عن الخوري تقول عنه: «رجل بائس ليس له من معين». وعليه، لم يكن الرسام في حال من العوز المعنوي فحسب، بل كان يعاني أيضاً من العوز المادي. ونلفى في ثنايا سرده لفحوى رؤاه اللاحقة ملاحظات متفرقة تدلّ، مثلها مثل مضمون المشاهد التي يشاهدها، على أنه لم يتغير شيء رغم نجاح التعزيم الأول. نحن إذاً أمام رجل لا يفلح في شيء، ولهذا السبب لا يمحضه أحد ثقته. ففي الرؤية الأولى يسأله الفارس عما سيفعله ما دام أحد لا

٥٦ ـ باللاتينية في النص: «صار راهباً». «م».



يهتم به: «ما دام الجميع قد تخلوا عني، فما بوسعي أن أفعله؟». والمجموعة الأولى من الرؤى في فيينا تتفق تماماً مع التخييلات الرَغَبية لإنسان فقير، جائع إلى الملذات والمباهج، بائس: قاعات عظيمة، أطايب من الطعام، آنية من فضة، نساء جميلات؛ وهنا تحديداً نلتقي ما كنا افتقدناه حتى الآن في العلاقات مع الشيطان. فقبلئذ كانت تسيطر على المريض سويداء تحول بينه وبين أية متعة وتقسره على رفض أشد العروض إغراء. ويبدو أن هذه السويداء قد أمكن التغلب عليها بعد التعزيم، فدّبت الحياة من جديد في جميع المطامع والشهوات الدنيوية.

في واحدة من الرؤى الزهدية يتشكى للشخص الذي يأخذ بيده (المسيح) من أن أحداً لا يريد أن يصدِّقه، مما يمنعه من تنفيذ ما يؤمر به. ولسوء الحظ أن الجواب الذي يتلقاه يبقى مستغلقاً فهمه علينا: «مع أنه لا أحد يريد تصديقي، فإن ما حدث أعلمه مع ذلك حقَّ العلم، غير أنه يتعذر عليّ الإفصاح عنه». وتضيء القصة بعد ذلك بضوء باهر حينما يقتاده دليله الإلهي إلى مقام النساك: إذ يصل إلى مغارة يقيم فيها شيخ طاعن في السن منذ ستين سنة، ويعلم من الأجوبة التي يتلقاها عن أسئلته أن هذا الشيخ تطعمه يومياً ملائكة الرب. ثم يرى بأمِّ عينه ملاكاً يحمل القوت للشيخ: «ثلاث قصعات من الطعام وخبز وقطعة لحم وشراب». وبعد أن يأكل الناسك حتى الشبع، يجمع الملاك بقايا الطعام ويذهب بها. وسهل علينا أن ندرك ما الإغراءات التي يمكن أن تقدِّمها هذه الرؤية التقوية: فعاقبتها المحتَّمة أن تحمل المريض على اختيار طراز في العيش لا يعاني فيه من هموم المأكل. وجديرة بالملاحظة أيضاً كلمات المسيح في الرؤيا الأخيرة. فبعد تهديده إياه بأنه إذا لم يمتثل فسيقع شيء يرغمه، هو وسائر الناس، على الإيمان، يطلق هذا التحذير المباشر: «**ليس لي أن أهتم للناس؛ فحتى لو اضطهدوني أو لم أتلقَّ منهم أي عون، فلن يتخلى الله عني**».

لقد كان كر. هايتزمن فناناً ومحباً للدنيا بما يكفي كيلا يبدو له سهلاً العزوف عن عالم الجهالة هذا. غير أنه فعل ذلك في خاتمة المطاف بسبب ما كان فيه من إملاق. انتسب إلى رهبانية، فانتهى بذلك صراعه الداخلي وبؤسه المادي على حدٍّ سواء. وتنعكس هذه النهاية في عصابه من حيث أن استعادته الصكّ الأول



المزعوم قد حررته من نوباته ورؤاه. وفي الواقع، كان لكلا طوري مرضه الإبليسي معنى واحد. إذ لم يكن له من طلب إلا تأمين معاشه، المرة الأولى بمساعدة إبليس، وعلى حساب خلاص نفسه، وفي المرة الثانية، لما تخلى عنه إبليس ولم يعد أمامه مناص من العزوف عنه، بمساعدة الكنيسة وبتضحيته بحريته وبمعظم إمكانيات المتعة التي تقدِّمها الحياة. ولعل كر. هايتزمن كان ببساطة رجلاً مسكيناً سيئ الطالع، ولعله كان أخرق أو غير كفؤ لتدبُّر أمر نفسه، وينتمي إلى ذلك النمط من الناس المعروفين باسم «الرضعاء الدائمين» الذين لا يسعهم أن يخرجوا بأنفسهم من الوضع السعيد الذي كانوا يرتعون به في حضن الأم، والذين يقضون حياتهم بكاملها وهم يبحثون عمن يطعمهم ويقيتهم. وهكذا نلفاه في قصة مرضه هذه ينطلق من الأب ليعود أدراجه، مروراً بالشيطان، بديل الأب، إلى الآباء المقدسين.

قد يبدو هذا العصاب، عند الملاحظة السطحية، وكأنه أحبولة من أحابيل الشعبذة التي يحفل بها جانب بكامله من الصراع الخطير، لكن العادي والشائع، في سبيل الحياة. وقد لا يكون كذلك هو واقع الحال على الدوام، ولكنه كثير التواتر على كل حال. وكثيراً ما يختبر المحللون بالتجربة كم يشقّ عليهم أن يعالجوا تاجراً «بدأت تظهر عليه منذ بعض الوقت، بالرغم مما هو عليه من صحة جيدة، أعراض عصاب ما». فالكارثة التي يرهص التاجر بأنها تتهدده في تجارته يكون من نتائجها الثانوية بناء ذلك العصاب، مما يتيح للمريض الإمكانية لإخفاء همومه المعاشية الفعلية خلف ستار أعراضه المَرَضية. وهذا على كل حال حلٌّ غير مناسب بالمرة، لأن العصاب يمتصّ قوى كان يمكن استخدامها على نحو أنفع وأجدى في مواجهة الوضع المحفوف بالمخاطر مواجهة متبصرة.

وفي حالات أخرى أكثر تواتراً بما لا يقاس يكون العصاب أكثر انعزالاً واستقلالاً عن هموم الحياة والبقاء. فالنزاع، الذي عنه ينشأ العصاب، يكون موضوعه إما اهتمامات ليبيدوية خالصة، وإما اهتمامات ليبيدوية مقرونة على نحو وثيق للغاية بهموم الحياة والبقاء. لكن دينامية العصاب في الحالات الثلاث واحدة. فالليبيدو المتراكم، الذي لا يسعه أن يجد سبيله إلى الإشباع في الواقع،

يشقّ لنفسه، بواسطة النكوص، طريقاً نحو تثبيتات قديمة عبر اللاشعور المكبوت. وما دام الأنا يجني فائدة ما من المرض، فإنه يسمح للعصاب بالوجود، وإن يكن الضرر الاقتصادي الذي يلحق بهذا الأنا أكيداً لا ريب فيه.

كذلك، ما كان للوضع المادي المحزن لرسامنا أن يستثير لديه عصاباً شيطانياً لو لم يولّد لديه بؤسُه حنيناً معزَّزاً إلى أبيه. ولما قيِّض له أن يتحرر من سويدائه ومن إبليس، نشب فيه صراع جديد بين الرغبة الليبيدوية في التمتع بالحياة وبين شعوره بأن تدبر أمر معاشه يقتضي منه بأشدّ الإلحاح العزوف والزهد. وقد شعر الرسام ـ ومن المفيد أن نلاحظ ذلك ـ شعوراً عميقاً بالروابط التي تربط بين كلا طوري تاريخ آلامه، لأنه يعزو كلاً منهما إلى حلف عقده مع الشيطان. وهو لا يميّز على كل حال تمييزاً فاصلاً بين تأثير الروح الشرير وتأثير القوى الإلهية؛ وليس لديه لكليهما سوى اسم واحد: ظهورات شيطانية.



التحليل النفسي

للهستيريا ورهاب الأطفال والعصاب الوسواسي والشيطاني

كما اشتهر بعض أبطال بعض الروايات العالمية من أمثال سندباد ودون كيشوت وروبنسون كروزو وآنا كارينينا فصاروا يحتلون مواقع لهم في قواميس الأعلام كما لو أنهم أشخاص تاريخيون وُجدوا حقاً، كذلك إن هانز الصغير ورجل الجرذان وكرستوف هايتزمن ودورا ذاعت شهرتهم كأبطال لتلك الرواية الفرويدية المتعددة الحلقات التي اشتهرت باسم التحليل النفسي.

وبالفعل، إن من سيقرأ هذه النصوص الأربعة في تحليل رهاب الأطفال والعصاب الوسواسي والمسّ الشيطاني والهستيريا لن يبتعد كثيراً عن الحقيقة إذا ما اعتبرها رواية استكشافية، واقعية ومتخيَّلة في آن معاً، لقارة اللاشعور.



9 786144 299883



Madarek
Madarek Publishing House
مدارك
دار مدارك للنشر